

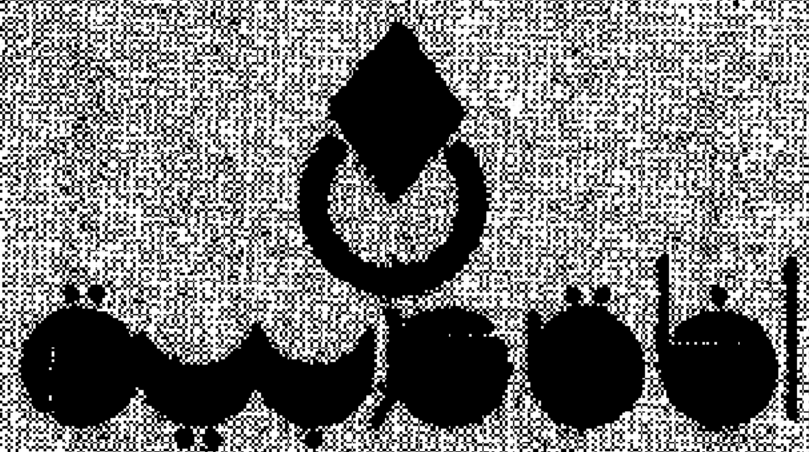


علم اللغة والكلام

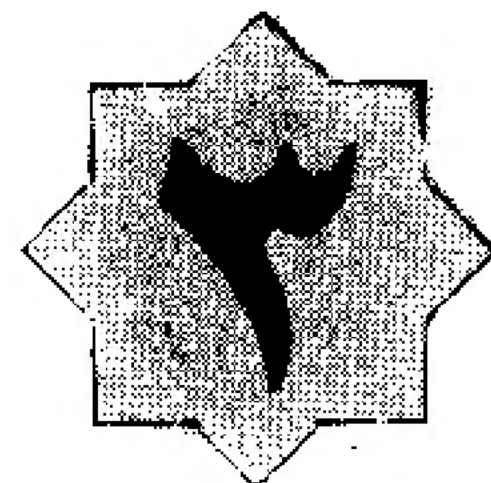
تأليف فردينان دي سوسور

ترجمة: الدكتور يونيل يوسف عزيز

مراجعة النص العربي: د. مالك يوسف المطلبي



سلسلة كتب شهرية تصدر عن دار افاق عربية



علم اللغة والكلام

تأليف فردينان دي سوسور

ترجمة: الدكتور يوئيل يوسف عزيز

مراجعة النص العربي: د. مالك يوسف المطلبي



سلسلة كتب شهرية تصدر عن
دار افاف عربية

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
الدكتور محسن جاسم الموسوي

● العنوان: آفاق عربية - الأعظمية - بغداد - ص. ب (٤٠٣٢)
هاتف (٤٤٣٦٠٤٤) فاكس (٢١٤١٣٥)

مقدمة المترجم

فردنان دي سوسور (١٨٥٧ - ١٩١٣) - أشهر لغوي في العصر الحديث، ولد في جنيف عام ١٨٥٧ من أسرة مشهورة بالعلم والادب. درس في جامعات جنيف ولايبزك وبرلين، وحصل على درجة الدكتوراه من لايبزك عام ١٨٨٠. عمل مدرسا في مدرسة الدراسات العليا في باريس من ١٨٨١ - ١٨٩١. ثم استأذا للغات الهندية الاوربية والسنسكريتية من ١٠٩١ - ١٩١٣، وأصبح استأذا لعلم اللغة العام في عام ١٩٠٧؛ في جامعة جنيف وبقي في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩١٣.

لا تعتمد منزلته العالية على النشر بل على المدرسة اللغوية التي أسسها ولم يكتب بنفسه إلا كتابا واحدا حين كان في الحادية والعشرين من عمره، سمّاه . .

Memoire Sur le system primitif de voyelles dans les Langues indo — europeennes

نشر في باريس ١٨٧٨. ولكن أشهر وأهم كتاب يحمل اسمه هو Cours de Linguistic generale: كتاب «علم اللغة العام» وهو مجموعة من المحاضرات؛ جمعها اثنان من طلابه هما شارل بالي والبرت سيكاوي، ظهرت الطبعة الاولى منه عام ١٩١٦ والطبعة الثانية عام ١٩٢٢. يقول الاستاذ مارتن جوس عن دي سوسور: ان منزلة دي سوسور في علم اللغة اليوم هي كمنزلة ابسن في المسرحية، لا نسمع عنه الا بين الحين والآخر، وباسلوب الطقوس يحصل القارئ على هذا الانطباع او ذاك عبر سوسور.

ان مساهمة سوسور تشمل اسلوبا فكريا بأكمله، واطارا كاملا من الاهتمامات والقيم .. تدور ضمنه اليوم جميع المناقشات الاساسية. ولا يشذ عن ذلك الا بعض الموضوعات اللغوية الثانوية.

لقد شيد دي سوسور علم اللغة الحديث، وان كان اكثر ما يرد ذكره هو في تأكيد دراسة علم اللغة دراسة سنكرونية (تزامنية) وفي تميزه بين اللغة (Langue) والكلام (parole)

وقد أصبحت مدرسة دي سوسور تعرف فيما بعد بالمدرسة التركيبية (اوالبنيوية).
ان صعوبة في ترجمة دي سوسور تكمن المصطلحات اللغوية الكثيرة. فما زال علم اللغة حديث العهد في العربية؛ لم يتبلور كثير من مصطلحاته التي دخلت العربية. لذا رأيتُ ان اثبت المصطلح بالانكليزية جنبا الى جنب مع الكلمة العربية. وقد فضلت المصطلح الانكليزي على الفرنسي الاصلي، لان هذا العلم قد تطور كثيرا في البلدان الناطقة بالانكليزية وأصبحت مصطلحاته الانكليزية هي الشائعة بين المثقفين - لا سيما في الوطن العربي.

وقد استخدمت خمسة انواع من الحواشي تظهر كالاتي: (سوسور) وهي التي وردت في مذكراته و (بالي) وهي التي ذكرها طالباً، و (باسكن) وهي الملاحظات التي ابداهها مترجم هذا الكتاب الى الانكليزية، وملاحظات التي وردت تحت لفظة (المترجم). وملاحظات المراجع د. مالك المطلبي التي وردت تحت لفظة «المراجع».

لا يخلو اي عمل من عيوب، ويصح هذا بنحو خاص في اعمال. الترجمة فهذه الترجمة جهد متواضع، عسى ان يستفيد منه المختص في علم اللغة - وهي ولا شك تشكو من بعض العيوب التي لا يمكن ان تخفى على القارئ اللبيب - ويستطيع تجاوزها بقراءته كتباً اخرى في الموضوع نفسه.

الدكتور يوثيل يوسف عزيز

جامعة الموصل

١٩٨٤/٢/١٨

مقدمة الطبعة الاولى

كثيراً ما سمعنا فردنان دي سوسور يشكو من قلة الأسس والأساليب في علم اللغة. في اثناء تطور آرائه. فقد سعى طول حياته، وبجهد لا يعرف الكلل، الى البحث عن القوانين التي يوجه بها فكره وسط الفوضى. ولم يستطع التعبير عن آرائه، التي ظل يطورها أعواماً طويلة الا في سنة ١٩٠٦ حين عين خلفاً - جوزيف فيرنهايمر في جامعة جنيف. لقد درس علم اللغة العام ثلاثة اعوام دراسية هي: ١٩٠٦ - ١٩٠٧، ١٩٠٨ - ١٩٠٩. واضطره ميله إلى أن يكرس نصف جهده لتاريخ اللغات الهندية - الاوربية ووصفها. فلم يمنح موضوعه الاساس الا قدراً من اهتمام، هو اقل مما يستحقه.

إن جميع الذين سنحت لهم الفرصة لحضور دروسه القيمة شعروا بالأسى لان هذه الدروس لم تظهر في كتاب. وبعد وفاته سعينا للاطلاع على مخطوطاته، وقد أتاحت لنا هذه الفرصة بفضل مدام دي سوسور، فقدمت لنا الخطوط العامة الاصلية او المناسبة لمحاضراته القيمة. وفكرنا اول الامر، أن نقارن بين مذكرات دي سوسور الشخصية والملاحظات التي دونها تلاميذه. ولكن خاب ظننا. فلم نجد في مذكراته شيئاً من الملاحظات التي ذكرها تلاميذه في دفاترهم. ويبدو أن دي سوسور قد اتلف مسودات الخطوط العامة لمحاضراته، بعد ان انتهى من استخدامها. ولم نجد في مكتب سكرتيرته الا ملاحظات قديمة، هي، لا شك، مفيدة، ولكن لا يمكن ادخالها ضمن المحاضرات التي القاها في الاعوام الثلاثة.

ومما زاد في خيبة أملنا في مسعانا هذا، ان واجبات رئاسة القسم التي كلفنا بها منعتنا من حضور محاضرات دي سوسور الأخيرة. وهذه الدروس لا تقل روعة عن دروسه الاولى التي شهدت ظهور مقاله عن نظام الحركات في اللغة الهندية الاوربية الاولى.

فكان علينا ان نعتمد كلياً على الملاحظات التي دونها تلاميذه، في اثناء الاعوام الثلاثة من القاء المحاضرات. لقد قدّمت لنا دفاتر ملاحظاتٍ على درجة عالية من الجودة والكمال: حصلنا على الملاحظات للعامين الاول والثاني من السادة لوي كايل وليوبولد كوتير وبول ريكار والبرت ريدلنكر، وللعام الثالث - وهو الهم - من السيدين جورج ديكالير وفرانسيس جوزيف. كما قدم لنا السيد لوى بروتش ملاحظات تخص موضوعاً معيناً لهؤلاء جميعاً نقدم جزيل شكرنا وامتناننا. كما نود ان نشكر كثيراً السيد جول روجا، عالم اللغات الرومانسية الشهير، لتكرمه بقراءة المخطوطة قبل طبعها، وابدائه المقترحات القيمة.

ماذا كان بمقدورنا ان نفعل بالمادة التي جمعناها؟ تأتي اول الامر مهمة النقد. كان

علينا ان نقارن كل درس، وكل تفصيل من تفاصيل الدرس في جميع دفاتر الملاحظات، ثم نعيد صياغة افكار دي سوسور من اشارات غامضة، متناقضة في بعض الاحيان يلمح اليها تلميحا. وقد ساعدنا في ملاحظات العامين الاول والثاني السيد ريدلنكر وهو أحد التلاميذ، الذين واكبوا آراء الاستاذ باهتمام بالغ، وكانت مساهمته قيمة جيدا. أما دروس العام الثالث فقد قام احدها وهو أ. سيكاهي بمهمة مقارنة المادة واعادة تركيبها وصياغتها.

وبعد ذلك؟ إن الالتقاء الشفوي غالبا ما يناقض في شكله الاسلوب المكتوب، وهو امر محفوف بالصعوبات. ثم إن دي سوسور ينتمي الى هؤلاء الرجال الذين لا يقفون عند حد؛ فقد تطورت افكاره في جميع الاتجاهات من غير أن تناقض نفسها نتيجة لذلك. إن نشر جميع اجزاء المادة، كما هي عليه في أصلها، أمر يصعب تحقيقه - فالتكرار، وهو امر لا مناص منه في العرض الشفوي للدرس، وتداخل المادة، وتنوع صياغة المسألة الواحدة، كلها تؤدي الى ارباك في اسلوب الكتاب وتركيبه. هل نقصر على محاضرات عام واحد - اي عام من الاعوام الثلاثة؟ - فضلا عن ان ذلك يعني حرمان القارئ من الدروس القيمة للعامين الآخرين:

فالعام الثالث - وهو العام الحاسم- لا يمكن ان يقدم صورة كاملة لنظريات دي سوسور وأساليبه.

منهم من اقترح ان نقوم بنشر بعض الفقرات الاصلية، من دون تغيير. وقد بدا هذا الاقتراح معقولا في أول الامر، ولكن سرعان ما اتضح لنا اننا اذا قدمنا نتفا من خطة تكمن قيمتها في وحدتها الاجمالية نكون قد حورنا آراء استاذنا.

ثم انتهينا الى حل اكثر جرأة، وربما اقرب الى الحل المعقول: وهو ان نحاول اعادة الصياغة أو التركيب باستخدام دروس العام الثالث نقطة للانطلاق واستغلال جميع المادة الاخرى التي في حوزتنا بما في ذلك مذكرات دي سوسور الشخصية بكونها مصدرا مكملًا. إن مسألة اعادة خلق افكار دي سوسور مسألة صعبة، لان عملية اعادة الخلق ينبغي ان تكون موضوعية تماما. وكان علينا في كل نقطة من النقاط، ان نتوصل الى جوهر فكرة معينة عن طريق رؤية شكلها النهائي في ضوء النظام بأكمله. وكان علينا اول الامر ان نتخلص من الشوائب كالتنوع في الصيغة الواحدة والأمور غير القياسية التي يتميز بها العرض الشفوي، ثم نجعل الفكرة تلائم الاطار الطبيعي، ونقدم كل جزء من الفكرة طبقا للتسلسل الذي قصده المؤلف، وإن كان قصده في بعض الاحيان غير واضح؛ يعتمد على الحدس.

لقد ولد الكتاب نتيجة هذا العمل المؤلف من الاستيعاب واعادة البناء لذا نشعر بفخر من الهبة تجاه الجمهور المثقف وجميع اصداقاء علم اللغة.

لقد كان هدفنا جمع اجزاء وحدة عضوية، لا نحذف منها اي شيء، يمكن ان يساهم في الطابع الاجمالي لها. وربما وجه لنا، للسبب نفسه، انتقاداً، في ناحيتين: قد يقول النقاد ان هذه «الوحدة» ليست كاملة. فالاستاذ في دروسه لم يدع قط أنه يفحص جميع اجزاء علم اللغة، أو انه يكرس قدراً مساوياً من الاهتمام لكل جزء من الاجزاء التي درسها: فلم يكن باستطاعته ذلك من الناحية المادية. ثم إن اهتمامه الاساسي لم يكن ذلك. لقد اتبع دي سوسور بعض المبادئ الاساسية الخاصة به. وهي موجودة في جميع اجزاء دروسه، وتؤلف خيوط هذا النسيج المتين المتنوع، محاولاً سبغ أغوار هذه المبادئ. وهو لا يحاول الاحاطة بهذه المبادئ الا اذا وجد لها تطبيقات بارزة جداً او حين تتناقض مع نظرية من النظريات.

وهذا يفسر لماذا لم يتطرق دي سوسور الى بعض الموضوعات مثل علم الدلالة «سيمانتيكس» ولا نعتقد أن هذه الفجوات تقلل من اهمية البناء العام. ومن المؤسف ان الدروس تخلو من «علم لغة الكلام». ان هذه الدراسة التي وعد بها الاستاذ تلاميذه في العام الدراسي الثالث، كانت ستحتل منزلة الصدارة، بيد اننا نعرف جيداً لماذا لم يتحقق الوعد. ان كل ما استطعنا ان نفعله في هذا الموضوع، هو جمع الانطباعات العرضية من الملاحظات العامة للمشروع ووضعها في موضعها الطبيعي.

وقد يذهب النقاد الى عكس ما ذكرناه سابقاً، فيقولون إننا اعدنا بناء حقائق، تخص مسائل طورها العلماء الذين سبقوا دي سوسور. فليس كل شيء في هذه الدروس الشاملة جديداً. ولكن اذا كانت المبادئ المعروفة ضرورية لفهم مجمل الكتاب، فهل يؤخذ علينا أننا لم نحذفها؟ فالفصل عن التغيير الصوتي - مثلاً - يحتوي على اشياء قيلت من قبل، ربما بصيغتها النهائية، ولكن هذا الجزء يحتوي على الكثير من التفاصيل الاصلية القيمة، فضلاً عن ذلك ندرك، حتى من القراءة السطحية لهذا الفصل، ان حذفه يعيق فهمنا للمبادئ التي يشيد عليها دي سوسور نظام علم اللغة الثابت. نحن ندرك، اذن مسؤوليتنا اتجاه النقاد، كما نشعر بمسؤوليتنا نحو المؤلف، الذي ما كان يسمح بنشر هذه الصفحات.

ونحن نقبل هذه المسؤولية كاملة، ولوحدنا. فهل يستطيع النقاد ان يميزوا بين الاستاذ والتلميذين اللذين فسّرا آراءه؟ وسنكون لهم من الشاكرين اذا وجهوا نحونا انتقاداتهم، فليس من العدل ان توجه الى من نعز ونبجل ذكراه.

جنيف، تموز ١٩١٥ جارس باي، البرت سيكاهي

مقدمة الطبعة الثانية

إن الطبعة الثانية لا تختلف في جوهرها عن الطبعة الأولى. وقد أجريت نحو ثمانية تغييرات طفيفة، الغرض منها تيسير بعض النقاط وتسهيل فهمها.

ج. ب، الب. س

مقدمة الطبعة الثالثة

إن هذه الطبعة لا تختلف عن سابقتها، عدا تصحيحات طفيفة قليلة.

ج. ب، الب. س

مقدمة المراجع

يعدّ العالم اللغوي «دي سوسور» أهم اسم في البحث اللغوي المعاصر. ويرتبط هذا الاسم بـ«البنويّة» منهجاً، ارتباط الفرع بالأصل. إنّه «الأب الحقيقي للحركة البنيويّة» د. زكريا ابراهيم «مشكلة البنية». وعلى يديه صار موضوع «علم اللغة» الوحيد والصحيح هو «اللغة معتبرة بذاتها ومن أجل ذاتها» /محمود السعران / علم اللغة /.

اللغة: بوصفها «منظومة» تنطوي على سلسلة من العناصر، التي يؤثر بعضها في البعض الآخر، من خلال عملها، الذي يستند إلى «سلبية» عنصر تجاه عنصر آخر. انه نظراً إلى اللغة على أساس أنها كيان مستقل؛ لا يمكن تجزئته، وعزل عناصره، ومن ثمّ البحث في هذه العناصر في عزلتها «التاريخية» التي تقودنا إلى تغريب ما هو لغوي، أعني النظر إلى هذا «العنصر» أو ذاك، وتقلبه وتحولاته التاريخية، وكأنه «عنصر» متفرد وليس منتماً، وهو شرط لغويته.

النظر البنيوي، إذن، هو: «النظر في اللغة الحيّة نظراً آنياً شمولياً» / د. محمود السعران / علم اللغة /.

إن جهد «سوسور» النظري ينصبّ، ايضاً، في «التقابلات» أو «الثنائيات» التي اقامها في صرح الحقل اللغوي: كثنائية «اللغة» و«الكلام» و محوري «التعاقب» و «التزامن».... الخ ليقودنا، بعد ذلك، إلى نظرٍ منهجيّ في «المفاهيمات» أو «المقولات» اللغوية.

وقد استندت «النظريات اللغوية» التي أعقبته، للوصول إلى «حقائق»، تجعل من «اللغة» علماً، أي ظاهرة؛ يمكن حسم معضلاتها حسماً دقيقاً، من خلال مقدمات ونتائج منطقية ورياضية، استندت، بنحو أو آخر، على النتائج التي توصل اليها. وقد تجسّد ذلك تماماً في دراسة «الأصوات اللغوية» التي تحولت إلى ما يُشبه جدولاً رياضياً، ذا حقول محدّدة الأبعاد لا تقبل افتراضاً فائضاً عن الحاجة، كما تقبل ذلك العلوم الانسانية الأخرى، ومنها «علم الدلالة اللغوية»، إذ اللغويون ما يزالون يحلمون بـ «جدولته» على مصطلح الاقتصاديين.

ولا أريد، هنا، أن أؤرّخ لحركة البحث اللغوي المعاصر في الغرب، من خلال سعيه للوصول إلى «علم لغة» متكامل، فمدارسه ورواده نالوا من الشهرة عندنا ما لم ينالوه، ازعم، في مكان آخر، وهو حقٌ مُنتج على مستهلك، بل أريد أن أعود إلى التراث اللغوي العربي، واذكر بمنتجاتي البحوث اللغوية العرب، قبل ما يربو على الألف سنة، بقرنين أو ثلاثة، لا ليكون لهذا العود قصداً إلى إعلاء شأن اللغويين العرب، بما يكونون قد التقوا فيه مع نتائج البحث اللغوي في الغرب والشرق، كما فعل التيار الوسط من اللغويين العرب المعاصرين الذي انتهى، من غير قصد، إلى تناقض مذهل: في جعل السابق لاحقاً واللاحق

سابقاً، لا ليكون العود من أجل ذلك، بل ليكون عوداً يستحضر تجليات العقل العربي وريادته في «الكشف» وتوازنه بين الانتاج والاستهلاك!

وإذا كانت آراء «دي سوسور» والبنويّة، في أصولها، «استدراكاً على المنهج التاريخي المقارن» / د. زكريا ابراهيم / مشكلة البنية / .

فاننا نذكرها هنا مغامرة العالم اللغوي «عبد القاهر الجرجاني» في «دلائل الاعجاز» أقول «مغامرة» لأنها جاءت في خضم منهج لغوي ضخم ومحدّد في آن واحد، ينظر إلى «الاشكال» و «توزيعاتها» و «خاناتها» «وظائفها» بعيداً عن «الدلالة»، و «العلاقات» سواء أكان هذا البعد على صعيد «المعجم» أم على صعيد «الصرف» أو «النحو».

لقد أرسى مؤسس علم اللغة في التراث العربي «الخليل بن أحمد الفراهيدي» ومن بعده تلميذه «سيبويه» دعائم نظرية لغوية؛ تُعنى بالاشكال دون «المعنى» وتبعهم في ذلك البصريون والكوفيون والبغداديون والأندلسيون (وفي هذا رد على من قال نشوء هذه المدارس خارج المكان).

لا يعني ذلك أن تضاعف هذه النظرية ومناحيها التطبيقية خلو من الاشارات الدلالية، لكن ذلك لم يكن إلا استثناءً في القاعدة. ومن هنا تكون الأمثلة التي قدّمها هذه المدرسة في مرتبة ثانية بعد الأحكام. أعني أنها مستنبطة من عقل «النحوي» وليست مستنبطة من «اللغة الحية». ولنا في اقتباسات لا تُحصى، برهان على ذلك.

أما الجرجاني فقدّم في ثورته المنهجية في البحث اللغوي العربي مرتكزات تنبع من الدلالة وتصب فيها. وأهمها:

(١) استند إلى النص القرآني الكريم وإلى كلام العرب، في تحليله. وهذا هو المنحى «الوصفي» العربي في البحث اللغوي، باعتبار أن هذا المنحى يُعنى باستنباط الاحكام من «نص»، لغة، يتكلم بها ابن سليقة هذه اللغة.

(٢) أ - ركّز عبد القاهر الجرجاني على عمل العناصر في البنية اللغوية من أجل إنتاج المعنى، وليس على العناصر ذاتها ومن ذلك. / دلائل الاعجاز / ص ٥٠ / : «والذي يحلّها أن تنظر: أتتصور أن تكون معتبراً مفكراً في حال اللفظ مع اللفظ حتى تضعه بجانبه أو قبله، وأن تقول: هذه اللفظة انما صلحت ها هنا لكونها على صفة كذا

أم لا يعقل إلا أن تقول: صلحت ها هنا لأن معناها كذا، ولداليتها على كذا، ولأن معنى الكلام والغرض يُوجب كذا، ولأن معنى ما قبلها يقتضي معناها».

ب - رفض استخراج العنصر اللغوي، من البنية، وعزله، والنظر اليه من خلال هذه العزلة:

قال / ص ٦١ / :

«هذا ما ينبغي للعاقل أن يجعله على ذكرٍ منه أبداً، وأن يعلم أن ليس لنا، إذا نحن تكلمنا

في البلاغة والفصاحة، مع معاني الكلم المفردة، شغلّ، ولا هي مِنّا بسبيل، وانما نعلم إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب
ج - ركّز على «سلبية» العنصر اللغوي في إقامة العلاقات وليس على «ماهيته».
قال: / ص ٧١ /:

«ثم يحسب أنّ مدار أمر. «النظم» على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أنّ تكون فيه. فاعلم أنّ الفروق والوجوه كثيرة، ليس لها غاية؛ تقف عندها. ثم اعلم أنّ ليست المزية بواجبة لها في نفسها.
يقرب الجرجاني بنية «اللغة» من بنية «الصورة» الألوان ليس لها دلالة في ذاتها. انها محايدة حتى تكون في شيء، أي حتى تعمل بموقعها وتأثيرها في غيرها، لنقل نتائج هذا التأثير إلى المتلقي:
يقول / ص ٧ /:

«وانما سبيل هذه المعاني، سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش، فكما أنّك ترى الرجل قد تهذى في الأصباغ التي عمل منها الصورة، والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضرب من التخيّر والتدبّر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبه إيّاها إلى ما لم يتهدّد إليه صاحبه».

وهذا فرق في مستوى انتماء متكلم إلى لغته، ولكنه قبل ذلك مثال على استقلالية «الكيان» عن «مستخدمه»

(٣) فرّق الجرجاني بين مستويين من المعاني:

(١) المعاني الحقيقية أو المعاني المعجمية.

(٢) المعاني المجازية أو معاني العلاقات.

أطلق على الفرع الأول: المعنى

وأطلق على الفرع الثاني: معنى المعنى

يقول: / ص ١٧٥ /

«واذ قد عرفت هذه الجملة، فها هنا عبارة مختصرة، وهي أنا نقول المعنى ومعنى المعنى. تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، الذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أنّ تعقل من اللفظ معنى آخر».

وذلك تفريق في مستويات الدلالة اللغوية.

(٤) أشار إلى «سياق الحال» بوصفه أحد مصادر الدلالة غير اللغوية

قال: / ص ١٧٥ /:

إذا قال رأيت أسداً - وذلك الحال على أنه لم يرد السبع - علمت أنّه أراد التشبيه. وقد اقام الدكتور «تمام حسان» صرح كتابه الشامل: اللغة العربية معناها ومبناها. على مرتكزات نظرية الجرجاني في الدلالة اللغوية، وإن كان قد استمد الشيء الكثير من

نتائج البحوث اللغوية المعاصرة.

ولـجـرجـاني دَلُؤُ في البئر التي استقى منها الدكتور «نايف خرما» في مؤلفه أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة :

أن تقدم البحث الدلالي في إطار علم اللغة الحديث، من الناحية المنهجية في نظرية الدلالة: «هو نفس ما تسعى اليه النظريات الجديدة في علم اللغة التي تحاول أن تستدرك على «جومسكي Chomsky ونظريته «التوليدية التحويلية» ومن أهمها النظرية التي أتى بها العالم اللغوي «فلمور» Charles Fillmore التي تضع المعاني من الدرجة الأولى من الأفضلية في التحليل اللغوي.

وعلى الرغم من ذلك يظل «دلائل الاعجاز» وثيقة تاريخية في ثورة البحث اللغوي، وصولاً إلى علم لغة، ناقصة بسبب من عدم فحصها فحصاً شاملاً، للاستهداء بها في خضم أحكام تتسم بالانبهار!

وقد رأينا شطراً من آراء الجرجاني في تسلُّق سلَّم المعنى وصولاً إلى السطح. وأطنب في هذه النقطة فأضرب مثلاً على ذلك.

ففي قوله تعالى:

«وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد» / الكهف / ١٨ / نجد التحليلات الآتية:

(١) أن صيغة «فاعل» - باسط - عاملة في الزمن الماضي. وما هنا نُحْيِ اشتراط الزمن بوصفه معنى صيغة (فاعل) العاملة. وعُدَّ أصحاب هذا الرأي من المخالفين، أي ممن خالفوا رأي سيبويه والفرّاء، في اشتراط زمن الحاضر والمستقبل لاسم الفاعل (المنكّر العامل). قال ابن هشام: / شرح قطر الندى / ١٠٦ :

«خالف في ذلك الكسائي وهشام وابن مضاء، فأجازوا إعماله إنَّ كان بمعنى الماضي، واستدلوا بقوله تعالى: «وكلبهم باسط ذراعيه».

(٢) أن ما هنا حكاية حال ماضيه. وهذا رأي «الزمخشري» في «كشافه» والأشمونى في «شرحه»: «لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي ف المعنى: يبسط ذراعيه.

(٣) ورأى آخرون الآ.. حاجة إلى تكلف الحكاية، لأن حال أهل الكهف مستمرُّ إلى الآن، فيجوز أن يلاحظ في «باسط» الحال، فيكون عاملاً.

(٤) رأي الجرجاني:

لم يستند الجرجاني إلى طريقة «الاستبدال الشكلية» للتفريق بين «المضارع».. - يبسط - و «فاعل» - باسط - التي أجراها سيبويه، بل استند إلى معيار «المعنى» في إجراء ذلك التفريق.

قال / دلائل الاعجاز: ١٢٢ / . وإنَّ شئت أن تُحس الفرق بينهما (بين «يفعل» و «فاعل» من حيث يلفظ، فتأمل هذا البيت.

لا يألف الدرهم المضروب صرّتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلت بالفعل (أي: وهو ينطلق) لم يحسن. وأهم شيء في هذا التحليل، أن المعيار الاعرابي لم يعد يختبر التراكيب اللغوية، بل المدار هنا «المعنى» الذي تكون «العلامة» الاعرابية إحدى قرائنه، إن الجرجاني ينحو بفكرته النظرية «وجوه الأبواب وفروقاتها» منحىً تطبيقياً. وهو يعرض لتحليل الآية الشريفة: «وكلبهم باسط ذراعيه».. فيقول: إن أحداً لا يشك في امتناع الفعل ما هنا، وإن قولنا «كلبهم يبسط ذراعيه» لا يؤدي الغرض، يلجأ الجرجاني، بعد ذلك، إلى طريقة الاستبدال بالمعنى وليس بالمبنى، كما فعل سيبويه.

فيضع المعادلة الآتية: كلبهم باسط = كلبهم واحد

وكأن الجرجاني يريد أن يصغر (حدث) صيغة (فاعل) حتى يعدمه تماماً، فيتحول إلى اسم «ذات»

باسط = واحد.

وليس لي إلا أن اختتم هذه الفقرة بالمقولة البنيوية التي أطلقها الجرجاني: «الكلمات يأخذ بعضها بحجز بعض».

وأعود إلى «المحاضرات» وأعترف أنني امتننت مرتين: مرة لوقوعها مترجمة في يدي، ومرة لاختياري مراجعاً. وقد عملت في هذا النص زمناً، وهيأت لي دار آفاق عربية لقاء المترجم الدكتور يوثيل يوسف عزيز، فوجدته متواضعاً على علمه، رحب الصدر، على ضيق وقته. وقد مكثنا ساعات نناقش ما أنتهينا إليه، حتى استقر النص أخيراً على هذا الوجه وفي أثناء ذلك نمي إلينا أن ترجمة عربية للمحاضرات، قد وصلت بغداد، وهي تحمل عنوان: «محاضرات في الألسنية العامة. ترجمها الاستاذان: يوسف غازي ومجيد النصر وقد وضعتها الدار الناشرة مشكورة بين يدي. ولم يكن وجود هذه «الترجمة» ليقف حائلاً دون إصدار ترجمة دار آفاق عربية. للأسباب الآتية:

(أ) أن «المحاضرات» في علم اللغة العام لفردينان دي سوسور، تُرجمت على نحو أو آخر، من خلال مؤلفات المعنيين بالدراسات اللغوية والبنيوية وبحوثهم، منذ منتصف هذا القرن. وصارت أفكار سوسور منتشرة، تؤلف، على نحو ما، كتاباً مترجماً. وأدرجها هنا أهم المؤلفات والبحوث:

(أ) مشكلة البنية (د. ت.) تأليف: د. زكريا إبراهيم. وقد عقد فصلاً خاصاً تناول فيه محوري الدراسة الزمنية واللازمية عند دي سوسور.

(ب) مقالة الدكتور محمود فهمي حجازي: «أصول البنيوية في علم اللغة، والدراسات الاثنولوجية / ص ١٥٦ / مجلة عالم الفكر / نيسان / ١٩٧٢ /». وتضمنت «المنطق النظري الأساسي» لدى سوسور.

(ج) ما تضمنته مجلتا «اللسانيات» و «اللسان العربي»

- (د) ما تضمنه مؤلف الدكتور محمود السعران «علم اللغة» / ١٩٧٠
(هـ) ما تضمنه مؤلف الدكتور نهاد الموسى نظرية النحو العربي / ١٩٨٠
(و) ما تضمنه مؤلف الدكتور ريمون طحان «الألسنية العربية» فضلاً عما ترجمه
أخواننا في المغرب العربي مما لا يتهيأ لي توثيقه الآن.
(٢) ذكر الدكتور عبدالرحمن الحاج صاحب في مجلة اللسانيات، في أوائل العقد
السابع، أنه يعكف على إعداد الترجمة الكاملة لمحاضرات دي سوسور في علم اللغة العام.
وفي ضوء ما تقدم يكون وجود ترجمات أخرى مفيداً في هذا الاتجاه.



غير أن ذلك، لم يكن ليكفي مؤونة الاقتناع الذاتي لاصدار هذا الكتاب، وقد ارتأت
الدار أن تجري مطابقة بين الترجمتين لتسبب علمياً في صدور ترجمتها أو في حجبها! وقد
عهدت إلي مرة أخرى بإجراء المقارنة بين الترجمتين.
وقد انتهيت بعد المراجعة إلى أن ترجمة الدكتور يوثيل، التي هي عن الانكليزية،
تميّزت بـ:

(١) تضمنها خمسة أنواع من الهوامش (ما يقارب سبعين هامشاً)

الاول: هوامش المؤلف الاستاذ دي سوسور.

الثاني: هوامش تلميذه: شارل بالي

الثالث: هوامش الاستاذ (باسكن) مترجم الكتاب إلى الانكليزية

الرابع: هوامش المترجم: د. يوثيل يوسف عزيز

الخامس: هوامش المراجع: د. مالك المطلبي.

في حين خلت الترجمة السورية إلا من هوامش المؤلف.

(٢) تضمنها مقدمة الطبعة الاولى التي كتبها الاستاذان: «شارل بالي» و «البرت

سيكاهي» تلميذا الاستاذ سوسور، اللذان جمعا المحاضرات، وتعقيبين في مقدمتي
الطبعتين الثانية والثالثة.

(٣) تضمنها ثبثاً بالمصطلحات الانجليزية اللغوية وأسماء الاعلام والأماكن التي

انطوى عليها الكتاب، ومرادفاتها العربية، موزعة على الحروف الابجدية العربية وقد بلغ
عددها ما يقارب الـ خمسمائة مصطلح وكلمة. وكون بذلك ملحقاتاً لا غنى عنه في دراسة
هذا الكتاب، في حين خلت الترجمة السورية من ذلك.



وربّ قائل إن هذه الفروق لا تمس، على أهميتها، صلب الكتاب؟
وقد يكون في قول، كهذا، بعض تجاوز، إذ إن ملحقات الكتاب، أو معجم مصطلحاته،
جزء من متن الكتاب، ومع ذلك سأقرب بهذا الاعتراض، وأنتقل الى الداخل.

وأهم شيء يطالعنا في «محاضرات في الألسنية العامة» هو «المصطلح» و «لغة الترجمة»

ومعضلة، «المصطلح»، معضلة مستديمة. وسبب ذلك يرجع إلى أمور ثلاثة، على ما أرى:

الاول: ان «المصطلح» المترجم طارئ على اللغة. أو هو كيان لا عُرِفَ.
الثاني: أنه تاريخي: أي له سياق خاص به. انه سلسلة من المعاني المختزنة. وليس كلمة واحدة.

الثالث: أن به حاجة إلى توافق سريع بين مستخدميه في حقل المعرفة.
ولم يأبه أخواننا، في لبنان خاصة، إلى ما يترشح عن النقطة الثالثة من مخاطر، وأخذوا يُمطرون العربية بـ «مصطلحات» لا حد لها.
ولأنهم استمروا هذه اللعبة، أو استمرأتهم هذه اللعبة، أخذوا يعممون ذلك في وجوه النقد والترجمة والعنوانات!

ولا أريد أن أفاضل بين مصطلح: ينشأ في بيئة، ومصطلح: ينشأ في بيئة أخرى، لأن المفاضلة إنما تكون في قدرة هذا المصطلح على «التداول» المعرفي، وفي كونه منبثقاً، على نحو ما، من «اللغة» التي يصير إليها، لكي لا يتفتت ويندثر.
وأعود الى لعبة المصطلحات وأقول: إن المسألة تتحول الآن إلى ما أسميه: «تجويعاً ثقافياً» فأمام حشد من المصطلحات الغريبة.. يبدو المتلقي، وكأنه يتضاقل حتى لا يرى، على قول المتنبي.

لقد أشار مترجم هذا الكتاب د. يوثيل يوسف عزيز إلى هذه المعضلة بقوله: «إن صعوبة ترجمة دي سوسور تكمن في «المصطلحات اللغوية» الكثيرة. فما زال «علم اللغة» (أفضل أن يضيف المؤسس في الغرب) حديث العهد في العربية، لم يتبلور كثير من مصطلحاته، التي دخلت العربية، وقد فضلت المصطلح الانكليزي، على المصطلح الفرنسي الأصلي، لأن هذا العلم (علم المصطلح) قد تطور كثيراً في البلدان الناطقة بالانكليزية، وأصبحت مصطلحاته الانكليزية هي الشائعة، بين المثقفين، لا سيما في الوطن العربي». المترجم، هنا، حذر، وعلى نحو أدق، لا يميل إلى «استرخاخص» استعمال المصطلح. وهذا هو المطلوب لنلا يؤدي الأمر إلى نتائج معاكسة، كغاسأعرض لذلك في النقطة القابلة. في الترجمة السورية، على قدرة مترجميها، وضلوعهما في العلم اللغوي، «تجوز» في استعمال المصطلح. وقد أخذت عينة، شملت «التمهيد» «والفصل الاول» وهي ص ٧ : التَّزَامُنُ والتَّزَمُنُ: «من دراسة منظومة ما تَزَمُنِيَّاً إلى دراستها تَزَامُنِيَّاً».

أشار دي سوسور إلى وجهتي نظر، مختلفتين، في دراسة اللغات: تمثل الأولى: محوراً أفقيّاً، ليس للزمن فيه أي دخل، وهي وجهة النظر الوصفية، والثانية تمثل محوراً

رأسياً، يقوم على أساس التغير الزمني، وهي وجهة النظر التاريخية / د. زكريا
ابراهيم / مشكلة البنية / ص ٥٣ /
نحن، إذاً، بإزاء مصطلحين. ولدينا ما يأتي:

المحور الوصفي.
والمحور التاريخي.

المحور السكوني.

والمحور الحركي.

المحور التزامني.

والمحور التعاقبي.

إذا كنا قد استندنا إلى «تزامن» لتكوين مصطلح يدلُّ على دراسة لغة دراسة بنيوية
(وصفية) في زمن واحد، فكيف تسنَّى لنا، أن نشقُّ مصطلحاً هو (تزمُن) ونجعله يقابل
مصطلح «التزامن»؟

وإذا قبلنا ذلك، جدلاً، أفلا يحتاج ذلك إلى شرحٍ ما؟ حتى يتم التبادل المعرفي على

أساسٍ ما؟!

* * *

الأصواتية

التصويتية

الأصواتية: مقابل مصطلح (فونيتيك) Phonetic

الذي يُعنى بدراسة الآثار الصوتية (فيزيائياً)

التصويتية: مقابل مصطلح فونولوجي Phonology، الذي يُعنى بدراسة الأصوات

اللغوية (أي الأسرة الصوتية).

غير أن العربية تستطيع أن تمدّنا بمصطلحين على نحو يسير وهما:

الأصوات: ومفردها صوت Sound وترادف مصطلح Phonetics

والأصوات اللغوية ومفردها «الوحدة الصوتية»، أو النظام الصوتي. Phoneme

وترادف مصطلح Phonology

أما «الأصواتية» والتصويتية، فهما كالتزامن والتزمّن أو التزامنية والتزمّنية

لا يعكسان إلا أثراً واحداً من آثار المعنى.

* * *

ومثل ذلك القول:

«التصويّية والقواعد والدلالة» فلماذا لا تكون: التصويّية والتقعيدية والتدليلية..
لخلق نوع من (الهارموني) في سجل المصطلحات؟؟
والقول: ص ٦ ونعني التصويّية والصرف وعلم الدلالة. فلم تهياً للمترجمين أن
يرجعا إلى النسيج العربي، في علم الدلالة، ولماذا لا يُحدثان نسقاً مصطلحياً، بالتصريفية
والتدليلية؟

* * *

الأعراضية: «علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية، وهو يشكل
جانبا من علم النفس الاجتماعي، و (بالتالي) من علم النفس العام»
ليس هو علم العلامات؟

الأقوامية وعلم الأقوام / ص ٨: والمصطلح المعمول به «علم الأجناس» أو علم
المجتمعات البشرية. anthropology وهكذا ينقطع «التوصيل» بين الكتاب وقارئه. فكيف اذا
كان حاجز الترجمة هو ما تُراد إزالته؟

ولو بقي الأمك متعلقاً بالحواجز، لارتضينا بالأحالة على مُعجمات، أو أناس
كالمعجمات! يزودوننا بالمعرفة أمام هذا (التجويع الثقافي) غير أنه يذهب مذاهب أخرى،
وأهمها أنه يؤدي إلى عكس ما يريد!

«الفقه» مصطلح تربّي في أحضان البيئة الاسلامية، بجوار مصطلح آخر هو
مصطلح «علم الكلام»، ولأن هذين العلمين يرتبطان باللغة برباط «الحقل» الواحد نشأ
قربهما مصطلح «فقه اللغة» وهو يقابل الآن الدراسات اللغوية التاريخية Philology

ولأن المترجمين الفاضلين مولعان بتكوين المصطلحات، من خلال الوصف
والنسبة لا من خلال الاضافة التي هي نسيج المصطلح العربي. قال ب: ص ١١ /
«إنّ النقد الفقهي يقع في...»

ولو فقدنا الارتباط بالنص لتصوّرنا أنّ الكلام منصب على فقه الشرع لافقه اللغة!
واذا كانت «اللسنية»، مصطلحا، تعني «علم اللغة»، ولأن عنوان الكتاب يشير إلى هذا:
«محاضرات في الالسنية العامة Cours de Linguistic generale فكيف يتسنّى للمترجمين أن
يرجعا إلى احساسهما المرهف بالعربية فيقولان: / ص ١٤ / «تشكيل العلم الالسنى
الحقيقي» نقول: «تشكيل العلم اللغوي» و «تشكيل علم اللغة، وهذا جار. ولكننا لا نقول
«التشكيل الالسنى الحقيقي» لأنّ هذا لا ينم عن علم لسان ابدأ.

بل إن المترجمين يستأنسان بترجمة كتاب ماكس مولر / ص ١٣ / . دروس في
علم اللسان؟

وكان ينبغي أن يكون على وفق نسق الافتتاح: «دروس في الألسنية».

وحين يتصدّيان لترجمة كتاب العالم اللغوي الأمريكي: «وتني»

Life and growth of Language يجعلانه: «حياة اللسان»

أما د. يوثيل فيضع: «حياة اللغة ونموها»

والمقارنة مغنية عن التعليق!

ومثل ذلك، عن ولع المترجمين بالمصطلحات المكتنزة بالغموض، المؤدية إلى تجويع

القارئ (وياله من هدف!) ما جاء / ص ١٥ / ترجمة لـ Junggrammatiker :

النحويون المولسدون

وترجمة د. يوثيل: «النحويون الجدد» وليس «التوليد» إلا استذكّاراً

«للجومسكية» في غير موضعه!

* * *

انتظر في / ص ١٦ / :

م:

«ولكن كنتاج للفكر الجمعي للمجموعات الألسنية»

يعني ذلك: مجموعات علوم اللغة؟ ليس ذلك صحيحاً لأن الألسنية هنا يقصد

بها اللغات. وهناك فرق بين «اللغات» و «علم اللغات». وترجمة العبارة في نسخة «آفاق»:

«بل هي نتاج عقل جماعي لمجموعات لغوية» وهذا هو ما يريده دي سوسور!

* * *

ونتأمل العبارات الآتية حسب:

ص ٣ / على جُماع اشكالية المسألة اللغوية

ص ٤ / لا تقبل أي تموضع أيّاً كان شكله

ص ٥ لأبرز تمفصلات تفكيره اللغوي.

ص ٥ / المنظومة المشتركة بين الأفراد والمنوعدة في تحقيق كلامي.

ص ١٢ / بفضل تموضع السنسكريتيّة في ظروف مؤاتية بشكل استثنائي لا يوضح!

هذه المقارنة.

ص ١٤ / وبسبب ذلك كطريقة للتفكير.

ص ١٦ / ألفت الضوء على جماع المسألة وكيّتها.

وآخرأ لست أحاول، يعلم الله، إيذاء ترجمة «الألسنية العامة» أو أدعولترجمة «علم اللغة

العالم» ولكن ليكون لنا حق في أن ندلو بدلونا في بئر عميق غورها.

ومن الله التوفيق.

د. مالك المطلبي

١٩٨٥/١/٢٥

الفصل الاول

نظرة سريعة الى تاريخ علم اللغة: -

ان العلم الذي نشأ من دراسة الحقائق اللغوية مرّ بثلاث مراحل، قبل أن يحدد ، هذا العلم، هدفه الحقيقي الخاص به.

لقد اهتم الدارسون، في بادئ الامر، بفرع من فروع المعرفة سمي بـ «القواعد». ان هذه الدراسة التي بدأها الاغريق واخذها عنهم الفرنسيون اعتمدت على علم المنطق. وهي تفتقر الى النظرة العلمية ولا ترتبط باللغة نفسها، وليس لها من هدف سوى وضع القواعد التي تميز بين الصيغ الصحيحة، وغير الصحيحة، فهي دراسة معيارية، تبتعد كثيرا عن الملاحظة الصحيحة للحقائق، ومجالها محدود، ضيق.

ثم ظهر فقه اللغة «الفيلولوجيا». لقد وجدت مدرسة لفقه اللغة في الاسكندرية منذ القديم، ولكن هذه التسمية (فقه اللغة او الفيلولوجيا) غالبا ما تطلق على الحركة العلمية التي بدأها فردريك اوكست ولف Friedrich August Wolf في عام ١٧٧٧، وقد استمرت حتى يومنا هذا، ليست اللغة الهدف الوحيد لهذه الحركة؛ فقد اهتم علماء فقه اللغة بتصحيح النصوص المكتوبة وشرحها والتعليق عليها، كما شجعت هذه الدراسة اصحابها على الاهتمام بالتاريخ الادبي، وبالعوادات والتقاليد، والنظم الاجتماعية وغيرها، وقد استخدم هؤلاء العلماء اساليب النقد في دراستهم وكان هدفهم، من دراسة المسائل اللغوية، مقارنة النصوص، التي كتبت في فترات زمنية مختلفة، لمعرفة اللغة التي يختص بها كل مؤلف من مؤلفي هذه النصوص، ولحل رموز بعض اللغات القديمة الغامضة وتفسيرها، مما لا شك فيه ان مثل هذه الدراسات مهدت السبيل لعلم اللغة التاريخي، فدراسة ريتشل Ritschl - بلوتس Plautus هي جزء من الدراسة اللغوية، ولكن النقد الفيلولوجي - اي استخدام اسلوب النقد في فقه اللغة له عيب مهم: فهو يعتمد اعتمادا كلياً على اللغة المكتوبة.^(١) ثم إن جل اهتمامه انحصر في اللغة الاغريقية واللاتينية القديمة.

بدأت المرحلة الثالثة عندما اكتشف العلماء ان اللغات يمكن مقارنة بعضها ببعض. وكان هذا الاكتشاف بداية «فقه اللغة المقارن» comparative philology ففي عام ١٨١٦ نشر بوب Franz Bopp كتاباً سماه في النظام الصرفي للسانسكريتية. قارن فيه اللغة السانسكريتية باللغة الالمانية والاغريقية واللاتينية وغيرها، ولم يكن (بوب) اول من اشار الى اوجه الشبه بين هذه اللغات وانحداها من اصل واحد فقد سبقه الى ذلك وليم جونز

(١) اهتمت هذه الدراسات بالنصوص المكتوبة لبعض اللغات البائدة كالاغريقية واللاتينية وأهملت اللغات الحية كالفرنسية مثلاً (المترجم).

W. Jones^(٢) المستشرق الانكليزي المتوفى في عام ١٧٩٤). ولكن ملاحظات جونز اليسيرة لا تدل على ان العلماء قد ادركوا اهمية مقارنة اللغات قبل عام ١٨١٦. ومع ان الفضل لا يعود الى بوب في اكتشاف الصلة بين اللغة السانسكريتية وبعض اللغات الاوربية والآسيوية، فقد ادرك هذا العالم ان مقارنة اللغات، التي تنحدر من اصل واحد، يمكن ان تصبح موضوعا لعلم مستقل بذاته، فلم يسبق لاحد ان قام بتفسير لغة باللجوء الى لغة اخرى، وتوضيح صيغ لغة ما، بالاعتماد على صيغ لغة اخرى.

أغلب الظن ان بوب لم يكن باستطاعته ان يبتدع هذا العلم الجديد بمثل هذه السرعة لولا اكتشاف السانسكريتية قبل ذلك، فكانت السانسكريتية الدعامة الثالثة مع اللاتينية والاعريقية التي اعتمد عليها بوب في دراسته، فضلا عن ان اللغة السانسكريتية لها مميزات عالية جدا؛ تجعل منها خير وسيلة في مقارنة اللغات.

فعلى سبيل المثال اذا قارنا بين صيغ الكلمة اللاتينية (generis, genus, generum, genera, genere الى آخره) والصيغ الاغريقية (genei, geneos, genos geneon, genea) الى آخره) فاننا لا نتوصل الى شيء، ولكن الامر يختلف اذا اضعنا الى هذه الصيغ، الصيغ السانسكريتية (ganasan, ganasu, ganasi, ganasas, ganas) الى آخره). فنظرة سريعة الى هذه الصيغ تبين الشبه بين الصيغ الاغريقية واللاتينية فاذا قبلنا بفرضية ان ganas تمثل المرحلة الاولى لهذه الصيغ - وهذه الخطوة تسهل الشرح - فاننا نستنتج ان الصوت (s) لابد انه سقط من الصيغ الاغريقية كلما وقعت بين صوتين من اصوات العلة او الحركات (Vowels). ثم نستنتج كذلك ان (s) اصبح (r) في اللاتينية وفي الظروف نفسها التي ذكرت سابقاً.

فالصيغ السانسكريتية، اذن، تُعدّ، من الناحية النحوية، هي الجذر، اي انها وحدة محددة ثابتة، وكانت للاغريقية واللاتينية الصيغ السانسكريتية نفسها في المراحل الاولى، وهكذا تكون السانسكريتية مفيدة، لانها قد حافظت على جميع اصوات (s) في اللغة الهندية - الاوربية. ومما لاشك فيه أنَّ السانسكريتية لم تنجح في الحفاظ على مميزات اخرى للغة الام: فعلى سبيل المثال تغير نظام الحركات فيها تغيرا كاملا ، ومع ذلك تكون العناصر الاصلية، التي حافظت عليها اللغة السانسكريتية، مفيدة للباحث على العموم - وقد شاء القدر ان تستخدم هذه العناصر لتوضيح كثير من المسائل في دراسة اللغات الاخرى.

وسرعان ما ظهر علماء لغويون بارزون أضافوا الى ما أسهم به بوب، نذكر منهم جاكوب كَريم Jacob Grimm مؤسس الدراسات الجرمانية (نشر كتابه قواعد الالمانية بين

عامي ١٨٢٢ و ١٨٣٦)، وبوت Pott الذي قام بدراسة اصول الكلمات، الالمولوجيا، فوفر مادة غزيرة لعلماء اللغة في هذا المجال من المعرفة، وكوهن Kuhn الذي بحث في علم اللغة وفي علم الميثولوجيا (الاسطورة) المقارن، وكذلك العالمين بنفي Benfy واوفرخت اللذين اختصا بدراسة الهندية.

واخيرا لابد من ان نذكر المتأخرين من اصحاب هذه المدرسة، من امثال ماكس مولر Max Muller وجي كيرتيوس G. Curtius، واوگست شلايشر August Scheicher. فكل من هؤلاء الثلاثة أسهم، بطريقته الخاصة، في تقدم الدراسات المقارنة، اذ ساعد ماكس مولر في نشر هذه الدراسات في مناقشاته الرائعة الموسومة Lessons in the Science of Language دروس في علم اللغة (١٨٦١)، ولكن عيبه يكمن في انه يفتقر الى الشعور بالمسؤولية، اما كيرتيوس فهو عالم بارز في فقه اللغة (الفيلولوجيا) تعتمد شهرته بالدرجة الاولى على كتابه Grundzuge der griechischen Etymologie (١٨٧٩). وهو من اوائل الذين جمعوا بين علم فقه اللغة المقارن وعلم فقه اللغة الكلاسيكي، وقد ظل العلم الاخير ينظر نظرة شك الى تقدم العلم الجديد (فقه اللغة المقارن): وكانت كل من المدرستين ترتاب في الأخرى، وكان شلايشر اول من حاول ان يجمع بين نتائج البحوث المبعثرة ويضعها في قالب موحد، فكتابه Compendium der Vergleichenden Grammatik der indogermanischen Sprachen (١٨٦١ - ٦٢) هو تنسيق للعلم الذي اوجده بوب حسب. إن هذا الكتاب الذي خدم الباحثين مدة طويلة يمثل خير تمثيل للخطوط العريضة لمدرسة علم اللغة المقارن، وهو اول فصل في تاريخ علم اللغات الهندية - الاوربية.

بيد ان مدرسة علم اللغة المقارن، التي يعود اليها الفضل - لاشك - في اكتشاف فرع جديد مثمر من فروع المعرفة، لم تفلح في انشاء علم اللغة الحقيقي. لكونها اهملت البحث في طبيعة الموضوع الذي تدرسه. وهذه خطوة اساسية بدونها لا يستطيع أي علم من العلوم أن يجد له اسلوباً في الدراسة.

وقد ادى الخطأ الاول، الذي وقع فيه علماء فقه اللغة المقارن، الى أخطاء اخرى. ففي دراساتهم (التي اقتصر على اللغات الهندية - الاوربية) لم يسألوا انفسهم قط عن معنى (المقارنات التي قاموا بها واهمية العلاقات التي توصلوا اليها) اذ اقتصر اسلوب الدراسة عندهم على المقارنة ولم يتناول الناحية التاريخية. مما لا شك فيه ان المقارنة ضرورة لاي نوع من أنواع اعادة البناء التاريخي للغة، ولكن المقارنة، وحدها، لا يمكن ان تكون عاملاً حاسماً في التوصل الى النتائج. ومما زاد في صعوبة التوصل الى هذه النتائج نظرة علماء فقه اللغة المقارن الى تطور لغتين. إذ كانت هذه النظرة تشبه نظرة علماء الطبيعة الى نمو نباتين، مثال ذلك ان شلايشر - الذي كان دائماً يدعو الى البدء باللغة الهندية - الاوربية الاولى فيبدو وكأنه عالم تاريخي - لا يتردد في القول ان

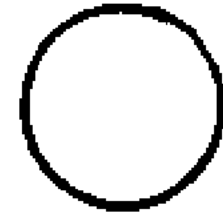
الصوتين (e) و (o) في الاغريقية هما درجتان (stufen) في نظام الحركات . ويرجع سبب ذلك الى ان اللغة السانسكريتية نظاما من الحركات المتناوبة التي توحى بفكرة الدرجات (الخطوات). لذا ظنَّ شلايشر ان جميع اللغات ينبغي ان تمر بهذه الدرجات درجة درجة، بأسلوب يشبه تماما المراحل التي يمر بها النوع الواحد من النباتات، فرأى في الصوت (o) درجة مشددة من الصوت الاغريقي (e) وفي الصوت (ā) درجة مشددة للصوت السانسكريتي (a) ولكن حقيقة الامر هي ان احد الاصوات في اللغة الهندية - الاوربية الاولى قد ظهر بشكلين مختلفين في اللغة الاغريقية واللغة السانسكريتية من دون أن يؤثر ذلك في علاقات القواعد في اللغتين (انظر الجزء الثالث الفصل الثالث).

واذا نظرنا الى اخطاء علماء فقه اللغة المقارن من الناحية الاسلوبية، وجدنا أن مثل هذه الاخطاء لا تخلو من فائدة، فأخطاء علم من العلوم، لا يزال في مرحلة الطفولة تقدم صورة مكبرة لخطاء يرتكبها الباحث في المراحل الاولى للبحث العلمي، وسأشير الى بعض هذه الاخطاء في اثناء هذه الدراسة.

لم يبدأ العلماء بدراسة المبادئ التي تتحكم بحياة اللغات حتى عام ١٨٧٠. وبعد ذلك التاريخ اخذوا ينظرون الى أوجه التشابه بين اللغات على انها جانب واحد فقط من الظاهرة اللغوية، وان المقارنة ما هي إلا أسلوب او وسيلة لاعادة بناء الحقائق اللغوية. إن علم اللغة الصحيح الذي يضع الدراسات المقارنة في موضعها المناسب، تعود جذوره الى دراسة اللغات الرومانسية (الفرنسية، والايطالية، والاسبانية والبرتغالية والرومانية) واللغات الجرمانية، ويعود تاريخ دراسة اللغات الرومانسية التي بدأها دياز Diez بكتابه: قواعد اللغات الرومانسية الى الاعوام ١٨٣٦ - ١٨٣٨. وقد ساعدت هذه الدراسات على اقتراب علم اللغة من هدفه الحقيقي المنشود، فعلماء اللغات الرومانسية كانوا يتمتعون بظروف جيدة لم تتوفر لعلماء اللغات الهندية - الاوربية، فكانوا يحسنون اللغة اللاتينية وهي اللغة الام للغات الرومانسية: كما توفرت لديهم مجموعة كبيرة من النصوص، وبفضل هذين العاملين استطاعوا ان يكتشفوا تطور اللهجات الرومانسية المختلفة بصورة تفصيلية: كما ساعد العاملان على التقليل من عملية الحدس والتخمين، ووفرًا إطاراً ثابتاً قوياً للبحث العلمي عند هؤلاء العلماء. وقد تمتع علماء اللغات الجرمانية بظروف جيدة مماثلة للظروف التي تمتع بها علماء اللغات الرومانسية، ومع انهم لم يستطيعوا دراسة اللغة الاولى بصورة مباشرة، فقد ساعدتهم النصوص الكثيرة على اقتفاء اثر تاريخ اللغات التي انحدرت عن اللغة الجرمانية الاولى خلال عدة قرون، واستطاع هؤلاء العلماء الاقتراب من الحقيقة اكثر من علماء اللغة الهندية - الاوربية الأوائل، فحققوا الكثير من النتائج.

ومن رواد علم اللغة العالم الامريكي وتني Whitney صاحب كتاب Life and growth of

language حياة اللغة ونموها (١٨٧٥)، وبعد هذا التاريخ بقليل قام النحويون الجدد Junggrammatiker بتأسيس مدرستهم. وكان زعماء هذه المدرسة جميعهم من الالمان نذكر منهم كي بروكمان Brugmann و اج اوستوف H. Osthoff وعلماء اللغات الجرمانية دبليو برون W. Braune واي سيفرز E. sievers واج بول وعالم اللغات السلافية ليسكين Leskien وغيرهم. واهم ما ساهم به هؤلاء العلماء هو وضع نتائج الدراسات المقارنة في الاطار التاريخي المناسب لها، وهكذا ربطوا بين الحقائق ربطا طبيعيا. ويعود الفضل اليهم في اننا لم نعد ننظر الى اللغة على انها كائن عضوي يتطور بصورة مستقلة، بل هي نتاج عقل جماعي، لمجموعات لغوية، كما ادرك العلماء اخطاء الدراسات الفيلولوجية والدراسات الفيلولوجية المقارنة^(٢). وعيوبها وعلى كل حال لم يُلْقِ النحويون الجدد، على الرغم من الخدمات التي قدّموها، الضوء على المسألة كلها، فما زالت المسائل الجوهرية لعلم اللغة العام تنتظر الحل.



(٢) استخدمت المدرسة الجديدة أسلوباً أكثر واقعية من المدرسة السابقة، وحاربت مصطلحات المدرسة المقارنة، ولا سيما الاستعارات الكاذبة التي استخدمتها المدرسة الأخيرة، فلم يعد المرء يقول: «تقوم اللغة بهذا أو ذاك» أو «حياة اللغة» وغيرها من التشبيهات، طالما ان اللغة ليست كائناً، بل لها وجود داخل المتكلم فقط. ولكن المرء ينبغي أن لا يغالى الى هذا الحد، فخير الأمور أوسطها. فلا يمكن الاستغناء عن بعض التركيبات المجازية، والطلب الى المرء ان لا يستخدم إلا الكلمات التي تتفق مع حقائق الكلام، يعني الادعاء بأن هذه الحقائق لم تعد تقلقنا، وهذا لا يتفق مع الحقيقة، لذا سوف استخدم، في بعض الاحيان، بعض العبارات التي منعها تلك المدرسة (سوسور).

الفصل الثاني

موضوع علم اللغة ومجاليه: وعلاقته بالعلوم الاخرى

تضم مادة علم اللغة جميع مظاهر الكلام عند الانسان، سواء كان ذلك في المجتمعات البدائية او المتقدمة، وفي الفترات الكلاسيكية او الفترات المتأخرة. ولا ينبغي للغوي ان يدرس في كل فترة من الفترات اللسان الصحيح واللغة المنمقة حسب. بل جميع انواع التعبيرات الأخرى ايضا، يضاف الى كل ذلك شيء آخر وهو طالما ان اللغوي لا يستطيع ان يلاحظ اللسان مباشرة في اغلب الاحيان، فعليه ان يدرس النصوص المكتوبة، فهو لا يستطيع التوصل الى التعبيرات التي تبتعد عنه من حيث الزمان او المكان الا من خلال هذه النصوص.

اما مجال علم اللغة فيجب ان يشمل على:

(أ) وصف تاريخ جميع اللغات المعروفة، ويعني ذلك تتبع تاريخ الاسر اللغوية واعادة بناء اللغة الام لكل أسرة، على قدر المستطاع.

(ب) تحديد القوى التي تعمل بصورة دائمية وعامة في جميع اللغات، واستنتاج القواعد العامة من جميع الظواهر التاريخية الخاصة.

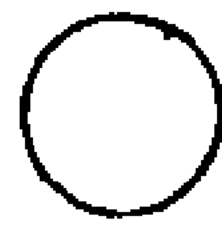
(ج) تحديد معالنه وطبيعته.

ويتصل علم اللغة اتصالا وثيقا بالعلوم الاخرى فهو يأخذ منها، في بعض الاحيان، كما يقدم لها شيئا من المعطيات، فالخطوط التي تحد هذه العلوم قد لا تكون دائما واضحة متميزة. فعلى سبيل المثال ينبغي تمييز علم اللغة من دراسة الاجناس البشرية (اثنوغرافي) وعلم ما قبل التاريخ. فاللغة في هذين العلمين ما هي الا اداة لتدوين الاحداث والحقائق كما انها ينبغي ان تميزه من علم الانثروبولوجيا (المجتمعات البشرية) الذي يدرس الانسان من ناحية السلالات حسب إذ إن اللغة حقيقة اجتماعية. ولكن اذا كان الامر كذلك فهل ينبغي ان نربط علم اللغة بعلم الاجتماع؟ وما الروابط بين علم اللغة وعلم النفس الاجتماعي؟ فكل شيء في اللغة انما هو في جوهره نفسي، بما في ذلك مادة اللغة ومظاهرها الآلية كالتغيير في الصوت، ولما كان علم اللغة يقدم لعلم النفس الاجتماعي مثل هذه المعطيات القيمة، أفلا ينبغي ان يعد جزءاً لا يتجزأ من علم النفس الاجتماعي؟ سأقدم هنا عددا كبيرا من الاسئلة البسيطة: ثم اقوم بالاجابة عنها بشيء من التفصيل فيما بعد.

إن الصلة بين علم اللغة وعلم فسلجة الأصوات (وظائف الاصوات) سهلة التمييز وهذه الصلة من جانب واحد، فعلم اللغة يحتاج الى بعض الايضاحات من علم فسلجة

الاصوات، ولكنه لا يقدم الى هذا العلم الأخير شيئاً، وعلى كل حال، لا يمكن الخلط بين العلمين، وسأحاول ان اوضح ان الشيء الذي يؤلف اللغة لا علاقة له بالطبيعة الصوتية للاشارة اللغوية.

أما علم الفيولوجيا (فقه اللغة) فقد وضحتنا معالمة: فهو يتميز عن علم اللغة، مع وجود نقاط الاتصال بين العلمين، والخدمات المتبادلة، التي يقدمها كل منهما للآخر. ثم نأتي الى السؤال الأخير: ما الفائدة من علم اللغة؟ قلما نجد من الناس من له رأي واضح في هذه المسألة: وليس هذا المكان المناسب لا يوضحها، ولكن مما لا شك فيه أن المسائل اللغوية تهم كل من يدرس النصوص - كالمؤرخين وعلماء فقه اللغة وغيرهم من الباحثين، ولا شك ان لعلم اللغة أهمية للثقافة العامة، ففي حياة الأفراد والمجتمعات تعد اللغة اهم من أي شيء آخر، لذا لا يجوز ان يبقى علم اللغة مقتصرًا على نخبة صغيرة من المختصين فهو يهم الجميع على أي نحو، ولكن من الامور الغريبة ان الاهتمام بعلم اللغة قد نتج عنه كثير من الآراء الواهية والمواقف المتحيزة والخرافات، تفوق ما نجده في غيره من فروع المعرفة، ان لهذه الاخطاء أهمية من الناحية النفسية (السايكولوجية)، ولكن من واجب اللغوي - قبل كل شيء ان يشجبها وأن يصححها كلما استطاع ذلك.



الفصل الثالث

هدف علم اللغة

١ - تعريف اللغة:

ما الهدف الطبيعي للموس لعلم اللغة؟ هذا سؤال صعب للغاية، سنرى سبب ذلك فيما بعد، أما الآن فلن أقدم سوى إشارة إلى هذه الصعوبة. ان العلوم الاخرى تدرس اشياء معروفة سلفا، يمكن بحث هذه الاشياء من وجهات نظر مختلفة، ولكن الأمر يختلف بالنسبة لعلم اللغة، فقد ينطق احدهم بالكلمة الفرنسية nu (عار)، ويستنتج المرء من الملاحظة السطحية، أن الكلمة هي المادة الملموسة لعلم اللغة. بيد ان الملاحظة الدقيقة قد تكشف لنا على التوالي شيئين أو ثلاثة اشياء مختلفة، اعتمادا على الامور الآتية:

هل نعدّ الكلمة صوتا أم تعبيراً عن فكرة، ام المرادف للكلمة اللاتينية nudum الى غير ذلك؟ فالشيء لا يسبق وجهة النظر، بل ان وجهة النظر، على ما يبدو هي التي تخلق الشيء، ثم إننا لا نملك دليلاً سابقاً يبين لنا أن إحدى وجهات النظر هذه أفضل من غيرها، في حل المسألة التي نحن بصدد حلها، أو اهم منها.

أضف الى ذلك ان الظاهرة اللغوية لها دائماً جانبان متصلان، كل منهما يستقى أهميته من الآخر - ولا علاقة لهذه المسألة بالرأي الذي نتبناه فعلى سبيل المثال: (١) ان المقاطع التي ينطق بها المرء انما هي انطباعات صوتية تدركها الاذن، ولكن هذه الأصوات ليس لها وجود لولا اعضاء النطق، فالصوت (n) على سبيل المثال ليس له وجود الا بفضل هذين الجانبين (جانب النطق وجانب السمع)، فلا نستطيع ان نجعل اللغة مقتصرة على الأصوات، أو الاصوات المنفصلة المستقلة عن النطق في الفم. كما أننا لا نستطيع أن نحدد حركات اعضاء النطق من دون أن نأخذ بنظر الاعتبار الانطباع الصوتي (الصورة الصوتية) في الأذن.

(٢) ولكن لنفرض ان الصوت شيء بسيط: فهل هو اللسان؟ الجواب لا، فهو وسيلة الفكر ليس الا، ليس له وجود، في حد ذاته أو وحده، بعيد عن الفكر، وهنا تظهر لنا علاقة جديدة صعبة، فالصوت وهو وحدة مركبة من نطق وسمع، يرتبط بفكرة ليكون وحدة فسيولوجية - سايكولوجية (وظيفية - نفسية) مركبة، ومع كل هذا فالصورة لم تكتمل بعد.

(٣) اللسان له جانب فردي وجانب اجتماعي، ولا يمكن ان نتصور أحدهما بغير

الآخر أضف الى ذلك:

٤) ان اللسان ينطوي دائماً على وجود نظام ثابت، كما ينطوي على عملية التطور، فهو في كل لحظة نظام قائم بذاته ونتاج للزمن الماضي، وقد يبدو، للوهلة الاولى، ان التمييز بين النظام وتاريخه، بين ما هو عليه وما كان عليه في الماضي، سهلاً ولكن الحقيقة هي ان الشئيين يرتبطان ارتباطاً وثيقاً احدهما بالآخر الى درجة قلما نستطيع معها، فصلهما. هل يسهل الأمر علينا اذا درسنا الظاهرة اللغوية في مراحلها الاولى - اذا بدأنا، على سبيل المثال، بدراسة لسان الأطفال؟ الجواب لا، فمن الخطأ أن نعتقد في دراستنا للسان ان مسألة المميزات في المراحل الاولى تختلف عن مسألة المميزات الثابتة. ان مثل هذا التفكير يؤدي بنا الى حلقة مفرغة.

ومهما كان الاتجاه الذي نسلكه في هذه المسألة، فاننا لن نجد الهدف الطبيعي لعلم اللغة، ان نجد انفسنا دائماً في حيرة، واذا ركزنا انتباهنا على جانب واحد من المسائل التي تواجهنا، فاننا قد نسو عن الطبيعة الثنائية، التي أشرنا اليها سابقاً، واذا درسنا اللسان، من وجهات نظر عديدة مختلفة، في آن واحد، ظهر لنا هدف علم اللغة وكأنه شيء مرتبك، غير متجانس، يتكون، من أشياء غير مرتبطة بعضها ببعض، إن كلاً من الاسلوبين المشار اليهما آنفاً يفتح الباب لعدد من العلوم - كعلم النفس وعلم المجتمعات البشرية، والنحو المعياري، وفقه اللغة وغيرها - وكل هذه العلوم تتميز عن علم اللغة، ولكنها قد تدعي ان اللسان احد اهدافها، وذلك بسبب الاسلوب غير الصحيح الذي يستخدم في علم اللغة.

الرأي عندي ان لجميع هذه الصعوبات حلاً واحداً فقط: وهو ان نضع كلتا قدمينا، منذ البداية، على أرض اللغة، ونستخدم اللغة مقياساً لجميع مظاهر اللسان، فاللغة وحدها - بين كثير من المظاهر الثنائية - يمكن ان تخضع - على ما يبدو - لتعريف مستقل قائم بذاته، وتقدم في الوقت نفسه الركيزة التي ترضي العقل.

ولكن ما اللغة Langue؟ ينبغي ان نميز بينها وبين اللسان البشري (Langage)، فاللغة جزء محدد من اللسان، مع انه جزء جوهري - لاشك - اللغة نتاج اجتماعي للملكة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي تبناها مجتمع ما ليساعد افراده على ممارسة هذه الملكة، وعلى العموم: اللسان متعدد الجوانب، غير متجانس - يشتمل على عدة جوانب في آن واحد - كالجانب الفيزيائي (الطبيعي) والجانب الفلسفي (الوظيفي) والجانب السايكولوجي (النفسي). واللسان ملك للفرد والمجتمع لا يمكن ان نصنفه الى اي صنف من أصناف الحقائق البشكية، لأننا لا نستطيع ان نكشف عن وحدته.

اما اللغة، فعلى النقيض من ذلك، لها كيان موحد قائم بذاته، فهي تخضع للتصنيف، وتحتل المركز الاول بين عناصر اللسان، وهذا التصنيف يضيف نظاماً طبيعياً

على كتلة غير متجانسة (اللسان) لا يمكن ان تخضع لأي تصنيف آخر. وقد يعترض المرء على مبدأ التصنيف فيقول: لما كان اللسان يعتمد على الملكة الطبيعية، في حين ان اللغة هي شيء مكتسب تقليدي، كان ينبغي إذن ان لا تكون اللغة في المنزلة الاولى، بل يجب ان تخضع للملكة الفطرية. ان هذا الاعتراض يمكن دحضه بسهولة.

اولا: ليس لدينا أي برهان على ان اللسان، بالمظهر الذي ننطق به، شيء طبيعي في كل جوانبه، اي ان اعضاء النطق مخصصة للتكلم كما ان القدمين مخصصتان للمشي. فاللغويون يختلفون في هذه المسألة فيقول وتني - وهو يعد اللغة احدى النظم الاجتماعية - اننا نستخدم جهاز النطق للتكلم به على سبيل المصادفة فقط: ولأنها مناسبة، ان كان باستطاعة الانسان ان يستخدم الاشارات والرموز المرئية عوضا عن الرموز الصوتية. مما لاشك فيه ان وتني متطرف في رأيه، فاللغة لا تشبه في جميع جوانبها الانظمة الاجتماعية الاخرى، ثم إن وتني يذهب الى القول ان اختيار الانسان وقع على اعضاء النطق، وان هذا الاختيار قد فرضته - عليه - الى درجة ما - الطبيعة، ولكن رأي وتني في المسألة الجوهرية صحيح: فاللغة تقليد، وليس لطبيعة الاشارة التي يتفق عليها المجتمع اية اهمية، مما لاشك فيه ان موضوع جهاز النطق يحتل منزلة ثانوية في مسألة اللسان.

ويمكب دعم هذا الرأي باللجوء الى تعريف واحد للسان المنطوق، فكلمة (articulus) تعني في اللاتينية عضوا أو جزءاً أو مقطعا من سلسلة، فاذا طبقنا هذا على اللسان فانه يعني تقسيم سلسلة منطوقة الى مقاطع او تقسيم سلسلة من المعاني في وحدات "ات معنى، وتستخدم الالمانية gegliederte sprache للتعبير عن المعنى الثاني. واذا اعتمدنا التعريف الثاني قلنا ان الشيء الطبيعي عند الانسان ليس اللسان الشفوي بل ملكة انشاء اللغة، اي نظام من الاشارات المتميزة يرتبط بافكار (بمعاب) متميزة.

لقد اكتشف بروكا Broca ان ملكة الكلام تقع في الثلث الأيسر من الجزء الامامي من المخ، وقد استخدم هذا الاكتشاف لدعم الرأي الذي ينسب الصفة الطبيعية الى اللسان، ولكننا نعلم ان هذا الجزء من المخ نفسه، هو مركز كل شيء يختص باللسان بما في ذلك الكتابة. واذا اضيفنا الى ما قلناه الاعراض التي لاحظها الاخصائيون في مرضى الابشيا (فقدان الكلام والقدرة على الفهم) الناتج عن الحاق الضرر بمراكز معينة من الدماغ، وجدنا ما يأتي: (١) ان الاضطرابات المختلفة في اللسان الشفوي ترتبط كثيرا باللسان المكتوب: (٢) ان ما يفقده الانسان في الابشيا او في الاكريفيا (فقدان القدرة على الكتابة) ليس بالدرجة الاولى، راجع إلى ملكة النطق بصوت معين، او كتابة اشارة معينة بل القدرة

في استغلال وسيلة ما - مهما كانت هذه الوسيلة - للتعبير عن اشارات نظام محدد من انظمة اللسان، وهذا يعني ان قيام الاعضاء المختلفة بوظائفها يكمن وراءه ملكة عامة تتحكم بالاشارات، وهي الملكة اللغوية الحقيقية، وبذلك نتوصل الى النتيجة نفسها التي مر ذكرها آنفاً.

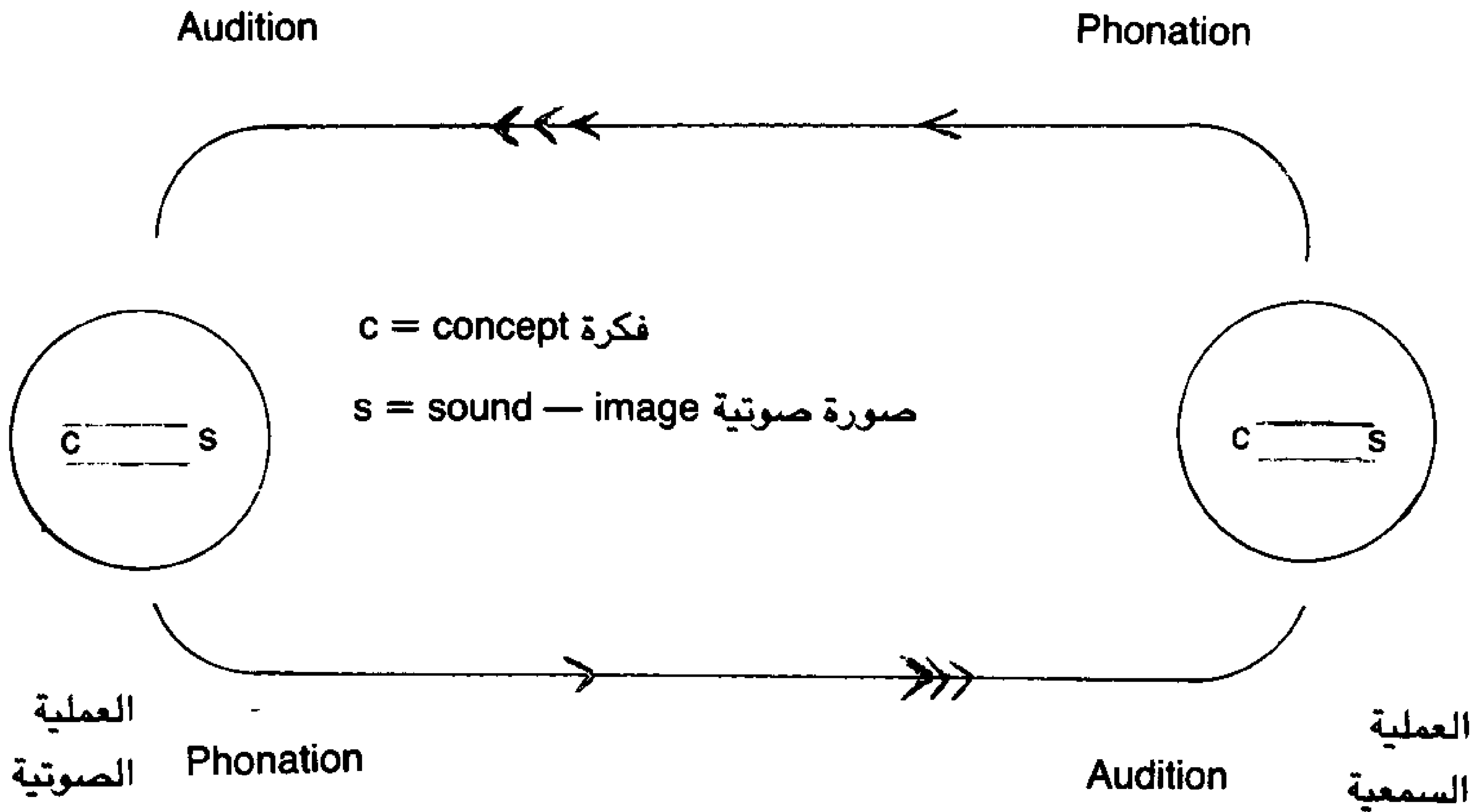
إن وضع اللغة في منزلة الصدارة في دراسة اللسان يساعدنا على مناقشة مسألة أخرى، هي الأخيرة في هذا الموضوع: وأقصد بذلك ملكة النطق بالكلمات سواء أكانت طبيعية أم لا - فممارسة هذه الملكة لا يكون الا بمساعدة الوسيلة التي تبدعها المجموعة وتضعها في خدمة هذه الملكة، اذن فالقول بأن اللغة تضيفي كياناً موحداً على اللسان ليس بالشئ الغريب.

٢. موقع اللغة من حقائق اللسان:

إذا اردنا ان نفصل من مجموعة العناصر التي تؤلف اللسان، تلك التي تعود الى اللغة وجب علينا ان نفحص الفعل الفردي الذي يمكن ان يستخدم في إعادة بناء الدائرة الكلامية، فمثل هذا الفعل يحتاج الى وجود شخصين في الأقل: وهذا أقل عدد؛ يقتضيه اكتمال الدائرة، لنفرض ان شخصين أ و ب يتحدثان الى بعضهما:



ولنفرض أن بداية الدائرة هي في دماغ (أ) حيث ترتبط الحقائق الفكرية (الافكار) بما يمثلها من الأصوات اللغوية (الصور الصوتية) التي تستخدم للتعبير عن هذه الافكار. فالفكرة المعينة تثير الصورة الصوتية التي ترتبط بها: وهذه الظاهرة السايكولوجية تتبعها عملية فسلجية: اذ يرسل الدماغ اشارة مناسبة للصورة الى الاعضاء المستعملة لانتاج الاصوات فتنتقل الموجات الصوتية من فم الشخص (أ) الى اذن الشخص (ب) وهذه عملية فيزيائية محضة، ثم تستمر الدائرة عند الشخص ب، ولكن بأسلوب معكوس اذ تسير الاشارة من الاذن الى الدماغ، وهو ارسال فسلجي للصورة الصوتية: ويتم في الدماغ الربط السايكولوجي بين الصورة والفكرة، فاذا تكلم الشخص ب، بدأ فعل جديد من دماغه الى دماغ الشخص (أ) - متبعا خط السير نفسه الذي سار فيه الفعل الاول ومارا بالمراحل نفسها. وسأوضح هذه العملية بالرسم الآتي: -



إن هذا التحليل ليس كاملاً، إذ يمكن أن نشير أيضاً إلى الاحساس الصوتي المحض، وارتباط هذا الاحساس بالصورة الصوتية الخامدة، والصورة العضلية للعملية الصوتية، وغير ذلك. لقد اقتصر التحليل الذي قمنا به على العناصر التي تُعدّ أساسية، لكن نظرة سريعة إلى الصورة تبين لنا الفرق بين العناصر الفيزيائية (الموجات الصوتية) والعناصر الفلسفية (العملية الصوتية والعملية السمعية) والعناصر السايكولوجية (صور الكلمات والأفكار)، بل ينبغي أن نذكر أن صور الكلمات تتميز عن الصوت نفسه، وأن هذه الصور إنما هي سايكولوجية، كما أن الأفكار التي ترتبط بها سايكولوجية.

ويمكن تقسيم الدائرة التي رسمتها، فيما تقدّم، على أجزاء أخرى هي:

(أ) جزء خارجي يضم الرنات الصوتية التي تسير من الفم إلى الأذن، وجزء داخلي يضم الأمور الأخرى.

(ب) جزء سايكولوجي وآخر غير سايكولوجي، ويضم الجزء الثاني الأعمال الفلسفية التي تقوم بها الأعضاء الصوتية، كما يضم الحقائق الفيزيائية الواقعة خارج الفرد.

(ج) جزء إيجابي فعّال، وآخر سلبي فعّال، فكل شيء ينتقل من مركز الارتباط للمتكلم إلى أذن السامع هو إيجابي فعّال، وكل شيء ينتقل من أذن السامع إلى مركز الارتباط عنده، هو سالب، غير فعّال.

(د) وأخيراً تقوم كل الأشياء الفعالة في الجزء السايكولوجي من الدائرة، بدور التنفيذ

(C—s) وكل الأشياء غير الفعالة تقوم بدور الاستقبال (S—c). كما ينبغي أن نذكر ملكة الارتباط والتنسيق التي نصادفها بعد الانتقال من الإرشادات المفردة. إن هذه الملكة لها دور أساسي في ترتيب اللغة بهيئة نظام.

ولكن إذا أردنا أن نفهم بوضوح دور ملكة الارتباط والتنسيق، علينا أن ننقل من العمل الفردي الذي هو بمثابة الجنين بالنسبة للسان، ونتناول الحقيقة الاجتماعية.

إن الأفراد، الذين تربط بينهم رابطة اللسان، يتخذون لأنفسهم نوعاً من القياس - فهؤلاء الأفراد جميعهم يستخدمون دائماً الإشارات نفسها التي تدل على الأفكار نفسها تقريباً - فكيف تتبلور اللغة اجتماعياً على هذا النحو؟ وما أجزاء الدائرة التي تدخل في عملية التبلور الاجتماعي هذه؟ إن جميع الأجزاء قد لا تدخل في هذه العملية بصورة متساوية.

فالجزء غير السايكولوجي يمكن إهماله منذ البداية، فعندما نسمع اناسا يتكلمون لغة لا نفهمها، فاننا نسمع الاصوات، ولكننا نبقي خارج العنصر الاجتماعي لاننا لا نفهم هؤلاء الناس.

كما ان الجزء السايكولوجي للدائرة لا يشترك بأكمله: فالجانب التنفيذي لا وجود له. فالمجموع لا يقوم أبداً بعملية التنفيذ، لان عملية التنفيذ يقوم بها الفرد، وحده، وهو سيد هذه العملية.

وسأطلق على الجانب التنفيذي الكلام (parole).

تقوم ملكة الاستقبال وملكة التنسيق بوظائفهما، فينتج عن ذلك صور او انطباعات ذهنية واحدة، لأن جميعها تحدث في عقول المتكلمين، فكيف يمكن ان يصور هذا النتاج الاجتماعي بأسلوب، تظهر معه اللغة مستقلة منفصلة عن أي شيء آخر؟ لو استطعنا ان نحصل على جميع صور الكلمات المخزونة في عقول جميع الافراد، لاستطعنا ان نميز الجزء الاجتماعي الذي يؤلف اللغة، فهو مخزن يملؤه افراد مجتمع معين، عن طريق الاستخدام الفعّال للكلام، وهو نظام نحوي، له وجود خامد في دماغ كل فرد: أو بأسلوب أدق في ادمغة مجموعة من الافراد، فاللغة غير كاملة في الفرد، بل يكمل وجودها في المجموعة.

ان الفصل بين اللغة والكلام يعني أيضا الفصل (١) بين ما هو اجتماعي وما هو فردي،

(٢) الفصل بين ما هو جوهري وما هو ثانوي وعرضي الى درجة ما.

فاللغة ليست وظيفة الفرد، بل هي نتاج يهضمه الفرد بصورة سلبية، ولا تحتاج الى تأمل سابق: ويدخل التفكير فيها من الال التصنيف فقط، وسنتناول هذه المسألة فيما بعد.

أما الكلام، فعلى العكس من ذلك، فعل فردي، وهو عقلي مقصود. وينبغي ان نميز ضمن هذا الفعل بين (١) الارتباطات التي يستخدمها المتكلم حين يستعمل اللغة (الشفرة اللغوية) للتعبير عن فكرة، (٢) والعملية السايكوفيزيائية التي تساعد الفرد على اظهار هذه الارتباطات بمظهرها الخارجي.

ويلاحظ أنني عرفتُ الأشياء لا الكلمات، ولا يعيب هذه التعريفات أنها قد صيغت باستخدام بعض الكلمات الغامضة، التي ليس لها معنى واحد في اللغات المختلفة. فعلى سبيل المثال الكلمة الالمانية Sprache تعني اللغة كما تعني الكلام، وكلمة Rede تعني «الكلام»؛ واللفظة اللاتينية sermo تدل على اللسان وعلى الكلام: في حين تعني Lingua اللغة، الى غير ذلك. فلا توجد كلمة واحدة تدل على معنى واحد من المعاني التي ذكرت. وهذا

يجعل التعريفات عديمة الجدوى. فاستخدام الكلمات من أجل تحديد الاشياء أسلوب غير صحيح.^٤

ويمكن ان نلخص مميزات اللغة بما يأتي:

(١) اللغة شيء محدد تحديدا واضحا، ضمن الكتلة غير المتجانسة لعناصر اللسان، ويمكن تحديد موقعها في الجزء المحدد لدائرة الكلام في المكان الذي ترتبط فيه الصورة السمعية بالفكرة، فهي الجانب الاجتماعي للسان، تقع خارج الفرد الذي لا يستطيع ابدا ان يخلقها او يحورها بمفرده، فلا وجود للغة الا بنوع من الاتفاق يتوصل اليه اعضاء مجتمع معين، وعلى الفرد ان يقضي فترة معينة يتعلم فيها وظيفة اللغة، فالطفل يدرك هذه الوظيفة بصورة تدريجية، واللغة شيء متميز جدا فاذا فقد المرء استخدام الكلام فانه يبقى محتفظاً بها اذا كان يستطيع فهم الاشارات الصوتية التي يسمعها.

(٢) اللغة تختلف عن الكلام في أنها شيء يمكن دراسته بصورة مستقلة فاللغات البائدة (الميتة) مع انها لم تعد تستخدم في الكلام، نستطيع بسهولة ان نتعلم انظمتها اللغوية، فننتخلص من بقية عناصر اللسان الاخرى، بل ان علم اللغة لا وجود له الا اذا اقصيت العناصر الأخرى.

(٣) اللسان غير متجانس، اما اللغة - حسب تعريفنا لها - فمتجانسة، فهي نظام من الاشارات جوهره الوحيد الربط بين المعاني والصور الصوتية، وكلا طرفي الاشارة سايكولوجي.

(٤) اللغة شيء ملموس، كما ان الكلام ملموس، وهذا صفة تساعدنا في دراسة اللغة. فالاشارات اللغوية - مع أنها سايكولوجية في جوهرها - ليست تجريدية والارتباطات التي تحمل الطابع الجماعي وموافقة المجموعة، التي من مجموعها تتألف اللغة، هي اشياء حقيقية لها وجود في الدماغ. ثم إن الاشارات اللغوية يمكن ادراكها بالحواس، حيث يمكن تحويلها الى رموز كتابية تقليدية، في حين يصعب علينا ان نقدم صوراً لافعال الكلام (actes de paroles) فالنطق باصغر كلمة ينطوي على عدد لا يحصى من الحركات العضلية التي لا يمكن تمييزها وتحويلها الى هيئة صور الا بصعوبة كبيرة، أما في اللغة فلا نجد الا صورة صوتية واحدة يمكن ترجمتها الى صورة مرئية ثابتة، فاذا اهملنا العدد الكبير من الحركات الضرورية لتحقيق الصور الصوتية في الكلام، فاننا نرى ان كل صورة صوتية ما هي إلا المجموع الكلي لعدد محدود من العناصر او الفونيمات (الوحدات الصوتية) التي يمكن بدورها ان تمثل باستخدام عدد مشابه من الرموز الكتابية (الملحق،

الفصل الثاني). إن امكانية تحويل عناصر اللغة الى اشكال صورية تساعد المعاجم وكتب النحو على وصف اللغة بدقة، لان اللغة ذخيرة من الصور الصوتية، والكتابة هي هيئة هذه الصور التي تدرك بالحواس.

٣ - مكانة اللغة بين الحقائق البشرية: علم الاشارات (semiology)

ان المميزات اللغوية التي مر ذكرها تبين لنا صفة أخرى أكثر أهمية، وهي ان اللغة بعد أن تحدد معالغها من بين معطيات اللسان، يمكن ان تصنف بين الظواهر البشرية في حين لا يمكن تصنيف اللسان.

لقد رأينا ان اللغة نظام اجتماعي، وهنا تدخل في الحسابان امور اخرى عدا الانظمة السياسية والقانونية وغيرهما، اذ يجب علينا ان نستعين بصنف جديد من الحقائق لنلقي الضوء على الطبيعة الخاصة للغة.

فاللغة نظام من الاشارات System of signs التي تعبر عن الافكار، ويمكن تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة، او الالفباء المستخدمة عند فاقد السمع والنطق، او الطقوس الرمزية أو الصيغ المهدبة أو العلامات العسكرية أو غيرها من الأنظمة، ولكنه اهمها جميعا.

ويمكننا ان نتصور علما موضوعه دراسة حياة الاشارات في المجتمع؛ مثل هذا العلم يكون جزءاً من علم النفس الاجتماعي وهو بدوره جزء من علم النفس العام، وسأطلق عليه علم الاشارات semiology^(٤) (وهي لفظة مشتقة من الكلمة الاغريقية semeion = الإشارة). ويوضح علم الاشارات ماهية مقومات الاشارات، وماهية القواعد التي تتحكم فيها. ولما كان هذا العلم لم يظهر الى الوجود الى حد الآن، لم يمكن التمكن بطبيعته وماهيته، ولكن له حق الظهور الى الوجود، فعلم اللغة هو جزء من علم الاشارات العام: والقواعد التي يكتشفها هذا العلم يمكن تطبيقها على علم اللغة، ويحتل العلم الأخير مكانة محددة بين كتلة الحقائق الانثروبولوجية.

وتقع على علماء النفس مسؤولية تحديد الموضع الدقيق لعلم الاشارات^(٥) اما واجب اللغوي فهو البحث عما يجعل من اللغة نظاما خاصا متميزا بين كتلة معطيات علم

(٤) ينبغي ان نميز بين علم الاشارات وعلم الدلالة (سمانتيكس) semantics الذي يدرس التغير في المعاني، ولكن سوسور لم يدرس هذا العلم الأخير بصورة منتظمة (بالي).

(٥) لقد بحث جارس مورس Chrls Morris مجال علم الاشارات بحثاً تفصيلياً في كتابه Signs, Language and Behavior (الاشارات واللغة والسلوك) نشرته دار Prentice — Hall بنيويورك ١٩٤٦ (باسكن).

الاشارات، وستبحث هذه المسألة فيما بعد: أما الآن فاريـد أن أؤكد امراً واحداً، حسب: وهو أن كنت قد نجحت في تحديد موضع معين لعلم اللغة بين العلوم الأخرى، فإن الفضل في ذلك يعود الى أنني قد ربطت هذا العلم بعلم الاشارات.

لماذا لم يعترف الباحثون حتى الآن بعلم الاشارات على انه علم مستقل بذاته له هدفه الخاص كبقية العلوم؟ لقد سار علماء اللغة في دوائر، ان اللغة خير ما يقدم اساساً لفهم علم الاشارات، ولكن اللغة ينبغي ان تدرس بصورة مستقلة: فقد درست حتى الان بالارتباط مع أمور أخرى، ومن وجهات نظر العلوم الأخرى.

يواجه الباحث في بادئ الامر نظرة سطحية منتشرة بين الناس مفادها ان اللغة ليست سوى أداة (أو نظام) لتسمية الأشياء، لذا تحرم هذه النظرة اجراء بحوث في طبيعة اللغة الحقيقية.

ثم نجد وجهة نظر العالم النفسي، الذي يدرس نظام الاشارات في الفرد وهذا اسلوب سهل ولكنه لا يخرج خارج نطاق الفرد ولا يصل الى الاشارة، التي هي ذات طبيعة اجتماعية.

وحتى حين تدرس الاشارات من وجهة نظر اجتماعية لا يؤكد الباحث الا الجوانب التي تربط اللغة بالانظمة الاجتماعية الأخرى، وهي جوانب اختيارية الى حد ما. ويؤدي هذا الأسلوب الى تجاوز الهدف وإهمال خصائص علم الاشارات عامة وخصائص اللغة خاصة، لان من ابرز مميزات الاشارة - وان كانت هذه الميزة غير ظاهرة لأول وهلة - أنها بعيدة المنال بالنسبة للارادة الفردية والاجتماعية.

وملخص القول أن الصفة التي تميز نظام الاشارات عن الانظمة الأخرى لا تظهر بوضوح الا في اللغة، حيث تبرز في أمور قلما يدرسها الباحث، اذن تبقى أهمية علم الاشارات اوقيمة الحقيقية غير واضحة عند الناس، انني ارى ان مسألة اللغة هي في جوهرها مسألة علم الاشارات: وجميع تطورات المسألة تستقي أهميتها من هذه الحقيقة الأساسية. فاذا اردنا ان ندرك الطبيعة الحقيقية للغة فعلينا أن نفهم ارتباطها بالانظمة الأخرى للاشارات. إن العناصر اللغوية التي تبدو مهمة جداً للوهلة الأولى (كدور الجهاز الصوتي مثلاً) تغدو ثانوية اذا كانت لا تخدم غرضاً سوى الفصل بين اللغة والانظمة الأخرى للاشارات. فهذا الأسلوب مفيد جداً في توضيح المسألة اللغوية. إن دراسة

الطقوس والعادات والتقاليد وغيرها بوصفها اشارات تساعدنا - على ما اعتقد - على
القاء ضوء جديد على هذه الحقائق وابرار الحاجة الى ضم هذه الامور الى عم
الإشارات، وتفسيرها طبقا لقواعده.

الفصل الرابع

علم اللغة وعلم لغة الكلام

حين حددت موضع العلم الذي يدرس اللغة ضمن الدراسة العامة للسان، حاولت أن أضع الخطوط العريضة لعلم اللغة بأجمعه، فجميع العناصر الأخرى للسان - كتلك التي يتألف منها الكلام - تخضع خضوعاً كاملاً. للعلم الأول، وبفضل ذلك يأخذ جميع أجزاء علم اللغة مكانته الطبيعية.

لنأخذ مثلاً عملية النطق بالأصوات وهي ضرورة للكلام. إن أعضاء النطق تقع خارج اللغة (أي لا صلة لها باللغة) كما أن الأجهزة الكهربائية المستخدمة في إرسال شفرة مورس تقع خارج الشفرة نفسها، (فهذه الأجهزة ليست جزءاً من الشفرة) والعملية الصوتية أي إنتاج الصور الصوتية لا تؤثر، في أي حال من الأحوال، في النظام نفسه. ويمكن تشبيه اللغة بالسفونية من حيث أن السفونية منفصلة تماماً عن طريقة الأداء، فالأخطاء التي يرتكبها الموسيقار في أثناء تأدية السفونية تدعم هذه الحقيقة.

وربما يعترض أحدهم على الفصل بين العملية الصوتية واللغة بدليل التغييرات الصوتية أي التغييرات التي تحدث في الأصوات في أثناء الكلام ولها تأثير عميق في مستقبل اللغة نفسها. هل يحق لنا أن نزع أن اللغة يمكن أن يكون لها كيان مستقل عن التغييرات الصوتية؟ الجواب نعم. فالتغييرات الصوتية لا تؤثر إلا في المادة التي تتألف منها الكلمات، وإذا أثرت في اللغة من حيث أنها نظام للإشارات، فإن هذا التأثير غير مباشر، يأتي من خلال التغييرات في التفسيرات التي تعقب ذلك، وليس في هذه الظاهرة شيء صوتي. إن تحديد أسباب التغييرات الصوتية قد يثير اهتمام البعض، ودراسة الأصوات تساعد في هذه المسألة: ولكن هذه الأمور جميعها ليست جوهرية، فكل ما نحتاج إليه، في العلم الذي يدرس اللغة، هو أن نلاحظ تغيير الأصوات، ونحسب الآثار الناتجة عن ذلك.

ويصح ما قلته عن العملية الصوتية في جميع الأجزاء الأخرى للكلام، إن فعالية المتكلم ينبغي أن تدرس ضمن عدد من الموضوعات (أو حقول المعرفة) التي لا مكان لها في علم اللغة سوى أنها ذات صلة باللغة.

أذن فدراسة اللسان تتكون من جانبين: الجانب الأساسي وهو الذي هدفه اللغة وهو اجتماعي محض مستقل عن الفرد - وهذا الجانب سايكولوجي في جميع صفاته. والجانب الفرعي (الثانوي) وهدفه الجزء الفردي من اللسان - أي الكلام بما في ذلك العملية الصوتية. والجانب الفرعي هذا سايكوفيزيائي.

مما لا شك فيه أن الهدفين يرتبطان بعضهما ببعض ارتباطاً وثيقاً، ويعتمد أحدهما على الآخر، فاللغة ضرورة إذا أريد للكلام أن يكون مفهومه يحقق الغاية المتوخاة منه، ثم

ان الكلام ضرورة لتثبيت أركان اللغة، والكلام يأتي أولاً من الناحية التاريخية، اذ كيف يمكن للمتكلم ان يربط فكرة ما بصورة للكلمة، إذا لم يكن قد وجد مثل هذا الربط في احد أفعال الكلام؟ كما اننا نتعلم لغتنا بالاصغاء الى غيرنا. فاللغة لا تستقر في الدماغ إلا بعد عدد لا يحصى من الخبرات، واخيراً يكون الكلام هو السبب في تطور اللغة: فالانطباعات التي نحصل عليها من الاصغاء الى الآخرين تتجمع فتؤدي الى تحويل السلوك اللغوي عندنا. فاللغة والكلام إذن يعتمد أحدهما على الآخر، مع ان اللغة هي أداة الكلام وحصيلته، ولكن اعتماد أحدهما على الآخر لا يمنع من كونهما شيئين متميزين تماماً. اللغة موجودة على هيئة ذخيرة من الانطباعات مخزونة في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع معين: ويكاد ذلك يشبه المعجم الذي توزع منه نسخ على كل فرد في المجتمع فاللغة لها وجود في كل فرد، ومع ذلك فهي موجودة عند المجموع، وهي لا تتأثر برغبة الأفراد الذين تخزن عندهم، ويمكن التعبير عن أسلوب وجودها بالصيغة الحسابية الآتية:

$$1 + 1 + 1 + 1 = 000 \text{ (النمط الجماعي).}$$

ما الدور الذي يقوم به الكلام في المجتمع المار ذكره آنفاً؟ الكلام مجموع ما يقوله الناس ويضم: (أ) الفعاليات الفردية التي تعتمد على رغبة المتكلم، (ب) الأفعال الصوتية التي تعتمد أيضاً على ارادة المتكلم، وهذه الأفعال، لابد منها، لتحقيق الفعاليات المذكورة في (أ).

الكلام، إذن، ليس وسيلة جماعية، بل مظاهر فردية قصيرة الزمن، فلا نحصل في الكلام الا على مجموعة الأفعال المعينة، كما في الصيغة الآتية:

$$(1 + 1 + 1 + \dots)$$

كل هذه الأسباب تحملنا على القول ان النظر الى اللغة والكلام من وجهة نظر واحدة امر بعيد عن الحقيقة، وعلى العموم لا تمكن دراسة الكلام، لانه غير متجانس، ولكن التمييز الذي اقترحناه واخضاع أحدهما للآخر يوضحان هذه المسألة.

وهكذا نصادف هذا التفرع لدى محاولتنا صياغة نظرية للسان، وعلينا ان نختار بين طريقين، لا يمكن أن نسير في كليهما، في آن واحد: بل علينا ان نفصل بينهما عند السير.

ويستطيع المرء اذا اقتضت الضرورة ان يطلق لفظة علم اللغة على كل من الفرعين المذكورين اعلاه فنقول علم لغة الكلام. ولكن ينبغي ان نفصل بين علم لغة الكلام وعلم اللغة الحقيقي، الذي يهدف الى دراسة اللغة.

سيكون موضوع اهتمامي علم اللغة فقط (دون علم لغة الكلام) واذا استخدمت مادة تدخل في موضوع الكلام من أجل توضيح مسألة ما، فسأحاول ان ابقى على الخطوط التي تميز بين هذين الفرعين.

الفصل الخامس

العناصر الداخلية والخارجية للغة

ان التعريف الذي قدمته للغة ينطوي على ابعاد كل شيء يقع خارج كيانها و نظامها - او بعبارة اخرى كل ما يعرف «بعلم اللغة الخارجي». بيد ان علم اللغة الخارجي يتناول اشياء مهمة كثيرة وهي الاشياء التي تخطر على بالنا حين نبدأ بدراسة اللسان.

وتأتي، في مقدمة هذه الاشياء، جميع المسائل، التي تقع على الخط الذي يفصل علم اللغة عن علم السلالات البشرية - جميع العلاقات التي تربط تاريخ لغة ما بتاريخ قوم من الأقوام، أو حضارة من الحضارات، والرابطة القوية بين اللغة. ودراسة الاجناس البشرية تذكر الباحث بالروابط التي توصل بين الظواهر اللغوية الحقيقية، فثقافة أمة ما تؤثر تأثيراً ملموساً في لغتها، كما أن اللغة من المقومات المهمة للامة.

ثم تأتي العلاقة بين اللغة والتاريخ السياسي، فالحوادث التاريخية العظيمة، كالغزو النورمندي، له أثر كبير في عدد لا يحصى من الحقائق اللغوية. والاستيطان - وهو جانب من جوانب الغزو - يؤدي الى تغيير في اللغة، نظراً لنقل اللغة الى بيئات تختلف عن البيئة الاولى لها. ويستطيع المرء ان يأتي ببراهين كثيرة لدعم ماقلناه، فعلى سبيل المثال، استخدمت النرويج اللغة الدانماركية عندما اتحدت سياسياً مع الدانمارك: ويحاول النرويجيون اليوم التخلص من هذا التأثير اللغوي.^(١) والسياسات الداخلية للدول لا تقل اهمية لحياة اللغات، فبعض الحكومات (كالحكومة السويسرية) تسمح باستخدام عدد من اللغات، وبعض الحكومات (كالحكومة الفرنسية) تدعو الى الوحدة اللغوية. ان المراحل المتقدمة من الحضارة تحبذ قيام عدد من اللغات الخاصة (كاللغة القانونية، والاساليب العلمية وغيرها).

ناتي الان الى النقطة الثالثة: العلاقات بين اللغة وجميع الانظمة الأخرى او المؤسسات الأخرى (كالكنيسة، والمدرسة وغيرها). ان جميع هذه المؤسسات لها صلة وثيقة بالتطور الادبي للغة - وهذه ظاهرة يصعب فصلها عن التاريخ السياسي. فاللغة الادبية تتجاوز دائماً الحدود التي يصنعها الادب. فما علينا الا ان ننظر الى تأثير «الصالونات» والبلاط والمجاميع اللغوية القومية. ثم إن اللغة الادبية تثير مسألة مهمة،

(٦) انفصلت النرويج عن الدانمارك سياسياً عام ١٨١٤ وكانت قد اتحدت معها عام ١٢٩٧. وهي اليوم تتكلم لغتها الخاصة، التي هي فرع من اللغات الاسكندنافية، الجرمانية (المترجم).

وهي الصراع بين هذه اللغة واللهجات المحلية. فعلى اللغوي أن يدرس العلاقات المتبادلة بين لغة الكتاب واللهجة المستخدمة في لغة الكلام: لأن اللغة الأدبية إنما هي نتاج الثقافة، فهي لابد أن تبتعد في النهاية عن محيطها الطبيعي، لغة الكلام.

وأخيراً إن كل شيء يختص بالانتشار الجغرافي للغات، وإلى تفرع اللهجات، إنما يقع خارج علم اللغة. إن التمييز بين علم اللغة الداخلي والخارجي يبدو من الأمور المتناقضة هنا، طالما أن الظاهرة الجغرافية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمقومات وجود اللغة. ولكن الانتشار الجغرافي وتفرع اللهجات لا يؤثران في النظام الداخلي للغة.

لقد زعم البعض أن المسائل التي مر ذكرها، آنفاً، لا يمكن أن تفصل عن الدراسة الحقيقية للغة. وقد سادت هذه النظرة بصورة خاصة، بعد ظهور التأكيد الشديد على جميع حقائق الحياة (Realia) ^(٧).

ألا يعتمد النظام النحوي دائماً على العوامل الخارجية للتغيير النحوي كما يتغير النظام الداخلي للنبات بتأثير العوامل الخارجية (كالتربة والمناخ وغيرهما)؟ وقد يبدو أننا لا نستطيع أن نفسر تفسيراً مقنعاً الاصطلاحات التقنية والمفردات المستعارة، التي تكثر في اللغات من غير أن نأخذ بنظر الاعتبار تطور هذه الكلمات. فهل نستطيع أن نميز النمو الطبيعي العضوي للغة من اللغات عن أشكالها المصطنعة كاللغة الأدبية، التي هي نتاج العوامل الخارجية غير العضوية؟ فاللغات المألوفة تتطور دائماً جنباً إلى جنب مع اللهجات المحلية.

أعتقد أن دراسة الظواهر اللغوية الخارجية مفيدة جداً: ولكن القول أننا لا نستطيع فهم النظام اللغوي الداخلي من غير دراسة الظواهر الخارجية إنما هو كلام بعيد عن الحقيقة، لنأخذ مثلاً استعارة الكلمات من لغة أجنبية. نلاحظ، منذ الوهلة الأولى، أن الاستعارة هذه ليست عاملاً ثابتاً في حياة لغة من اللغات. إذ نجد في بعض الوديان المعزولة لهجات لم تأخذ لفظة غريبة واحدة من اللغات الأخرى. هل نقول أن مثل هذه اللغات تقع خارج الظروف الطبيعية للسان وهي تحتاج إلى دراسة خاصة «كدراسة الوحوش الغريبة» لأنها لم تمتزج بغيرها؟ والأهم من ذلك أن الكلمة المستعارة لا تُعدّ غريبة حالما تدرس ضمن نظام معين: فمثل هذه الكلمة لا وجود لها إلا ضمن علاقتها وتقابلها مع الكلمات الأخرى المتصلة بها، شأنها شأن أية إشارة حقيقية. وعلى العموم يمكن الاستغناء عن معرفة الظروف، التي تساهم في تطور اللغة، بل إن في حالة بعض اللغات - مثل الزندية والسلافية القديمة - لا تعرف هوية المتكلمين الأوائل بها: ولكن

(٧) كلمة المانية أصلها Realien وتعني الإشارة إلى جميع حقائق الحياة من شكل وأبعاد وغير ذلك مما يتعلق بالأشياء والأمور وغيرهما. وقد ظهرت كتب كثيرة في الألمانية بعنوان Reallexicon (باسكن).

عدم توفر مثل هذه المعرفة لا يمكن في اي حال من الاحوال أن يعيق دراسة هذه اللغات دراسة داخلية واكتشاف التغييرات التي حدثت لها. وعلى كل حال يكون الفصل بين وجهتي النظر اللتين ذكرتا ضرورة: وكلما كان الفصل صارما كان ذلك أفضل.

وأفضل برهان على الحاجة الى الفصل بين وجهتي النظر هو ان كل واحدة منهما تتطلب أسلوبا متميزا في البحث. فعلم اللغة الخارجي يستطيع ان يجمع بين تفصيل وآخر من غير ان يقع في قبضة النظام. فيقوم كل كاتب، على سبيل المثال، بتصنيف الحقائق الى مجموعات بالطريقة التي يراها مناسبة - اي الحقائق التي تتعلق بانتشار اللغة خارج بيئتها. واذا اراد ان يبحث عن العوامل التي تخلق اللغة الادبية فباستطاعته ان يستخدم اسلوب التعداد. واذا رتب الحقائق باسلوب منظم الى حد ما، فانما يفعل ذلك من اجل الوضوح ليس إلا.

اما في علم اللغة الداخلي فأن الامر يختلف تماما، فالتنظيم العشوائي لا يفيد في هذا العلم. لان اللغة نظام له ترتيب خاص به. ويمكن توضيح ذلك بتشبيه النظام اللغوي بالشطرنج فما هو خارجي في الشطرنج يمكن فصله بسهولة عما هو داخلي. فاذا استخدمنا اجزاء من الشطرنج مصنوعة من العاج بدلا من الخشب فان هذا التغيير لا اثر له في نظام الشطرنج. اما اذا قللنا من اجزاء الشطرنج او اضعفنا اليها فأن هذا التغيير له اثر كبير في اللعبة. اذن ينبغي للمرء ان يميز بين ما هو خارجي وما هو داخلي. ويستطيع المرء في كل حالة ان يحدد طبيعة الظاهرة باستخدام هذه القاعدة، فكل شيء يحدث تغييرا في النظام بأي أسلوب كان انما هو داخلي.

الفصل السادس

الصورة الكتابية للغة

١ - الحاجة الى دراسة الموضوع:

إن الهدف الملموس لعلم اللغة هو النتاج الاجتماعي المخزون في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع ما: ونقصد بذلك اللغة. ولكن هذا النتاج يختلف باختلاف المجموعات اللغوية: إذ علينا ان ندرس لغات وليس لغة واحدة. لذا يضطر اللغوي إلى ان يلم باكبر عدد ممكن من اللغات، كي يحدد العناصر العامة المشتركة بينها، ويكون ذلك عن طريق الملاحظة والمقارنة.

ولكننا نتعلم عن اللغات، عادة، من خلال الكتابة (النصوص المكتوبة). فحتى في دراسة لغتنا كثيرا ما نستخدم النصوص المكتوبة. وتزداد الحاجة الى استخدام الأدلة المكتوبة عند دراسة اللغات البعيدة عنا. ولا سيما اللغات التي لم يُعَدَّ أحد يتكلم بها (اللغات البائدة). ولو فعل الناس دائما مايفعلونه في باريس وفيينا لتوفرت لدينا نصوص مباشرة في دراسة كل لغة من اللغات. اذ يقوم الباحثون في هاتين المدينتين بتسجيل نماذج من جميع اللغات. ومع ذلك لا يمكن توفير النماذج المكتوبة للمهتمين بالموضوع الا عن طريق الكتابة.

فالكتابة - مع انها لا تمت بصلة الى النظام الداخلي للغة - تستخدم كثيرا لتمثيل اللغة او التعبير عنها. اذن لايمكن اهمال الكتابة، بل يجب ان نلم بفوائدها وعيوبها ومخاطرها.

٢ - تأثير الكتابة : اسباب تقديمها وفق الشكل المنطوق :

اللغة والكتابة نظامان متميزان من الاشارات. والهدف الوحيد الذي يُسَوَّغ وجود الكتابة، هو التعبير عن اللغة. ولكن الهدف لعلم اللغة ليس الصورة المكتوبة والصورة المنطوقة للكلمات. بل يقتصر هذا الهدف على الاشكال المنطوقة. بيد ان الشكل المنطوق يرتبط ارتباطا وثيقا بالصورة المكتوبة حتى ان الصورة الاخيرة تطفئ على الصورة الاولى (الكلمة المنطوقة). فيهتم الناس بالصورة المكتوبة للاشارة الصوتية أكثر من اهتمامهم بالأشارة نفسها. وشبيه هذا الخطأ اعتقادنا اننا نستطيع ان نعرف عن الشخص من صورته أكثر من النظر اليه مباشرة.

ان هذا الوهم، الذي وجد منذ اقدم الازمنة، ينعكس في الآراء، التي كثيرا ما

نسمعها الآن عن موضوع اللغة. ولنأخذ الرأي القائل ان اللغة اسرع الى التغيير اذا لم تكن لها صورة مكتوبة. لا يوجد ما هو ابعد عن الحقيقة من هذا الرأي. قد تؤخر الكتابة عملية التغيير في ظروف معينة. ولكن عدم وجود الكتابة لا يعرض، في اية حال من الاحوال، صيانة اللغة لخطر ما. ان اقدم النصوص المكتوبة في اللغة اللتوانية - التي ما تزال مستخدمة في شرقي بروسيا وفي اقسام من روسيا - يعود تاريخها الى عام ١٥٤٠ م. ولكن اللغة اللتوانية حتى في ذلك التاريخ تقدم لنا صورة صادقة للغة الهندية الاوربية الاولى اكثر من الصورة التي تقدمها لنا اللغة اللاتينية في عام ٣٠٠ ق م. وهذا المثال يكفي لبيان مدى استقلال اللغة عن الكتابة.

لقد بقيت بعض الحقائق اللغوية الطفيفة من دون مساعدة أي تدوين لها. فكان الناس طوال فترة اللغة الالمانية القديمة العليا Old high German يكتبون töten و fuolen و stözen. ونجد كلمتي töten و füelen تظهران في نهاية القرن الثاني عشر، في حين اختفت كلمة stozen. من اين اتى هذا الفرق (في الصوتين ö,ü)؟ اينما حدثت الإمالة umlaut يتبعها دائما الصوت y في المقطع الذي يليها. فكانت اللغات الجرمانية الاولى تستخدم daupyan و folyan في حين استخدمت stautan. وفي بداية الفترة الادبية (نحو عام ٨٠٠ م) اصبح الصوت y ضعيفا حتى اختفى اثره من الكتابة طوال ثلاثة قرون. ولكن بقي له اثر طفيف في الشكل المنطوق وهو السبب الذي جعل هذا الصوت يعود الى الظهور بصورة عجيبة في نحو عام ١١٨٠. وهكذا انتقلت التغييرات في اللفظ، حتى الطفيفة منها، انتقالا دقيقا. من دون مساعدة الكتابة، من جيل إلى آخر.

فاللغة إذن لها تقليد شفهي ثابت محدد مستقل عن الكتابة. ولكن تأثير الكتابة يحجب عنا رؤية ذلك. وهكذا خلط اللغويون الاوائل بين اللغة والكتابة، كما فعل علماء الانسانيات قبلهم. بل ان بوب نفسه لم يميز بوضوح بين الحروف والاصوات. اذ يستنتج القارئ من كتاباته ان اللغة لا يمكن فصلها عن الحروف التي تكتب بها. ووقع في هذا الخطأ ايضا من جاء بعده مباشرة. فالرمز الكتابي the (للصوت الاحتكاكي b) جعل غريم يعتقد ان th صوت مضاعف، وانه تنفيس من اصوات الفلق، وطبقا لذلك خصص لهذا الصوت مكانا في قانونه الذي يخص تغيير الاصوات الصحيحة او الصامتة consonants والموسوم بـ Lautverschiebung. وما يزال المثقفون، حتى يومنا هذا، لا يميزون بين اللغة والكتابة. لنأخذ مثلا واحدا فقط: لقد قال كاستون دي شامب Gaston Deschamps ان الفضل يعود الى بيرثيلو Berthelot في «صيانة اللغة الفرنسية من الخراب» لانه عارض اصلاح طريقة كتابتها.

ولكن كيف يمكن ان نوضح أثر الكتابة؟

١ - تبدو لنا الصورة الكتابية وكأنها شيء ثابت مستقر، وهي بذلك أنسب من الصوت

لتفسير وحدة اللغة خلال العصور. ومع ان الكتابة تخلق وحدة وهمية، فإن إدراك
اواصرها اسهل علينا من ادراك آصرة الصوت، وهي الآصرة الحقيقية الوحيدة.
٢ - اغلب الناس يتنبّهون الى الصور المرئية اكثر من تنبّهم الى الصور الصوتية وسبب
ذلك ان الانطباعات الاولى اوضح واكثر ثباتا من الانطباعات السمعية: وهي بذلك
تحتل مكانة مفضلة على الانطباعات الاخيرة: فالشكل الكتابي يحدث انطباعا لدى
الناس على حساب الشكل الصوتي.

٣ - ومما يزيد من هذه الاهمية التي لا تستحقها الكتابة هي اللغة الادبية التي كتبت
بها المعاجم وكتب النحو. ويتعلم الاطفال في المدارس من الكتب وعن طريقها.
ويتحكم في اللغة نظام معين: والنظام نفسه يتألف من قواعد معينة للاستعمال،
اي نظام الكتابة. ولذلك تكتسب الكتابة الاهمية الاولى. وينسى الناس انهم
يتعلمون الكلام قبل تعلمهم الكتابة، فينعكس التسلسل الطبيعي.
٤ - واخيراً اذا وجد خلاف بين اللغة ونظام الكتابة، صعب حسم هذا الخلاف الاعلى
اللغوي. ولما كان اللغوي لا يملك اية صلاحية في هذه المسألة فأن النزاع يكاد
يحسم دائماً في صالح الكتابة - او الشكل المكتوب، لان مثل هذا الحل اسهل.
وبذلك تكتسب الكتابة اهمية لا تستحقها.

٣ - انظمة الكتابة:

للكتابة نظامان فقط هما:

١ - النظام الصوري وفيه يعبر عن كل كلمة باشارة واحدة لا علاقة لها بالاصوات التي
تتألف منها الكلمة نفسها. فالاشارة المكتوبة الواحدة تمثل كلمة بأكملها. وتمثل،
من ثَمَّ، الفكرة التي تعبر عنها الكلمة. واشهر مثال للنظام الصوري في الكتابة:
الصينية.

٢ - النظام الذي يعرف عادة بالنظام «الصوتي» وهو يحاول ان يعبر عن الاصوات
المتعاقبة التي تتألف منها الكلمة. والنظام «الصوتي» هذا قد يعتمد على المقطع او
على الحرف، اي على العناصر الصغرى المستخدمة في الكلام.

ويصح على كلا النظامين القول بأن الكلمة المكتوبة تجنح الى ازاحة الكلمة المنطوقة
في عقولنا: وان كانت هذه الظاهرة اقوى في النظام الصوري. اذ ينظر الصيني الى
الصورة الكتابية والكلمة المنطوقة على انها رمزان لفكرة: فهو يعد الكتابة لغة ثانية. فاذا
استخدمت في الحديث كلمتان؛ لهما صوت واحد فهو قد يستعين بالكتابة للتعبير عن
فكرته. ولكن في الصينية لا يحدث خلل كبير عند ما يقوم المرء في ذهنه باستبدال الكلمة
المنطوقة بالكلمة المكتوبة، كما هي الحال في نظام الكتابة الصوتي؛ حيث الخلل الكبير.
والسبب في ذلك هو أن الاستعاضة مطلقة: فالرمز الكتابي الواحد يمكن ان يعبر عن

كلمات من لهجات صينية مختلفة.

سأقتـ برحديثي على نظام الكتابة الصوتي، ولا سيما النظام المستخدم اليوم. وهو مستمد من حروف الهجاء (الالفباء) الاغريقية.^(٨) عندما تبتكر حروف صوتية تبدو في بادئ الأمر وكأنها تعبر تعبيراً منطقياً عن اللغة ـ الا اذا كانت هذه الحروف مقتبسة، تعاني من التناقض. فالاغريق مشهورون بالمنطق. ولكن العلاقات المنسجمة بين الكتابة واللفظ لا تدوم طويلاً. لماذا؟ هذا سؤال يتطلب منا دراسة.

(٨) فيما يأتي اوجه التشابه والخلاف بين نظام الكتابة الصوتية الذي استخدمه دي سوسور والنظام الذي اوصى به الاتحاد الدولي لعلم الصوت LPA :ـ

DE SAUSSURE IPA			DE SAUSSURE IPA		
p	[p]	pin	l	[l]	let
b	[b]	bin	r	[r]	run
m	[m]	man	i	[i]	repeat
t	[t]	ten	u	[u]	boot
d	[d]	dig	a	[y]	French pur
n	[n]	not	e, e	[e]	pet
k	[k]	cat	e, e	[e]	chaotic
g	[g]	get	ě	[e]	French vin
r	[n]	thing	o	[o]	ought
f	[f]	fox	o	[o]	notation
v	[v]	vixen	õ	[5]	French bon
b	[e]	thin	ö	[ce]	French seul
c	[o]	then	ö	[Ø]	French creuse
s	[s]	sing	ō	[de]	French un
z	[z]	zero	a	[a]	father
s	[S]	sure	á	[a]	French blanc
z	[3]	azure	a	[a]	wait
x	[c]	German ich	w	[w]	yes
x	[x]	German doch	y	[j]	above
			e	[e]	

See especially pages 46 — 49. [Tr]

٤ - الاسباب التي تؤدي الى عدم الانسجام بين الكتابة واللفظ.

يرجع عدم الانسجام بين الكتابة واللفظ الى اسباب كثيرة، اذكر منها هنا الاسباب المهمة فقط.

اولا: ان اللغة في تطور مستمر، اما الكتابة فتجنح نحو الاستقرار. وقد تبلغ هذه العملية مرحلة تبتعد معها الكتابة عن الاصوات التي ينبغي ان تعبر عنها. فالحروف التي تمتاز بالدقة في مرحلة معينة تغدو غير منطقية بعد قرن من ذلك. وقد يغير الناس رموز الكتابة لتطابق التغيير في اللفظ، ولكنهم يتخلون عن هذه المحاولات بعد فترة من الزمن. وهذا ما حدث في الفرنسية في حالة oi: كما هو مبين فيما يأتي:

الكتابة	اللفظ	
rei, Lei	rei, Lei - ١	١ - القرن الحادي عشر
roi, Loi	roi, Loi - ٢	٢ - القرن الثالث عشر
roi, Loi	roe, Loe - ٣	٣ - القرن الرابع عشر
roi, Loi	rwa, lwa - ٤	٤ - القرن التاسع عشر

لقد سجلت التغييرات حتى الفترة الثانية، ونسقت كل خطوة في تاريخ اللغة مع الخطوة التي تقابلها في تاريخ الكتابة. ثم بقي الشكل المكتوب للكلمة على حاله بعد القرن الرابع عشر، في حين استمرت تطور اللغة. ومنذ ذلك الحين ازدادت الفجوة بين اللغة ونظام الكتابة. وادى اسلوب الجمع بين العناصر المختلفة الى ظهور انعكاس له في نظام الكتابة نفسه، واصبح للرمز المركب oi قيمة جديدة لا علاقة لها بـ o أو i.

ثمة امثلة كثيرة من هذا النوع. لماذا يكتب الفرنسيون mais (لكن) ويقولون me fait (حقيقة) ويقولون fe؟ ولماذا يكون للحرف c قيمة s في أغلب الاحيان؟ الجواب عن ذلك ان اللغة الفرنسية احتفظت باسلوب قديم لكتابة الكلمات.

فالكتابة تتأخر دائما عن اللفظ. ان الفرنسية اخذت تتغير اليوم الى y. فيقول الناس éveyer و mouyer. كما يقولون essuyer (يمسح) و nettoyer (ينظف). ولكنهم يكتبون الكلمتين الاولى والثانية eveiller (يوقظ يستيقظ) و mouller (ينقع).

وهناك سبب آخر لعدم الانسجام بين الكتابة واللفظ وهو: اذا اقتبست حروف كتابة من لغة اخرى فقد لا تكون هذه الحروف مناسبة للقيام بوظائفها الجديدة. لذا ينبغي ايجاد وسيلة للتغلب على هذه الصعوبة (كاستخدام حرفين للدلالة على صوت واحد). لناخذ الصوت b في اللغات الجرمانية وهو صوت احتكاكي مهموس يلفظ بملامسة اللسان بالاسنان. ولما كانت اللاتينية تخلو من اشارة ترمز الى هذا الصوت فقد

استخدمت الاشارة المركبة th. وحاول الملك جليبرك من ملوك الفرنك الاوائل ان يضيف رمزا جديدا الى الحروف اللاتينية للتعبير عن هذا الصوت ولكن محاولته باءت بالفشل. وشاع استخدام th. ونجد في الانكليزية، في القرون الوسطى، صوتا مغلقا (كما في sed) وآخر مفتوحا e (كما في Led). ولما كانت حروف الهجاء لا تميز بين هذين الصوتين، ابتدع شكلان لكتابة الكلمتين seed و Lead. وتستخدم الفرنسية الرمزين ch للتعبير عن الصوت s(ش). وهناك أمثلة اخرى كثيرة.

ويساعد اثر أصول الكلمات (اتمولوجيا) في زيادة الفجوة بين الكتابة واللفظ. وكان هذا الاثر على أشده في بعض الفترات التاريخية (كعصر النهضة مثلا). فحتى الاصل الكاذب لكلمة ما قد يقحم نفسه في اسلوب كتابتها. لقد اضيف الحرف d الى الكلمة الفرنسية poids (ثقل) نظرا للاعتقاد الخاطئ بأن الكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية pondus. وحقيقة الامر أن الكلمة الفرنسية poids مشتقة من pensum. ولا يهم كثيرا اذا كان تطبيق المبدأ صحيحا ام لا: فالخطأ هو في كتابة الكلمة طبقا لاصولها.

إن الاسباب الاخرى المؤدية الى عدم الانسجام بين الكتابة واللفظ، أقل وضوحا من الاسباب التي مر ذكرها. فبعض المسائل غير المنطقية لا يمكن غض النظر عنها حتى اذا استندت الى براهين مستمدة من اصول الكلمات. لماذا نستخدم الالمانية thun بدلا من tun (للمرئ المركب th في هذه الكلمة قيمة t)؟ لقد قيل ان الرمز h يمثل التنفيس الذي يعقب الصوت الصحيح في بداية الكلمة. اذا كان الأمر كذلك وجب ان يضاف كلما وقعت ظاهرة التنفيس. ولكن الالمانية تضم عددا كبيرا من الكلمات التي تقع فيها ظاهرة التنفيس من دون ان نجد في كتابتها الحرف h (كما في Tisch و Tugend وغيرهما).

٥ - عواقب عدم الانسجام بين الكتابة واللفظ.

إن تصنيف نقاط التناقض في نظام الكتابة عمل يستغرق وقتا طويلا. ولكن احد عيوب هذا التناقض هو ان الصوت الواحد يرمز له بالكثير من الاشارات الكتابية، فتستعمل الفرنسية j, g, ge كما في joli (جميل)، geler (يتجمد) geai (نوع من الطيور) للتعبير عن الصوت ž: وتستخدم s و Z للتعبير. و Ç, C, S, Z و it (natim) الحروف X, sc, Sc (امة) acquiesce (يخضع) و acquiesc, aut (خضوع) و dix (عشرة): وتستعمل c qu و K و ch و cc و cqu (كما في acquirer = حصل على) للصوت k. وعلى العكس من ذلك قد يدل رمز كتابي واحد على اكثر من صوت واحد فالحرف t يرمز الى الصوتين t و s والحرف g يرمز الى الصوت g او ž الى غير ذلك.^(٩)

(٩) إن الفجوة بين الصوت والكتابة اكبر في الانكليزية منها في الفرنسية وهي أقل في العربية منها في هاتين اللغتين. (المترجم).

ومما يستحق الذكر «الاسلوب غير المباشر» لكتابة الكلمة. فالالمانية لا تستخدم اصواتا صحيحة مضاعفة في Zettel و Teller وغيرها فتستخدم tt و اللدلالة على ان الحركة السابقة قصيرة مفتوحة.^(١٠) وتستخدم الانكليزية، لسبب مقارب من هذا، الحرف e صامتا في نهاية الكلمة لد الحركة السابقة: كما في mad و made. فالحرف e الذي يؤثر على حركة المقطع السابق له يظهر للعين وكأنه مقطع ثان.

ومع ذلك تعبر هذه النقاط، غير المنطقية، في الكتابة عن امور معينة في اللغة. ولكن هناك مسائل أخرى لا مسوَّغ لها. فالفرنسية لا تستخدم صوتين صحيحين مشددين الا في الصيغة القديمة، التي تدل على الاستقبال (مثال mourrai سأموت) courrai (سوف أركض) وغيرهما. في حين ان نظام الكتابة في الفرنسية يزخر بمثل هذه الحروف المضاعفة (مثال ذلك bourru (سيء الخلق) sottise (غباء) souffrir (يعاني) وغيرها).

إن الكتابة قد تتسم بعدم الاستقرار في بعض الفترات مع انها تجنح دائما نحو القياس. وينتج عن ذلك تذبذب في طريقة الكتابة، نابع عن محاولة تسجيل الاصوات في الفترات المختلفة. مثال ذلك ertha و erdha و erda او thri و dhri dri في الالمانية القديمة العليا. فالاشارات th و dh و d كلها تعبر عن عنصر صوتي واحد. ولكن ما هذا العنصر؟ الكتابة لا تدلنا على الجواب. والصعوبة هنا هي اننا نجد طريقتين لكتابة الكلمة الواحدة. ولا ندري هل ان هذا يشير دائما الى اسلوبين تلفظ بهما هذه الكلمة؟ ولنفرض ان النصوص المكتوبة في لهجتين متجاورتين تحتوي على الشكل المكتوب asca الذي يمثل كلمة في احدى اللهجتين وعلى ascha الذي يمثل الكلمة نفسها في اللهجة الثانية. فاذا كان لفظ الشكلين واحدا فان ذلك يمثل تذبذبا في الكتابة. واذا لم يكن واحدا فان الفرق يعود الى اختلاف صوتي واختلاف في اللهجة: كما في الاشكال الاغريقية paizō و paizdō و paiddō. وقد يكون سبب الاختلاف فترتين زمنيتين متعاقبتين. ففي الانكليزية hwat و hweel وغيرهما كتبتا فيما بعد wheel، what. هل يشير هذا التغير الى تغير في نظام الكتابة ام في الصوت؟

ويمكن ايجاز ما قلناه بالآتي: ان الكتابة تطمس المعالم الحقيقية للغة. فهي ليست رداء للغة بل شيء تتنكر به. ويوضح هذه الحقيقة كتابة الكلمة الفرنسية oiseau (طير). فليس في هذه الكلمة رمز كتابي (حرف) يدل على صوت من الاصوات التي تتألف منها (wazo). فالكتابة هنا لا تسجل اي جزء من صورة اللغة.

وهناك نتيجة أخرى لعدم الانسجام، وهي كلما كبرت الفجوة بين الكتابة وما ينبغي ان تمثله هذه الكتابة، زاد الميل الى استخدامها اساسا للغة. فعلماء النحو يشيرون دائما

(١٠) وتستخدم العربية التشديد (*) لوظيفة مقارنة من هذه (المترجم).

الى الصورة المكتوبة . ان هذا الميل يسهل تفسيره من الناحية السايكولوجية . ولكن نتائجه تقلق المرء . فاللجوء الكثير الى استنتاج اللفظ من الصورة المكتوبة للكلمة يعزز الخطأ ، ويقلب العلاقة الحقيقية المشروعة بين الكتابة واللغة رأساً على عقب . وكل من يقول إن هذا الحرف ينبغي ان يلفظ بهذه الصورة انما يرتكب خطأ في خلطه بين الصورة المكتوبة لصوت ما والصوت نفسه . ان لفظ oi في الفرنسية بهيئة wa امر قائم بذاته ، ووجود هذه الصورة الكتابية شيء مستقل . وحقيقة الامر أن الصوت هو الذي يكتب (ولا يصح القول ان oi يلفظ wa) . والقول بان هذه الحالة الشاذة سببها استثناء في لفظ الحرفين o و i امر غير صحيح ، لان هذا يوحي بأن اللغة تعتمد على صورتها المكتوبة ، وانه يجوز للمرء استغلال قدر من الحرية في الكتابة ، وكأن رموز الكتابة هي المعيار .

إن الآراء الخاطئة عن العلاقة بين الصوت ورموز الكتابة نجدها حتى في قواعد النحو ، كما هي الحال في h الفرنسية . فبعض الكلمات الذي يبدأ بحركة غير تنفيسية un-aspirated vowel يكتب بالحرف h لتوحي بالاصول اللاتينية لها . فنجد L'homme (رجل) (وكانت تكتب فيما مضى ome) بسبب اصلها اللاتيني homo . اما في الكلمات الجرمانية الاصل فأن الحرف h في بداية الكلمات كان يلفظ: كما في hache (ساطور) ، hareng (نوع من السمك) و honte (عيب) وغيرها . وطالما كان التنفيس مستخدماً فان الكلمات الجرمانية خضعت للقاعدة التي يخضع لها الصوت الصحيح الاول: فكان الناس يقولون deu haches (ساطوران) lehereng (سمكة الرنجة) . كما خضعت الكلمات الاخرى للقاعدة ، التي تخضع لها الحركة التي تقع في البداية . فيقول الناس deu — z — ommes (رجلان) L'omme (الرجل) . وتصح في هذه الفترة القاعدة التي تقول بعدم «ظهور الربط والحذف قبل صوت h الذي يتميز بالتنفيس» . ولكن هذه القاعدة لا معنى لها الآن . لان h التنفيس لم يعد له وجود ، الا اذا كانت هذه التسمية تطلق على شيء ليس بالصوت ولكنه في الوقت ذاته يمنع وقوع الربط والحذف . فندخل في هذه المرة ايضا في دائرة مفرغة ، ونجد ان h ليس سوى مولود خيالي جاءت به الكتابة .

إن لفظ كلمة ما ، لا يقرره نظام الكتابة بل تاريخ هذه الكلمة . فشكل هذه الكلمة في لحظة معينة يعبر عن لحظة في التطور المصطنع لها ، ويخضع هذا التطور لقوانين دقيقة . فكل خطوة تحدد الخطوة التي تليها : والامر الذي ينبغي ملاحظته ، وهو كثيرا ما يهمل ، انما هو تطور الكلمة ، اي اصولها .

إن اسم المدينة Auch هو oś بالرموز الصوتية وهذه هي الكلمة الفرنسية الوحيدة التي يلفظ فيها ch في نهاية الكلمة ś (ش) . ولكن لا يفيدنا كثيرا اذا قلنا ان ch في اخر الكلمة تلفظ ś في كلمة Auch فقط فالذي يهمنا هو: كيف تغيرت الكلمة اللاتينية Auscii الى oś؟ ولا أهمية للكتابة في هذه المسألة .

هل تلفظ الكلمة الفرنسية gageure (رهان) بالصوت ٥ أم الصوت ن؟ يقول بعض المتكلمين الصحيح هو gažör، لأن كلمة heure (ساعة) تلفظ ör ويرد عليهم آخرون بقولهم ان هذا غير صحيح: واللفظ الصحيح هو gažür لأن ge تعادل ž كما في geôle (سجن). ان مثل هذا الجدل لا معنى له. والمسألة الحقيقية هي تطور اصول الكلمة. إذ اشتقت gageure من gazur (اقتنى)، كما اشتقت tournure (صورة) من كلمة tourner (دار)، إذن gažür اقرب الى الحقيقة. اما gažur فسبب وجودها الوحيد هو الطبيعة المضللة للكتابة.

ولكن طغيان الكتابة له نتائج ابعد من ذلك: فالكتابة تفرض نفسها على عامة الناس وبذلك تؤثر في اللغة وتحورها. ولا يحدث هذا الا في اللغات ذات الآداب الراقية، حيث تقوم النصوص المكتوبة بدور مهم. فتؤدي الصور المرئية للكلمات الى طرق خاطئة في اللفظ: وهذه الاخطاء هي في حقيقتها باثولوجية.^(١١) فأساليب الكتابة ادت الى اخطاء في اللفظ في عدد كبير من الكلمات الفرنسية. فعلى سبيل المثال كان لاسم العلم Lefèvre (المشتق من اللاتينية faber) طريقتان في الكتابة: احدهما بسيطة معروفة لدى عامة الناس والأخرى ادبية مستمدة من اصول الكلمة: وهما Lefèvre و Lefèbvre. ولما كان النظام القديم للكتابة لا يميز بين ٧ و u، فقد قرئت Lefèbvre كما لو كانت Lefèbure، وأقحمت b في الكلمة ولم يكن لها وجود قط، كما اقحمت u بسبب الغموض. ولفظ الكلمة الان يعتمد على الشكل الاخير لها.

وقد تزداد اخطاء اللفظ الناتجة عن الكتابة بمرور الزمن، وربما يزداد عدد الحروف التي يلفظها المتكلم. فقد اخذ بعض سكان باريس يلفظون الحرف t في عبارة septfemmes (سبع نساء).^(١٢) ويرى دارمستيتز ان الحرفين الاخيرين في vingt (عشرون) سيلفظان في المستقبل - بالاثر الفظيع للكتابة.

إن هذا التشويه الصوتي هو جزء من اللغة ولكنه لا ينبع من الوظيفة الطبيعية لها. فهو ينبع من تأثير خارجي. وعلى علم اللغة ان يضعه في محل خاص به للملاحظة: شأنه في ذلك شأن الحيوان الغريب.^(١٣)

(١١) لقد استخدمت كلمة باثولوجي في الفرنسية وشاعت على يد لترية Littré ثم استخدمها كيليرون Gilléron ودارمستيتز Darmesteter ودي سوسور. (باسكن).

(١٢) ويمكن ملاحظة ذلك الميل في كلمة often الانكليزية (باسكن).

(١٣) تذكرنا مصطلحات دي سوسور بالتعبير الباثولوجية التي استخدمها كيليرون (كما في Pathologie et therapeutique verbales المنشور في باريس عام ١٩٢١). (باسكن).

الفصل السابع

النظام الصوتي (فونولوجي): phonology^(١٤)

١ - تعريف النظام الصوتي:

ان الذي يجرد الكلمة المكتوبة، عن قصد، من الصورة المرئية لن يرى في هذه الكلمة سوى كتلة لا شكل لها، يصعب التعامل معها. فتجريد الكلمة من الصورة المكتوبة كحرمان الذي يتعلم السباحة من حزام النجاة.

من المفضل ان يحل ما هو طبيعي في محل ما هو مصطنع: ولكن هذا امر لا يمكن تحقيقه الا بعد دراسة اصوات اللغة. فاذا جردنا هذه الاصوات من رموز الكتابة، اصبحت امورا غامضة. فدعامة الكتابة، مع انها مضللة، شيء مفيد. وكثيرا ما وقع اللغويون الأوائل في اخطاء لانهم كانوا يجهلون فلسجة الاصوات المنطوقة. لذا ارى ان دراسة الاصوات هي الخطوة الاولى نحو معرفة الحقيقة، لأن مثل هذه الدراسة تقدم الدعامة المطلوبة. وقد ادرك اللغويون الآن هذه الحقيقة، فأخذوا يقومون بالبحوث في الاتجاهات التي بدأها غيرهم (كعلماء الفلسجة وخبراء نظرية الغناء وآخرون). وقدموا لعلماء اللغة علما مساعداً حرر علم اللغة من الكلمة المكتوبة.

إن فلسجة الاصوات (وتسمى بالالمانية - laut او Sprachphysiologie) كثيرا ما يطلق عليها فونتيك Phonetique بالفرنسية (و phonetik في الالمانية وفي الانكليزية)، phonetics اي علم الصوت. وهذه التسمية - كما ارى - غير مناسبة. لذا سأستخدم عوضا عنها لفظة فونولوجي (phonology phonologie في الانكليزية). لان علم الفونتيك اول ما استخدم للدلالة على دراسة تطور الاصوات - وينبغي ان يبقى ضمن هذا المفهوم. فلا يجوز المزج بين علمين متميزين باستخدام تسمية واحدة لكليهما. إن الفونتيك علم تاريخي، يحلل الاحداث والتغيرات، ويتحرك من خلال الزمن. اما فونولوجي فيقع خارج الزمن، لان عملية النطق لا تتغير ابدا.

فالدراستان متميزتان، ولكنهما تتعارضان. ان علم الصوت (فونتيك) جزء أساس من علم اللغة، اما النظام الصوتي (فونولوجي) فهو علم مساعد يختص بالكلام فقط.

(١٤) لقد حور دي سوسور ووسع تعريف النظام الصوتي في الفصول التي تلت هذا الفصل. ولم ينح منحى دي سوسور إلا كرامو Grammont، أما اللغويون الانكليز والامريكان فكثيراً ما يستخدمون لفظة phonology للإشارة الى الدراسة التاريخية للاصوات أو لدراسة وظائف الاصوات في لغة من اللغات. ويستخدمون phonetics لدراسة الاصوات المستخدمة في الكلام، و phonemics التي تقابل phonologie بالفرنسية والالمانية لدراسة الاصوات المميزة للغة (باسكن).

(لاحظ الفصل الرابع). ولا ندري ما فائدة الحركات الصوتية لو لم يكن للغة وجود: ولكن هذه الحركات لا تؤلف اللغة، فشرح جميع حركات الجهاز الصوتي الضرورية لانجاز الانطباع السمعي لا يؤدي، في أي حال من الأحوال، إلى توضيح مسألة اللغة. فاللغة نظام يعتمد على التقابل العقلي للانطباعات (الصور) السمعية، كما أن النسيج المطرز هو عمل فني يعتمد على التقابل المرئي للخيوط المتنوعة الألوان، فالشيء المهم في التحليل هو دور التقابلات oppositions وليس العملية التي بواسطتها نحصل على الألوان. لقد ذكرت الخطوط العامة للنظام الصوتي (فونولوجي) في الملحق: وسأحاول هنا أن أبين إلى أي حد يمكن لهذا العلم أن يساعد علم اللغة في التخلص من الأوهام الناتجة عن الكتابة.

٢ - الكتابة الصوتية:

يحتاج اللغويون قبل كل شيء إلى أسلوب لكتابة وتدوين جميع الأصوات المنطوقة جميع أنواع اللبس والغموض. وقد أقترح لهذا الغرض عدد كثير من الأساليب لكتابة.

ما متطلبات النظام الصوتي الحقيقي للكتابة؟

أولاً: ينبغي أن يمثل كل عنصر من عناصر السلسلة المنطوقة رمزا كتابيا واحداً. وكثيراً ما يهمل اللغويون هذا الشرط. فعلماء النظام الصوتي الانكليزي يهتمون بالدرجة الأولى بالتصنيف لا بالتحليل، لذا يستخدمون حرفين أو ثلاثة حروف للتعبير عن بعض الأصوات. ثانياً ينبغي أن نجد وسيلة ما للتمييز الدقيق بين الأصوات الانفجارية الداخلية implosive والأصوات الانفجارية الخارجية explosive. هل هناك ما يسوّغ استخدام حروف هجاء صوتية عوضاً عن نظام مستخدم للكتابة؟ لا يسعني هنا أن أفعل أكثر من التنويه بـ هذه المسألة المهمة. إذ اعتقد أن حروف الهجاء الصوتية ينبغي أن يقتصر استعمالها على اللغويين. وفي بادئ الأمر، كيف يمكن أن نجعل الانكليز والفرنسيين والألمان وغيرهم، يتبنون نظاماً موحداً. ثم أن نظاماً موحداً من حروف الهجاء يمكن استخدامه في جميع اللغات قد يغدو مثقلاً بالإشارات، التي ترسم فوق الحروف وتحدد نطق هذه الحروف - فضلاً عن المظهر الثقيل للصفحة المكتوبة بالحروف الصوتية. إذن فمحاولات بلوغ الدقة لابد أن تربك القارئ، لأنها تضيفي الغموض على الشيء الذي أريد بهذه الحروف التعبير عنه. وتكون العيوب أكثر من الفوائد. فالدقة الصوتية إذن غير مرغوب فيها خارج العلم.

والقراءة مسألة أخرى. فنحن نقرأ بطريقتين: فنلفظ الكلمة الجديدة غير المعروفة لدينا حرفاً حرفاً. أما الكلمة الاعتيادية المألوفة فنقرأها مرة واحدة بنظرة سريعة، من

دون التوقف عند كل حرف من حروفها. فتكتسب صورة الكلمة، بأكملها، قيمة لها فكرة. وفي هذه الحالة يبرز نظام الكتابة التقليدي. فهو مفيد للتمييز في الفرنسية بين tant (جدا) و temps (مناخ) / و et (و) و est (فعل الكينونة) و ait (فعل التملك) / و بين du (حرف بمعنى من لـ) (عليه)، وعبارة il devait (انه مدين) و ils devaient (انهم مدينون) وغيرها.^(١٥) وكل ما نأمله هو التخلص من معظم الامور المبهمة غير المنطقية في الكتابة. إن حروف الهجاء الصوتية مفيدة في تعليم اللغات، ولكن لا ينبغي تعميمها.

٣ - صحة الادلة التي تقدمها الكتابة.

ينبغي للمرء ان لا يظن ان اصلاح طريقة الكتابة لابد ان يتبع في الحال المرحلة التي يدرك فيها الناس ان الكتابة مضللة. فالاسهام الحقيقي للنظام الصوتي (فونولوجي) انما هو في توفير الخطوات الاحتياطية لمواجهة الصورة المكتوبة، التي يتطلب تجاوزها للوصول الى اللغة. فالادلة التي تقدمها الكتابة لا تصح الا بعد تفسيرها. وعلينا ان نرسم لكل لغة ندرسها نظاما صوتيا: اي وصفا للاصوات التي تعمل بها تلك اللغة. فكل لغة تعتمد في عملها على عدد محدد من الفونيمات (الوحدات الصوتية)^(١٦) المتميزة. ان هذا النظام يضم مجموعة من الحقائق لا يهتم اللغوي بسواها. ولا تشبهها الرموز الكتابية الا في الشيء اليسير. وتتوقف صعوبة تحديد هذا التشابه بدقة على اللغة وظروفها. اللغوي الذي يتعامل مع لغة من لغات الماضي لا تتوفر لديه الا المعطيات (data) غير المباشرة. فما الامكانيات التي يستطيع استغلالها لوضع النظام الصوتي لهذه اللغة؟

١ - ان اول ما لديه وأهمه هو الادلة الخارجية، لا سيما وصف الاصوات وطريقة اللفظ للفترة المعاصرة، قام بها علماء عاصروا اللغة. فقد وصلت اليها ملاحظات قيمة؛ تركها لنا النحويون الفرنسيون في القرن السادس عشر والسابع عشر، لا سيما اولئك الذين اهتموا بتدريس الفرنسية للأجانب. ولكن المعلومات التي تتضمنها كتابات اولئك الكتاب غالبا ما تكون غامضة، لانهم يفتقرون الى الاساليب الصوتية. ثم إن الاصطلاحات التي يستخدمونها تعتمد على مزاج الكاتب وتفتقر الى الدقة العلمية. لذا ينبغي تفسير الادلة التي يقدمونها وعدم قبولها على علاتها. فالاسماء

(١٥) لاحظ في الانكليزية sew, sow : two, too, to؛ و dew, due؛ وغيرها. (باسكن).

(١٦) حقا استخدم الاغريق x, φ, θ للتعبير عن kh (خ) و ph و th : تلفظ EPO φ كما في phéro. ولكن هذا الاسلوب جاء متأخرا : أما الكتابة القديمة فهي KHPI E وليس XAPI. وتستخدم الكتابة نفسها إشارتين للصوت k، وهما kappa و koppa ولكن الأمر يختلف في هذا الحال. حيث ظهر أسلوبان مختلفان في اللفظ. فكانت k تلفظ تارة حنكية وتارة حلقية velar. ثم ان kappa اختفت فيما بعد. وأخيراً - وهذه نقطة مهمة - نجد في الاغريقية القديمة وكذلك اللاتينية القديمة صوتاً صحيحاً مضاعفاً يعبر عنه بحرف واحد (كما في الكلمة اللاتينية fuisse وكانت تكتب FUISE). وهذا خروج عن القاعدة طالما ان s (المضاعفة) تستغرق دقيقتين إيقاعيتين - دقيقتين غير متجانستين - كما سنرى فيما بعد، ولهاتين الدقيقتين انطباعان سمعيان متميزان. ولكن هذا الخطأ له ما يسوّغه طالما ان الصوتين لهما صفة عامة واحدة، مع انهما متميزان. (سوسور).

التي اطلقوها على الاصوات - على سبيل المثال - غالبا ما كانت مضللة حيث اطلق الاغريق على الاصوات المجهورة g, d, b وغيرها بالاصوات الصحيحة الوسطى (mesai) كما اطلقوا على الاصوات الصحيحة المهموسة (voiceless) t و p و k وغيرها بلفظة psilai وترجمها النحويون اللاتين بلفظة tenues.

٢ - ان المعلومات الاكثر دقة تأتي من الجمع بين الادلة الخارجية والادلة الداخلية، وسأصنف هذه المعلومات في صنفين.

أ - الصنف الاول يضم الادلة المعتمدة على القياس في التطور الصوتي. فمن المهم ان يعرف الباحث الصوت الذي يعبر عنه حرف ما في فترة زمنية اخرى كي يحدد القيمة الصوتية لذلك الحرف. فالقيمة الحاضرة هي نتيجة تطور معين اذا عرفه الباحث استطاع ان يهمل بعض الفرضيات منذ البداية.

مثال ذلك القيمة الحقيقية للحرف السانسكريتي c غير معروفة، ولكننا نعرف انها حلت محل الحرف k الحنكي palatal الذي كان مستخدما في اللغة الهندية - الاوربية الاولى: وهذه المعلومات تقلل من مجال الحدس.

وإذا عرف اللغوي نقطة البداية (الانطلاق) والتطور الموازي لاصوات مشابهة في لغة من اللغات في اثناء تلك الفترة، فانه يستطيع ان يستخدم القياس المنطقي والتشابه للوصول الى نسبة للتغيير.

ومما لا شك فيه ان المسألة اقل صعوبة اذا كان الهدف تحديد اللفظ في مرحلة وسيطة، اذا عرفت نقطة البداية والنتيجة النهائية. مثال ذلك لا بد ان الصوت au في الفرنسية (كما في sauter «يقفز») كان حركة ثنائية diphthong في القرون الوسطى. لانه يحتل منزلة وسيطة بين al للفترة السابقة لتلك الفترة و o في الفرنسية الحديثة. واذا علمنا بوسيلة أخرى ان هذه الحركة الثنائية كانت لا تزال موجودة في فترة زمنية معينة، استطعنا ان نزعّم انها كانت موجودة ايضا في الفترة التي نرغب في دراستها من دون ان نبتعد عن الحقيقة في زعمنا هذا. فنحن لا نعرف بدقة القيمة التي تمثلها z في الكلمة الالمانية القديمة العليا wazer، ولكن ما يرشدنا إلى قيمتها هو كلمة water (الماء) التي تعود الى الفترة التي تسبق الفترة التي نحن بصددّها، وكذلك كلمة wasser (ماء) في الالمانية الحديثة. اذن لا بد ان تكون قيمة z الصوتية بين t و s. فيمكننا ان نرفض أية فرضية لا تأخذ الصوتين t و s بنظر الاعتبار. ولا يمكن ان نعتبر z صوتا حنكيا - على سبيل المثال - لان من المنطق ان لا يقع بين صوتين مخرجهما من الأسنان dental الا صوت مخرجه من الأسنان.

ب - تتوفر انواع كثيرة من البراهين المعاصرة: منها الفروق بين الصور المكتوبة. فنجد في فترة واحدة الصور المكتوبة الآتية في الالمانية القديمة العليا: ezan, zehan, wazer ولكننا لا

نجد cehan, wacer، وعندما نلاحظ الاشكال esan و essan و waser و wasser وغيرها نستنتج بسهولة أن الصوت z كان قريبا من الصوت s ولكنه يختلف عن الصوت الذي يعبر عنه بالرمز c في تلك الفترة. اعقب ذلك ظهور اشكال مثل wacer مما يدل على ان الفوينمين المتميزين في السابق امتزجا بعض الشيء.

وتعد النصوص الشعرية من الأدلة القيمة في دراسة اللفظ. فهي توفر لنا معلومات متعددة اعتمادا على اسلوب النظم: هل هو مقطعي ام كمي ام انه يستخدم تشابه الأصوات (كتوافق الاصوات في بداية الكلمة، او وسطها) او في الآخر (قافية). لذا كانت الاغريقية تميز في الكتابة بعض الحركات الطويلة (كالحركة e وكانت تكتب w) ولكن لم تميز غيرها. وينبغي لنا ان نرجع الى الشعراء لمعرفة القيمة الكمية لـ u,i,a وهكذا تساعدنا القافية على تحديد الفترة التي كان فيها الصوتان الصحيحان في نهاية الكلمتين الفرنسييتين القديمتين gras و faz (اللاتينية = facio = اعمل) متميزين ومتى بدأ هذان الصوتان يمتزجان بهيئة صوت واحد. وتساعدنا القافية، وكذلك التوافق في وسط الكلمة على معرفة ان e المشتقة من a اللاتينية (كما في pere (اب) المشتقة من patrein و tel (كذا) من talem و mer (البحر) من mare) لم تكن تلفظ كغيرها من امثلة هذا الرمز (e). فهذه الكلمات لا تستخدم في قافية واحدة او توافق صوتي واحد مع elle (هي) (المشتقة من illa و vert (اخضر) (من viridem) و belle (جميل) (من bella) وغيرها.

وينبغي اخيرا ان نذكر الأدلة التي توفرها لنا كتابة الكلمات التي اقتبست من اللغات الاخرى، والجناس اللغوي والقصص الخرافية وغيرها. مثال ذلك ان كلمة kawtsio الغوطية تقدم لنا معلومات مفيدة عن لفظ cautio في اللاتينية العامية vulgar Latin. وكانت الكلمة الفرنسية rio (ملك) تلفظ rwè في نهاية القرن الثامن عشر، هذا ما نستدل عليه من الحكاية التي يرويها لنا نايروب Nyrop (في كتابه Grammaire historique de la Langue Francaise ص ١٧٨). اذ يقول سنلت امرأة ايام محكمة الثورة ألم تقل، بحضور الشهود، ثمة حاجة الى ملك (roi). فأجابت انها لم تقصد ملكا مثل كابة Capet وغيره بل قصدت rouet maitre (عجلة حياكة).

ان جميع هذه الاساليب التي ذكرت آنفا تساعدنا على معرفة النظام الصوتي لفترة من الفترات، كما تساعدنا على تفسير الأدلة التي توفرها الكتابة تفسيرا مفيدا.

أما في دراسة اللغات الحية فالاسلوب المنطقي الوحيد يعتمد: اولا على وضع نظام للاصوات، يحصل عليه الباحث من الملاحظة المباشرة، وثانيا، ملاحظة نظام الاشارات المستخدم للتعبير عن هذه الاصوات - وان كان للتعبير عيوب. وما زال كثير من النحويين يستخدمون الاسلوب القديم الذي اظهرت عيوبه، فيقتصرون على الاشارة الى الطريقة التي يلفظ بها كل حرف من حروف اللغة، التي يريدون دراستها. ان استخدام الاسلوب

القديم لا يساعد على تقديم صورة واضحة للنظام الصوتي في لغة من اللغات .
ومع ذلك، حدث تقدم كبير في الاتجاه الصحيح لدراسة النظام الصوتي، وأسهم
المختصون في هذا العلم، بقسط مهم من الجهود لتصحيح آرائنا عن الكتابة وأسلوب
رسم الكلمات .

الملحق

مبادئ النظام الصوتي

الفصل الاول

الفصائل الصوتية

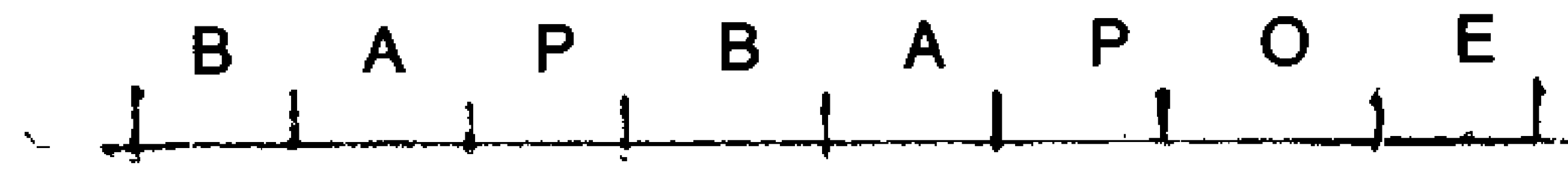
١ . تعريف الفونيم

[استفدنا في كتابة هذا الجزء من نسخ مصورة لثلاث محاضرات القاها دي
سوسور في عام ١٨٩٧ بعنوان *Theoria de la syllable* (نظرية المقطع) ذكر فيها ايضا بصورة
سريعة المبادئ العامة التي نوقشت في الفصل الاول، كما ان الجزء الاكبر من المادة، التي
تحتوي عليها مذكراته الشخصية، تعالج موضوع النظام الصوتي . وتلقي هذه المذكرات
الضوء على كثير من النقاط التي ترد في الفصل الدراسي (الكورس) الاول
والثالث - (بالي)]

يقتصر عمل كثير من علماء النظام الصوتي على العملية الصوتية، اي انتاج
الاصوات عن طريق الاجهزة الصوتية (كالحنجرة والفم وغيرهما) ويهملون الجانب
السمعي . ان هذه الطريقة غير صحيحة . فالانطباع السمعي يصلنا بصورة مباشرة كما
تصل الصورة التي تنتجها الاعضاء الصوتية، اضاف الى ذلك ان الانطباع السمعي هو
اساس اية نظرية صوتية . فالانطباع السمعي له وجود لا شعوري عند المرء يسبق دراسة
الوحدات الفونولوجية : ان الاذن تخبرنا عن الصوتين ت،ب وغيرهما . فحتى لو استطعنا
تصوير حركات الفم والحنجرة عند النطق بسلسلة من الاصوات، فأننا لن نستطيع ان
نميز التقسيمات الفرعية لحركات النطق : فلن نستطيع ان نعرف اين يبدأ صوت ما، واين
ينتهي الصوت الآخر؟ ولولا الانطباع السمعي ما استطعنا ان نقول - على سبيل

المثال - أن fal تتكون من ثلاث وحدات وليس من وحدتين أو أربع وحدات فنحن نستطيع ان نميز صوتا ما حال سماعنا به ضمن سلسلة منطوقة. ويكون الصوت فريدا طالما وجد تجانس في الانطباع. فالشيء المهم، في صوت ما، ليس طوله (لاحظ fāl و fāl) بل نوعية الانطباع. ان السلسلة الصوتية لا تنقسم الى دقات ايقاعية متساوية بل الى دقات ايقاعية متجانسة تتصف كل دقة beat بوحدة الانطباع، وهي نقطة الانطلاق الطبيعية للنظام الصوتي.

وخير مثال على هذه المسألة الحروف الاغريقية القديمة. فكل صوت بسيط يعبر عنه في الاغريقية باشارة كتابية واحدة. وكل اشارة كتابية تمثل دائما الصوت البسيط نفسه. لذا تعد الالفباء الاغريقية هذه اختراعا عبقريا اقتبسه بعد ذلك الرومان. ففي كتابة كلمة barbaros (بربري) كل حرف يمثل دقة ايقاعية متجانسة:



يمثل الخط الافقي في الشكل السابق السلسلة الصوتية، والخطوط العمودية القصيرة الانتقال من صوت الى آخر. وليس في حروف الهجاء الاغريقية القديمة اشارات كتابية مركبة كالاشارة الانكليزية ſ التي تمثل s، كما لا توجد عدة حروف تعبر عن صوت واحد كما هي الحال في c و s اللذين يمثلان s، كما لا يوجد حرف واحد يعبر عن صوتين كما يعبر عن us. لقد استطاع الاغريق ان يحققوا تقريبا نسبة واحد الى واحد بين الأصوات والاشارات الكتابية، وهي النسبة الضرورية والكافية لتوفير أساس لنظام كتابي صوتي جيد.

هذه القاعدة لم تدركها بقية الامم، لذا لا تقسم حروف الهجاء، عندهم السلسلة الصوتية المنطوقة طبقا للدقات السمعية المتجانسة فيها. ان توقف القبرصيون على سبيل المثال - عند الوحدات المركبة مثل do, ti, pa وغيرها.

إن مثل هذه الاشارات الكتابية تدعى مقطعية، ولكن التسمية غير دقيقة لوجود مقاطع اخرى (مثل tra, pak وغيرها). واقتصر الساميون على كتابة الاصوات الصحيحة فقط. فهم يكتبون barbaros بهيئة BRBRS (بربرس).

إن تقسيم الاصوات في السلسلة المنطوقة لا يكون الا على اساس الانطباعات السمعية. اما وصف هذه الاصوات فمسألة اخرى. ان لا يمكن القيام بوصف الاصوات الا على اساس عمل فعل النطق. فمن الصعب ان نقوم بتحليل لوحات الصوت في سلسلتها. بل ينبغي علينا ان نعود الى الحركات التي تنطوي عليها العملية الصوتية: ففي

هذه العملية يرتبط كل صوت بفعل معين: فترتبط ب (الدقة السمعية) ب ب (الدقة المنطوقة). فأول ما نحصل عليه عند تقسيم السلسلة المنطوقة هما الوجدتان ب، ب فهما قويتان: والفونيم هو الحصلة النهائية للانطباعات السمعية وحركات النطق: وهو الأثر المتبادل للوحدات السمعية والوحدات المنطوقة: اذن فهو وحدة مركبة لها جذر في السلسلة المنطوقة وآخر في السلسلة السمعية.

إن العناصر التي نحصل عليها أولا عند تقسيم السلسلة المنطوقة تشبه الحلقات في السلسلة. فهي لحظات لا يمكن اختصارها، كما لا يمكن دراستها خارج الوقت الذي تشغله. فالصوتان ta - مثلا - يتألفان دائما من لحظة زمنية بعد أخرى، من جزء من الطول بعد جزء آخر. اما الصوت t اذا اخذناه، وحده، فتمكن دراسته بصورته المجردة، خارج الزمن. لذا نستطيع ان نقول ان t على العموم هو من فصيلة T (لقد استخدمت الحرف الكبير Capital للدلالة على (الفصيلة) وان i على العموم هو من فصيلة I الى آخره، اذا اخذنا بنظر الاعتبار الصفة المميزة للصوت فقط واهملنا كل شيء آخر يعتمد على التعاقب الزمني. وشبيه بذلك التسلسل الموسيقي mi, ri, do الذي لا يمكن عدّه الا تسلسلا ملموسا في التعاقب الزمني. اما اذا اخترت احد عناصره، الاساسية، فيمكنني، اذ ذاك، دراسة هذا العنصر بصورته المجردة.

بعد ان يقوم خبير النظام الصوتي بتحليل عدد كاف من السلاسل المنطوقة لعدد من لغات، يستطيع، اذ ذاك ان يشخص العناصر التي تستخدمها كل لغة، من هذه اللغات، ويقوم بتصنيف هذه العناصر. واذا اهل بعض أمثلة التنويع الصوتية السمعية غير المهمة، فانه يجد ان الفصائل الصوتية محدودة في عددها. فهناك بعض المؤلفات الخاصة التي تذكر هذه الفصائل وتصفها بالتفصيل^(١٧).

وسأقتصر هنا على بيان المبادئ البسيطة الثابتة التي يعتمد عليها مثل هذا التصنيف.

ولكن ينبغي في بادئ الامر أن اذكر شيئا عن الجهاز الصوتي، ووظائف مختلف الاعضاء فيه ودور هذه الأعضاء في النطق.

(١٧) لاحظ

Sievers, *Grundzüge der Phonetik*, 5th ed., 1920;

Jespersen, *Lehrbuch der Phonetik*, 2nd ed., 1931

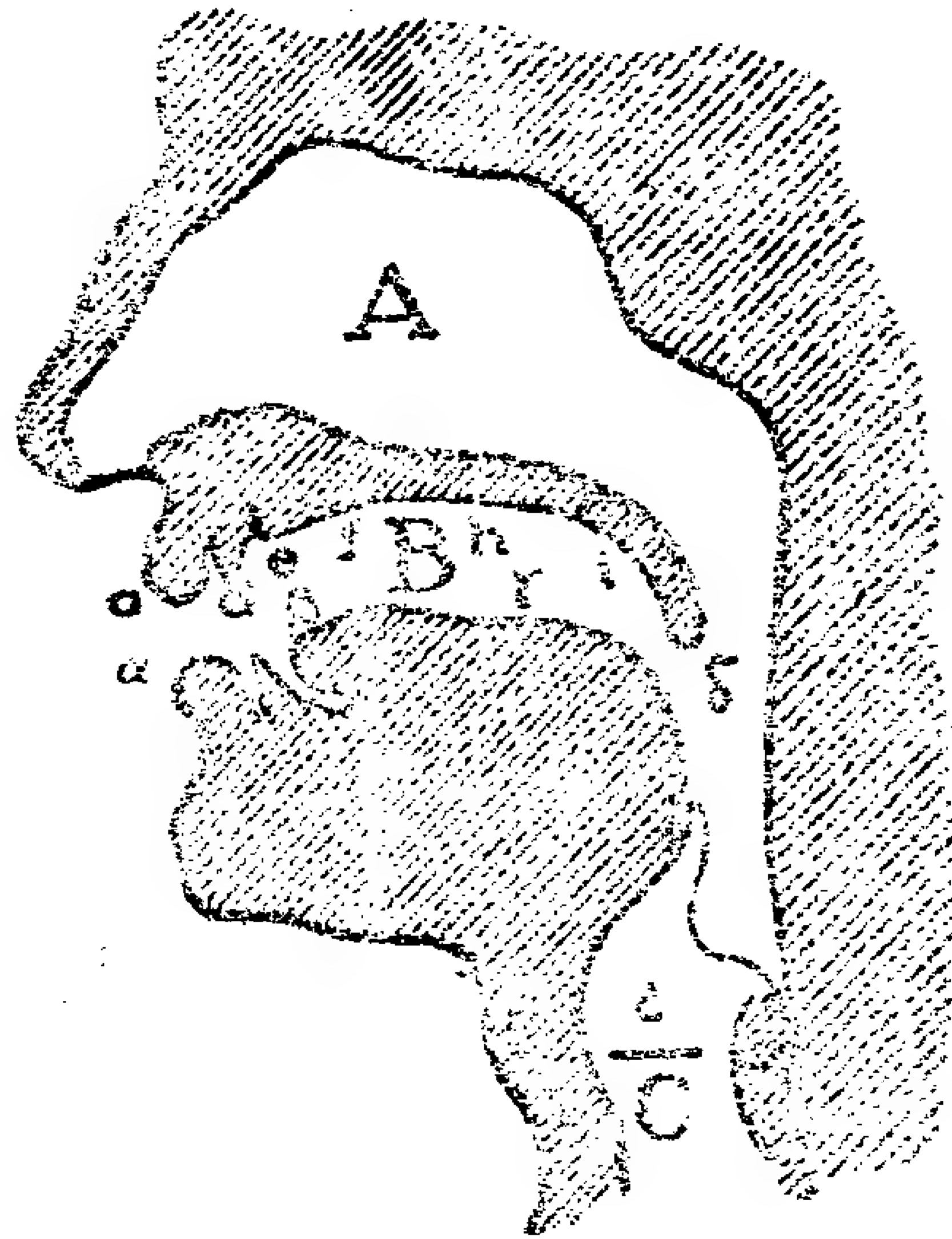
Roudet, *Elément de phonétique générale*. 1910.

(بالي)

٢ - الجهاز الصوتي ووظيفته^(١٨)

سوف اقتصر في وصفي للجهاز الصوتي على الرسم (الآتي) الذي يبين تجويف الانف A وتجويف الفم B والحنجرة C (بما في ذلك فتحة لسان المزمار & الواقعة بين الحبلين الصوتيين).

والاجزاء التي ينبغي الاشارة اليها في الفم هي: الشفتان & و a واللسان & - v (وتشير & الى النهاية المدببة للسان و y الى بقية اللسان). والاسنان العليا d والحنك وهو يتألف من الجزء الامامي الصلب وهو عظمي f-h والجزء الرخو المتحرك وهو الجزء الخلفي. واخيرا ينبغي ان نذكر اللهاة & .



وتشير الحروف الاغريقية الى الاعضاء التي تشترك اشتراكا فعالا في عملية النطق. وتشير الحروف اللاتينية الى الاجزاء التي يكون اشتراكها سلبيا.

(١٨) أضفنا الى الوصف الوجيز الذي قدمه دي سوسور مادة تكميلية أخذناها من كتاب يسبرسن *Lehrbuch der Phonetik*. كما أخذنا من هذا الكتاب المبادئ التي استخدمناها في وضع جدول الفونيمات الآتية: ولكننا لم نخرج على ما أراد، دي سوسور، وان هذه الاضافات لا تغير من فكرته. (بالى).

إن فتحة لسان المزمار ٨ تتألف من عضلتين موازيتين أو حبلين صوتيين، تفتح كلما ابتعدت العضلتان؛ بعضهما عن بعض، وتغلق عندما تقتربان. ولا تنغلق هذه الفتحة تماماً في أثناء الكلام. تكون الفتحة واسعة تارة وضيقة تارة أخرى. وعندما تتسع الفتحة تسمح بدخول الهواء بحرية كاملة فلا يحدث أي تذبذب في الوترين الصوتيين. في حين يحدث مثل هذا التذبذب (الصوت) عندما تكون الفتحة ضيقة. وليس لهذه العملية في اخراج الاصوات بديل عادة.

إن التجويف الأنفي عضو غير متحرك، ولا يمكن إيقاف تدفق الهواء فيه إلا برفع اللهاة (٩). فهو عبارة عن باب مفتوح أحياناً ومغلق أحياناً. أما تجويف الفم فالاحتمالات التي يوفرها أكثر: إذ يمكن استخدام الشفتين لزيادة طول القناة (تجويف الفم)، كما يمكن دفع الفكين إلى الخارج أو تقليصهما نحو الداخل: وللشفتين واللسان حركات كثيرة مختلفة يمكن استخدامها لتقليص التجويف أو حتى غلقه.

ويتناسب دور هذه الأعضاء في اخراج الاصوات تناسباً طردياً مع مرونة حركتها فالحنجرة والتجويف الأنفي ثابتان، لهما وظيفة ثابتة. يقابل ذلك التنوع الكبير في وظيفة تجويف الفم نظراً للمرونة التي يمتاز بها.

إن الهواء الذي ينبعث من الرئتين يمر أولاً من خلال فتحة لسان المزمار ويستطيع المرء أن يخرج صوتاً حنجرياً بشد الوترين الصوتيين. ولكن الحنجرة لا تستطيع أن تخرج أصواتاً متنوعة تخضع للتشخيص والتصنيف فتكون جزءاً من نظام صوتي في اللغة: إذن فالصوت الحنجري - من هذه الناحية - واحد. وإذا نظرنا إليه حال خروجه من فتحة لسان المزمار بدأ وكأن له قيمة صوتية واحدة لا تكاد تتغير.

أما القناة الأنفية فليس لها من وظيفة في النطق سوى أحداث رنين للذبذبات الصوتية التي تمر من خلال هذه القناة. فليست وظيفتها اخراج الصوت.

وعلى العكس من ذلك يسهم تجويف الفم في اخراج الأصوات، وكذلك أحداث الرنين. فعندما تتسع فتحة المزمار ينعدم التذبذب في منطقة الحنجرة. ويخرج الصوت الذي يسمع من تجويف الفم (واترك مسألة ماهية هذا الصوت: هل هو صوت أم ضوضاء إلى عالم الفيزياء).

وإذا شد الوتران الصوتيان حدث تذبذب في فتحة لسان المزمار، فأصبحت وظيفة الفم الأساسية هي التحويل في الصوت الحنجري.

وموجز القول إن العناصر التي تسهم في اخراج الاصوات هي اطلاق الهواء إلى الخارج، والنطق في الفم، وتذبذب في منطقة الحنجرة، والرنين الأنفي.

ولكن مجرد التعداد لا يحدد مميزات الفونيمات المختلفة. فالمهم في تصنيف

الفونيمات ليس الشيء الذي تتألف منه بل الشيء الذي يميز بعضها عن بعض. فقد يكون العامل السلبي اهم من العامل الايجابي في تصنيف فونيم من الفونيمات. فأطلاق الهواء الى الخارج، مع انه عنصر ايجابي في كل فعل صوتي، ليس له قيمة في التمييز بين فونيم وآخر. اما الرنين الانفي فقد يؤدي انعدامه الى تمييز الفونيم: وهو عامل سلبي، كما قد يؤدي وجوده الى مثل هذا التمييز والمهم هنا ان عنصرين من العناصر التي ذكرت آنفاً ثابتان، وهما ضروريان وقادران على إخراج الصوت، وهما:

(أ) دفع الهواء الى الخارج

(ب) النطق في الفم

اما العنصران الآخران فقد ينتقيان او يضافان الى العنصرين أ و ب: وهما:

(ج) تذبذب الحنجرة

(د) الرنين الأنفي

ثم اننا نعلم ان العناصر أ ، ج ، د ثابتة. في حين يساعد العنصر ب على إخراج عدد كثير، متنوع من الأصوات.

كما ينبغي ان نتذكر ان تشخيص الفونيم يأتي حينما نحدد الفعل الصوتي. واذا حددنا جميع الافعال الصوتية استطعنا ان نشخص جميع فصائل الفونيمات. ويبين التصنيف السابق للعناصر التي تسهم في إخراج الاصوات أن الافعال الصوتية لا يأتي تمييزها الا عن طريق ب ، ج و د. اذ ينبغي ان نحدد في حال كل فونيم، النطق به في الفم، وهل يسهم فيه الصوت الحنجري (—) ام لا يسهم ([]) وهل يشترك الرنين الانفي (٠٠٠٠) ام لا يشترك ؟. فاذا لم نستطع معرفة احد هذه العوامل، جاء تشخيص الصوت ناقصا. اما اذا كانت جميع العوامل الثلاثة معروفة، فان الارتباطات المتنوعة بينها تؤدي الى التحديد لفصائل الافعال الصوتية.

ويبين الجدول - الآتي - الحالات المحتملة:

1	11	111	1U
أ. دفع الهواء ب. النطق في الفم ج. [] د. []	دفع الهواء النطق في الفم [] ...	دفع الهواء النطق في الفم [] ...	دفع الهواء النطق في الفم [] ...

يشير الحقل ١ الى الاصوات المهموسة. والحقل الى الاصوات المجهورة الانفية. ويبقى عامل مجهول واحد وهو طبيعة النطق في الفم. اذن فالمهم ان نحدد انواع الاصوات المحتملة في النطق في الفم.

٣. تصنيف الاصوات حسب نطقها في الفم.

تصنف الاصوات، عادة، حسب موضع نطقها، ولكنني سأستخدم نقطة انطلاق أخرى. فمهما يكن موضع النطق، فهناك دائماً درجة معينة من الفتحة - درجة معينة من الفتحة تتراوح بين الانفتاح الكامل والانغلاق الكامل. وعلى هذا الاساس اذا انتقلنا من الدرجة الصغرى الى الدرجة القصوى للفتحة، وجدنا ان الاصوات تنقسم الى سبعة أصناف، أطلق عليها الارقام 0, 1, 2, 3, 4, 5, 6. وسأوزع الفونيمات، ضمن كل صنف. من هذه الاصناف، الى أنماط حسب موضع نطقها.

ولن اخرج على التسميات المعروفة الشائعة، مع ان هذه التسميات تفتقر الى الدقة في كثير من الأمور. فالالفاظ الشائعة مثل حلقيه، حنكية، وأسنانية، وسائلة وغيرها كلها تسميات غير منطقية. والأقرب الى المنطق ان نقسم الحنك الى عدد من المناطق. ثم نأخذ بنظر الاعتبار حركة اللسان عند النطق، وبذلك نستطيع ان نحدد نقطة الالتقاء الاساسية. وسأقوم بوضع صيغة استنادا الى هذه الفكرة، واستعمل الحروف التي استخدمتها في رسم الجهاز الصوتي. واضع رقم الفتحة بين الحرف الاغريقي (الذي يشير الى العضو الفعال في النطق) والحرف الروماني (اللاتيني) (الذي يشير الى عضو غير فعال). وهكذا فإن Boe تشير الى انغلاق كامل ناتج عن وضع نهاية اللسان على جدار اللثة العليا.

واخيرا سأميز في كل نطق، بين الفصائل المختلفة للفونيمات باستخدام الصفتين الملازمتين - الصوت الحنجري والرنين الانفي - اللتين تميزان بين الفونيمات عن طريق وجودهما أو عدم وجودهما.

إن هاتين الصفتين الملازمتين، وكذلك الصيغة المقترحة، فيما تقدم، تزودنا بوسيلة بسيطة منطقية لتصنيف الفونيمات. وطبيعي ان المرء لا يتوقع هنا ان يجد فونيمات لها طبيعة معقدة او خاصة، بغض النظر عن الاهمية العملية لمثل هذه الفونيمات (كما في الصوتين التنفسيين ph و dh وغيرهما، وكذلك الاصوات الاحتكاكية الانفجارية ts, ds, pf وغيرها، والاصوات الصحيحة الحنكية والحركات الضعيفة مثل 2 او الحرف الصامت وغير ذلك). كما ينبغي ان لا يتوقع المرء ان يجد فونيمات بسيطة لا اهمية عملية لها، ولا تعد اصواتاً متميزة.

١. فتحة الصفر: الاصوات المغلقة Occlusives

تضم الاصوات المغلقة جميع الفونيمات الناتجة عن غلق الفتحة تماماً، اي غلق

تجويف الفم غلقا محكما مدة قصيرة. ولا نريد هنا ان نبحث في مسألة هل يحدث صوت في أثناء الغلق او الفتح: فحقيقة الامر أن هاتين العمليتين تؤديان الى انتاج صوت.

تسمى الانماط الثلاثة الرئيسية للاصوات المغلقة حسب المواضع التي تنطق فيها: وهي شفوية (p, b, m) وأسنانية (t, d, n)، وحلقية (k, g, ŋ).

وينطق النمط الاول باستخدام الشفتين، والثاني بوضع نهاية اللسان على مقدمة الحنك والثالث بالتقاء مؤخرة اللسان مع مؤخرة الحنك.

وتتميز كثير من اللغات، واطس بالذكر اللغات الهندية الاوربية، بين نوعين من النطق الحلقى: احدهما حنكى (في منطقة t-h) والآخر في المنطقة التي بعدها (المشار اليها في الرسم بـ i) اي في الحنك الرخو Velar. ولكن هذا الفرق لا يلاحظه المتكلم في بعض اللغات كالانكليزية. فالأذن لا تفرق بين الصوت K (كما في كلمة cart) ويلفظ في مؤخرة الحلق، والصوت k (كما في kiny) ويلفظ في مقدمة الحلق. ويبين الجدول - الآتي - تراكيب الفونيمات المغلقة:

شفوية			سنية			حلقية		
LABIALS			DENTALS			GUTTURALS		
p	b	(m)	d	(n)		k	g	(ŋ)
ᵀᵀᵀ	ᵀᵀᵀ	ᵀᵀᵀ	ᵀᵀᵀ	ᵀᵀᵀ	ᵀᵀᵀ	ᵀᵀᵀ	ᵀᵀᵀ	ᵀᵀᵀ
[]	[]	[]	[]	[]	[]	[]	[]	[]
[]	[]	[]	[]	[]	[]	[]	[]	[]

ان الاصوات الانفية n, n, m هي في الحقيقة أصوات غلق مجهورة انفية. فعند النطق بكلمة amba ترتفع اللهاة لتسد الفتحة الانفية للانتقال من m الى b.

لكل نمط من الانماط السابقة - من الناحية النظرية - صوت انفي مهموس - اي صوت انفي لا يصحبه تذبذب في الحبال الصوتية: فنجد الصوت m المهموس بعد الاصوات المهموسة في اللغات الاسكندنافية. وفي الفرنسية اصوات انفية مهموسة، ولكن المتكلمين لا يعدونها متميزة عن الاصوات الأنفية المجهورة.

لقد وضعت الاصوات الانفية داخل الاقواس في الجدول السابق: ومع ان الفم يكون مغلقا تماما في أثناء النطق بها فإن فتح القناة الانفية يوفر فتحة واسعة لهذه الاصوات (لاحظ الصنف c).

ب. الفتحة ا: الاصوات الاحتكاكية (fricatives او spirants)

تتميز الفونيمات في الصنف ب بانسداد غير كامل للفتحة، يسمح بمرور الهواء من

خلال تجويف الفم. إن لفظة احتكاكي spirant عامة جداً في حين لفظة fricative لا توحى بشيء عن درجة الانسداد، وإن كانت تدل على احتكاك ناتج عن دفع الهواء الى الخارج (الاصل اللاتيني fricare).

وتختلف فونيمات الصنف ب عن فونيمات الصنف أ، في أنها لا تنقسم الى ثلاثة اقسام. ونذكر اولاً ان الاصوات الشفوية الحقيقية (التي تقابل p و b) وهي قليلة الاستعمال: لذا سأهملها. تعوض، عادة، باصوات شفوية - أسنانية Labiodentals، الناتجة عن التقاء الشفة السفلى والاسنان العليا (f و v). اما الاصوات الأسنانية فتتنقسم الى انواع، حسب شكل نهاية اللسان عند ملامستها للأسنان. وسأستخدم الرموز B, B', B, B'' للإشارة الى الاشكال المختلفة لنهاية اللسان المدببة دون الدخول في التفاصيل. ومن الاصوات التي يسهم فيها الحنك، تستطيع الأذن ان تميز عادة نطقاً أمامياً (للحنك) وآخر في مؤخرة الحنك (velar) (١٩).

LABIO —
سنية - شفوية

DENTALS		سنية		DENTALS			
f	v	b	ð	s	z	ʃ	ʒ
ald	ald	Bld	Bld	Bld	B'ld	B''ld	B''ld
[]	[]	[]	[]	[]	[]	[]	[]
[]	[]	[]	[]	[]	[]	[]	[]

PALATALS		GUTTURALS	
x'	r'	x	r
rff	rff	rli	rli
[]	[]	[]	[]
[]	[]	[]	[]

ʰp = English th in thing

ð / English th in then

s / English s in say

z / English s in rose

ʃ/ sh in show

ʒ / g in rouge

x' / German ch in ich

r' / North German g in liegen

x / German ch in Bach

r / North German g in Tage

(١٩) لقد إتبع دي سوسور الطريقة التي اقترحها بدقة، لذا رأى أنه من غير الضروري ان يشير الى مثل هذا التمييز في الصنف أ، مع أهمية النوعين K₁ K₂ في اللغة الهندية - الأوربية الأولى. فعدم ذكر هذه المسألة مقصود. (بالي).

هل بين الاصوات الاحتكاكية ما يشبه n, m, n وغيرها من الاصوات المغلقة - اي v انفي و z انفي وغيرهما؟ من السهل ان نتصور وجود مثل هذه الاصوات، فعلى سبيل المثال يمكن للمرء ان يسمع v انفي في الكلمة الفرنسية inventer (يخترع) بيد ان الصوت الاحتكاكي الانفي ليس صوتا متميزا في اكثر اللغات.

ج. الفتحة 2: الاصوات الانفية

د. الفتحة 3: الاصوات السائلة Liquids

يمكن تمييز نوعين من الاصوات السائلة وهي:

(١) الاصوات الجانبية (قد اشرت اليها بالرمز پا في الجدول (الآتي)، وفيها يستقر اللسان على الجزء الامامي من الحنك، ولكنه يترك فتحة على الجانبين. ويمكن ان نميز، حسب منطقة النطق، ثلاثة من L: أسنانية L وحنكية L وحنكية رخوية (gutturalvelar) والفونيمات الجانبية مجهزة في معظم اللغات مثلها كمثلي z, b وغيرهما. ومع ذلك فأن الفونيمات الجانبية المهموسة ليست من الامور المستحيلة: فقد نجدها في الفرنسية، حيث ان L التي تقع بعد فونيم مهموس قد تنطق من دون صوت في الحنجرة (كما في pluie L (مطر) التي تختلف عن L في bleu (ازرق) ولكن المتكلم لا يميز هذا الفرق بين الصوتين. لا جدوى من الحديث عن L الانفية، فهي نادرة جدا، غير مميزة، مع انها قد تقع بعد الاصوات الأنفية خاصة مثال ذلك L بعد الكلمة الفرنسية branlant (يهتز).

(٢) في الاصوات التي تتسم بالتذبذب (المشار اليها بالرمز v في الجدول الآتي يكون اللسان في منطقة أبعد من المنطقة الحنكية التي يقع فيها الصوت L ولكن حالات متنوعة من التقاء اللسان مع الحنك تجعل للأصوات ذات التذبذب vibrants فتحة معادلة لفتحة الأصوات الجانبية. ويحدث التذبذب بطريقتين: بالنهاية المدببة للسان مدفوعة الى الأمام على لثة الأسنان (كما في r الرفيعة trilled او بمؤخرة اللسان عند التقائها مع الحنك (كما في r الظهرية dorsal او المعتمدة) ان الذي قلناه عن الاصوات الجانبية المجهزة او الجانبية الانفية يصح على اصوات التذبذب.

l	l'	l	r	
B'3e	γ'3f — h	γ'3i	B'3e	γ'3i
~~~~~	~~~~~	~~~~~	~~~~~	~~~~~
[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]

يقع وراء الفتحة 3 مجال جديد، اذ ننتقل من الاصوات الصحيحة الى الحركات. ولم اتطرق الى الفرق بين الصنفين حتى الان، لسبب بسيط، وهو أن العملية الصوتية واحدة

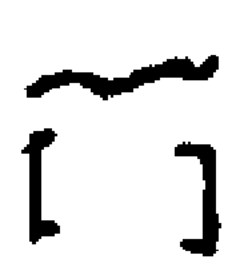


للصنفين. فأسلوب نطق الحركات يشبه، في جميع النواحي، صيغة نطق الاصوات الصحيحة المجهورة. فلا حاجة الى التمييز بين الصنفين بقدر ما يتعلق الأمر بالنطق في الفم. ولا نجد الاختلاف الا في الاثر الصوتي السمعي (الأكوستي). فاذا تجاوزنا درجة معينة من الفتحة فإن وظيفة الفم تقتصر بصورة رئيسة، على إحداث الرنين، فيبرز الجرس الصوتي timbre للصوت الحنجري، ويقل الصوت الذي يخرج الفم. ويعتمد مدى التقليل من الصوت الحنجري على درجة انغلاق الفم: فكلما زادت درجة فتح الفم قل الصوت. وهكذا يسود الصوت في الحركات بفضل هذه العملية الآلية البحتة.

هـ. الفتحة 4: الاصوات i, u, ü.

ان حركات الصنف هـ تحتاج الى درجة اكبر من الانسداد من الحركات الأخرى - وتكاد تقترب من درجة الانسداد للاصوات الصحيحة. ويطلق عادة، على هذه الاصوات باشباه الحركات، ولهذه التسمية ما يسوغها، كما سيتضح فيما بعد.

يكون لفظ الفونيم ا بسحب الشفتين ( - ) والنطق الامامي، ولفظ الفونيم u بشفتين مدورتين (o) والنطق الخلفي. وفي الفونيم ü تكون الشفتان في موقع u والنطق في موقع i. وللحركات i, u, ü اشكال انفية، كما هي الحال في الحركات الأخرى. ويمكننا أن نهمل هذه الاشكال طالما انها نادرة. ومما يستحق الذكر أن الاصوات التي تكتب in و un بالفرنسية لا تحتوي في الحقيقة على الصوتين الأنفيين i و u (لاحظ ما يأتي).

هل ثمة شكل مهموس للصوت i - اي الذي ينطق بدون الصوت الحنجري؟ ويمكن ان نسأل السؤال نفسه فيما يخص u و ü والحركات الأخرى. ان مثل هذه الفونيمات موجودة، وهي تشبه الحروف الصحيحة المهموسة، ولكن ينبغي ان لا نخلط بينها وبين الحركات المهموسة اي تلك التي ينطق بها وفتحة لسان المزمار مسترخية. فالحركات المهموسة تشبه الصوت h الذي يتصف بالتنفيس، الذي يلفظ في موقع أمام هذه الحركات. ففي كلمة hi، نسمع اولاً i من دون تذبذب ثم صوت i الاعتيادي.

i	u	ü
— 4f	0 4i	0 4f
		



و. الفتحة 5: الـصوات o, ɔ, ɐ

ان نطق فونيمات الصنف «و» يشبه تماما نطق الفونيمات u, ʊ, i. ولهذا الصنف أشكال أنفية (كما في الـصوات الفرنسية ẽ, õ, ö في الكلمات «الـصنوبر» pin و «جسر» pont و «اسمر» brun. وله ايضا، أشكال مهموسة كما في الصوت h الذي يتسم بالتنفيس في ɥ, ho, hõ ملاحظة: تميز كثير من اللغات عددا من درجات انفتحة للصنف «و» فالفرنسية مثلا لها مجموعتان: احدهما مغلقة o, ɔ, ɐ في الكلمات «كشتبان» dos ظهر «اثنان» deux والاخرى مفتوحة (õ, ɔ, ɐ) كما في الكلمات «بحر» mer و «موت» mort و «قتل» meurtre).

ɐ	o	õ	ɐ	õ	õ	a	ã
— 5f	O5i	O5f	— 5f	O5i	O5f	— 6!	— 6!
[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]	[ ]

ز. الفتحة 6: الصوت a

ان للصوت a اقصى درجة للفتحة. وله شكل انفي: a: يتصف بقليل من انضمام الفم، كما ان له شكلاً مهموساً، كما في h في ha.

## الفصل الثاني

### الفونيمات في السلسلة الكلامية

#### ١ - الحاجة الى دراسة الأصوات في السلسلة الكلامية

يستطيع الباحث ان يجد التفاصيل الدقيقة لاصوات الكلام في كتب متخصصة، ولا سيما في مؤلفات علماء الصوت الانكليز.

هل يكفي التحليل الدقيق وحده لانجاز الدور المساعد الذي ينبغي لعلم الفونولوجيا ان يقوم به ضمن إطار علم اللغة؟ ان مثل هذه الكتلة من المعلومات لا فائدة لها منفردة: المهم المركب الذي تدخل فيه هذه التفاصيل فلا يتطلب من اللغوي ان يكون عالما في علم الفونولوجيا. وكل ما يحتاج اليه هو ان تقدم له المعطيات الضرورية لدراسة اللغة.

يشكو الاسلوب المتبع في دراسة الفونولوجي من عيب مهم واحد وهو ان علماء هذا العلم كثيرا ما ينسون أن اللغة لا تتألف من الاصوات حسب بل أيضا من امتداد او سلسلة من الأصوات التي ينطق بها. فلا يهتمون اهتماما كافيا بالعلاقات المتبادلة بين الأصوات. ان هذه العلاقات لا يمكن ادراكها للوهلة الاولى. فالمقطع اسهل على التشخيص من اصواتها. حيث نستطيع ان نرى (في الفصل السابع من القسم الاول من الكتاب) ان بعض انظمة الكتابة البدائية شخّصت الوحدات المقطعية: ولم يخترع الناس نظام الالفباء الا بعد ذلك.

ثم إن الامور المحيرة في علم اللغة ليست الوحدات السهلة. فاذا حدث في لحظة من اللحظات ان تغير الصوت a الى الصوت o في لغة ما، فلن يؤدي هذا التغير الى شيء. وللغوي ان يسجل هذه الظاهرة من غير ان يحاول ايجاد تفسير فونولوجي لها. إن علم الاصوات يصبح ذا فائدة كبيرة فقط حين يشترك عنصران او اكثر في علاقة تستند الى الارتباط الداخلي بين هذه الاصوات. فالتغييرات التي تحصل لاحد العناصر في هذه الحالة تتحدد بالتغييرات التي تحصل للعنصر الآخر او العناصر الأخرى. ولما كانت المسألة تتعلق بعنصرين فهي تتطلب تحديد علاقة وقاعدة - وهذا امر يختلف تماما عن الوصف البسيط. فحين يحاول هذا العلم ان يتوصل الى قاعدة فونولوجية، فانما يناقض نفسه بانحيازه الى الاصوات المنفردة المعزولة. ويكفي اشتراك فونيمين لتعقيد المسألة. ففي اللغة الالمانية القديمة العليا - على سبيل المثال - نجد الكلمات dorn, donr, lang, wagen,

balg, hagi

قد اصبحت فيما بعد dorn, donnal, lang, wagan, balg, hagni

ان النتيجة تختلف طبقا لطبيعة الفونيمات المسهمة في التغيير وتسلسلها: ففي بعض الكلمات وقعت حركة ما بين صوتين صحيحين في الأصل وفي امثلة أخرى بقي الصوتان الصحيحان على حالهما من دون تغيير. فكيف نستطيع صياغة القاعدة لمثل هذه الحالات؟ اين نشأ هذا الاختلاف؟ مما لاشك فيه أن سبب الاختلاف ينبع في مجموعات الاصوات الصحيحة (gn, lg, gl وغيرها) الموجودة في الكلمات السابقة. فكل مجموعة تحتوي على صوت (غلق) يسبقه او يتبعه صوت سائل او انفي. ولكن علام تدل هذه الظاهرة؟ طالما ننظر الى g و n على انهما متجانسا الكمية فاننا لا نفهم لماذا يؤثر في النتيجة مجرد تسلسل التقاء  $n - g, - g - n$ .

فضلا عن النظام الصوتي او الفصائل الصوتية، إذن يتسع المجال لعلم يختلف كل الاختلاف عنه، ويستخدم المجموعات المؤلفة من صوتين، وتعاقب الفونيمات نقطة ينطلق منهما: وهذا شيء مختلف جدا. اذ يكفي في دراسة الاصوات المنفردة ان نلاحظ موضع الاعضاء الصوتية في اثناء النطق. ولا يدخل في ذلك مسألة الصفة الصوتية السمعية للفونيم، لان ذلك امر تقرره الاذن. اما في النطق فللمتكلم مطلق الحرية. ولكن عندما نتناول لفظ صوتين مرتبطين، فالمسألة تغدو اكثر تعقيدا. علينا، إذن، ان نأخذ بنظر الاعتبار الفجوة بين الاثر الذي نرمي اليه والاثار الناتج فعلا. اذ اننا لا نملك دائما القدرة على لفظ الصوت الذي نريده. فحرية ربط الفصائل الفونولوجية تقيدها امكانية ربط حركات النطق. ولكي نوضح ما يحدث ضمن المجموعات الصوتية، ينبغي ان نستعين بعلم للاصوات، يستخدم حركات النطق كما تستخدم المعادلات الجبرية: فالمجموعات الثنائية (المؤلفة من صوتين) تنطوي على عدد معين من العناصر الآلية (المكانيكية) والصوتية والسمعية التي تتكيف بسبب تأثر بعضها بالبعض الآخر. وای تغيير في عنصر ما له بالضرورة رد فعل، محسوب، على بقية العناصر. اما في الفعل الصوتي فالشيء الوحيد الذي له صفة العموم - تلك الصفة التي تضعه فوق جميع الفروق الفردية للفونيمات - هو الانتظام الالي لحركات النطق. فاهمية علم الفونولوجي الذي يدرس الربط بين الاصوات واضحة. ان علم الفونولوجي التقليدي يضع عادة قواعد لنطق جميع الاصوات - اي العناصر المتغيرة والعرضية للغات. ويقف عند هذا الحد: في حين يحدد علم الفونولوجي الذي يدرس مجاميع الاصوات الاحتمالات ويشخص العلاقات الثابتة بين الفونيمات المترابطة. فظاهرة  $balg\ halg$  الى آخره تثير مسألة كانت موضوع نقاش مدة طويلة، وهي مسألة الاصوات المجهورة في اللغة الهندية الاوربية الاولى: ان علم الفونولوجي للمجموعات الصوتية يلقي كثيرا من الضوء على هذه المسألة، لان اهتمامه الوحيد هو ربط المقاطع الفونيمية. ومع ان هذه ليست المسألة الوحيدة التي يستطيع هذا العلم حلها فهناك حقيقة واضحة الا وهي: اننا لا نستطيع ان نتحدث عن مسألة

الاصوات الصائتة sonant من دون ان نهتم اهتماما كاملا بالقوانين التي تتناول الربط بين الفونيمات.

## ٢. الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي

ابداً هذه الفقرة بملاحظة اساسية وهي:

بين لفظي الحرف P في كلمة appa فارق واضح. p الاولى ناتجة من غلق الفتحة، اما P الثانية فناتجة عن فتح الفم واطلاق الهواء. ولكن الانطباعين لهذين الحرفين متشابهان الى حد كبير، حتى ان علماء الصوت عدّوهما صوتاً واحداً، فاستخدموا حرفاً واحداً «P» لكتابة المجموعة. ونستطيع ان نستعمل اشارتين [><] للدلالة على الفرق بين صوتي P في كلمة appa (appa)، وتشخصهما عندما لا يقعان الواحد بعد الآخر (لاحظا appa و appa). ان هذه التمييز يصح على جميع اصوات الغلق الأخرى، والاصوات الاحتكاكية (appa) والانسائية (appa)، وجميع الفونيمات عامة بما في ذلك جميع الحركات، سوى a (appa). لقد اطلق على الغلق بالانفجار الداخلي، والفتح واطلاق الهواء بالانفجار الخارجي. فالصوت P قد يكون انفجاراً داخلياً P أو انفجاراً خارجياً P. ويمكن تسميتها ايضاً بالاصوات < > المغلقة closing والاصوات المفتوحة opening.

ومما لاشك فيه أننا نستطيع أن نشخص، فضلاً عن الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي فترة زمنية يطول فيها الغلق حسب رغبة المتكلم. وإذا كان للفونيم فتحة واسعة (لاحظا في appa) يستمر خروج الصوت، في حين تبقى الاعضاء الصوتية ساكنة. وعلى العموم تتوسط جميع السلاسل المنطوقة فسح، سأطلق عليها لفظة الوقفة (جمعها وقفات) sistant, hold. بيد انها تشبه الانفجار الداخلي، لان اثر الاثنين (في الاذن) واحد. وفي الصفحات الآتية ساقترع في كلامي على الاصوات ذات الانفجار الداخلي والاصوات ذات الانفجار الخارجي.^(٢٠)

ان الطريقة التي اوضحتها، ايضاحاً عاماً، لن تكون مقبولة في دراسة وافية لعلم الفونولوجي؛ ولكنها مقبولة في دراسة مختصرة؛ هدفها ايجاز العناصر الجوهرية للفظ المقاطع بقدر الامكان. ولا ازعم هنا انني استطعت ان اجد حلاً لجميع الصعوبات الناتجة عن تقسيم السلسلة المنطوقة الى مقاطع، بل كل ما فعلته هو تقديم اساس معقول لدراسة هذه المسألة.

(٢٠) إن معالجة دي سوسور للوقوفات موضوع جدل كبير في هذه النظرية. ولورد على بعض الملاحظات نقول ان الوقفة (كما في النطق بـ f مثلاً) تنتج من عاملين: (١) ضغط الهواء على الاعضاء المواجهة و(٢) مقاومة الاعضاء في أثناء زيادة الشد لمواجهة الضغط. فالوقفة عبارة عن انفجار داخلي مستمر. ولهذا السبب يكون الانطباع واحداً للوقفة ولصوت الانفجار الداخلي إذا كانا من فصيلة واحدة ونطق بهما الواحد بعد الآخر. فالجمع إذن بين هذين النمطين من النطق في كيان صوتي سمعي آلي واحد إنما هو امر منطقي. أما الانفجار الخارجي فيخالف الاثنين: فهو بطبيعته إطلاق للهواء. (بالي).

وهذه ملاحظة أخرى. ان حركات الفتح والغلق الضرورية لاجراء الاصوات ينبغي ان تميز عن الفتحات المختلفة للاصوات نفسها. فكل فونيم يمكن ان يكون انفجارا داخليا او انفجارا خارجيا، اما الفتحة فلا تؤثر في الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي، اي ان زيادة الفتحة لا تجعل الحركتين (الانفجارين) اقل وضوحا. فالفرق في  $a, u, \text{آ}$  يبقى واضحا: وفي  $ah$  نستطيع ان نميز صوت  $h$  المغلق والصوت الآخر المفتوح  $a$ . وكذلك  $ah$  و  $ah$  فان الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي الذي يتبعه متميزان الى حد كبير، حتى ان الكتابة في بعض الاحيان تخرج على القاعدة الشائعة وتسجل الفرق. و  $w$  في الانكليزية و  $l$  الالمانية وربما  $y$  في الفرنسية (كما في  $yeux$  عيون، وغيرها) تمثل الاصوات المفتوحة، وتقابل  $\text{آ}$  و  $u$  وهما المستخدمان للتعبير عن  $u$  و  $a$  واذا كانت الفتحة اوسع (كما في  $o$  و  $o$ ) صعب على المرء ان يميز بين الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي من الناحية الفعلية، مع اننا نستطيع ان ندرك مثل هذا الفرق من الناحية النظرية (كما في  $ah$  و  $ah$ ). واخيرا رأينا ان الفتحة القصوى تقضي على الفرق بين الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي فلا يمكن التمييز بينهما. فالصوت  $h$  ليس له انفجار داخلي ولا انفجار خارجي.

اذن فكل فونيم، ما عدا  $h$ ، ينبغي ان يقسم الى شكلين، كما في الجدول الآتي، الذي يضم وحدات صفري لا تقبل التقسيم:

$\text{P}$  الى آخره

$\text{f}$  الى آخره

$\text{m}$  الى آخره

$\text{r}$  الى آخره

$\text{y}$  الى آخره

$\text{e}$  الى آخره

ولن اهلل الفروق التي تسجلها الكتابة ( $\text{f}$ ) بل سأحتفظ بها بدقة ( $y, w$ ). وسيجد القارئ المسوَّغ لرأيي هذا فيما يستقبل.

هذه اول مرة نتخلص فيها من التجريد، اول مرة نجد الوحدات الملموسة الصفري التي لا تقبل التجزئة، التي تحتل مكانا في السلسلة المنطوقة وتتفق مع الدقة في هذه السلسلة. فليست  $P$  سوى وحدة تجريدية تجمع بين الصفات المشتركة للصوتين  $\text{P}$  و  $\text{P}$ ، وهما الوجدتان الوحيدتان اللتان لهما وجود حقيقي وبالطريقة نفسها نجد مستوى اعلى من التجريد يربط بين  $P$  و  $B$  و  $M$  في سلسلة MBP. فنتكلم عن  $P$  وكأنها فصيلة من فصائل علم الحيوان: ففي هذه الفصيلة ذكور واناث، ولكن لا يوجد نموذج مثالي يجمع صفات الاثنين معا. والذي فعلناه في السابق اننا ميزنا الوحدات التجريدية ووصفناها: فكان علينا ان نذهب ابعد من التجريد لنصل الى الملموس.

لقد وقع علم الفونولوجي في خطأ كبير حين عد الوحدات التجريدية وحدات حقيقية، من دون ان يتفحص بعناية كبيرة تعريف الوحدة. فحروف الهجاء الاغريقية نجحت في تشخيص العناصر التجريدية - وهذا انجاز ينطوي على تحليل رائع (لاحظ الملحق، الفصل الاول): ومع ذلك فالتحليل الذي قام به الاغريق لم يكن كاملاً.

ما الصوت P المطلق؟ اذا نظرنا اليه زمنياً على انه جزء من السلسلة المنطوقة فهو ليس، على وجه التحديد P ولا Ṗ، ولا P̈، فالمجموعة الاخيرة قابلة للتجزئة: واذا نظرنا الى هذا الصوت (P) خارج السلسلة المنطوقة فهو شيء ليس له وجود مستقل، ولا نستطيع ان نتعامل معه. فما معنى مجموعة مثل g و L وحدها؟

ان وحدتين تجريديتين لا يمكن ان تكونا لحظة من لحظات الزمن. ولكن الحديث عن k̈ و k̇ و k̈ و k̇ الذي ينطوي على الجمع بين العناصر الحقيقية للكلام مسألة اخرى.

وهكذا نجد ان عنصرين يكفيان لارباك علم الفونولوجي التقليدي - كما ندرك صعوبة التعامل مع وحدات فونولوجية تجريدية - كما فعلوا هذا في السابق.

**نقول اعلى النظريات** ان اي فونيم بسيط في السلسلة (كما في P في مجموعة Pa او apa) يحدث فيه الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي بصورة متعاقبة (ãpa). فكل انطلاق للهواء ينبغي ان يسبقه حبس الهواء. لنأخذ مثلاً آخر. لابد لي، عند لفظ p̈، ان احبس الهواء في r، ثم انطق بـ r مفتوحة، في حين يجري الانغلاق لـ P عن طريق الشفتين، ويجب علي ان احدد وجهتي نظري بدقة كي استطيع الرد على هذا الرأي. ففي تحليل العملية الصوتية، سأقتصر على العناصر المتميزة التي تعطي انطباعاً متميزاً للاذن، فتسمح بتحديد الوحدات الصوتية السمعية لسلسلة الكلام المنطوق. ولا نأخذ بنظر الاعتبار الا الوحدات المحركة الصوتية السمعية. اذن فالنطق بالصوت r ذي الانفجار الخارجي متبوعاً بالصوت P ذي الانفجار الداخلي امر لا وجود له عندي، لان ذلك لا يؤدي الى صوت ملموس، او ان الصوت لا اهمية له بالنسبة للسلسلة الفونيمية. فعلى المرء ان يدرك هذه الحقيقة الجوهرية لكي يفهم التطورات الاخرى التي تليها.

### ٣. المجموعات المختلفة للانفجار الخارجي والانفجار الداخلي في السلسلة:

لنلاحظ الآن ماذا ينتج عن كل تعاقب للمجموعات الاربع للانفجار الداخلي والانفجار الخارجي، المحتملة من الناحية النظرية وهي:

(١) < >

(٢) > <

(٣) < <

(٤) > > (٣)

(٢١) لقد حافظنا على رسم هذه العلامات كما في النص الاصلي (د = انفجار داخلي : ٢ انفجار خارجي). ونقرأ كل مجموعة للعلامات من اليسار الى اليمين. (المترجم).

(١) مجموعة الانفجار الخارجي + الانفجار الداخلي (< >) نستطيع دائماً الربط بين الانفجار الخارجي والانفجار الداخلي من دون ان نكسر السلسلة الفونيمية:  $\dot{y}m, \dot{p}i, k\dot{r}$  وغيرها (كما في المجموعة السانسكريتية  $k\dot{r}ta$ ، والمجموعة الانكليزية  $\dot{p}ity$ ، والمجموعة الهندية - الاوربية الاولى -  $\dot{y}mto$  وغيرها).

ان بعض المجموعات مثل  $k\dot{r}$  ليس في الواقع قيمة صوتية سمعية (اكوستية)، ولكن هذا لا يؤثر في الحقيقة القائلة ان النطق بصوت  $k$  المفتوح يجعل الاعضاء الصوتية في موقع مناسب للانغلاق في اللحظة المطلوبة. فالحركتان في العملية الصوتية لا تتعارضان.

## (٢) مجموعة الانفجار الداخلي + الانفجار الخارجي (< >)

يمكننا دائماً ان نربط بين فونيم الانفجار الداخلي وفونيم الانفجار الخارجي مع مراعاة الشروط والظروف المذكورة في الفقرة السابقة. مثال ذلك  $\dot{m}$  و  $k\dot{r}$  وغيرهما (وكلمة  $haima$  الاغريقية و  $active$  الانكليزية، الى آخره) ومما لا شك فيه ان الاصوات المتعاقبة في هذه المجموعة لا تحدث كثيراً كما هي الحال بالنسبة للتسلسل العكسي في المجموعة الاولى. والفرق بين الانفجار الداخلي الذي تبدأ به المجموعة والانفجار الخارجي الذي يعقبه هو: ان الانفجار الخارجي الذي يجعل الاعضاء الصوتية في موضع حيادي، لا علاقة له باللمحة (العملية الصوتية) التي تلي ذلك. اما الانفجار الداخلي فينتج عنه وضع محدد لا يناسب اي انفجار خارجي. لذا يتطلب من المرء ان يلجأ الى حركة مساعدة تضع الاعضاء الضرورية لنطق الفونيم الثاني في الوضع الصحيح. فعلى سبيل المثال عندما ينطق المرء بالصوت  $s$  في المجموعة  $SP$ . يتطلب من الشففتين ان تكونا في وضع الانغلاق كي يستعد للصوت المفتوح  $P$  ولكننا نستدل من خبرتنا ان الحركة المساعدة ليس لها قيمة تذكر. فلا ينتج عنها الا صوت خافت لا يؤثر ابداً في تعاقب الأصوات في السلسلة.

## (٣) مجموعة الانفجار الداخلي الرابطة (< >).

يمكن حدوث انفجارين خارجيين متعاقبين، واذا كان الصوت الثاني يعود الى الفونيمات التي تحتاج الى فتحة اقل أو مساوية لفتحة الصوت الاول، فان الانطباع للوحدة الصوتية السمعية الناتج عن ذلك لا وجود له، في حين نجد مثل هذا الانطباع للوحدة الصوتية في المجموعة الاولى والثانية.

فوحدة الارتباط مفقودة في  $\dot{p}k$  التي يمكن ان تلفظ  $\dot{p}kq$  ولكن هذه الاصوات لا تؤلف سلسلة، لان الفصيلتين  $p$  و  $k$  لهما فتحة واحدة. ان هذا اللفظ غير الطبيعي ناتج عن التوقف بعد الصوت الاول  $a$  في  $\dot{p}ka - cha^{(22)}$  وعلى العكس من ذلك المجموعة  $\dot{P}r$  فهي

(٢٢) إن المجموعات المؤلفة من فونيمات الانفجار الخارجي التي لها فتحة واحدة شائعة جداً في بعض اللغات (كما في المجموعة الاغريقية  $kt$  التي تقع في بداية الكلمة في كلمات مثل  $kteino$ ). وتفترق هذه المجموعات، مع انها سهلة اللفظ، الى الوحدة الصوتية السمعية. (لاحظ الحاشية الآتية).



تعطي انطباعاً للاستمرارية (لاحظ price)، كما أننا لا نشعر بآية صعوبة في النطق بالمجموعة  $\text{r}^{\text{y}}$  (لاحظ الكلمة الفرنسية  $\text{rien}$  (لا شيء) ما سبب ذلك؟ الجواب، في اللحظة التي يحدث فيها الانفجار الخارجي الأول، تتخذ أعضاء النطق الوضع الصحيح للنطق بالانفجار الخارجي الثاني، من دون أن يتعارض ذلك مع الأثر الصوتي السمعى للانفجار الأول. فالأعضاء الصوتية تكون في الوضع للنطق بالصوت  $\text{r}$  في price في أثناء النطق بالصوت  $\text{p}$  ولكن يصعب على المرء أن ينطق بالتسلسل المعاكس لذلك،  $\text{p}$  ليس لأن هذه المجموعة لا يمكن النطق بها على نحو آلي (أذا نستطيع أن نمهد للنطق بـ  $\text{p}^{\text{r}}$  ونحن ننطق بالصوت  $\text{r}$ ). بل السبب هو أن حركة  $\text{r}$  تتقابل مع الفتحة الصغيرة للصوت  $\text{p}^{\text{r}}$ ، فتتلاشى. أن  $\text{p}^{\text{r}}$  تحتاج إلى حركتين متميزتين كي يسمعها المرء، ويتوقف انطلاق الهواء في أثناء ذلك. وقد يضم الربط المستمر الناتج عن الانفجار الخارجي أكثر من عنصرين، إذا كانت الفتحة التالية أوسع من الفتحة السابقة لها (مثال ذلك  $\text{kwa}$ ). وإذا استثنينا بعض الحالات الخاصة التي لا يمكنني أن ادخل في تفاصيلها هنا^(٢٢)، فإن الحد الطبيعي لعدد عناصر الانفجار الخارجي؛ تحدده درجات الفتحة التي يمكن تمييزها فعلاً.

(٤) مجموعة الانفجار الداخلي الرابطة ( $\text{>>}$ )

نأتي الآن إلى قانون معاكس للقانون المذكور آنفاً. ينص على ما يأتي: إذا كان فونيم ما، إذا فتحة أوسع من فتحة الفونيم الذي يليه، حصل انطباع بقاء الاستمرارية (كما في  $\text{tr}^{\text{r}}$ ). وإذا لم يتحقق هذا الشرط - أي إذا كان الفونيم الثاني ذا فتحة أوسع أوله الفتحة نفسها التي للفونيم الأول - فإن لفظ هذه المجموعة يبقى ممكناً، ولكن المجموعة تفتقر إلى الاستمرارية:  $\text{sr}$  في  $\text{astra}$  هو في جوهره مثل  $\text{p}^{\text{r}}$  في  $\text{cha-pka}$ . إن هذه الظاهرة توازي تلك التي حللناها في مجموعة الانفجار الخارجي الرابطة من جميع النواحي: ففي  $\text{r}^{\text{r}}$  - الصوت أوله فتحة أضيق من الصوت الذي يسبقه، لذا فهو يزيل الانفجار الخارجي عن  $\text{r}$  وفي مجموعة مثل  $\text{m}^{\text{r}}$  المؤلفة من فونيمين لهما موضعان مختلفان للنطق  $\text{m}$  لا يزيل الانفجار عن  $\text{r}$  بل يغطي على الانفجار كلياً، فتكون النتيجة كما في المثال السابق. وفي الحالات الأخرى، كما في التسلسل المعاكس  $\text{m}^{\text{r}}$  يكسر الانفجار الخفي الآلي الذي لا مناص منه، السلسلة المنطوقة.

(٢٢) يقتصر دي سوسور على درجة فتحة الفونيم، وليس على موضع النطق أو طبيعة الفونيم (هل هو مهموس أم مجهور، له تذبذب أم أنه جانبي، إلى غير ذلك؟) - وهذا تبسيط مقصود. فالاستنتاجات التي تستمد من مبدأ الفتحة لا تفلو من حالات استثنائية. ففي تسلسل مثل  $\text{Trya}$ ، مثلاً، يصعب لفظ العناصر الثلاثة الأولى من دون كسر السلسلة:  $\text{trya}$  (إلا إذا أثرت  $\text{y}$  في  $\text{r}$  فجعلت منه صوتاً حنكياً، فيندمج الصوتان) في حين تؤلف العناصر الثلاثة في  $\text{try}$  سلسلة كاملة ذات انفجار خارجي (لاحظ كلمة  $\text{mourtier}$  وغيرها). أما  $\text{Trwa}$ ، فلا تقدم أية صعوبة. كما ينبغي أن نذكر مجموعات مثل  $\text{pmle}$  حيث يصعب التخلي عن اللفظ الأنفي ذي الانفجار الداخلي. ( $\text{pmle}$ ). أن الشواذ تظهر بصورة خاصة، الانفجار الخارجي، وهي عملية سريعة لا تقبل التأخير. (بالي).

ان مجموعة الانفجار الداخلي، كمجموعة الانفجار الخارجي، يمكن ان تضم اكثر من عنصرين اذا كان لكل عنصر فتحة اوسع من العنصر الذي يليه، (لاحظ  $\text{ãrã}$ ).  
لندع كسر السلسلة الصوتية الصوتية الآن، ونعود الى السلسلة المتصلة الاعتيادية - التي يمكن تسميتها بالسلسلة الفسلجية - كما في الكلمة الفرنسية *Particulièrement* المؤلفة من  $\text{Pãrĩkũĩyẽrmã}$  إن هذه السلسلة تتميز بتعاقب حلقات تدريجية، تتماثل مع تعاقب لانطلاق الهواء وانغلاق الفتحة للاعضاء الصوتية.  
ان مثل هذه السلسلة الاعتيادية تتصف بالامور المهمة الآتية:

#### ٤. حدود المقطع وقمة الحركة.

ان الانتقال من الانفجار الداخلي الى الانفجار الخارجي في السلسلة الصوتية يؤدي الى اثر معين، يحدد حدود المقطع (كما في  $\text{k}$  في كلمة *particulièrement*). فالتوافق المنتظم لقاعدة الآلية واثر صوتي سمعي معين يضمن لسلسلة الانفجار الداخلي والخارجي مكانة في علم الفونولوجي. ويكون لها صفة مميزة ثابتة رغم اختلاف الفصائل التي تؤلفها. إذ انها تكون نمطاً؛ يضم عدداً من الفصائل، يساوي عدد المجموعات المحتملة.

وقد يقع حدود المقطع في نقاط مختلفة، في سلسلة واحدة من الفونيمات: وهذا يعتمد على سرعة الانتقال من الانفجار الداخلي الى الانفجار الخارجي. ففي كلمة *ardra* - على سبيل المثال - تقسيمان هما  $\text{ãrdra}$  و  $\text{ãrdã}$ ، لا يكسر اي منهما السلسلة، لان مجموعة الانفجار الداخلي  $\text{ãrd}$  وكذلك مجموعة الانفجار الخارجي  $\text{ãrdã}$  تحدثان بصورة تدريجية. ويصح الشئ نفسه في  $\text{ũyĩ}$  في *particulièrement* ( $\text{ũyĩ}$  او  $\text{ũyẽ}$ ).

ونلاحظ ايضا، عند الانتقال من الصمت الى الانفجار الداخلي الاول (د) كما في *art* لكلمة *artist* - او الانتقال من الانفجار الخارجي الى الانفجار الداخلي ( $\text{<>}$ ) - كما في *part*، لكلمة *particulièrement* - نلاحظ أن الصوت الذي يقع عنده الانفجار الداخلي الاول يتميز عن الاصوات المجاورة بسبب اثر الحركة فيه. ولا يعتمد، اثر الحركة، في اية حال من الاحوال، على الفتحة الواسعة للصوت *a* لان في  $\text{pãr}$ ، ينتج الصوت *r* الاثر نفسه: إذ إنه جزء من الانفجارات الاولى مهما كانت فصيلتها، اي مهما كانت درجة الفتحة فيها: وسواء أحدث الانفجار الداخلي بعد السكوت أم بعد الانفجار الخارجي فلا اهمية لذلك. إن الصوت الذي يؤدي الى انطباع حركي هو قمة الحركة.

ان القمم الحركية قد سميت ايضا بالاصوات الصائتة. واطلق على الاصوات الاخرى في المقطع نفسه بالاصوات الساكنة (*consonantes*). *con - sonants* فالحركات والاصوات الصحيحة تحدد فصيلتين مختلفتين: اما الصائتة والساكنة فتشير الى الوظائف ضمن المقاطع. ان هذين النظامين في التسمية يوضحان الارباك الذي ظل يتخبط فيه الكتاب مدة طويلة من الزمن. ففصيلا واحدة في الفرنسية في *fidèle* (امين) وفي *piéd*

(قدم). فهي حركة، ولكنها صوت مجهور في fidele وصوت ساكن في pied. ويبين التحليل أن الصائت هو دائما انفجار داخلي، اما الساكن فقد يكون انفجارا داخليا (كما في bol, l) الانكليزية وتكتب boy ولد) او انفجارا خارجيا (كما في y في الكلمة الفرنسية Pye) وتكتب pied. ويؤكد التحليل التمييز الذي اشرنا اليه بين الفصيلتين. وقد تكون e, o, a صائتة، ولكن هذا من باب المصادفة فهي ذات فتحة تفوق في سعتها فتحات بقية الأصوات، لذا تقع دائما في بداية مجموعة الانفجار الداخلي. وعلى العكس من ذلك اصوات الغلق، فهي ذات فتحة ضيقة جدا، لذا تكون دائما ساكنة. ان الفونيمات التي تنتمي الى الاصناف ٢، ٣، ٤ من الفتحات (الاصوات الانفية، والسائلة، واشباه الحركات) يمكن ان تكون صائتة او ساكنة: ويعتمد ذلك على الاصوات المجاورة وعلى طبيعة النطق بها.

##### ٥ - نقد نظريات التقسيم الى مقاطع:

تدرك الأذن التقسيم المقطعي في كل سلسلة منطوقة كما انها تميز الصائت في كل مقطع. قد يوافق المرء على هاتين الحقيقتين. ومع ذلك يتساءل عن سبب صحتهما. لقد قدمت تفسيرات كثيرة لهذه المسألة.

(١) لاحظ بعض العلماء ان درجة صوت بعض الفونيمات اكثر شدة من غيرها، لذا حاولوا ان يجعلوا اساس المقطع شدة الصوت Sonority في الفونيم ولكن لماذا لا تؤلف فونيمات ذات شدة صوتية مثل u, i، مقاطع بالضرورة؟ ثم اين تنتهي شدة الصوت طالما ان أصواتاً احتكاكية مثل s تؤلف مقطعا (مثال ذلك pst)؟ فإذا كانت المسألة تنحصر في شدة الصوت للاصوات المتصلة، فكيف يمكن للمرء ان يفسر حصول المقاطع نتيجة مجموعات مثل w (كما في wikos (ذئب) في اللغة الهندية الاوربية الاولى) حيث ان اقل العناصر شدة في الصوت هي العناصر المقطعية؟

(٢) كان سيفرز E. Sievers اول من بين أن الاصوات التي تصنف الى حركات لا تترك بالضرورة انطباعاً على أنها حركة (مثال ذلك ما شاهدناه من ان y و w ليسا سوى i و u)؟ واذا سأل المرء لماذا ينبغي ان يكون لصوت ما وظيفتان - او انطباعان صوتيان سمعيان، اذ ان الوظيفة هنا تعني الانطباع الصوتي السمعي (الاكوستي) - اجيب ان وظيفة صوت ما تعتمد على «الركزة المقطعية» في ذلك الصوت.

هذه حلقة مفرغة. فاذا كنت حرا في وضع الركزة المقطعية التي تؤدي الى خلق الصوائت حيثما اشاء، وجب ان اطلق على الركزة صفة شدة الصوت، ولكن اذا اردنا للمقطع ان يكون ذا معنى، وجب علينا ان نشق معناه من قواعد المقطع. بيد ان مثل هذه

القواعد لم تظهر الى الوجود بعد، فضلا عن أن شدة الصوت توصف بأنها silbenbildeud^(٢٤)، وكأن تكوين المقاطع يعتمد على الركزة المقطعية.

ان الفرق بين طريقتنا وبين (١) و (٢)، فيما تقدم، واضح: اننا بتحليل المقاطع حسب وقوعها في السلسلة الصوتية، نجد الوحدات الصغرى، المؤلفة من اصوات مفتوحة واخرى مغلقة: ثم نقوم بربط هذه الوحدات، وبذلك نستطيع ان نحدد حدود المقطع وقمة الحركة ونعرف الشروط الفسيولوجية التي تؤدي الى حصول الاثار (الانطباعات) الصوتية السمعية (الاكوستية).

ان النظريات التي انتقدناها، فيما سبق، تتبع سبيلا معاكسا: ان يزعم اصحاب هذه النظريات انهم يستطيعون استنتاج حدود المقاطع وموقع الصوت الصائت من الفصائل الفونولوجية بمفردها. ففي بعض المجموعات الفونيمية قد يكون لفظ من الالفاظ اسهل وأكثر طبيعية من اللفظ الآخر: وعلى العموم تبقى امكانية الاختيار بين الالفاظ المفتوحة والالفاظ المغلقة، وان التقسيم الى مقاطع يعتمد على هذا الاختيار، وليس على الفصائل الفونولوجية مباشرة.

مما لا شك فيه ان النظرية التي قدمتها لا تستنفذ جميع الاحتمالات ولا تقدم حولا لجميع المسائل. فالفاصلة - على سبيل المثال - التي كثيرا ما تقع، ليست سوى كسر في مجموعة الانفجار الداخلي، مقصود او غير مقصود: مثال ذلك  $\bar{a} - \bar{l}$  (كما في العبارة الفرنسية il cria (صرخ) و  $\bar{a} - \bar{a}$  (كما في ébahi «مستغرب» الفرنسية).

ان مثل هذه المجموعات اسهل في الفصائل الفونولوجية التي لها فتحة واسعة. ثمة حلقات مكسورة للانفجار الخارجي، وهي مع انها غير مقسمة تكون سلسلة صوتية شأنها شأن المجموعات الاعتيادية. وقد ذكرت مثالا واحدا منها آنفا، وهو kŕino. ولنأخذ مثالا آخر كما هو مبين في التسلسل pzta: فهذه المجموعة تلفظ عادة pŕza وتتألف من مقطعين، او يجب ان تضم مقطعين اذا لفظ الصوت z الحنجري لفظاً متميزاً: اما اذا لم يكن الصوت z متميزاً، أصبح الفرق بينه وبين a قليلاً: لا يكفي لخلق مقطع، طالما ان الصوت z هو من الفونيمات التي تحتاج الى فتحة قليلة: فتكون النتيجة ان المرء يسمع مقطعا واحدا فقط، فيقترب اللفظ من pŕza.

في مجموعات الانفجار الخارجي التي تتخللها ثغرات قد يتدخل القصد والارادة، ويستطيع المرء الى حد ما ان يتجنب الضرورة الفسيولوجية. ان تحديد ما هو متعمد وما هو فسلجي قد يكون صعبا. ولكن العملية الصوتية تعتمد على تعاقب الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي، وهذا هو اساس تقسيم السلسلة الى مقاطع.

٢٤ كلمتين هما silbe = مقطع و bilden = يكون، يؤلف، يصيغ. (المترجم).

## ٦ - طول الانفجار الداخلي والانفجار الخارجي.

ان تفسيرنا للمقاطع على اساس عمل الانفجار الخارجي والانفجار الداخلي يؤدي بنا الى ملاحظة مهمة، وهي تعميم لحقيقة معروفة في البحور الشعرية. ان نستطيع ان نميز بين نوعين من الحركات الطويلة في اللاتينية والاغريقية: وهما الحركات الطويلة بطبيعتها (māter) والحركات الطويلة بسبب موقعها (factus). لماذا يعد المقطع fac طويلا في factus؟ هل سبب ذلك المجموعة ct؟ كلا فلو كانت المجموعة وحدها تحدد الطول، لكان كل مقطع يبدأ بصوتين صحيحين طويلا، ولكن هذا غير صحيح (لاحظ cliens، وغيرها). السبب الحقيقي يكمن في ان الانفجار الخارجي والانفجار الداخلي يختلفان في جوهرهما بقدر ما يتعلق الامر بالطول. فالانفجار الخارجي سريع لا تستطيع الاذن قياسه: ولهذا السبب ايضا لا ينتج عنه انطباع حركي. فالانفجار الداخلي وحده يمكن قياسه، لذا نشعر وكأننا نستغرق مدة اطول في النطق بالحركة التي يبدأ بها الانفجار الداخلي.

ثم اننا نعلم ان الحركات التي تقع قبل مجموعة مؤلفة من صوت غلق او احتكاكي وصوت سائل Liquid تعامل بطريقتين: فقد يكون الصوت a في patron طويلا او قصيرا: المبدأ في كلتا الحالتين واحد.

فالنطق بالمجموعتين tr و tr يكون على درجة واحدة من السهولة. ان الطريقة الاولى في النطق تجعل a قصيرة، اما الثانية فتؤدي الى مقطع طويل. بيد ان الصوت a في كلمات مثل factus لا يمكن النطق به بهاتين الطريقتين: ان المجموعة ct يمكن النطق بها: في حين لا يمكن النطق بالمجموعة ct.

## ٧ - فونيمات الفتحة ٤، والحركات الثنائية ومسائل تخص اسلوب كتابتها.

واخيرا تحتاج فونيمات الفتحة ٤ الى ملاحظات اضافية، فقد لاحظنا ان لهذه الاصوات - على العكس من الاصوات الاخرى - مجموعتين من رموز الكتابة (u = u, ū = u, ȳ = y, ȳ = y) وسبب ذلك بسيط، ففي مجموعات مثل aiya, auya الفرق بين اطلاق الهواء وغلق الفتحة اكبر من المجموعات الاخرى. إذ ان L و u يؤديان الى حصول انطباع حركي واضح: ا و ū ينتج عنهما انطباع لصوت صحيح، (*) ولا اريد ان ازعم أنني اقدم تفسيراً للمسألة، ولكن اريد ان اوضح ان ا حين يكون صوتا صحيحا لا يرافقه ابدا غلق الفتحة، فالصوت ا في ne لا يساوي أثره أثر y في aiya (لاحظ boy في

(٢٥) ينبغي ان نميز بين الفتحة ٤ والاصوات الرخوة الحنكية الاحتياطية (كما في g في الالمانية الشمالية Liogen) وهي فصيلة فونولوجية لها جميع مميزات الاصوات الصحيحة. (دي سوسور).

الانكليزية و pied في الفرنسية). ان الموقع هنا يقرر نوع الصمت: فيكون الصوت y صحيحا و احركة: فهذا ان النوعان للصوت الا يقعان اعتبارا ويصح الشيء نفسه في u و w: ð و ʍ.

ان الشرح السابق يوضح مسألة الحركات الثنائية، فهي ليست سوى نوع خاص من مجموعة الانفجار الداخلي: ان ða و ða متشابهان تماما، ولا فرق بينهما الا في العنصر الثاني، فالحركة الثنائية هي مجموعة من الانفجار الداخلي، يكون فيها الفونيم الثاني ذا فتحة واسعة نسبية، وهذا يؤدي الى انطباع صوتي سمعي (اكوستي) معين. ويمكن القول ان الصوت الصائت يستمر في العنصر الثاني للمجموعة. وعلى خلاف ذلك مجموعات مثل ða فهي لا تتميز عن مجموعة مثل ða الا بدرجة الفتحة للانفجار الخارجي الاخير. وهذا يعني ان ما يسميه علماء الفونولوجي بالحركات الصاعدة ليست في الحقيقة حركات ثنائية بل مجموعات من الانفجار الداخلي، لا ينتج العنصر الاول فيها انطباعا صوتيا سمعيا معينا مع انه مفتوح بسبب (ða). مجموعات مثل ða و ða التي تقع الشدة فيها على ð و ð (كما في buob و buob في بعض اللهجات الالمانية) هي ايضا حركات ثنائية كاذبة لا تعطي انطباع الوحدة الصوتية الذي نجده في ða و ða وغيرهما: اذ لا يمكن النطق بالمجموعة ða على انها انفجار داخلي، انفجار خارجي، مع تجنب كسر الارتباط فيها، من دون اللجوء الى وسيلة تضيفي وحدة مصطنعة على المجموعة.

إن تعريفنا للحركة الثنائية - الذي يربطها بالمبدأ العام لسلسلة الانفجار الداخلي يبين ان الحركة الثنائية ليست - كما يعتقد البعض - شيئا لا يمكن تصنيفه بين الظواهر الفونولوجية، فلا حاجة لوضعها ضمن الحالات الخاصة. ان الصفة الفريدة التي تتصف بها الحركة الثنائية لا اهمية لها: بل المهم ان نحدد بداية الصائت sonant وليس نهايته.

يميز سيفرز وكثيرون غيره من علماء اللغة كتابة بين n, r, ü, u, i وغيرها وبين n, r, ü, u, i وغيرها. (sibloches: i une sibloches) فيكتبون mja' mairta mita اما انا فأكتبها myarta mairta, mita. لقد وجدوا ان i و y ينتميان الى فصيلة فونولوجية واحدة، لذا يريدون ان يرمزوا الى الصوتين برمز كتابي واحد (فهم يتشبثون بمبدأ ان السلسلة الصوتية انما تتألف من فصائل متجاورة).

ومع ان اسلوب الكتابة عندهم يعتمد على الدليل السمعي، فهو غير منطقي، يقضي على فرق مهم لا بد من مراعاته: (١) فلا يميزون بين u, i المفتوحين (w, y =) وبين i و u المغلقين (اي انهم لا يميزون بين newo و neuo). وعلى خلاف ذلك، فإن i و u المغلقين يقسمان الى قسمين (لاحظ mirta و mairta). وهذه بعض المشاكل التي يواجهها المرء اذا اتبع اسلوب سيفرز. نذكر اولا الكلمات الاغريقية القديمة dwis و duis تقابلها الكلمات

rhéwō و rheûma. ان هذين المثالين من التقابل يحصلان في ظروف فونولوجية واحدة، ويشار اليهما عادة برمز كتابية واحدة. والصوت u اما ان يكون مفتوحا (w) او مغلقا (u)، طبقا للفونيم التالي: هل هو أوسع فتحة أم أضيق؟ بيد ان الصيغ الكتابية dui- و dui- rheuma, rheuo تقضي تماما على هذه الفروق. وكذلك الامر بالنسبة للكلمات الهندية الاوربية الاولى في المجموعتين:

sūneu, mātrsu, māteres, matrai, māter. sunusu, sunewes, sunewai

فهي تتشابه في تعاملها الثنائي لـ r و u.

فالتقابل بين الانفجار الداخلي والخارجي واضح جدا في الكتابة، في الأقل في المجموعة الثانية. بيد ان طريقة الكتابة التي انتقدتها (Sūnusu, Suneues, suneuṁai) لا تبين هذا التقابل. فالفروق بين الاصوات (w,u وغيرهما) المفتوحة والمغلقة ينبغي ان نحافظ عليها بل يجب ان نعممها لتشمل النظام بأكمله. اذن ينبغي ان نكتب: matrsu, matepes, matpai, māter وبذلك تتوضح عملية التقسيم الى المقاطع، وتبرز القمة الحركية vocalic peak والحدود المقطعية.

ملاحظة كتبها بالي:

ان النظريات التي ذكرت آنفاً تلقي الضوء على عدد من المسائل، تطرق الى بعضها سوسور في محاضراته. وهذه امثلة منها.

(١) يذكر سيفرز أن beriltenen beritnnnn في الالمانية على أن خير مثال للصوت الواحد، يمكن ان يرد مرتين صوتاً صائتاً ومرتين صوتاً غير صائت (والحقيقة ان n تعمل مرة واحدة على انها صوت ساكن con — sonant لذا يجب ان تكتب هذه الكلمة beritnnn، ولكن هذا امر غير مهم). وليس مثال افضل من هذا يبين ان الصوت، والفصيلة، ليسا شيئاً واحداً. فإذا اكدنا n، أي جعلنا منه صوتاً ذا انفجار داخلي، ثم توقف في عملية اللفظ لم ينتج عن ذلك سوى مقطع طويل. واذا اردنا الحصول على صوت n صائت و n ساكن، وجب علينا ان ننتقل من الانفجار الداخلي (n الاولى) الى الانفجار الخارجي (n الثانية) ثم نعود الى الانفجار الداخلي (n الثالثة). ولما كان الانفجاران الداخليان لا يسبقهما انفجار داخلي آخر، كان كلاهما، اذن، صوتاً صائتاً.

(٢) في بعض الكلمات الفرنسية مثل meurtrier «قاتل» ouvrier «عامل» الى آخره الجزء الاخير vrier — trier — يؤولف مقطعا واحدا مهما كان لفظ الكلمة (انظر الحاشية ٨). ثم اخذ الناس ينطقون هذا الجزء على انه مقطعين meur — tri — er بادخال فاصلة او بدونها اي triè أو triyè. ولم يحصل هذا التغيير بوضع ركزة مقطعية على العنصر i، بل عن طريق تغيير نطق الانفجار الخارجي لهذا العنصر الى نطق الانفجار الداخلي.

ان اللفظ العامي لكلمة ouvrier هو ouvèrier. وهذا التغيير يشبه تقسيم vrier الى



مقطعين، ولكن العنصر الثاني (r) هنا هو الذي تغير نطقه فاصبح صوتا صائتا وليس العنصر الثالث: *uvrýð* ~~uvrýð~~ ثم ظهر *uvrýð* قبل الصوت الصائت *r*.

(٣) ويمكننا ان نشير الى الحالات المعروفة لوقوع الحركات في البداية قبل الصوت *s* المتبوع بصوت صحيح في الفرنسية: في اللاتينية *scūtum* → *iscūtum* → *esca* → *éca* (درع) في الفرنسية. فالمجموعة *sk* سلسلة مكسورة، تكون اكثر طبيعية اذا لفظت *sk̥*. بيد ان الصوت *s* للانفجار الداخلي يقوم بعمل القمة الحركية اذا وقع في اول الجملة، او اذا انتهت الكلمة السابقة بصوت صحيح له فتحة ضعيفة فيضخم الصوت *L* والصوت *e*، في الاول، صفة الصوت الصحيح *s*. واذا حاول المتكلم الحفاظ على أية صفة صوتية مميزة تجسمت تلك الصفة، فيحدث الشيء نفسه في *esclandre* «فضيحة» والنطق العام للكلمتين *estalue*, *esquelette* (الكلمتان الفصيحتان هما *squelette* «الهيكل العظمي» و *statue* «تمثال» كما تظهر هذه الظاهرة في اللفظ العامي لحرف الجر *de* الذي يكتب *ed*: *un oeil ed tanche* عين التنش (سمكة). ثم يحذف مقطع من (يحدث ادغام) *de tanche* فتصبح العبارة *d,tanche*، ولكن *d* ينبغي ان تكون ذات انفجار داخلي كي تظهر واضحة (*dtanche*). فكانت النتيجة ظهور حركة في اول الكلمة في هذه الحالة ايضا.

(٤) ليس من الضروري ان نعود الى الوراء الى الاصوات الصائتة في اللغة الهندية الاوربية لنسأل - على سبيل المثال - لماذا تغيرت كلمة *hagi* في الالمانية القديمة العليا الى *hagal*، في حين بقيت *bagi* على حالها. ان *L* في هذه الكلمة وهي العنصر الثاني لحلقة الانفجار الداخلي *bāçg* تقوم بعمل صوت ساكن لذا لم تتغير. اما *L* في *hagi*، وهي ذات انفجار داخلي ايضا، فكانت قمة حركية. ولما كانت صائتة: ظهرت حركة، في الاول، مفتوحة (تطورت الى *a* اذا اخذنا الكتابة دليلا لنا).

واصبحت الحركة بمرور الزمن اقل وضوحا، لذا فكلمة *Hagel* تلفظ اليوم *hāgi* كما كانت تلفظ في القديم. وطبيعة *L* مسؤولة عن الفارق في اللفظ بين الكلمة الالمانية والكلمة الفرنسية *aigle* «نسر» فالكلمة الالمانية *Hagel* لها *L* مغلقة في حين للكلمة الفرنسية *L* مفتوحة يتبعها حرف *e* الصامت (*ēgl̥*).



# الجزء الاول

## مبادئ عامة

## الفصل الاول طبيعة الاشارة اللغوية

١. الاشارة sign والمدلول signified والدال signifier.

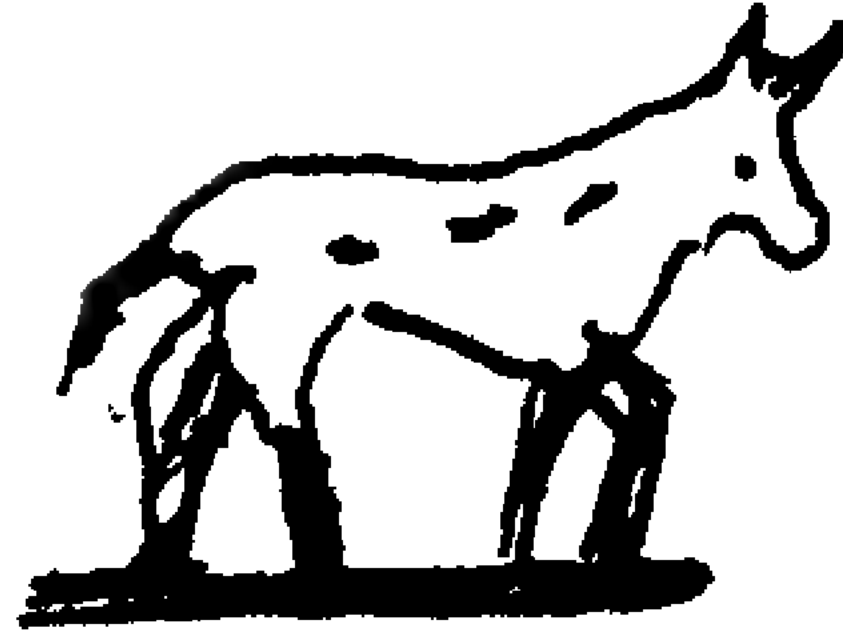
يعد بعض الناس اللغة، في جوهرها، عملية لتسمية الاشياء ليس الا - اي انها قائمة من الالفاظ، كل لفظة تدل على الشيء الذي تسميه. فعلى سبيل المثال:

ARBOR



شجرة

ERBOR



حصان

الى آخره الى آخره

ان هذا الرأي يمكن انتقاده في عدد من النقاط. فهو يزعم ان الافكار معدة مسبقا وموجودة قبل الكلمات، كما انه لا يخبرنا هل ان الاسم في طبيعته صوتي ام سايكولوجي (arbor «شجرة» مثلا يمكن النظر اليها من هاتين الناحيتين)، ثم انه يجعلنا نعتقد ان ربط التسمية بالشيء انما هو عملية بسيطة - وهذا الاعتقاد بعيد عن الصحة. ومع ذلك فإن هذا الرأي البسيط يمكن ان يقربنا من الحقيقة اذا وضع لنا ان الوحدة اللغوية هي كيان ثنائي، كيان يتألف من الربط بين عنصرين.

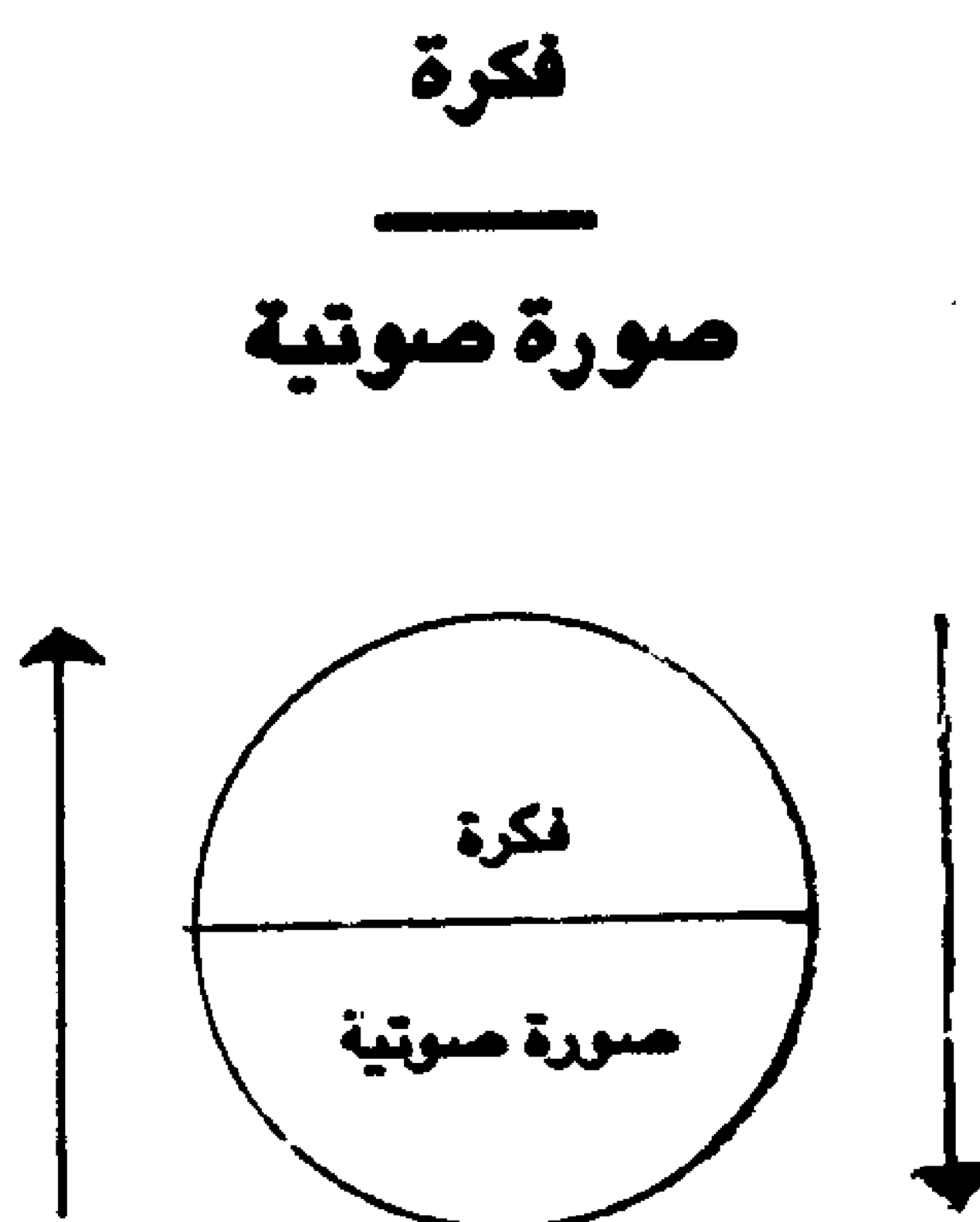
لقد رأينا عند الحديث عن دائرة الكلام ان العنصرين اللذين يدخلان في الاشارة اللغوية هما ذوا طبيعة سايكولوجية، يتحدان في دماغ الانسان بأصرة التداعي (الايحاء). وهذا امر ينبغي تأكيده.

فالاشارة اللغوية تربط بين الفكرة والصورة الصوتية، وليس بين الشيء

والتسمية^(٢٦) ولا يقصد بالصورة الصوتية، الناحية الفيزيائية للصوت بل الصورة السايكولوجية للصوت، أي الانطباع أو الأثر الذي تتركه في الحواس. إذن فالصورة الصوتية هي حسية (لها علاقة بالحواس)، وإذا حدث أن وصفناها بأنها مادية فانما أعني بذلك في طبيعتها الحسية، وبالمقابلة بالعنصر الآخر للارتباط، وهو الفكرة التي هي أكثر تجريداً من الصورة الصوتية، على العموم.

إن الطبيعة السايكولوجية للصورة الصوتية، تصبح واضحة عند ملاحظتنا لساننا. فنحن نستطيع أن نتكلم إلى أنفسنا، أو ننتلو في ذهننا قصيدة، من غير أن نحرك شفاهنا. ولما كنا نعد الكلمات الموجودة في لغتنا صوراً صوتية، وجب تجنب استخدام لفظة «الفونيمات» التي تتألف منها الكلمات. فهذه اللفظة التي توحى بفعالية صوتية لا يصح استخدامها إلا عند الحديث عن الكلمة المنطوق بها - أي عند اخراج الصورة الداخلية إلى الواقع في الحديث ويمكن تجنب اللبس باستخدام أصوات الكلمة ومقاطعها شرط أن نتذكر أن الأسماء تشير إلى الصورة الصوتية.

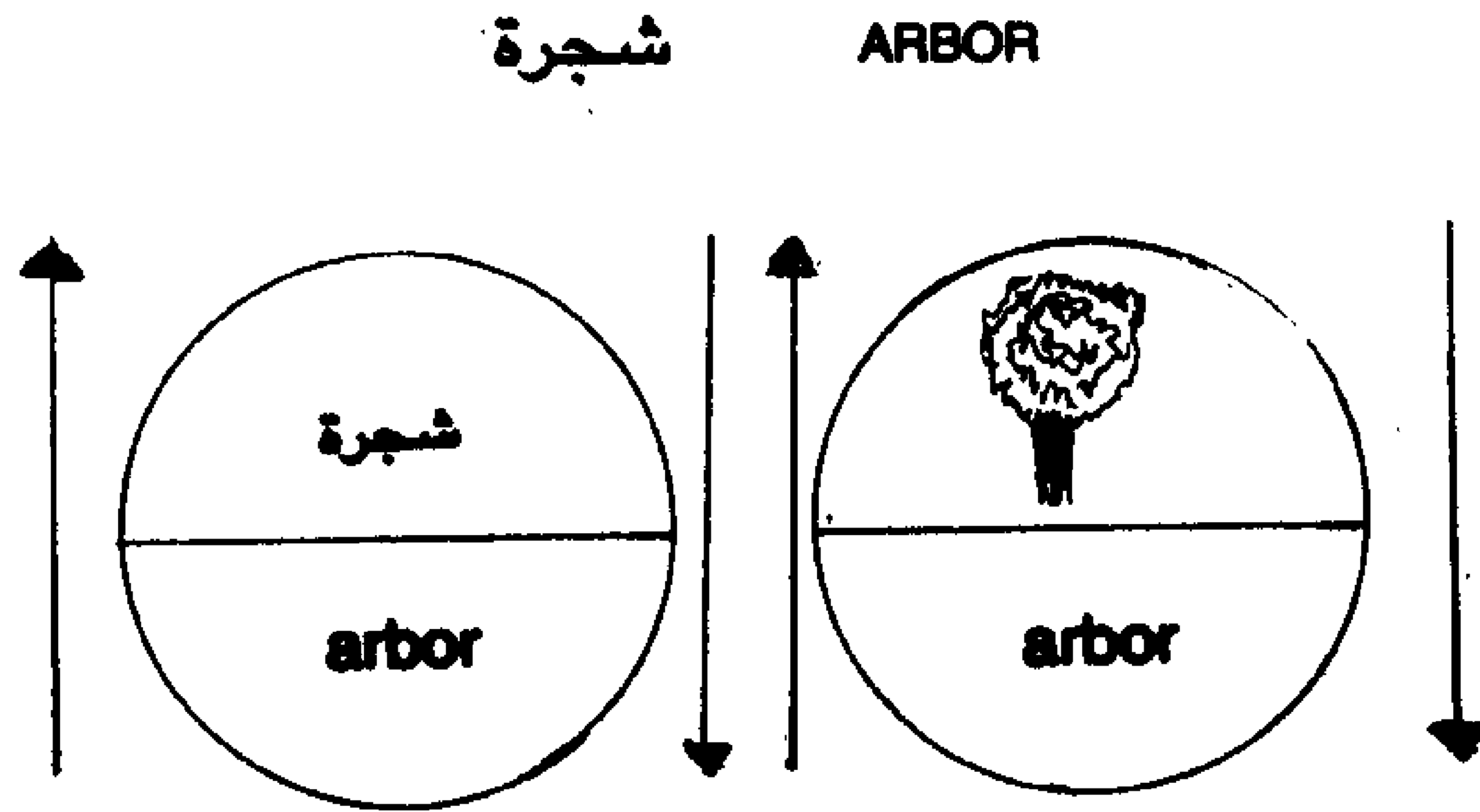
الإشارة اللغوية، إذن، هي كيان سايكولوجي؛ له جانبان، يمكن التعبير عنه بالرسم الآتي:



(٢٦) قد تبدل لفظة الصورة الصوتية ضيقة في معناها، إذ هناك فضلاً عن التعبير عن الأصوات، النطق بالكلمة، الصورة العضلية للصوتية. ولكن اللغة عند سوسور إنما هي في جوهرها ذخيرة، شيء يتسلمه المرء من الخارج. والصورة الصوتية هي التعبير المثالي الطبيعي للكلمة بكونها حقيقة لغوية تقع خارج استعمالها في الكلام. إذن فالجانب الحركي (motor) يقع ضمن هذا المفهوم أو أنه يحتل جانباً ثانوياً بالمقارنة مع الصورة الصوتية. (بالي).

ان الصلة وثيقة بين الجانبين (العنصرين)، فكل منهما يوحى بالآخر. فسواء أردنا أن نجد معنى الكلمة اللاتينية arbor او الكلمة التي تستخدمها اللاتينية للدلالة على فكرة «الشجرة»، فمن الواضح أن الارتباطات التي تقرها اللغة، تبدو لنا هي وحدها مطابقة الحقيقة، وأما غير ذلك مما قد يخطر على بالنا فيهمل.

ان التعريف الذي أوردناه للإشارة اللغوية يثير سؤالاً مهماً، يتعلق بالتسمية فقد أُطلقت لفظة «الإشارة» على الربط بين الفكرة والصورة الصوتية. ولكن هذه اللفظة تدل عادة في الاستخدام الشائع الآن، على الصورة الصوتية فقط، أي على الكلمة arbor في «شجرة» او غيرها. وكثيراً ما ينسى المرء ان arbor «شجرة تسمى بالإشارة لا لسبب الا لانها تحمل فكرة «الشجرة» ويؤدي ذلك الى ان الفكرة الحسية تنطوي على فكرة الكل.



ويمكن التخلص من اللبس والغموض، إذا أشرنا الى الأمور الثلاثة هذه بثلاثة أسماء مختلفة، كل اسم يتميز عن الاسمين الآخرين ويوحى بهما. لذا أقترح الإبقاء على لفظة sign «الإشارة» للدلالة على الفكرة بأكملها، وأستخم بدلاً من الفكرة concept والصورة الصوتية sound — image على التوالي: المدلول signified (signifié) والدال signifier (signifiant) ويمتاز التعبيران الأخيران بأنهما يوحيان بالفرق بينهما كما يوحيان باختلافهما عن الكل الذي هما جزء منه. اما الإشارة فأنا أميل الى استخدامها لانني لا اعرف كلمة اخرى يمكن ان تحل محلها، واللغة الاعتيادية لا توحى لي بغيرها.

ان الإشارة اللغوية حسب هذا التعريف لها صفتان جوهريتان. وسأذكر هاتين الصفتين لتكونا مبدئين اساسيين لمثل هذه الدراسة.

٢. المبدأ الأول: الطبيعة الاعتبارية للإشارة ان العلاقة بين الدال signifier والمدلول signified

اعتباطية. ولما كنت أعني بإشارة النتيجة الاجمالية للارتباط بين الدال والمدلول، تهيأ لي ان اقول بأسلوب أبسط: إن الاشارة اللغوية اعتباطية. ففكرة «الاخت» sister لا ترتبط بآية علاقة داخلية بتعاقب الاصوات s—o—r التي تقوم بوظيفة الدال في اللغة الفرنسية: فهذه الفكرة يمكن التعبير عنها باستخدام أي تعاقب صوتي آخر، وخير دليل على ذلك اللغات المختلفة (التي تستخدم اشارات مختلفة). فالمدلول (ثور) له الدال b—o—f على طرف من الحدود (الفرنسية - الألمانية) و s—k—o (ochs) على الطرف الآخر.

لا يختلف اثنان إذن في الطبيعة الاعتباطية للاشارة، ولكن اكتشاف الحقيقة اسهل من وضعها في مكانها المناسب. فالمبدأ الاول (الاعتباطية) تسود دراسة علم اللغة، وله نتائج لا تحصى. بيد ان هذه النتائج ليست جميعها واضحة للوهلة الاولى، اذ لا يكتشفها المرء الا بعد عدة محاولات، وعند ذاك يمكنه أن يدرك الاهمية الجوهرية لهذا المبدأ.

بقيت ملاحظة طارئة: عندما يغدو علم الاشارات semiology علما مستقلا بذاته، يظهر السؤال الآتي: هل سيضم هذا العلم طرق التعبير التي تعتمد على الاشارات الطبيعية المحضة كالاشارات الصامتة في التمثيل الصامت مثلا pantomime ام لا؟ ولنفرض ان العلم الجديد سيضم مثل هذه الاشارات، فأن الاهتمام الاول لهذا العلم سيظل مُنصبًا على جميع الانظمة التي تتركز على اعتباطية الاشارة بل أن كل وسيلة من وسائل التعبير التي يستخدمها المجتمع تعتمد - في جوهرها - على السلوك الجماعي - او على شيء يشبه ذلك وهو العرف convention فأساليب اللياقة مثلا - وان كانت غالبا مفعمة ببعض المميزات الطبيعية للتعبير (كما هي الحال عندما يُحيي الصيني امبراطوره بانحنائه الى الأرض تسع مرات) - تخضع لقاعدة ثابتة: فهذه القاعدة هي التي تحمل المرء على استخدام هذه الأساليب، وليس القيمة الذاتية للاماءة. إن الاشارات الاعتباطية أفضل من غيرها في التعبير عن الهدف الاسمي لعملية التعبير بالاشارات. وهذا يفسر لماذا تعد اللغة - وهي أكثر نظم التعبير تعقيدا - خير ممثل لنظام الاشارات. وبذلك يصبح علم اللغة النمط الاساس لجميع فروع علم الاشارات مع ان اللغة ليست سوى نظام واحد من أنظمة الاشارات.

لقد استخدمت لفظة الرمز symbol للدلالة على الاشارة اللغوية، او بعبارة أدق، للدلالة على ما أطلقنا عليه هنا بالدال. إن استخدام لفظة الرمز لا يتفق مع صفة الاعتباطية. فمن مميزات الرمز أنه لا يكون اعتباطيا على نحو كلي، فهو ليس فارغا: اذ هناك جذر رابطة طبيعية بين الدال والمدلول فرمز العدالة - الميزان - لا يمكن استبداله باعتباطا بأي رمز آخر - كالعربة مثلا.

ثم إن كلمة الاعتباطية تحتاج الى توضيح. فهذه الكلمة لا تعني أن امر اختيار الدال متروك للمتكلم كليا. (حيث سنرى ان الفرد لا يستطيع ان يغير الاشارة بعد ان



تستقر هذه الإشارة في المجتمع اللغوي.) بل اعني بالاعتباطية انها لا ترتبط بدافع، اي انها اعتباطية لانها ليس لها صلة طبيعية بالمدلول.

واخيرا نذكر اعتراضين قد يثيرهما المرء بخصوص صفة الاعتباطية.

(١) قد تستخدم الكلمات التي توحى بمعناها onomatopoeia دليلا على أن اختيار الدال ليس اعتباطا دائما. ولكن الكلمات، التي توحى بمعناها ليست عناصر حيوية (عضوية) في النظام اللغوي. ثم ان عددها اقل بكثير مما يعتقد. فالكلمات الفرنسية مثل fouet «سوط» او glas «صوت الجرس»، وغيرها قد توحى الى بعض الناس بوجود علاقة بين المعنى والصوت، ولكن ما علينا الا ان ننظر الى اصولها اللاتينية لنرى ان هذه الكلمات لم تكن دائما تملك مثل هذه الخاصية. fouet مشتقة من fagus اللاتينية، وتعني شجرة الزان، و glas مشتقة من classicum «صوت البوق». فالصفة التي تنسب الى صوت هذه الكلمات الآن انما هي نتيجة عرضية للتطور الصوتي فيها.

اما الكلمات التي هي امثلة حقيقية للعلاقة بين الصوت والمعنى (مثل tick — tuik، glug — glug وغيرهما) فهي قليلة العدد، فضلا عن ان اختيارها يكون عادة بصورة اعتباطية، لانها محاولات تقريبية تعتمد ايضا على العرف، في محاكاة بعض الاصوات (مثال ذلك bow — bow في الانكليزية يقابل ذلك ouaoua في الفرنسية (نباح الكلب). ثم ان هذه الكلمات ما ان تدخل اللغة حتى تصبح الى حد ما خاضعة للتطور اللغوي — الصوتي والصرفي الى آخره — الذي تخضع له الكلمات الاخرى (مثال ذلك كلمة pigeon (حمام) مشتقة من اللاتينية العامة pipio وهذه الكلمة بدورها مشتقة من الصوت الذي يوحى به صوت الطائر): وهذا دليل واضح ان هذه الكلمات تفقد شيئا من صفتها الاولى لكي تكسب الصفة العامة للإشارة اللغوية وهي صفة الاعتباطية (انعدام الصلة الطبيعية)

(٢) الفاظ التعجب: وهي ترتبط ارتباطا وثيقا بالكلمات التي توحى اصواتها بمعانيها. ويصح النقد الذي ذكر، فيما تقدم عليها ايضا. فهي ليست دليلا على بطلان حجة الاعتباطية في الإشارة اللغوية. وقد ينظر المرء الى الفاظ التعجب على انها تعابير تلقائية للحقيقة تملئها على المتكلم القوى الطبيعية. ولكننا نستطيع ان نبين عدم وجود علاقة ثابتة بين المدلول والدال في معظم الفاظ التعجب. فما علينا الا ان نقارن بين هذه الالفاظ في لغتين حتى نرى اختلافها من لغة الى اخرى (فلفظة! aie الفرنسية يقابلها! ouch في الانكليزية).^(٢٧) ثم إننا نعلم ان كثيرا من الفاظ التعجب كلفت في وقت ما كلمات لها معان

(٢٧) يقابل ذلك في العربية آخ ! (الترجم).

محددة (لاحظ) الكلمة الفرنسية diable (اللعنة)، mordieu (الله) من mort dicu (في الانكليزية: Zounds' goodness).

إذن فالالفاظ التي توحى بمعناها والفاظ التعجب ذات اهمية ثانوية، واصلها الرمزي موضع خلاف.

(٣) الصفة الثانية: الطبيعة الخطية للدال.

لما كان الدال شيئاً مسموعاً (يعتمد على السمع) فهو يظهر الى الوجود في حيز زمني فقط ويستمد منه هاتين الصفتين (١) انه يمثل فترة زمنية و (ب) وتقاس هذه الفترة ببعد واحد فقط: فهو على هيئة خط.

إن المبدأ الثاني هذا واضح كل الوضوح، وقد اهمله علماء اللغة، لا شك أنهم وجدوه بسيطاً جداً ومع ذلك فهو اساسي له نتائج لاتحصى. فاهميته تضاهي اهمية الصفة الاولى: اذ ان عمل اللغة بأكمله يعتمد عليه (لاحظ الجزء الثاني، الفصل الخامس). ويختلف الدال السمعي عن الدال البصري في ان الدال البصري (كأشارات الملاحظة مثلاً) يوفر امكانية قيام مجموعات على عدة ابعاد في آن واحد في حين ان الدال السمعي له بعد واحد فقط - وهو البعد الزمني. وعناصر الدال السمعي تظهر على التعاقب، فهي تؤلف سلسلة. وتتضح هذه الخاصية عندما نعبر عن الدال كتابة، فيحل الخط المكاني لعلامات الكتابة محل التعاقب الزمني.

وقد لا تكون الطبيعية الخطية للدال واضحة. فعندما اشدد على مقطع ما يبدو وكأنني اركز اكثر من عنصر واحد في نقطة واحدة. ولكن هذا نوع من الوهم. فالمقطع والركزة يؤلفان عملية صوتية واحدة فقط. وليس في هذه العملية ثنائية، بل تقابلات مختلفة بين ما تقدم وتأخر (لاحظ الجزء الثاني، الفصل السادس).

## الفصل الثاني

### صفة الثبوت والتغير في الإشارة

#### ١. الثبوت:

ان الدال، مع كونه يبدو وكأنه قد اختير بحرية كاملة ليمثل الفكرة التي يعبر عنها، ثابت، وليس حراً بالنسبة للمجتمع اللغوي الذي يستخدمه. وليس لجماهير الناس رأي في الموضوع. فالدال الذي تختاره اللغة لا يمكن استبداله بغيره. ان هذه الحقيقة التي قد تبدو وكأنها تحمل في طياتها تناقضاً، يمكن تسميتها بالاسلوب الدارج «بالحرية المقيدة في لعب الورق». فنقول للغة: «اختاري»، ثم نضيف: ولكن يجب ان تختاري هذه الإشارة لا غيرها. فليس باستطاعة أي فرد - وان اراد ذلك ان يغير على أي نحو الاختيار الذي اتفق عليه. ثم إن المجتمع نفسه لا يمكن ان يفرض سيطرته حتى على كلمة واحدة، فالكلمة مرتبطة باللغة المستخدمة.

فليست اللغة مجرد اتفاق او عقد، وهذا ما يجعل الإشارة اللغوية ذات أهمية خاصة للباحث. اذ ان اللغة تقدم خير دليل على ان القانون بعد ان يقبله المجتمع يصبح شيئاً يمكن تحمله وليس قاعدة يخضع لها الجميع عن طوع؛ لنر اولاً لماذا لا نستطيع ان نسيطر على الإشارة اللغوية، ثم نستخلص النتائج المهمة لهذه الظاهرة.

مهما رجعنا الى الوراء وتوغلنا في القدم ومهما كانت الفترة التي نختارها، فإن اللغة تظهر لنا على انها تراث من الفترة السابقة للفترة التي نحن بصدددها. وقد نتصور لحظة زمنية حددت فيها مسميات للأشياء وقامت صلة بين الأفكار والصور الصوتية، ولكن مثل هذه العملية لم تسجل قط. ان فكرة ان الامور قد جرت بمثل هذا الاسلوب امر يوحي به شعورنا العميق بالطبيعة الاعتبارية للإشارة.

فلم يعرف أي مجتمع من المجتمعات اللغة سوى انها نتاج موروث من الاجيال السابقة ينبغي قبوله. لذا ليس لمسألة أصل الانسان تلك الأهمية التي يعتقد انها تنطوي عليها. بل ان المسألة لا تستحق الاهتمام، لان الهدف الحقيقي الوحيد لعلم اللغة هو الحياة الطبيعية الاعتيادية للغة لها وجود. فاية حالة من حالات اللغة انما هي دائماً نتاج للقوى التاريخية، لذا تفسر هذه القوى عدم تغير الإشارة، أي لماذا تقاوم الإشارة استبدالها اعتبارياً.

لا فائدة من القول ان اللغة شيء موروث، ثم نترك الامر عند هذا الحد. ألا يمكننا ان

نغير القوانين المرعية الموروثة من وقت الى آخر؟

للاجابة عن هذا الاعتراض، علينا ان نضع اللغة في اطار اجتماعي، ثم نصوغ السؤال بالصيغة التي نصوغ بها اي سؤال اجتماعي. كيف تنقل بقية النظم الاجتماعية من جيل الى آخر؟ ان هذا السؤال العام ينطوي على مسألة الثبوت او عدم التغيير. وعلينا ان نحدد الحرية الكثيرة او القليلة التي تتمتع بها بقية الانظمة. فنجد في كل حالة من الاحوال أنَّ النسبة تختلف بين التقليد الثابت وحرية المجتمع في العمل.

ثم نجد السبب الذي تكون به سلطة العرف الثابت، في صنف من الاصناف، اشد او اقل من حرية المجتمع في العمل. واخيراً نعود الى اللغة فنسأل لماذا يسود العامل التاريخي الذي ينقل اللغة من جيل الى اخر فيمنع حدوث اي تغيير فجائي واسع.

لهذا السؤال اجوبة كثيرة. فعلى سبيل المثال، يمكن القول ان الاجيال المتعاقبة لا تتخذ هيئة فرض جيل على جيل كما هي الحال في مجرات دولاب الاثاث، بل ان الاجيال تندمج وتنصهر بعضها في بعض، فيشتمل كل جيل على افراد من جميع العصور - فتكون نتيجة ذلك ان التغيير في اللغة لا يرتبط بتعاقب الاجيال. واذا تذكرنا الجهود الكبيرة التي ينبغي بذلها لتعلم لغة الام علمنا ان اي تغيير عام في اللغة امر مستحيل. كما يمكن ان نضيف ان التأمل لا يدخل في الاستخدام الفعال للغة - فالتكلمون عامة غير شاعرين بقوانين اللغة، واذا كانوا غير شاعرين بهذه القوانين فكيف يستطيعون تغييرها؟ حتى وان كانوا شاعرين بهذه القوانين، فلا شك ان هذا الشعور قلما يؤدي الى النقد، حيث ان الناس على العموم قانعون باللغة التي يرثونها.

(١) الطبيعة الاعتبائية للاشارة.

ان هذه الملاحظات مهمة غير انها ليست ذات علاقة وثيقة بالموضوع الذي نحن بصددده اما الملاحظات الآتية فجوهرية واشد صلة وتعتمد عليها بقية الأمور.

ذكرنا آنفا الامكانية النظرية للتغيير: واذا تأملنا المسألة اكثر لاحظنا ان الطبيعة الاعتبائية للاشارة هي في الحقيقة العامل الذي يقي اللغة من أية محاولة لتغييرها. إن أقرب الناس (سليقة) إلى اللغة لا يستطيع التحدث عنها، والسبب في ذلك ان مناقشة اي موضوع تحتاج الى اساس منطقي، فعلى سبيل المثال يمكن مناقشة ايها افضل: الزواج بواحدة ام الزواج بأكثر من واحدة كما يمكن تقديم الأدلة لدعم هذا الجانب او ذاك. وكذلك يمكن للمرء ان يناقش نظاما من الرموز، لان الرمز يرتبط ارتباطا منطقيا بالشيء الذي يرمز اليه (انظر ما قلناه سابقا). اما اللغة فهي نظام من الاشارات الاعتبائية أي انها تفتقر الى الاساس الضروري، والارضية الصلدة للمناقشة. اذن ليس من سبب يجعلنا نفضل لفظة *soeur* (اخت) على *ochs, sister* (ثور) على *boeuf* وغيرها.

## (٢) كثرة الاشارات امر ضروري لجميع اللغات.

هناك عامل مهم آخر يقف في طريق تغيير وهو العدد الكبير للاشارات اللغوية التي تتألف منها اية لغة من اللغات. من الواضح ان نظاما للكتابة يتألف من عشرين الى اربعين حرفا يمكن استبداله بنظام اخر اذا اقتضت الحاجة. ولو كانت اللغة تضم عددا محدودا من العناصر لصح عليها الشئ ذاته: بيد ان الاشارات اللغوية لا تحصى.

## (٣) التعقيد الشديد الذي يتميز به النظام.

١ اللغة عبارة عن نظام. فاللغة من هذه الناحية ليست اعتباطية تماما (كما سنرى فيما بعد) بل تخضع الى حد ما للمنطق، وهنا ايضا تظهر عدم قدرة جماهير الناس على تغيير اللغة. فالنظام شئ معقد لا يمكن فهمه الا بعد التأمل: والذين يستخدمون النظام كل يوم يجهلون امره. فلا يمكننا ان نتصور التغيير الا بتدخل الاختصاصيين والنحويين وعلماء المنطق وغيرهم، ولكن الخبرة علمتنا ان مثل هذا التدخل قد فشل دائما في الماضي.

## (٤) عدم الاكتراث الجماعي نحو التجديد.

اللغة في كل لحظة من اللحظات موضوع اهتمام الجميع، وهذه النقطة تفوق غيرها في الاهمية: فهي تنتشر في المجتمع ويستخدمها المجتمع كل يوم. ولا نستطيع ان نشبهها في هذا المجال بأي نظام آخر. فالانماط السلوكية كالطقوس الدينية، والاشارات المستخدمة في الملاحة وغيرها لا يستخدمها الا عدد محدود من الافراد في آن واحد. ولا تستخدم الا لفترة محددة من الزمن. اما اللغة فيشترك في استخدامها كل فرد وفي كل قت. ولذلك تقع دائما تحت تأثير جميع الناس. وهذه الحقيقة الجوهرية تكفي للبرهنة على استحالة حدوث ثورة في اللغة. فاللغة اقل النظم الاجتماعية خضوعا لبادرة التطوير. فهي تمتزج بحياة المجتمع، والمجتمع خامل بطبعه، فهو اشد القوى محافظة. ولكن القول بان اللغة نتاج القوى الاجتماعية لا يكفي دليلا على ان اللغة غير حرة، فعلى ان نتذكر دائما انها ميراث العصور السابقة، لذا يجب ان نضيف ان هذه القوى الاجتماعية مرتبطة بالوقت. فاللغة لا يقرها الثقل الجماعي حسب بل الوقت ايضا. وهذان العاملان لا يمكن الفصل بينهما. ففي كل لحظة تنقيد حرية الاختيار بفضل الرابطة القوية بينهما وبين الماضي. نقول الرجل والكلب. وهذا لا يمنع من وجود آصرة بين القوتين المتضادتين في الاطار الاجمالي لظاهرة العرف الاعتباري الذي يتم به الاختيار الحر، والزمن الذي يجعل من الاختيار شيئا ثابتا. فالاشارة اعتباطية، لذا فهي لا تخضع لاي قانون سوى قانون العرف، ولما كانت تستند الى العرف فهي اعتباطية.

## ٢. التغيير:

ان الزمن، الذي يضمن استمرارية اللغة، له تأثير آخر مناقض على ما يبدو للتأثير الاول: فهو يدفع الى التغيير السريع او البطيء للإشارة اللغوية. اذن يمكننا الحديث عن الثبوت والتغيير في الإشارة.^(٢٨)

ان هاتين الحقيقتين تعتمدان - في جوهرهما - الواحدة على الاخرى مع انهما مستقلتان. فالإشارة تتعرض للتغيير لانها تملك القدرة على الاستمرارية وابقاء كيانها. والذي يسود جميع انواع التغيير هو بقاء المادة الاصلية، فاهمال الماضي انما هو شيء نسبي وهذا ما يجعل مبدأ التغيير يعتمد على مبدأ الاستمرارية.

التغيير في الزمن يتخذ اشكالا متعددة، يمكن للمرء ان يكتب عن كل واحد منها فصلا مهما في علم اللغة. لنر ما الامور التي تحتاج الى تحديد، من دون الدخول في التفاصيل.

في بادئ الامر ينبغي ان نوضح المقصود بلفظة التغيير. قد يظن المرء ان التغيير يعني التغيير الصوتي الذي يخضع له الدال. اوربما التغيير في المعنى الذي يؤثر في فكرة المدلول. ان هذا الرأي عن التغيير غير واف بالغرض. فمهما كانت قوى التغيير، سواء جاءت كل واحدة مفردة او جميعها سوية، فأنها تؤدي دائماً الى تغيير في العلاقة بين المدلول والدال.

وهذه أمثلة على ذلك. فاللفظة اللاتينية *necare* «قتل» اصبحت في الفرنسية *noyer* «غرق». وحدث تغيير في الصورة الصوتية وكذلك في الفكرة. ولكن لا فائدة من الفصل بين جزأي هذه الظاهرة. اذ يكفي ان نذكر بخصوص هذه الظاهرة بأكملها ان العلاقة بين الفكرة والأشارة تفككت، فحل تغيير في العلاقة بينهما. اما اذا تركنا مقارنة اللفظة اللاتينية الكلاسيكية *necare* بالكلمة الفرنسية *noyer*، وقارنا الكلمة الاولى بلفظة *necare* في اللاتينية والعامية للقرن الرابع او الخامس التي تعني «غرق» اختلف الامر. ولكن هنا ايضاً، مع انه لم يحدث تغيير ملموس في الدال، حصل تغيير في العلاقة بين الفكرة والإشارة.^(٢٩)

واللفظة الالمانية القديمة *drittel* «ثلث» اصبحت *Drittel* في الالمانية الحديثة. بقيت

(٢٨) من الخطأ ان نصف دي سوسور بأنه غير منطقي او يناقض نفسه لانه ينسب صفتين متناقضتين الى اللغة. فهو يريد من استخدام الضدين تأكيد حقيقة ان اللغة تتغير مع ان المتكلمين غير قادرين على تغييرها - كما يمكن القول انها غير ملموسة ولكنها ليست غير قابلة للتغيير. (بالي).

(٢٩) استخدم دي سوسور من ايار حتى تموز ١٩١١ اللفظتين القديمتين (فكرة، إشارة) واللفظتين الجديتين (المدلول والدال) من دون تمييز. (باسكن).

الفكرة في هذا المثال واحدة وتغيرت العلاقة في ناحيتين. فتغير الدال ليس في مفهومه المادي حسب بل في صيغته النحوية. فلم تعد الفكرة تنطوي على Teil «جزء». فلفظة Drittel كلمة واحدة. اذن هناك دائماً تغيير في العلاقة مهما اختلفت الطريقة.

وفي اللغة الانكوساكسونية بقيت لفظة fot «قدم» التي كانت مستخدمة في عصر ما قبل الكتابة في حين تغيرت لفظة الجمع fōti فاصبحت fēt (في الانكليزية الحديثة). ومهما كانت التغييرات الاخرى، فلا شك من تغيير واحد: لقد حصل تغيير في العلاقة بينهما: وظهرت اوجه شبه اخرى بين المادة الصوتية والفكرة.

فاللغة لا حول لها في الدفاع عن نفسها في مواجهة القوى التي تغير من لحظة الى اخرى العلاقة بين المدلول والدال. وهذه احدى نتائج الطبيعة الاعتبائية للاشارة.

تختلف النظم البشرية الاخرى كالتقاليد والقوانين وغيرهما عن اللغة في انها جميعها تستند بدرجات مختلفة الى العلاقات الطبيعية للاشياء: فجميعها قد تبنت بالضرورة الوسائل المناسبة للغاية المرجوة. فحتى طراز اللبس ليس اعتباطياً. وان كنا نستطيع ان نخرج قليلاً عن الشروط التي يمليناها علينا جسم الانسان. اما اللغة فلا يقيدها شيء في اختيار الوسائل، إذ لا يوجد شيء على ما يبدو يمنع قيام ارتباط بين فكرة ما وتسلسل صوتي.

اراد وتلي ان يؤكد ان اللغة نظام حقيقي فركز بحق على الطبيعة الاعتبائية للاشارات: وبذلك وضع علم اللغة على أسس صحيحة. ولكنه لم يستمر في هذا الطريق الى نهايته ليرى ان اعتباطية اللغة تفصلها جذرياً عن بقية النظم.

وهذا واضح من الاسلوب الذي تتبعه اللغة في التطور. فليس هناك ما هو اكثر تعقيداً منه: ولما كانت ناتجة عن القوى الاجتماعية والزمن، فلا يستطيع احد ان يغير شيئاً فيها، ومن جهة اخرى، اعتباطية الاشارات اللغوية تنطوي على حرية اقامة اي نوع من العلاقة بين المادة الصوتية والافكار. وينتج عن ذلك ان العنصرين (الصوت والفكرة) اللذين يجتمعان في الاشارة يساعد كل منهما على ديمومة حياته الخاصة الى درجة لا نجدها في أي نظام آخر، فتتغير اللغة او تتطور، تحت تأثير جميع القوى التي يمكن ان تؤثر في الاصوات او المعاني. فالتطور أمر لا مناص فيه. ولا توجد لغة واحدة في العالم تقاومه. فما ان تمضي فترة من الزمن حتى تدون بعض التغييرات الواضحة.

إن التغيير أمر لا بد منه حتى انه يظهر في اللغات الاصطناعية (غير الطبيعية). فمن اخترع لغة ما يستطيع السيطرة عليها قبل ان توضع موضع الاستخدام. ولكن ما ان تدخل في مجال الاستخدام لتحقيق الغاية، التي وضعت من أجلها، حتى تصبح ملكاً لجميع الافراد، فيفقد صاحبها السيطرة عليها.

ولنأخذ الاسبرانتو على سبيل المثال: اذا نجحت هذه اللغة فأنها ستحرر من القيد



الذي فرض عليها. فأغلب الظن ان الاسبرانتو بعد ان توضع قيد الاستخدام تدخل مرحلة من الحياة الكاملة للإشارة. وتنتقل طبقاً لقوانين تختلف تماماً عن تلك التي وضعت لتلائم طبيعتها المنطقية الأولى: ولن تعود الى هذه الطبيعة ابداً. ان الذي يقترح لغة ثابتة تستخدمها الاجيال المقبلة وتقبلها بطبيعتها الأولى مثله كمثل الذي يضع تحت الدجاجة بيضة البط. فاللغة التي يخلقها هذا الرجل يجرفها، رغم صاحبها، التيار الذي يجرف بقية اللغات.

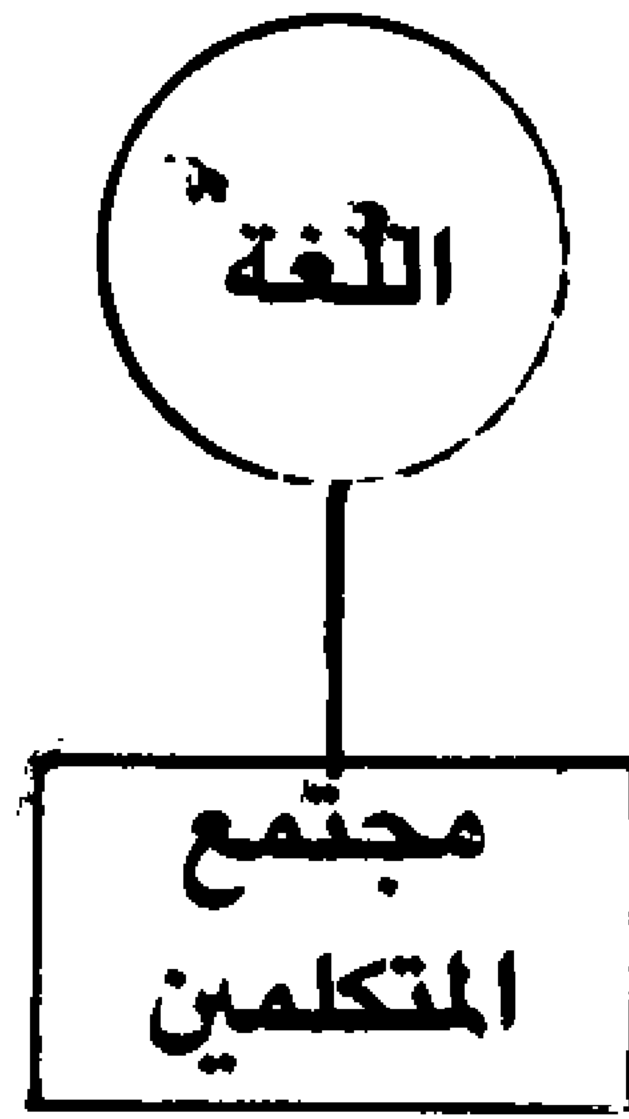
يتحكم في الاشارات مبدأ علم الاشارات العام: فتجتمع الاستمرارية في الزمن مع التغيير في الزمن، وتؤكد ذلك أنظمة الكتابة، لسان الصم - البكم وغير ذلك من الانظمة. ولكن ماذا يدعم ضرورة التغيير؟ قد يوجه لي اللوم لأنني لم استطع ان اوضح هذه النقطة بالدرجة التي وضحت بها مبدأ الثبوت. وسبب ذلك لأنني لم أميز بين القوى المختلفة للتغيير. إذ يجب ان نأخذ بنظر الاعتبار تنوع هذه القوى كي نفهم مدى ضرورتها.

يستطيع المرء ان يلاحظ منذ البداية أسباب الاستمرارية، اما أسباب التغيير في الزمن فهي ليست كذلك. من الافضل اذن ان لا نقدم شرحاً دقيقاً في هذه المرحلة، بل نقتصر في حديثنا على تغيير العلاقات على نحو عام. ان الزمن يغير كل شيء: اذن ليس من سبب يجعل اللغة لا تخضع لهذا القانون العام.

لنعد الآن الى ذكر النقاط الأساسية لحديثنا ونربط بينها وبين المبادئ التي أوردناها في المقدمة.

(١) اذا تركنا التعريف العقيم للكلمات، فأننا نجد ضمن الظاهرة العامة للسان جزئين هما: اللغة والكلام. فاللغة هي ظاهرة اللسان مطروحاً منها الكلام. فهي المجموع الكلي للعادات اللغوية التي تساعد الفرد على ان يفهم غيره ويفهمه غيره.

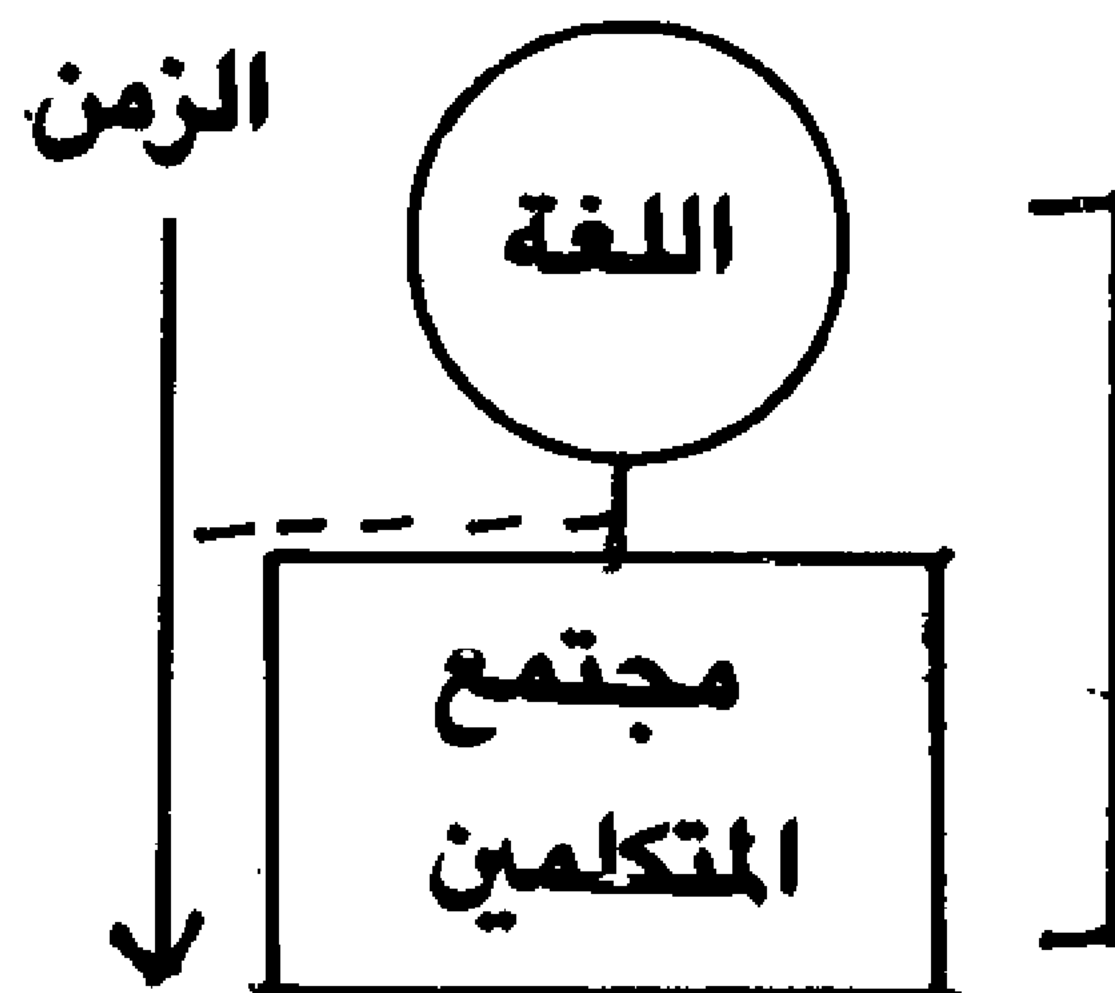
(٢) ولكن هذا التعريف يترك اللغة خارج السياق الاجتماعي: ويجعل منها شيئاً مصطنعاً، لأنها لا تضم الا الجانب الفردي من كيانها. ان تحقيق كيان اللغة يتطلب وجود مجتمع من المتكلمين. فاللغة لا وجود لها خارج الاطار الاجتماعي - وهو أمر قد يخالف جميع المظاهر - لأن اللغة ظاهرة من ظواهر الإشارة. والطبيعة الاجتماعية للغة هي إحدى المميزات الداخلية لها: كما ان تعريفها الكامل يتطلب عنصرين لا يمكن الفصل بينهما كما هو مبين في الصورة الآتية:



ولكن طبقاً لما ذكرنا، فإن اللغة ليست حية، بل تملك مقومات الحياة أو الحياة الكامنة: وقد ذكرنا الحقيقة الاجتماعية فقط، ولم نذكر الحقيقة التاريخية.

(٣) ان الإشارة اللغوية - كما ذكرنا - اعتباطية: واللغة حسب تعريفنا تبدو على انها نظام حريمكن ترتيبه حسب ادارة المرء لأنه يعتمد كلياً على مبدأ منطقي. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار الطبيعة الاجتماعية للغة بصورة مستقلة فإن ذلك لا ينفي وجهة النظر آنفة الذكر. ومما لا شك فيه تعتمد سايكولوجية الجماعة، فقط، على أساس منطقي في عملها. اذن ينبغي للمرء ان يأخذ بنظر الاعتبار كل شيء يجعل المنطق يحيد عن الطريق في أثناء الاتصال الحقيقي بين الافراد. ولكن الشيء الذي يمنع اللغة ان تكون العرف البسيط الذي يمكن تغييره حسب اهواء الجماعات المعنية، ليس الطبيعة الاجتماعية للغة: بل هو عمل الزمن مضاف اليه القوى الاجتماعية. فإذا أهملنا الزمن أصبحت الحقائق اللغوية ناقصة، وصعب علينا التوصل الى نتيجة.

وإذا نظرنا الى اللغة ضمن الزمن وأهملنا مجتمع المتكلمين - تصور فرداً لوحده يعيش عدة قرون - ربما لا نلاحظ اي تغيير. فالزمن لن يؤثر في اللغة. وعلى العكس من ذلك، فإذا أخذنا بنظر الاعتبار مجتمع المتكلمين وأهملنا الزمن - لما رأينا أثر القوى الاجتماعية التي تؤثر في اللغة. فإذا أردنا ان نذكر جميع الحقائق علينا ان نضيف الى الرسم الاول إشارة تدل على مرور الزمن:



فالفلة لم تعد حرة، لأن الزمن يسمح للقوى الاجتماعية العاملة في اللغة ان تعمل عملها. وهذا يعود بنا الى مبدأ الاستمرارية، الذي يلغي الحرية. ولكن الاستمرارية تنطوي بالضرورة على التغيير - على درجات مختلفة من التغيير في العلاقة بين المدلول والدال.



## الفصل الثالث

### علم اللغة الثابت والمتطور

#### ١ - الثنائية الداخلية لجميع العلوم التي تُعنى بالقيم:

قليل من اللغويين من يشك بأن تدخل عامل الزمن يخلق مصاعب تخص علم اللغة وتفتح لهذا العلم طريقين مختلفين تماماً.

فأكثر العلوم الأخرى لا تتأثر بطبيعتها الثنائية الأساسية: إذ لا يحدث الزمن أي تأثير خاص فيها. فقد وجد علم الفلك أن النجوم تتغير تغيراً ملموساً، ولكنه لم يضطر لهذا السبب أن يقسم نفسه إلى فرعين من فروع الدراسة.

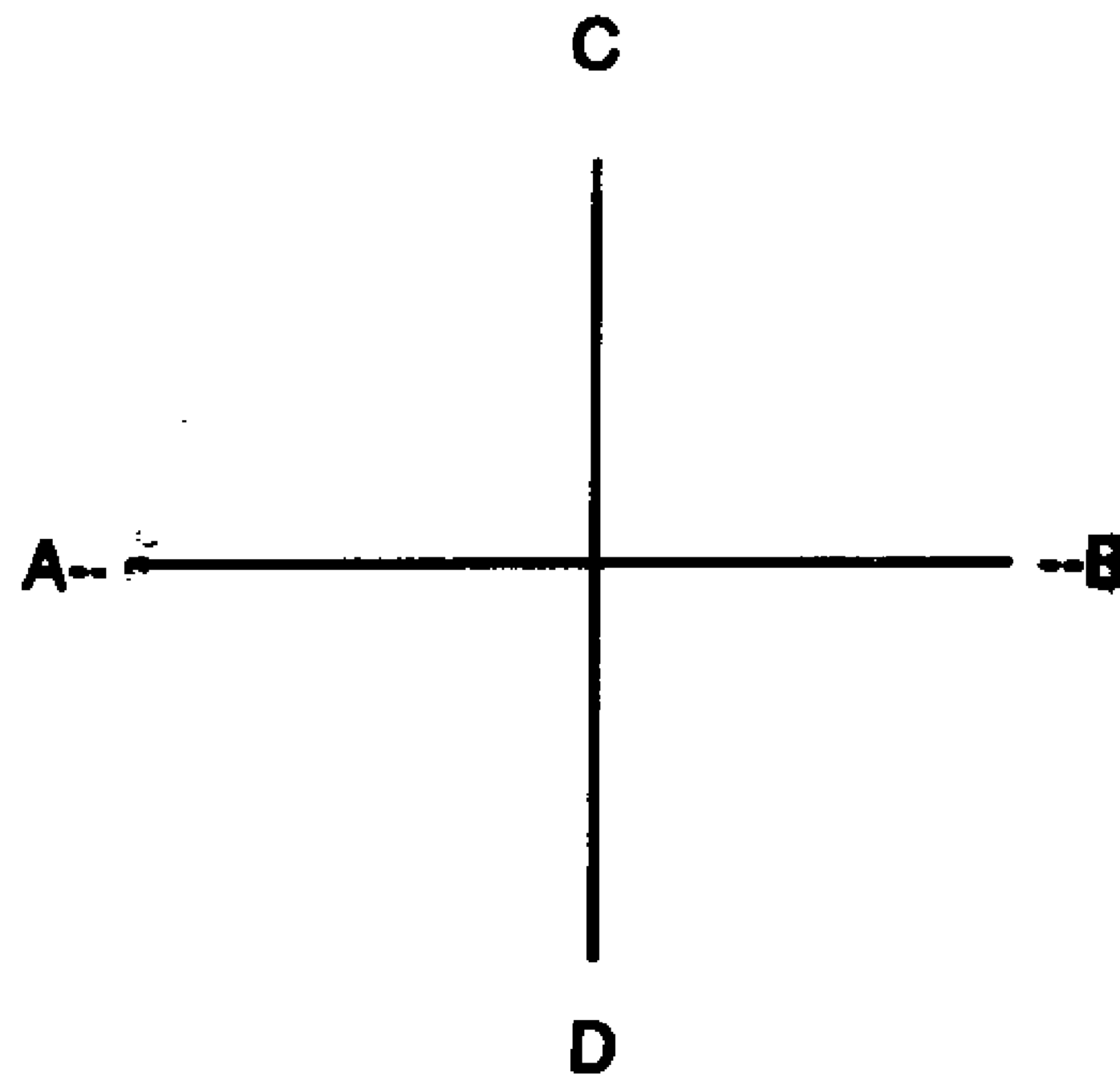
ويهتم علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) بالتعاقب الزمني في كل لحظة من اللحظات، ولكن دراسته لطبقات الأرض لا تغدو فرعاً مستقلاً تماماً من فروع المعرفة. وللقانون فرع يهتم بالوصف وآخر بالجانب التاريخي، ولكن أحد الفرعين ليس ضد الآخر. ولا يظهر التاريخ السياسي للامم إلا ضمن الإطار الزمني، ولكن المؤرخ الذي يصف فترة معينة لا يعمل بعيداً عن التاريخ. وعلى خلاف ذلك علم الأنظمة السياسية، فهو وصفي في جوهره، ولكنه يستطيع بسهولة إذا اقتضت الحاجة أن يعالج مسألة تاريخية من دون أن يربك وحدته.

وعلى العكس من ذلك العلوم الاقتصادية، فقد أخذت الثنائية تفرض نفسها على هذه العلوم. فالإقتصاد السياسي والتاريخ الاقتصادي يختلفان عن بقية العلوم في أنهما يؤلفان فرعين متميزين ضمن علم واحد. والمؤلفات التي ظهرت حديثاً في هذين الموضوعين تشير إلى مثل هذا التمييز. إذن فالإقتصاديون بسلوكهم هذا المسلك إنما يخضعون لضرورة داخلية من دون أن يشعروا بذلك. وثمة ضرورة مشابهة حملنا على تقسيم علم اللغة إلى قسمين: كل منهما يعتمد على مبدأ خاص به. فنحن نواجه هنا - كما في الإقتصاد السياسي - مسألة القيمة.

فكلا العلمين يهتم بنظام يعادل بين أشياء من أصناف مختلفة - العمل والاجور في الإقتصاد السياسي، والمدلول والادال في علم اللغة.

ومما لا شك فيه أن جميع العلوم تستفيد من التحديد الدقيق للأحداثيات التي يقام عليها موضوعها. إذ ينبغي أن يجري التمييز في كل حقل من حقول المعرفة طبقاً للرسم التوضيحي الآتي: (١) بين محور التوافق AB الذي يمثل العلاقات بين الأشياء المترامنة،

وقد جرد عنها التدخل الزمني: (٢) محور التعاقب CD الذي ندرس فيه شيئاً واحداً فقط في لحظة واحدة، ولكن تظهر عليه أشياء المحور الاول مع تغييراتها.



إن هذا التمييز ضرورة عملية وفي بعض الاحيان ضرورة مطلقة للعلوم التي تهتم بالقيم. ففي هذه العلوم لا يستطيع العلماء تنظيم بحوثهم على أساس دقيق الا اذا اخذوا بنظر الاعتبار كلا الاحداثين، وميزوا بين نظام القيم لوحده وهذه القيم منسوبة الى الزمن.

ان هذا التمييز ينبغي ان يهتم به اللغوي اكثر من غيره، لأن اللغة نظام من القيم الخالصة التي لا يحدوها سوى ترتيب عناصرها في لحظة معينة. فالقيمة، طالما انها مستأصلة في الاشياء وفي علاقاتها الطبيعية، كما هي الحال مع علم الاقتصاد (حيث ان قيمة قطعة ارض مثلاً تعتمد على خصوبتها) يستطيع المرء الى حد ما ان يقتفي أثرها في الزمن إذا تذكرنا أنها تعتمد في كل لحظة على نظام من القيم المتزامنة. فارتباط القيمة بالاشياء يمنحها، لا شك، أساساً طبيعياً، فالاحكام التي نبنيها على مثل هذه القيم ليست اعتباطية تماماً، وقدرتها على التغيير محدودة. ولكننا لاحظنا قبل قليل ان المعطيات الطبيعية لا مكان لها في علم اللغة.

وكما كان نظام القيم معقداً وصارماً، زادت الضرورة الى دراسة هذا النظام طبقاً للاحداثين، بسبب تعقيد النظام. وليس بين الانظمة ما يضاهي اللغة في تجسيمها لهذه الصفة. فاللغة تفوق غيرها من حيث دقة القيم، وكثرة عدد عناصرها وتنوعها، واعتماد جميع هذه الامور بعضها على بعض. ان صفة تعدد الاشارات التي استخدمناها لتوضيح استمرارية اللغة تؤدي الى صعوبة دراسة العلاقات في الزمن والعلاقات ضمن النظام اللغوي في آن واحد.

فبالأسباب التي تحملنا على تمييز فرعين من علم اللغة واضحة. ماذا نسمي هذين

العلمين؟ إن الالفاظ المتوفرة تتفاوت في قدرتها على توضيح الفرق بين هذين الفرعين. فاللفظتان «التاريخ اللغوي» و «علم اللغة التاريخي» لا تصلحان لأنهما غامضتان. ولما كان التاريخ السياسي يضم وصف الفترات المختلفة فضلاً عن سرد الحوادث، فقد يعتقد الطالب انه يدرس لغة ما طبقاً لمحور الزمن عندما يصف الحالات المتعاقبة للغة، ولكن هذه المسألة تتطلب دراسة مستقلة للظواهر التي تجعل اللغة تمر من حالة الى اخرى. اما لفظتا «التطور» و «علم اللغة التطوري» فهما أكثر دقة، لذا سأستخدمها غالباً: وفي مقابل ذلك سأستخدم لفظة علم حالات اللغة او علم اللغة الثابت.

ولكن اذا اردنا ان نبرز التقابل بين نمطين من الظواهر التي تعود الى موضوع واحد، فمن الافضل ان نستخدم علم اللغة السنكروني Synchronic وعلم اللغة الدايكروني diachronic. فكل شيء يتعلق بالجانب الثابت لعلم اللغة انما هو تزامني، وكل شيء يتعلق بالتطور انما هو زمني. كما ان السنكرونية والدايكرونية يدلان على حالة لغوية وجانب تطوري على التوالي.

## ٢ - الثنائية الداخلية وتاريخ علم اللغة:

ان اول ما يثير اهتمامنا عندما ندرس حقائق اللغة هو ان التعاقب الزمني لهذه الحقائق لا وجود له عند المتكلم. فالتكلم يواجه حالة لغوية. لذا على اللغوي الذي يرغب في فهم حالة لغوية ان ينبذ جميع المعرفة المتعلقة بالأمور التي أدت الى تلك الحالة ويهمل العامل الزمني. فهو لا يستطيع ان يدخل الى عقل المتكلم الا ينبذ الماضي تماماً، لأن تدخل التاريخ لا ينتج عنه سوى تشويه احكام اللغوي. إذ لا فائدة من محاولة رسم الخطوط العريضة لمنظر من الالب بالنظر اليه من قمم كثيرة في آن واحد.

ان المنظر ينبغي ان يرسم بالنظر اليه من مكان واحد. ويصح الشيء نفسه في اللغة. فاللغوي لا يستطيع وصف اللغة او وضع مقاييس للاستعمال الا اذا ركز على حالة واحدة فقط. واذا تابع تطور اللغة فهو يشبه الناظر المتنقل الذي يذهب من قمة الى اخرى لكي يسجل التغييرات في زاوية النظر.

لقد انغمس علم اللغة الحديث منذ ظهوره الى الوجود في الدراسة الدايكرونية diachrony. ففقه اللغة المقارن للغة الهندية - الاوربية يستخدم المادة المتوفرة ليعيد بناء نمط قديم من اللغة يعتمد على الفرضية. فالمقارنة ما هي الا وسيلة لإعادة بناء الماضي. وتستخدم الطريقة نفسها في الدراسات الفرعية للمجموعات اللغوية (كاللغات الرومانية واللغات الجرمانية وغيرها)، ولا تتخلل هذه الدراسات دراسة الحالات اللغوية الا بصورة غير منتظمة وفي فترات متقطعة. هذا هو الاتجاه الذي ادخله بوب فمفهومه عن اللغة مزيج يتصف بالتردد.

ولكن ما الاتجاه الذي سلكه اولئك الذين درسوا اللغة قبل ظهور علم اللغة

الحديث، واعني «النحويين» الذين ساروا على الاساليب التقليدية؟ من الغريب ان نذكر هنا ان وجهة نظرهم تخلو من كل عيب. إذ تبين مؤلفاتهم انهم حاولوا ان يصفوا الحالات اللغوية. فكانت اساليبهم سنكرونية. ان نحو بورتروبال Port Royal Grammar مثلاً يحاول ان يصف حالة اللغة الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر وان يحدد قيم هذه الحالة. وهذه الدراسة لا تحتاج الى لغة القرون الوسطى: فقد اتبع المؤلفون المحور الأفقي بصورة دقيقة (انظر الرسم في الفصل الثالث) دون الخروج على هذا المحور. لذا كانت الطريقة صحيحة، ولكن لا يعني ذلك ان تطبيقها خال من العيوب. فالنحو التقليدي يهمل أجزاء كاملة من اللغة. كصياغة الكلمات مثلاً: وهو معياري يتخذ لنفسه دور فرض القواعد، وليس تسجيل الحقائق، وهو يفتقر الى نظرة عامة شاملة. وكثيراً ما يعجز هذا النحو عن الفصل بين الكلمة المكتوبة والكلمة المنطوقة وغير ذلك.

أما النحو الكلاسيكي فقد انتقد لأنه غير علمي: ومع ذلك فأساسه أقل خضوعاً للنقد ومعطياته أدق تحديداً من علم اللغة الذي ذكره بوب. فالعلم الاخير يحتل مكانة غير واضحة، وليس له اهداف واضحة. فهو يحتل مكانتين لأنه غير قادر على أن يميز تمييزاً واضحاً بين الحالات والتعاقب الزمني.

لقد خصص علم اللغة حيزاً كبيراً للتاريخ، اذن عليه ان يعود الى وجهة النظر الثابتة للنحو التقليدي ولكن بروح جديدة وبأساليب اخرى، وبذلك يكون الاسلوب التاريخي قد أسهم في بعث الحياة في الدراسة اللغوية. ويساعد الاسلوب التاريخي بدوره على فهم أفضل للحالات اللغوية. لقد رأى النحو القديم الحقائق التزامنية فقط، اما علم اللغة فقد كشف عن صنف جديد من الظواهر، ولكن هذا لا يكفي، فعلى المرء ان يشعر بالاختلاف بين صنفين من الحقائق ليستخلص جميع النتائج من ذلك.

### ٣ - الثنائية الداخلية موضحة بالأمثلة:

إن التقابل بين وجهتي النظر، التزامنية والزمنية، مطلق لا يقبل أي تساهل. وسنذكر بعض الحقائق لنوضح نوع الاختلاف ولماذا لا يمكن تجاهله.

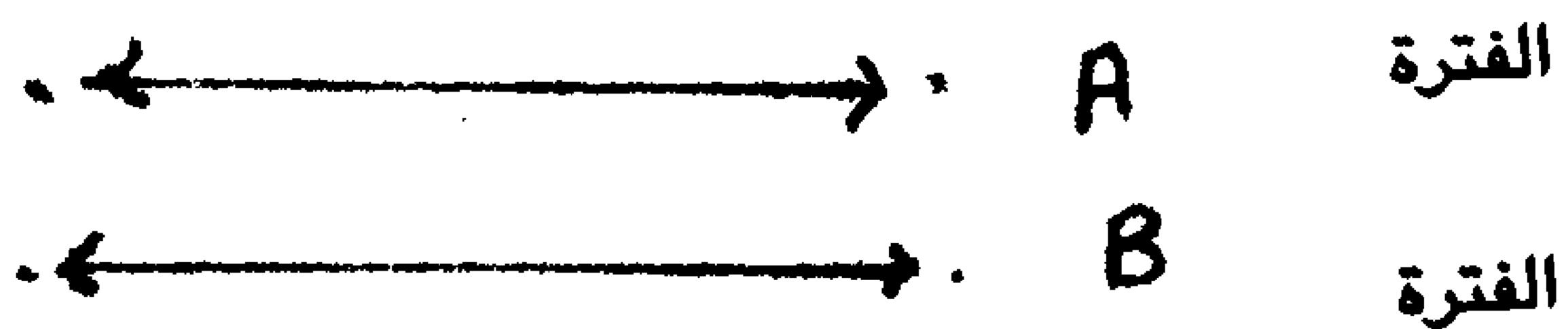
ان اللفظة اللاتينية *crispus* «هش»، جاء منها الجذر الفرنسي *crep-* الذي اشتق منه الفعلان *crépîr* «متين» و *décépîr* «ازالة الملاط عن الحائط». ثم اخذت الفرنسية من اللاتينية كلمة *décépîtus* من أصل مجهول، فاصبحت الكلمة الاخيرة *décépît* «هرم». واليوم يربط المتكلمون بين عبارة *un mu decrepit* «حائط يسقط عنه الملاط، أي حائط متداع» وعبارة *un homme decrepit* رجل هرم، مع ان العبارتين لا علاقة بينهما من الناحية التاريخية فيقول الناس غالباً *facade decrepite* «واجهة بناية قديمة». فهذه حالة لغوية ثابتة، لأنها تتصل بالعلاقة بين صيغتين متزامنتين للغة. وقد تحققت هذه الحالة بسبب



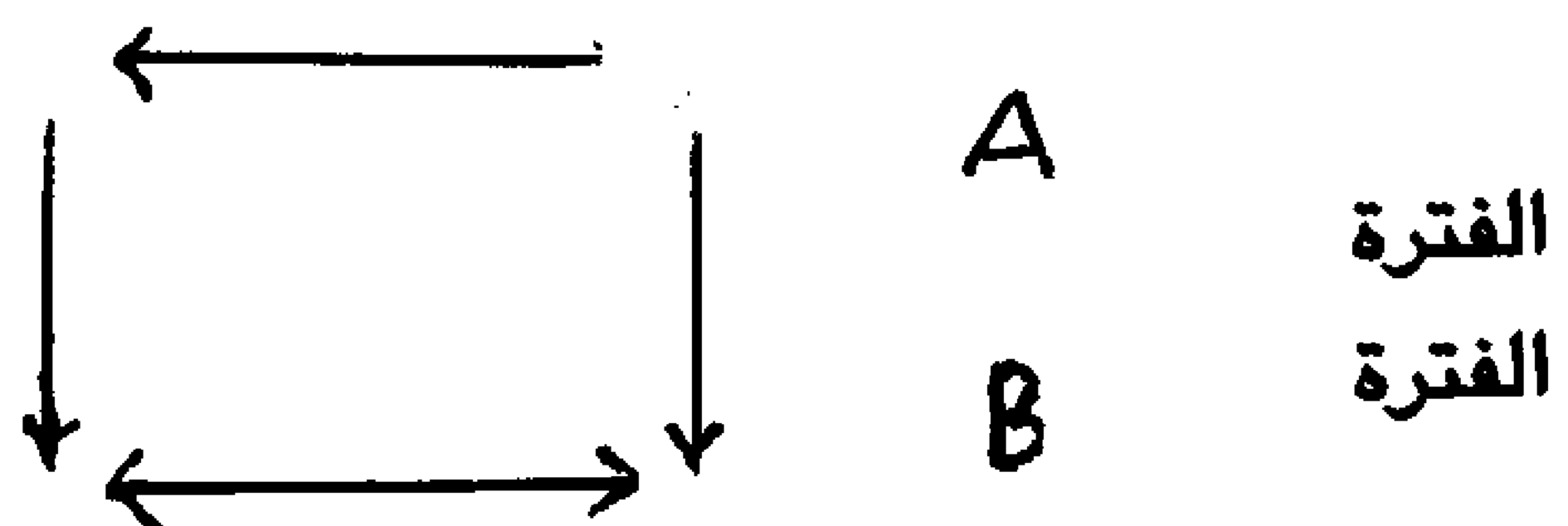
تطور بعض الحوادث . إذ أصبح لفظ — crisp كلفظ — crép كما دخلت الى اللغة الفرنسية في لحظة ما كلمة جديدة من اللاتينية . فمن الواضح ان الحقائق الزمنية لا علاقة لها بالحقائق الثابتة التي نتجت عنها . فهي تعود الى صنف آخر .

وهذا مثال اوضح . كانت صيغة الجمع اول الامر لكلمة gast «ضيف» في الالمانية القديمة العليا هي gast «ضيوف» وصيغة الجمع لكلمة hant «يد» hanti الى آخره . ثم ادنى الصوت الاخير ا الى إمالة : أي ادنى الى تغيير الصوت المقطع السابق a الى ie فاصبحت كلمة gast ← gesti : وكلمة hanti ← henti ثم فقد الصوت الاخير جرسه فتغيرت كلمة gesti ← geste الى آخره . ونتج عن كل ذلك ان الالمانية اليوم تستعمل Gaste:Gast و Hānde:Hand . وهناك مجموعة كبيرة من الاسماء تتميز بهذا الفارق بين المفرد والجمع . وقد حدث شيء مشابه لذلك في اللغة الانكلوساكسونية : فكانت الصيغ الاولى foti:fot (قدم:أقدام) و tòpi:tòp (سن: أسنان) و gòsl:gòs (وزة:اوز) الى آخره . ثم حدث تغيير صوتي واطالة في المقطع الاول فاصبحت كلمة fetl←fotl وحدث تغيير ثانٍ تلاشى بموجبه الصوت الاخير ا - فأصبحت كلمة fetl←pèt وهكذا أصبحت صيغة الجمع لكلمة fot هي fet, ولكلمة gès:gòs الى غير ذلك : (في الانكليزية الحديثة teeth:tooth, geese:goose feet:foot).

كان المتكلم في الزمن السابق يستخدم foti:fot, gasti:gast فإضافة الصوت ا يعني صيغة الجمع . اما fet:fòt, Gásle:Gast فهي طريقة جديدة لصياغة الجمع . فطريقة الجمع في الحالتين ليست واحدة . ففي الانكليزية القديمة ينحصر التقابل في الحركة . اما في الالمانية ففضلاً عن الحركة نضيف الصوت e الى آخر الكلمة . ولكن هذا الاختلاف لا اهمية له هنا . ان العلاقة بين المفرد والجمع ، مهما كانت الصيغتان ، يمكن التعبير عنهما في كل لحظة من اللحظات بمحور أفقي :



اما الحقائق التي أدت الى الانتقال من صيغة الى اخرى فيجب وضعها على المحور العمودي ، لتظهر الصورة الكاملة كالاتي :



ويوحى هذا الرسم التوضيحي بعدد من النقاط التي تهمنا وهي :

(١) ان الحقائق الزمنية، لا تهدف، في اية حال من الاحوال، الى تحديد قيمة ما عن طريق اشارة اخرى: فتحول كلمة *gasti* الى *gesti* ثم *geste* (*Gäste*) لا علاقة له بصيغة الجمع في الاسماء: لقد حدث التغيير في الحركات نفسه في الفعل *tragt* فأصبح *trägt* وغيره من الافعال. فالحقيقة الزمنية شيء مستقل لا علاقة لها بما قد ينبع منها من نتائج سنكرونية.

(٢) ان الحقائق الدايكرونية ليست موجهة نحو تغيير النظام. فالتكلمون ما كانوا ليرغبوا في الانتقال من نظام معين للعلاقات الى نظام آخر. إذ إن التغيير لا يؤثر في ترتيب العلاقات بل في عناصر النظام.

هنا ايضاً نجد المبدأ الذي أشرنا اليه آنفاً: وهو ان النظام لا يتغير أبداً بصورة مباشرة. فالنظام في حد ذاته غير قابل للتغيير: الذي يتغير فيه هو بعض العناصر من غير ان يؤثر ذلك في الوحدة التي تربط بينها وبين الكل. وكأن احد الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس غير ابعاده ووزنه: ان هذه الحادثة المنفصلة عن غيرها ستؤدي الى نتائج عامة. فتحدث خللاً بتوازن النظام بأجمعه. ان التقابل بين عنصرين مهم للتعبير عن الجمع: *fóti:fót* او *fét:fót* وكلا الاسلوبين محتمل: ولكن المتكلمين انتقلوا من اسلوب الى آخر من غير ان تكون لهم يد في ذلك. بيد ان ذلك لم يؤد الى الاستعاضة عن الكل. كما لم يؤد نظام الى قيام نظام آخر. فكل ما حدث هو تغيير أحد عناصر النظام. وأدى ذلك الى قيام نظام آخر. وكان هذا التغيير كافياً لقيام نظام آخر.

(٣) ان الملاحظة الواردة سابقاً تشير الى الطبيعة العرضية للحالة اللغوية. وهذا يناقض الرأي الواهي القائل بأننا نصوغ اللغة لخدمتنا فضلاً عن أن اللغة ليست نظام خلق ورتب حسب الفكرة المراد التعبير عنها، بل على النقيض من ذلك، رأينا ان الحالة التي نتجت عن التغيير لم يتح لها المجال ان تعبر عن المعنى الذي انطوت عليه. ففي الحالة العرضية (*fét:fót*) استغل المتكلمون وجود فارق بين الصيغتين فجعلوه يرمز الى الفرق بين المفرد والجمع. فالفرق بين الصيغتين *fét:fót* ليس أفضل من الفرق بين **fóti:fót*. ففي كلتا الحالتين نفذ العقل في مادة معينة ونفخ فيها الحياة. ان هذه النظرة الجديدة التي أوحى بها علم اللغة التاريخي لم تكن عند النحو التقليدي. اذ لم يكن باستطاعته التوصل اليها بالأساليب التي استخدمها. كما ان اكثر فلاسفة اللغة يجهلون هذه المسألة، مع انها تفوق غيرها من وجهة النظر الفلسفية.

(٤) هل تنتمي حقائق التسلسل الدايكروني الى نفس الصنف الذي تنتمي اليه حقائق التسلسل السنكروني (التزامني)؟ الجواب لا، فقد رأينا ان التغييرات لا تحدث عن قصد، اما الحقيقة السنكرونية (التزامنية) فهي دائماً ذات معنى. فهي تتطلب دائماً

عنصرين في آن واحد: فكلمة Gaste لا تكفي وحدها بل تحتاج الى التقابل بين Gast و Gaste للتعبير عن الجمع. والحقيقة الدايقرونية خلاف هذا تماماً: فهي لا تتطلب الا عنصراً واحداً، ولكي يظهر العنصر الجديد (Gaste) ينبغي للعنصر القديم (gasti) ان يفسح المجال له أولاً.

إن محاولة الجمع بين هاتين الحقيقتين المتباينتين في موضوع واحد للدراسة انما هو أمر غريب. فالنظرة الدايقرونية تعالج الظواهر التي لا تتصل بالنظام مع انها تكيف النظام.

وهذه أمثلة اخرى تدعم ما تقدم من النتائج التي توصلنا اليها وتكملها. تقع الركزة في الفرنسية على المقطع الاخير دائماً الا اذا كان هذا المقطع يحتوي على حرف e صامت (a). هذه حقيقة سنكرونية، تخص العلاقة بين جميع الكلمات الفرنسية والركزة. accent. فما مصدرها؟ حالة سابقة.

كان نظام الركزة في اللاتينية يختلف عنه في الفرنسية وهو أشد تعقيداً. فكانت الركزة تقع على المقطع قبل الاخير اذا كان هذا المقطع طويلاً واذا كان المقطع قصيراً وضعت الركزة على المقطع الذي يسبق قبل الاخير (لاحظ anima, amicus) فالقاعدة اللاتينية تشير الى علاقات لا تشبه بأية حال من الاحوال القاعدة الفرنسية.

مما لا شك فيه أن الركزة واحدة من حيث انها تبقى في المكان نفسه: فهي في الفرنسية تقع دائماً على المقطع الذي كانت تقع عليه في اللاتينية: amicus ← ami, animum ← ame بيد ان الصيغتين مختلفتان في هاتين اللحظتين لأن اشكال الكلمات قد تغيرت. فنحن نعلم ان الاجزاء التي وقعت بعد الركزة قد اختلفت او تحولت الى حرف e صامت. e صامت. ونتج عن هذا التغيير في شكل الكلمة، ان موقع الركزة بالنسبة للكلمة كلها لم يعد نفسه: وحدث بعد ذلك ان المتكلمين باللغة شعروا بهذه العلاقة الجديدة، فراحوا يضعون الركزة بصورة فطرية على المقطع الاخير، حتى في الكلمات التي اخذت من اللغات الاخرى بشكلها المكتوب، burgrave, ticket, consul, facile وغيرها). مما لا شك فيه ان المتكلمين لم يحاولوا ان يغيروا الانظمة اللغوية، باستخدام صيغة جديدة، طالما ان الركزة في كلمات مثل ami ← amicum بقيت، دائماً، على المقطع نفسه، ثم تدخلت حقيقة زمنية: فغير المتكلمون مكان الركزة من دون ان يكون لهم يد في ذلك. فقاعدة تعيين الركزة، كغيرها من القواعد التي تتعلق بالنظام اللغوي، انما تعني ترتيباً للعناصر، وهذه مسألة عرضية لا ارادية تأتي نتيجة للتطور.

وهذا مثال اوضح. فلفظة slovo في السلافية القديمة تعرب في المفرد الذي يدل على الآلة بصيغة slověb وفي حالة الرفع للجمع، slova والجمع في حالة الجر sloub الى آخره. ففي هذا كل حالة لها اعراب خاص بها يظهر في نهاية الكلمة. ولكن اليوم قد اختلفت

الحركتان الضعيفتان b و b وهما الصوتان السلافيان اللذان يقابلان v و L في اللغات الهندية الاوربية الاولى. فاللغة الجيكية مثلاً لها الصيغ الآتية: slov, slova, slovem, slovo وينطبق الشيء نفسه على zena «امرأة» فهي في حالة المفرد المنصوب zenu وفي حالة الجمع المرفوع zeny وفي حالة الجمع المجرور zen. فالجمع المجرور اعرابه صفر (žen, slov). إذ نرى ان الإشارة الملموسة البارزة ليست ضرورة للتعبير عن فكرة. حيث يكفي للغة وجود تقابل بين شيء ولا شيء. فالتكلمون بالجيكية يعلمون ان zen هي صيغة الجمع في حالة الجر لسبب بسيط وهو لأنها ليست zena ولا zenu وليست غيرها من الصيغ. وقد يبدو غريباً للوهلة الاولى ان فكرة معينة مثل الجمع في حالة الجر يعبر عنها بالإشارة صفر، ولكن هذه الحقيقة تبرهن ان كل شيء في اللغة يأتي عن طريق المصادفة. فاللغة نظام يستطيع ان يستمر في عمله رغم التدهور الذي يصيبه.

كل هذا يدعم المبدأ الذي ذكرناه سابقاً. وموجز القول: إن اللغة نظام يمكن، بل ينبغي، ان تدرس اجزائه ضمن اطار سنكروني موحد.

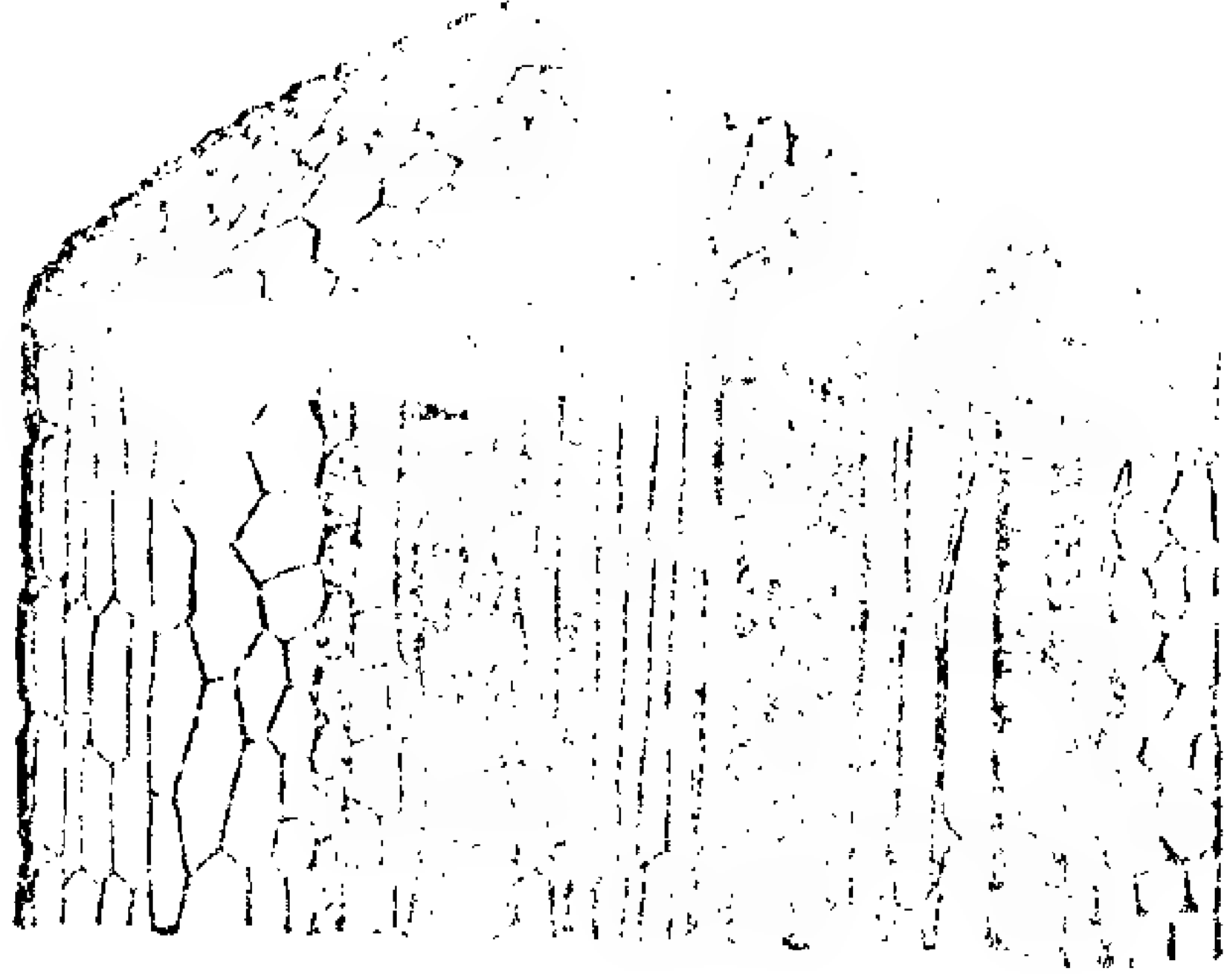
ولما كانت بعض التغييرات لا تؤثر في النظام كله بل في بعض عناصره، أمكن دراسة هذه التغييرات خارج النظام. مما لا شك فيه ان لكل تغيير انعكاساً على النظام، ولكن الحقيقة الاولى أثرت في نقطة واحدة فيه فقط. ولا توجد علاقة داخلية بين الحقيقة الاولى والآخر الذي قد تحدثه بعد ذلك في النظام بأجمعه. ان الفرق الجوهرى بين العناصر المتعاقبة زمنياً والعناصر المتزامنة، بين الحقائق الجزئية والحقائق التي تؤثر في النظام، يحول دون جعل الصنفين من الحقائق موضوعاً لعلم واحد.

#### ٤ - الفرق بين الصنفين موضح بالتشبيه:

يمكننا ان نبين استقلال النظام السنكروني واعتماد بعضه على البعض بأن نشبه الجزء الاول بقذف شيء على سطح مستو. فعملية القذف تعتمد بصورة مباشرة على طبيعة الشيء الذي يقذف، ومع ذلك فهي تختلف عنه: لأن الشيء كيان مستقل عن عملية القذف. والا لما وجد علم خاص بالمقذوفات، ولاكتفينا بدراسة الاجسام وحدها، ونجد العلاقة نفسها في علم اللغة بين الحقائق التاريخية والحالة اللغوية، وهذه العلاقة تشبه قذف حقائق معينة في لحظة معينة. فنحن لا نتعلم شيئاً عن الاحوال السنكرونية اذا درسنا الاجسام، أي الحوادث الزمنية، كما اننا لا نتعلم شيئاً عن المقذوفات الهندسية بدراسة الاشكال المختلفة للاجسام، وان كانت دراستنا دقيقة.

وكذلك فاذا قطعنا النبات بصورة عرضية يظهر لنا شكل معقد للسطح الذي قطعناه، وهذا الشكل لا يمثل إلا زاوية واحدة للانسجة الطولية، ونستطيع ان نرى هذه الانسجة اذا قمنا بقطع ثان عمودي على الاول. وفي هذه الحالة ايضاً يعتمد المقطع الاول على المقطع الثاني. فالمقطع الطولي يرينا الانسجة التي تؤلف النبات والمقطع المستعرض

(العرضي) يرينا ترتيب الانسجة على سطح معين. ولكن المقطع الثاني يختلف عن الاول لأنه يبين بعض العلاقات (الانسجة التي لا نستطيع ان نفهمها اذا نظرنا الى المستوى او المقطع الطولي).



ولعل أفضل تشبيه هو بين وظيفة اللغة ولعبة الشطرنج. ففي كلتا الحالتين يوجد نظام من القيم والتغييرات التي نلاحظها عليها. فلعبة الشطرنج تشبه صورة مصطنعة لما تقوم به اللغة بصورة طبيعية. لنتأمل هذه المسألة تأملاً أدق.

أولاً: ان اية حالة من حالات ترتيب قطع الشطرنج تشبه كثيراً حالة من حالات اللغة. فقيم القطع تعتمد على موقعها على لوحة الشطرنج، كما ان كل عنصر من العناصر اللغوية يستمد قيمته من تقابله مع العناصر الاخرى.

ثانياً - ان النظام يرتبط دائماً بلحظة زمنية معينة. فهو يختلف من وضع الى آخر. كما ان القيم تعتمد بالدرجة الاولى على العرف الثابت: أي على قوانين اللعبة الموجودة قبل بدء اللعب وتظل فعالة حتى النهاية، ومثل هذه القوانين المتفق عليها موجودة في اللغة ايضاً: فهي المبادئ الثابتة لعلم الاشارات.

وأخيراً: ان الانتقال من حالة من التوازن الى حالة اخرى - او حسب مصطلحنا - من حالة سنكرونية الى اخرى لا نحتاج الا الى تحريك قطعة واحدة فقط. ولا نحتاج الى عجيبي من الحركة. وهذا شبيه بالظاهرة الدايكرونية بجميع مميزاتها. بل نلاحظ:

(أ) ان في كل حركة لا نحرك الا قطعة واحدة: وكذلك في اللغة، التغيير لا يؤثر الا في عناصر مفردة.

(ب) ومع ذلك فإن للحركة انعكاساً على النظام بأكمله: كما يصعب على اللاعب ان يتنبأ بدقة بمدى الأثر الذي ينتج عن الحركة. فتكون التغييرات الناتجة للقيمة مختلفة حسب الظروف، منها لا أهمية لها ومنها خطيرة للغاية، واخرى لها بعض الأهمية: فقد

تحدث حركة ما، ثورة في اللعبة بأجمعها بل قد تؤثر في القطع التي لا تشترك في الحركة مباشرة. وقد رأينا ان الشيء نفسه ينطبق على اللغة.

(ج) ان كل حركة في الشطرنج متميزة تماماً عن حالة التوازن السابقة واللاحقة. فالتغيير الحاصل لا يعود الى اي من الحالتين: فالمهم هنا هو الحالات، ونجد في الشطرنج ان كل وضع له ميزة في ان هذا الوضع مستقل عن الوضع السابق. ولا اهمية للطريق التي ادت الى هذا الوضع. فالذي يتابع اللعبة من اولها ليس في وضع احسن من الزائر الذي يأتي في لحظة حرجة ويلقي نظرة على حالة اللعبة في تلك اللحظة. واذا اردنا ان نصف ترتيب اللعبة في تلك اللحظة، فلا فائدة من ذكر ماذا حصل قبل عشر ثوان. وهذا كله ينطبق على اللغة ويعمق الفارق الجوهرى بين الدايكرونية والسنكرونية. فالكلام يعمل ضمن اطار الحالة اللغوية فقط: اما التغييرات التي تفصل بين الحالات اللغوية فلا مكان لها في دراسة الحالة اللغوية.

ان هذا التشبيه يشكو من ضعف في نقطة واحدة فقط : لاعب الشطرنج يهدف الى احداث تغيير ، وهو بذلك يؤثر في النظام بقصد . اما اللغة فلا يدخل فيها القصد حيث تتغير القطع اللغوية او يصيبها التحوير بصورة تلقائية وعرضية . فوقوع الاملات وتغيير hanti الى Hande و gastى الى Gäste ادى الى نظام جديد لصياغة الجمع ولكنه في الوقت ذاته ادى الى ظهور صيغ فعلية مثل trägt التي تطورت من tragit وغيرها . ولكي نجعل الشبه تاما بين لعبة الشطرنج وعمل اللغة علينا ان نتصور لاعبا يفتقر الى الشعور او الى الذكاء . بيد أن هذا الفارق الوحيد يجعل التشبيه اكثر فائدة في بيان ضرورة التمييز بين هذين الصنفين من الظواهر في علم اللغة . فاذا كنا لا نستطيع ان نخضع الحقائق الزمنية لنظام تزامنى تأثر بهذه الحقائق حين يكون التغيير عن قصد ، فكيف نستطيع ان نخضع مثل هذه الحقائق لنظام سنكرونى عندما تطلق هذه الحقائق قوى عمياء لتغيير ترتيب نظام من الاشارات .

هـ - المقارنة بين هذين الفرعين من فروع علم اللغة طبقا لاساليبيهما ومبادئهما  
يبرز التقابل بين الدايكرونية والسنكرونية في كل ناحية من النواحي . فعلى سبيل المثال - ولنبدأ باوضح المسائل - إن الظاهرتين ليستا على درجة واحدة من الاهمية . مما لاشك فيه ان النظرة السنكرونية هي السائدة هنا . لانها المسألة الحقيقية الوحيدة بالنسبة لمجتمع المتكلمين . ويصح الشيء ذاته بالنسبة لعالم اللغة . فاذا تبنى النظرة الدايكرونية فانه لن يلاحظ اللغة بل سلسلة من الحوادث التي تغير اللغة . كثيرا ما يؤكد الناس ان اهم شيء هو فهم تكوين حالة من الحالات : هذا صحيح في بعض الاحيان فالقوى التي تصيغ الحالة تلقي الضوء على طبيعتها الحقيقية ، واذا عرفنا هذه القوى

تجنبنا الوقوع في الاوهام . ولكن هذا يبرهن بوضوح على ان علم اللغة الدايكروني ليس غاية في حد ذاته . فالذي يقال عن الصحافة ينطبق على الدراسة الزمنية : فهي تؤدي الى كل مكان اذا غادرها المرء .

ان الاساليب التي تتبعها الدايكرونية والسنكرونية مختلفة ايضا في ناحيتين .  
(أ) الدراسة التزامنية لها زاوية نظر واحدة ، وهي زاوية نظر المتكلمين ، والاسلوب الذي تتبعه يتكون من جمع الالة من المتكلمين : ولمعرفة مدى حقيقة الشيء من الضروري والمناسب تحديد مدى وجوده في عقول المتكلمين . اما علم اللغة الدايكروني فعليه ان يميز وجهتي نظر : احدهما توقيعية prospective تسير مع مجرى الزمن ، والاخرى تأملية رجعية retrospective تعود الى الوراء في الزمن وهذا يؤدي الى ثنائية في الاسلوب سنتكلم عنها في القسم الخامس .

(ب) والاختلاف الثاني ناتج عن تحديد المجالات التي يتناولها كل علم من هذين العلمين . فالدراسة السنكرونية هدفها - ليس كل شيء متزامن - بل مجموع الحقائق التي تتعلق بكل لغة من اللغات : وسيتناول الفصل بين الدراستين اللهجات واللهجات الفرعية اذا اقتضى الامر . ان لفظة «السنكروني» ليست دقيقة جدا : لذا ينبغي استخدام لفظة اخرى مكانها - اديوسنكروني - وهذه عبارة طويلة ولكنها مناسبة . اما علم اللغة الدايكروني فهو لا يحتاج الى مثل هذا التخصص بل يرفضه . والالفاظ التي يدرسها لا تتعلق بالضرورة باللغة نفسها (قارن *esti* في اللغة الهندية والاوربية الاولى ، و *esti* في الاغريقية و *ist* في الالمانية و *est* في الفرنسية) . وتعاقب الحوادث الدايكرونية وتعددها في المكان هما العاملان اللذان يؤديان الى تعدد اللغات . واذا اردنا ان نسوِّغ ارتباط صيغتين فما علينا الا ان نشير الى انهما مرتبطتان بالآصرة التاريخية ، مهما كانت هذه الرابطة غير مباشرة .

ان التقابلات المارة الذكر ليست اكثرها بروزا او عمقا . فثمة نتيجة واحدة للاختلاف الجذري بين النظرة التطورية والنظرة الثابتة وهي ان الآراء المتعلقة بكل من النظرتين منفصلة عن الأخرى . وهذه حقيقة تدعمها جميع الآراء . (فالظاهرة السنكرونية والدايكرونية على سبيل المثال ليس بينهما شيء مشترك . فالظاهرة السنكرونية هي عبارة عن العلاقة بين عناصر موجودة في آن واحد . اما الدايكرونية فهي تعوض عنصراً بعنصر آخر في الزمن ، فهي حادثة . وسنرى ان الكيان الدايكروني والكيان السنكروني شيان مختلفان : فلفظة النفي الفرنسية *pas* هي من الناحية التاريخية اصلها *pas* «خطوة» ولكن اللفظتين متميزتان في الفرنسية الحديثة . إن هذه الملاحظات تكفي لبيان ضرورة عدم المزج بين هاتين النظرتين : ولكن هذه الضرورة ابرز في التمييز الذي سنقوم به في الفقرات الآتية من اي مكان اخر .



## ٦ - القانون السنكروني والدايكروني :

من الشائع ان تتكلم عن القوانين في علم اللغة . ولكن هل ان حقائق اللغة تتحكم فيها القوانين حقا ؟ فاذا كان الامر كذلك فما هذه القوانين ؟ لما كانت اللغة نظاما اجتماعياً ، أمكن لنا ان نزع سلفا ان هذا النظام تتحكم فيه معايير شبيهة بتلك التي تتحكم في المجتمعات . وكل قانون اجتماعي له صفتان اساسيتان : اللزوم والعمومية . فهو يفرض كما انه يشمل جميع الحالات - ضمن ابعاد زمنية ومكانية محدودة ، بالطبع .

فهل ينطبق هذا التعريف على قوانين اللغة ؟ ان الخطوة الاولى للإجابة عن هذا السؤال - ضمن المفهوم المتقدم - هو ان نفصل مرة اخرى بين المجال الزمني والمجال التزامني . ولكن ينبغي ان لانخلط بين المسألتين : فالكلام عن القانون اللغوي يشبه على نحو عام محاولة القبض على شبح .

هذه بعض الامثلة على ذلك ، مستقاة من الأغريقية ، مزج فيها الصنفان عن قصد :

١ - الاصوات المجهورة التنفسية في اللغة الهندية الاوربية الاولى اصبحت مهموسة :  
Thumos *dhúmos «نسمة الحياة» ، phéró *bheró «احمل» الى آخره .

٢ - ان الركزة لا تتأخر ابدا اكثر من مقطعين من النهاية .

٣ - ان جميع الكلمات تنتهي بحركة او بأحد الاصوات الاتية : n, s, او r دون غيرها من الاصوات الصحيحة .

٤ - لقد تحول الصوت s في اول الكلمة الذي تسبقه حركة الى h (وهذه علامة التنفيس) :

*septm ← (septem في اللاتينية) ← heptá .

٥ - تحول الصوت m في اخر الكلمة n : : zugón ← jugom (لاحظ jugum في اللاتينية) (٣٠) .

## ٦ - اختلفت أصوات الفلق في آخر الكلمة

*gunaik ← g unai ← *epherst, éphere ← *epheront, epheron

(٣٠) في رأي ميليه Meillet وكوتيو Gouthiot الصوت m - في آخر الكلمة ليس له وجود في اللغة الهندية الاوربية الاولى . فكانت هذه اللغة تستخدم n - فقط . فاذا قبلنا بهذه النظرية ، يمكن صياغة القانون رقم ٥ كالآتي : لقد احتفظت الأغريقية بالصوت n - الأخير في جميع الحالات : وهذا لا يؤثر في قيمة القانون طالما ان الظاهرة الصوتية المؤدية الى الاحتفاظ بحالة سابقة تساوي في طبيعتها الظاهرة التي تبين تغييراً ما (بالي) .

القانون الاول دايكروني تغير الصوت dh الى ih الى آخره .  
القانون الثاني يعبر عن العلاقة بين الكلمة والركزة ، وهي نوع من العلاقة بين  
عنصرين متزامنين .

إذن هذا القانون تزامني . وينطبق الشيء نفسه على القانون الثالث طالما انه يتعلق  
بالكلمة ونهايتها . اما القانون الرابع والخامس والسادس فهي زمنية : الصوت s اصبحت  
h والصوت n - حل محل m - واختفت الاصوات k,t الى آخره ، دون ان تترك أثراً .  
كما ينبغي ان نلاحظ ان القانون الثالث ناتج عن القانون الخامس والسادس : فقد  
أدت حقيقتان دايكرونيتان الى حقيقة سنكرونية .

وبعد ان نفصل بين الصنفين من القوانين ، نجد ان القانونين ، الثاني والثالث ،  
يختلفان جوهرياً عن القانون الاول والرابع والخامس والسادس .

ان القانون السنكروني عام ولكنه لا يتصف باللزوم . مما لا شك فيه انه قد فرض  
على الافراد عن طريق الاستعمال الجماعي ، ولكنني هنا لا افكر بالالتزام من جانب  
المتكلمين . بل اعني انه لا توجد في اللغة قوة تضمن الاحتفاظ بصفة قياسية اقيمت على  
نقطة معينة . فالقانون السنكروني انما هو تعبير بسيط عن ترتيب موجود ، إذن فهو  
يصف حالة معينة . وهو يشبه في ذلك قانونا ينص على ان الاشجار في حديقة ما مرتبة  
ترتيباً خماسياً . والترتيب يصفه لهذا القانون غير مستقر لانه غير ملزم (يفتقر الى صفة  
اللزوم) . ليس هناك ما يتصف بالانتظام اكثر من القانون السنكروني الذي يتحكم في  
موضع الركزة في اللاتينية (فهو يشبه في جميع النواحي القانون الثاني آنف الذكر) ،  
ولكن قانون الركزة هذا لم يقاوم قوى التغيير فحل محله قانون جديد ، القانون السائد في  
الفرنسية (لاحظ الفقرة ٣ من الفصل الثالث آنف الذكر). وموجز القول ان الكلام عن  
قانون سنكروني يعني ترتيباً معيناً ، اي مبدأ الانتظام والقياس .

اما القانون الدايكروني فيفترض وجود قوة فعالة ، ينتج بوساطتها اثر معين : او  
يتحقق شيء ما . ولكن صفة اللزوم هذه غير كافية لتطبيق فكرة القانون على الحقائق  
التطورية . اذ لا يمكننا الحديث عن قانون ما الا اذا كانت مجموعة من الحقائق تخضع  
لقاعدة واحدة ، بيد ان الحوادث الزمنية تتصف دائماً بالعرضية والخصوصية ، مع ان  
بعض المظاهر تشير الى غير ذلك .

فالطبيعة العرضية والخصوصية لحقائق علم الدلالة semantics واضحة في الحال .  
اذ نجد ان الكلمة الفرنسية poutre «فرس» قد اصبحت معناها «قطعة خشب» لاسباب  
معينة ، ولا يعتمد ذلك على التغيير الذي ربما وقع في تلك الفترة . وهذا مثال واحد من  
الامثلة العرضية المدونة في تاريخ اللغة .

اما بالنسبة للتغييرات الصرفية والنحوية فأن الامر ليس بهذا الوضوح منذ

البداية لقد اختلفت في فترة من الفترات جميع الصيغ تقريباً الدالة على حالة الرفع في الفرنسية . نجد في هذا المثال مجموعة حقائق تخضع على ما يبدو لقانون واحد . ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك : لان جميع هذه الحقائق ما هي الا مظاهر متعددة لحقيقة واحدة معزولة . فقد تأثرت فكرة الفاعل (المبتدأ) وادى اختفاء هذه الفكرة ، بالطبع ، الى اختفاء مجموعة كاملة من الصيغ . ان الذي يرى المظاهر الخارجية للغة فقط ، يستطيع ان يرى الظاهرة الفريدة لان مظاهرها الخارجية الكثيرة تغطي عليها - فهناك مرة واحدة من حيث الاساس ، وهذه الحادثة التاريخية انما هي معزولة ، كما هي الحال في تغيير دلالة كلمة *poutre* . وتتخذ هذه الظاهرة هيئة «القانون» لا لسبب الا لأنها تتحقق ضمن نظام معين . فالترتيب الصارم لنظام يخلق الوهم عند المرء بأن الحقيقة الدايمونية تخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها الحقيقة السنكرونية .

لنتناول اخيرا التغييرات الصوتية . اذ نجد ان الشيء نفسه ينطبق عليها . ومع ذلك فالعادة الشائعة ان يتكلم المرء عن القوانين الصوتية . بل يقال إن في وقت ما وفي مكان ما قد تأثرت جميع الكلمات التي لها صفات صوتية واحدة وخضعت لتغيير واحد . فعلى سبيل المثال القانون رقم واحد ، السابق (**dhúmos* ← *Thúmos* في الاغريقية) قد اثر في جميع الكلمات الاغريقية التي تحتوي على صوت مجهور تنفسي (لاحظ **anghó* ← *'ankhó* **nebhos* ← *néphos* , **medhu* ← *méthu* الى اخره) . وينطبق القانون الرابع (*hepta* ← *septm*) على **serpo* ← **sús*, *hérpo* ← *hús* وعلى جميع الكلمات التي تبدأ بالصوت *s* . ان هذه الحالة القياسية، التي هي موضوع خلاف في بعض الاحيان، قد استقرت وثبتت اركانها ، على ما يبدو. والشواذ البسيطة لا تقلل من حتمية هذا التغيير ، اذا يمكن تفسيرها باللجوء الى قوانين صوتية خاصة (لاحظ المثال *trikhos* : *thriksi* الآتي)، او بتدخل حقائق من صنف آخر (كالقياس او غيره) فليس افضل من التعريف ، المتقدم ، لقانون الكلمة . ومع ذلك تكون جميع الحقائق التي يضمها هذا القانون انما هي مظاهر متعددة لحقيقة واحدة، ومهما كانت الحالات التي ينطبق عليها القانون الصوتي ، فان جميع الحقائق التي يضمها انما هي مظاهر متعددة لحقيقة معينة واحدة .

فحقيقة المسألة هي ان نرى هل ان التغييرات الصوتية تؤثر في الكلمات ام في الاصوات فقط ؟ إن الجواب عن هذا السؤال واضح . ففي الكلمات *ankhó*, *methu*, *nephos* الى آخره ، اصبح احد الفونيمات - الصوت المجهور التنفسي في اللغة الهندية الاوربية الاولى - مهموسا : واصبح *s* في بداية الكلمة في الاغريقية الاولى *h* الى آخره . كل حقيقة من هذه الحقائق منفصلة معزولة عن غيرها من الحوادث للصنف نفسه ، كما انها

منفصلة عن الكلمات التي وقع فيها التغيير .^(٢١) مما لا شك فيه ان المادة الصوتية لجميع هذه الكلمات قد تغيرت ، ولكن ذلك ينبغي ان لا يخدعنا فيما يخص الطبيعة الحقيقية للظاهرة .

ماذا يدعم الرأي القائل ان الكلمات نفسها لا يشملها التغيير الصوتي بصورة مباشرة ؟ الجواب عن ذلك : الملاحظة البسيطة التي تقول ان هذه التغييرات غريبة في جوهرها عن الكلمات ولا تلمس جوهرها . فالوحدة المسماة بالكلمة لا تتألف فقط من المجموع الكلي للفونيمات التي تدخل فيها بل تتألف من مميزات خارج صفتها المادية . لنفرض ان احد اوتار البيانو غير موزون : ينتج عن ذلك انبعاث انغام غير متناسقة كلما لمس لاعب البيانو ذلك الوتر . ولكن اين يكمن عدم التناسق هذا ؟ في القطعة الموسيقية ؟ كلا : فالقطعة الموسيقية لم تتأثر : الخلل في البيانو وحده . وينطبق الشيء نفسه على علم الصوت . فنظام الفونيمات يشبه الالة الموسيقية التي نستخدمها لبعث النطق في كلمات اللغة . فاذا تغير أحد عناصر النظام فقد تنتج عن ذلك نتائج كثيرة ، ولكن التغيير لا يخص الكلمات التي تشبه ، في هذا المثال ، الانغام او القطع الموسيقية .

اذن فالحقائق التاريخية خاصة : والتغيير الذي يحدث في نظام ما ، تسببه حوادث خارج النظام فضلا عن كونها معزولة لا تؤلف فيما بينها اي نظام .

خلاصة القول ان الحقائق السنكرونية ، مهما كانت تشير الى نوع من القياس او الانتظام ، ولكنها ليست بأي حال من الاحوال لازمة : اما الحقائق الدايكرونية فانها تفرض نفسها على اللغة ولكنها ليست عامة .

وفي الختام - هذه هي النقطة التي اردت تأكيدها - إن الصنفين من الحقائق لا يخضعان للقوانين بالمفهوم الذي حددناه سابقاً ، فأذا اراد المرء بعد كل هذا ان يتكلم عن القوانين اللغوية ، فأن هذه اللفظة سيكون لها معان مختلفة تماماً ، ويعتمد هذا الاختلاف على اي من الصنفين من الحقائق تستخدم له هذه اللفظة .

## ٧ - هل توجد نظرية (عموم الزمن) Panchronic

لقد استخدمت لفظة القانون حتى الآن بمفهوم قانوني . فهل يمكن استخدام هذه اللفظة في اللغة كما هي مستخدمة في العلوم الفيزيائية والطبيعية : اي بمعنى العلاقات

---

(٢١) مما لا شك فيه ان الأمثلة السابقة تكون ترتيباً معيناً : ويحق لعلم اللغة ان يحاول إخضاع أكبر عدد ممكن التغييرات الصوتية لمبدأ الصدارة (بداية الكلمة) نفسه . ويفسر ميله جميع التغييرات للأصوات المقلقة في الأغريقية بالضعف التدريجي الذي أصاب نطق هذه الأصوات (لاحظ IX, pp. 163 mem. de la Soc. de Ling., العدد التاسع ، الصفحات ١٦٢ وبعدها) . مما لا شك فيه ان الاستنتاجات عن طبيعة التغييرات الصوتية تنطبق على هذه الحقائق العامة ، أينما وجدت . (بالي) .

التي يمكن التأكد منها في جميع الحالات ؟ وبأيجاز ، الا يمكن دراسة اللغة من نظرة عموم الزمن ؟ بلى . ولما كانت التغييرات الصوتية قد حدثت وتحدث دائما ، فإن هذه الظاهرة العامة انما هي صفة ثابتة للسان : فهي اذن احدى قوانين اللسان . ثم اننا نجد في علم اللغة وكما نجد في لعبة الشطرنج ، قواعد تبقى بعد انتهاء الحوادث . وهي مبادئ عامة لها وجود مستقل عن الحقائق الملموسة . فعندما نتكلم عن حقائق معينة ملموسة فاننا لانجد نظرة عموم الزمن . إن كل تغيير صوتي ، مهما كان انتشاره الحقيقي ، يتحدد بزمان معين ومكان معين . اذ لا يوجد تغيير يحدث في كل زمان ومكان ، فالتغييرات لها وجود زمني فقط . وهذه المبادئ العامة هي التي تستخدم قاعدة لتحديد ما يتعلق باللغة وما لا يتعلق بها . ان الحقيقة الملموسة التي يمكن تفسيرها بعموم الزمن لا يمكن ان تعود الى اللغة . لناخذ الكلمة الفرنسية chose «شيء» من النظرية الدايكرونية فأنها تتقابل مع الكلمة اللاتينية التي اشتقت منها causa : اما من الناحية السنكرونية فهي تتقابل مع كل كلمة يمكن ان ترتبط بها في اللغة الفرنسية الحديثة . ولا يخضع لنظرة عموم الزمن الا اصوات الكلمة اذا اخذت بصورة مستقلة (šoz) ، ولكن هذه الاصوات ليس لها قيمة لغوية . فالاصوات šoz حتى اذا عولجت من وجهة نظر لا زمنية شاملة ضمن سلسلة مثل ün šoz admirable «شيء عجيب» فهي ليست وحدة ، بل كتلة لا شكل لها : بل لم نقل šoz ولا نقول Oza أو nšo ؟ ان هذه الاصوات لاتؤلف قيمة لانها لا معنى لها . فالحقائق اللغوية المعنية لايمكن الوصول اليها من وجهة نظر عموم الزمن .

## ٨ - العواقب المترتبة على الخلط بين الدايكرونية والسنكرونية .

نذكر ، فيما يأتي ، مثالين لذلك :

(أ) يبدو ان الحقيقة التزامنية تنفي الحقيقة الزمنية ، وصاحب النظرة السطحية للأشياء قد يظن أن على المرء ان يختار بين النظرتين : ولكن هذا غير ضروري . فالحقيقة التزامنية لاتنفي الحقيقة الزمنية . ان الكلمة الفرنسية dépit «حقد» كانت تعني في اول الامر «احتقار» ، ولكن هذا لا يمنع الكلمة من ان تكسب معنى جديدا يختلف عن السابق تماما . فاصول الكلمة والقيمة السنكرونية شيئان متميزان . وكذلك يعلمنا النحو التقليدي ان اسم الفاعل متغير يتفق مع اسم اخر كما هي الحال مع الصفة في بعض الحالات في الفرنسية الحديثة (لاحظ un eau courante «مياه جارية») وهو غير متغير في حالات اخرى (لاحظ une personne courant dans la rue رجل يركض في الطريق) . بيد ان النحو التاريخي يبين ان المسألة لاتتعلق بصيغة واحدة حسب : فالحالة الاولى وهي استمرار لاسم الفاعل المتغير في اللاتينية (currentum) ، اما

الحالة الثانية فهي تأتي من صيغة غير متغيرة للحال في اللاتينية (*currendó*)^(٣٢). هل تناقض الحقيقة السنكرونية الحقيقة الدايكرونية ، وهل ينبغي للمرء ان ينبذ النحو التقليدي باسم النحو التاريخي ؟ كلا لان ذلك يعني اننا لا نرى سوى نصف الحقائق : اذن ينبغي على المرء ان لا يظن ان الحقيقة التاريخية هي كل شيء وانها وحدها تؤلف اللغة . مما لاشك فيه ان اسم الفاعل *courant* من ناحية اصوله له عنصران ، ولكن في النظرة الجماعية الموجودة عند جمهور المتكلمين يندمج هذان العنصران في صيغة واحدة . اذن فالحقيقة التزامنية مطلقة لاخلاف فيها شأنها شأن الحقيقة الدايكرونية .

(ب) ان الحقيقة السنكرونية كثيرة الشبه بالحقيقة الدايكرونية حتى ان الناس لا يميزون بين الحقيقتين او يظنون ان لافائدة من الفصل بينهما . فهم على سبيل المثال يحاولون تفسير الكلمة الفرنسية *père* «اب» بقولهم ان الكلمة اللاتينية *pater* 'لشيء نفسه . وهذا مثال آخر : الصوت اللاتيني القصير *a* تحول الى *i* في مع المفتوحة بعد المقطع الاول : فنجد *confició* فضلاً عن *fació* و *inimícus* فضلاً عن *amicus* الى آخره . وكثيراً ما يصاغ القانون كالاتي : «لقد أصبح الصوت *a* في *fació* ، *i* ، في *confició* لان هذا الصوت لم يعد موضعه في المقطع الاول .» ان هذا غير صحيح : فالصوت لم «يتحول قط» الى *i* في *confició* . واذا اردنا ان نعيد الحقيقة الى سابها فعلينا ان نذكر فترتين زمنيتين واربعة عناصر . فقد استخدم الناس اول مر *confacio* — *facio* : ثم تحولت *confacio* الى *confició* في حين بقيت *fació* على حالها : فاستخدموا *facio* : *confició* :

الفترة A  $\longleftrightarrow$  *fació*  $\longleftrightarrow$  *confacio*

الفترة B  $\longleftrightarrow$  *fació*  $\longleftrightarrow$  *confició*

ان التغير الذي حصل - ان كان قد حصل تغير - هو بين *confacio* و *canfició* : ولكن القانون السابق ، قد وضع في صيغة رديئة ، فهو لا يذكر شيئاً عن *confacio* . اذن فضلاً عن التغير الدايكروني ثمة حقيقة اخرى ، وتتميز تماماً عن الاولى وتتعلق بالتقابل السنكروني بين *fació* و *confició* . قد يميل المرء الى القول ان هذه نتيجة وليست حقيقة . ومع ذلك فهي حقيقة من صنف خاص : بل ان جميع الظواهر السنكرونية هي من هذا القبيل . ان القيمة الحقيقية للتقابل بين

(٣٢) ان هذه النظرية قد لقيت قبولاً عاماً، ولكنها انتقدت بغير حق في الفترة الأخيرة : انتقدها لارج M. E. Larch في كتابه : *Dos invariable Participium praesentis*, Erlangen, 1913.

إذ لا حاجة الى إهمال مثال له قيمة تعليمية . (بالى).

confició : faciό : gäste و Gast بين التقابل لا أهمية له . أما التقابل بين gäste و Gast : gibet و gebe مع انه نتيجة عرضية للتطور الصوتي أيضاً، فهو ظاهرة نحوية اساسية من الصنف التزامني . ان الصنفين مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في المسائل الاخرى ، يؤثر كل منهما في الآخر، وهذا يشير الى ان الفصل بين الصنفين لا أهمية له : بل ان علم اللغة قد مزج بينهما طوال عقود الزمن ، من دون ان يعلم ان مثل هذا الاسلوب لاقيمة له .

ان هذا الخطأ يبرز في امثلة معينة . فعلى سبيل المثال، اذا اراد المرء ان يفسر الكلمة الاغريقية phuktós قد يظن انه يكفي القول ان الصوت g او kh في الاغريقية تحول الى k قبل الاصوات الصحيحة المهموسة ، ولنوضح ذلك يذكر الامثلة السنكرونية المشابهة : Léutron : Léuhos , phuktós : phugein : الى آخره . ولكن المسألة اكثر تعقيداً بالنسبة لحالة مثل Thriksé : trikhes ، ان قد قد تغير الصوت t الى Th . ولا يمكن تفسير اللفظتين إلا بالنظرة التاريخية ، بالتعاقب الزمني النسبي . إن الاساس Theme في الاغريقية الاولى المتبوع بالنهاية si اصبح Thriksé وهذا تطور قديم جداً يشبه التطور الذي أدى الى ظهور كلمة Lektron المشتقة من الجذر Lekh — . ثم وقع تغير آخر . قد تحول الصوت التنفسي المتبوع بصوت تنفسي آخر في الكلمة نفسها الى صوت غلق ، فاصبحت كلمة Thrikses : trikhes . ومن الطبيعي ان Thriksi لم تخضع لهذا القانون .

## ٩ - الخاتمة :

ينقسم علم اللغة مرة اخرى الى قسمين : فقد لاحظنا اول الامر ان علينا ان نختار بين اللغة والكلام . اما الان فامامنا مرة اخرى تقاطع طريقين ، احدهما يؤدي الى علم اللغة الزمني والآخر الى علم اللغة التزامني .

واذا ادركنا هذا المبدأ الثنائي للتصنيف، نستطيع ان نضيف ان كل شيء دايكروني في اللغة انما هو دايكروني بسبب الكلام . فجميع انواع التغيير تنبع من الكلام . وكل تغيير يبدوه عدد من الافراد قبل ان يقبله عامة الناس فيدخل الاستخدام الشائع . فالالمانية الحديثة تستعمل ich war, wir waren ، في حين كان الاستعمال الشائع حتى القرن السادس عشر هو ich was, wir waren (قارن I was, We were في الانكليزية) . كيف حدث ان حلّ الفعل war محل was ؟ لقد تأثر بعض المتكلمين بالصيغة waren فابتدعوا الفعل war بطريقة القياس : وكانت هذه حقيقة تعود الى الكلام : ثم تكررت الصيغة الجديدة مرات كثيرة فاصبحت مقبولة عند مجتمع المتكلمين ، وغدت حقيقة من حقائق اللغة . بيد ان النجاح



لا يحالف دائماً الصيغ الجديدة للكلام . ان صيغ الكلام التي تبقى فردية قد يصيبها الاهمال من قبل الباحث ، لاننا ندرس اللغة : فهذه الصيغ لاتدخل ضمن مجال دراستنا حتى يتبناها مجتمع المتكلمين .

إن كل حقيقة من حقائق التطور تسبقها حقيقة او مجموعة حقائق مشابهة تعود الى مجال الكلام . وهذا لا يقلل من شأن التقسيم الذي اشرنا اليه بل يدعمه طالما اننا نجد في تاريخ كل صيغة جديدة لحظتين متميزتين : (١) اللحظة التي تظهر فيها الصيغة في استعمال الأفراد (الاستعمال الفردي) : و(٢) اللحظة التي تصبح فيها الصيغة حقيقة من حقائق اللغة ، وهي تشبه ظاهرياً الحقيقة الاولى ولكنها تصبح الآن مقبولة لدى المجتمع .

ويشير الجدول الآتي الى الاسلوب المنطقي الذي ينبغي لعلم اللغة ان يتبناه :

اللغة السنكرونية

اللسان (البشري)

الكلام الدايكرونية

وعلى المرء ان يدرك ان الصورة المثالية النظرية للعلم ليست دائماً الصورة التي تفرضها المتطلبات العملية لذلك العلم . وهذه المتطلبات في علم اللغة أكثر صرامة من العلوم الاخرى . فهي مسؤولة الى حد ما عن الازباك الذي يسود الآن في البحوث اللغوية . ان التمييز الذي أكدناه ، هنا ، حتى وان قبله الباحثون ولم يرفضه أحد قط ، ربما لانستطيع ان نفرضه على نحو دقيق على البحوث باسم الصورة المثالية التي ذكرناها آنفاً .

ففي الدراسات السنكرونية عن الفرنسية القديمة مثلاً يتعامل اللغوي مع الحقائق والمبادئ التي لا علاقة لها بالحقائق التي يمكن ان يتوصل اليها عن طريق تتبع تاريخ هذه اللغة من القرن الثالث عشر حتى القرن العشرين : بل انه يتعامل مع حقائق ومبادئ تشبه تلك التي يجدها المرء عند وصف لغة من لغات البانتو المستعملة الآن - او اللغة الاغريقية لاتيكا في عام ٤٠٠ ق.م او اللغة الفرنسية اليوم . ان هذه الصور الوصفية المتنوعة تعتمد على علاقات واحدة : فاذا كانت كل لغة عبارة عن نظام مغلق ، فان جمع اللغات تضم عدداً من المبادئ الثابتة المشتركة التي يصادفها اللغوي مرة بعد اخرى عند الانتقال من لغة الى اخرى ، لانه مايزال يعمل في الصنف نفسه . والدراسة التاريخية لاتختلف عن هذا : فسواء درس اللغوي فترة معينة في تاريخ اللغة الفرنسية (لنقل من القرن الثالث عشر حتى القرن العشرين) او لغة جاوا او اية لغة اخرى ، فهو دائماً

يتعامل مع حقائق مماثلة، وما عليه الا ان يقارن بين هذه الحقائق لكي يتوصل الى الحقائق العامة للصنف الدايكروني. والصورة المثالية هي ان يكرس كل عالم نفسه لحقل واحد من حقول البحث ويتناول اكبر عدد ممكن من الحقائق في ذلك الصنف. بيد انه يصعب على العالم ان يتقن اتقاناً جيداً وبصورة علمية جميع هذه اللغات المختلفة. ويقابل ذلك ان كل لغة في الواقع تؤلف وحدة دراسية : تحملنا متطلبات الظروف اللغوية ان ندرسها مرة حسب النظرية التاريخية ومرة اخرى حسب النظرة الثابتة. وفوق كل ذلك علينا ان لاننسى ابداً ان هذه الوحدة مصنوعة من الناحية النظرية : في حين يخفي تنوع اللغات وحدة عميقة. ومهما كانت النظرة التي ننظرها الى اللغة في دراستها فعلى ان نضع كل حقيقة في الصنف الذي تعود له وان لانخط بين الأسلوبين.

ان الجزأين من علم اللغة اللذين حددناهما سابقاً، سيكونان موضوع هذه الدراسة.

إذ سيتناول علم اللغة التزامني العلاقات المنطقية والسايكولوجية التي تربط بين العناصر المتزامنة وتكون نظاماً في العقل الجماعي للمتكلمين.

أما علم اللغة الزمني فيدرس العلاقات التي تربط بين العناصر التي تتعاقب زمنياً ولا يدركها العقل الجماعي ، وكل عنصر يحل محل العنصر الآخر، من غير أن تؤلف هذه العناصر نظاماً.



## الجزء الثاني

# علم اللغة السنكروني

# الفصل الاول

## مبادئ عامة

يهدف علم اللغة التزامني العام الى وضع المبادئ الأساسية لأي نظام اديوسنكراسي أي لمكونات اية حالة لغوية . فكثير من الامور التي تحدثنا عنها في الجزء الاول هي جزء من السنكرونية : مثال ذلك الصفات للاشارة هي جزء لا يتجزأ من السنكرونية مع اننا عددناها دليلاً على ضرورة الفصل بين علم اللغة الدايكروني والسنكروني .

ويعود الى السنكرونية كل ما يطلق عليه «بالنحو العام» لاننا لا نستطيع ان نتوصل الى العلاقات المختلفة التي هي موضوع النحو إلا عن طريق دراسة الحالات اللغوية . وسنتحدث في الفصول القادمة عن المبادئ الأساسية الضرورية لمعالجة المسائل الخاصة بعلم اللغة الثابت اولتوضيح الحالات اللغوية بصورة تفصيلية .

تُعَدُّ دراسة علم اللغة الثابت، على العموم، أكثر صعوبة من دراسة علم اللغة التاريخي ، لان حقائق التطور ملموسة واضحة أكثر من غيرها : وعلاقتها المرئية تربط بين العناصر، المتعاقبة زمنياً، التي يسهل فهمها . فتتبع سلسلة من التغييرات من الامور السهلة بل من الأمور المسلية . أما علم اللغة الذي يعالج القيم والعلاقات المتزامنة فتكثر فيه الصعوبات .

ليست الحالة اللغوية في الواقع نقطة بل فترة من الزمن يكون فيها المجموع الكلي للتغييرات الحاصلة ضئيلاً جداً ينحصر في الحدود الدنيا . وقد تضم هذه الفترة عشر سنوات او جيلاً او قرناً بل أكثر من ذلك . فقد لا تتغير لغة ما طوال فترة طويلة من الزمن، ثم يقع فيها تغيير جذري في بضع سنوات . وقد نلاحظ لغتين قائمتين جنباً الى جنب خلال فترة معينة، تتطور احدهما تطوراً جذرياً وتبقى الثانية على حالها من دون أي تغيير يذكر . فتكون الدراسة زمنية للغة الاولى وتزامنية للغة الثانية . ويمكن تعريف الحالة اللغوية المطلقة بأنها الحالة التي لا يظهر فيها أي تغيير . ولما كانت اللغة تتغير بطريقة ما رغم كل شيء ، فان دراسة الحالة اللغوية يعني في الواقع إهمال التغييرات التي لا اهمية لها، كما ان عالم الرياضيات يهمل الكميات الصغيرة جداً في بعض الحسابات كاللوغارتمات .

يميز التاريخ السياسي بين مفهوم العصر era وهو نقطة في الزمن، والفترة period وهي حقبة زمنية . ومع ذلك فالمؤرخ يقول «عصر انطونيوس» وعصر الحروب الصليبية وغير ذلك، عندما يتحدث عن مجموعة من المميزات او الصفات التي تبقى ثابتة خلال هذه الازمنة. وكذلك يستطيع المرء ان يقول ان علم اللغة الثابت يدرس العصور. ولكن افضل من ذلك استعمال لفظة الحالة. ان بداية عصر ما ونهايته تتميزان عادة بحدوث ثورة فجائية كثيرا ما تؤدي الى تغيير الحالة الراهنة . ولكي نتجنب مثل هذا الانطباع في اللغة فمن المفضل ان نستخدم لفظة الحالة . ثم ان كلمة «العصر» مقتبسة من التاريخ ، لذا فهي تجعل المرء يفكر بالظروف المحيطة باللغة اكثر من التفكير باللغة نفسها . وباختصار فهي توحى لنا بفكرة ما يسمى بعلم اللغة الخارجي (لاحظ المقدمة ، الفصل الخامس) . ثم إن التحديد الزمني ليس الصعوبة الوحيدة التي تواجهنا في تعريف الحالة اللغوية : فالمكان يقدم لنا مثل هذه الصعوبة . وباختصار لا يمكن أن تكون فكرة الحالة اللغوية الا تقريبية . ففي علم اللغة الثابت ، وكذلك في اكثر العلوم ، لا يمكن ان نستخدم اي اسلوب من التفكير دون تبسيط المعطيات عادة .

## الفصل الثاني

### الكيانات الملموسة للغة

#### تعريف :- الكيان والوحدة .

الاشارات التي تتألف منها اللغة ليست اشياء مجردة بل اشياء حقيقية ، وهذه الاشارات والعلاقات بينها هي موضوع دراسة علم اللغة : فهي الكيانات الملموسة لعلم اللغة . نود اولاً ان نعيد الى الالذهان مبدأين اساسيين في هذا الموضوع :-

#### ١ - ان الكيان اللغوي يستمد وجوده من الارتباط بين الدال والمدلول

(لاحظ الجزء الاول الفصل الاول) . فاذا ابقينا على عنصر واحد فقط ، تلاشى الكيان : ان لانجد سوى شيء مجرد بدلاً من شيء ملموس . وكثيراً ما ندرك جزءاً من الكيان فنظن اننا ندركه جميعه وهذا ما يحدث - على سبيل المثال - اذا قسمنا السلسلة المنطوقة الى مقاطع ، لان المقطع لاقيمة له الا في النظام الصوتي (الفونولوجي) . فتعاقب الاصوات ليس شيئاً لغوياً الا اذا عبر عن فكرة ما . اما اذا اخذ هذا التعاقب للاصوات بصورة مستقلة اصبح مادة لدراسة فلسفية ليس الا .

ويصح الشيء نفسه على المدلول حالما يفصل عن الدال . فاذا نظرنا الى مفهومات مثل « البيت » و « ابيض » و « رأى » وغيرها بصورة مستقلة ، فهي جزء من علم النفس . ولا تصبح كيانات لغوية الا اذا ارتبطت بالصور الصوتية . فالفكرة في اللغة ما هي إلا صفة من صفات المادة الصوتية كما ان أية شريحة صوتية ما هي إلا صفة من صفات الفكرة . كثيراً ما شبهت الوحدة اللغوية الثنائية بالكائن البشري الذي يتألف من الجسم والروح . ولكن هذا التشبيه غير مقنع . وافضل منه التشبيه بالمركب الكيميائي كالماء ، التركيب المؤلف من الهيدروجين والأكسجين . فاذا اخذنا اياً من العنصرين لوحده لم نجد له اية صفة من صفات الماء .

٢ - ان الكيان اللغوي لايمكن تعريفه بدقة الا اذا حدد ، اي اذا عزل عما يحيط به في سلسلة الصوت . وهذه الكيانات او الوحدات المحددة تقابل بعضها البعض في النظام اللغوي .

قد يميل المرء في بادئ الامر الى تشبيه الاشارات اللغوية بالاشارات المرئية الموجودة في الفضاء ، من دون ان تمتزج بعضها ببعض : فيزعم ان فصل العناصر المهمة يمكن انجازه بالطريقة نفسها ، من دون اللجوء الى أية عملية عقلية . ومما يدعم هذا الخطأ لفظة « الصيغة » التي كثيراً ماتستخدم للإشارة الى هذه العناصر (لاحظ عبارة

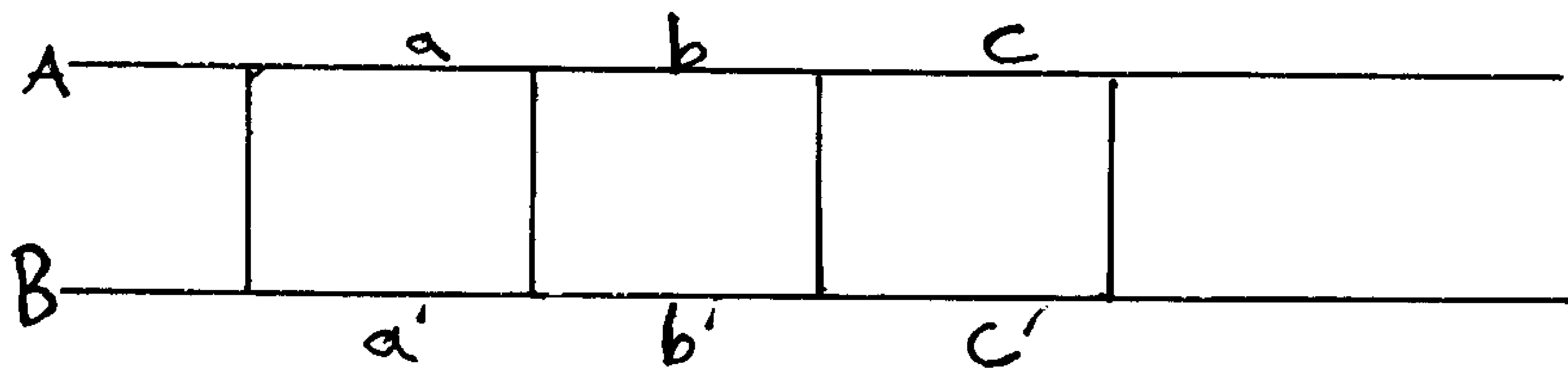


«صيغة الفعل» و«صيغة الاسم». ولكننا نعلم ان الصفة الاساسية للسلسلة الصوتية هي انها خطية (لاحظ الجزء الاول، الفصل الاول، الفقرة ٣). فليست هذه السلسلة، إذا أخذت لوحدها، إلا خطأ، شريطاً مستمراً لاتستطيع الاذن ان تميز فيه تقسيماً واضحاً. وإذا اردنا تقسيم هذه السلسلة فعلياً ان نستعين بالمعنى. فحين نسمع لغة غير معروفة لدينا، لانعلم كيف نحلل تعاقب الاصوات: لان التحليل غير ممكن اذا اقتصر اهتمامنا بالجانب الصوتي للظاهرة اللغوية. اما اذا عرفنا الوظيفة والمعنى اللذين ينسبان لكل جزء من اجزاء السلسلة، وجدنا ان هذه الاجزاء تنفصل بعضها عن البعض الآخر، وينقسم الشريط الصوتي الذي لاشكل له الى اقسام. ومع ذلك يخلو هذا التحليل من أي شيء مادي.

وموجز القول ان اللغة لاتظهر لنا بصورة مجموعة من الاشارات المحددة سالفاً التي لا تحتاج الا الى دراستها طبقاً لمعانيها وترتيبها: بل هي كتلة مرتبكة لا يدرك عناصرها الخاصة الا الشخص النبيه الذي له المام بها. والوحدة ليس لها طبيعة صوتية معينة، والتعريف الوحيد الذي يمكننا ان نقدمه لها هو: انها شريحة صوتية، تتميز عما يسبقها ويليهما في السلسلة المنطوق بها، بانها دال لفكرة معينة.

## ٢ - اساليب التحديد:

إن الذي يحسن لغة ما يشخص وحداتها بطريقة بسيطة جداً - من الناحية النظرية في الاقل. وهذه الطريقة عبارة عن استعمال الكلام مادة اولية للغة، وعدّه مؤلفاً من سلسلتين متوازيتين - الاولى الافكار (A) والثانية الصور الصوتية (B). وإذا كان تحديد الوحدات دقيقاً اتفقت التقسيمات في سلسلة الصور الصوتية (a,b,c) مع التقسيمات في سلسلة الافكار (a',b',c'):



لنأخذ العبارة الفرنسية sižlapr'a. هل نستطيع ان نقطع السلسلة بعد الصوت L ونجعل من siž وحدة؟ الجواب لا، وما علينا الا ان ننظر الى الافكار التي في هذه السلسلة حتى ندرك ان هذا التقسيم غير صحيح. كما اننا ينبغي ان لناخذ التقسيم المقطعي siž - La - pr'a وكأن له قيمة لغوية لاشك فيها. فالتقسيم الوحيد ينبغي ان يكون

باحدى الطريقتين :

(١) si — ž — la — prá (Si je la prends اذا اخذتها) و (٢) si - z - la — prá (si je Lapprends اذا تعلمتها) . وهذان التقسيمان يحدد هما المعنى الذي تعبر عنه الكلمات .

واذا اردنا ان نتأكد من نتيجة هذه الطريقة ونكون على بينة من اننا نتعامل مع وحدة لغوية ، ينبغي ان نقارن مجموعة من الجمل التي تحتوي على الوحدة نفسها كي نفصل هذه الوحدة عن بقية النص ونجد في كل حالة ان المعنى يسوّغ التحديد . لنأخذ العبارتين الفرنسييتين : La force du vent (= قوة الهواء) و abudfors a bout de (force = وتعني حرفيا : بلغ المرء نهاية قوته = انه مجهد) . ففي كل من العبارتين تتفق الفكرة نفسها مع شريحة صوتية واحدة وهي fors ، لذا فهي ولاشك وحدة لغوية . اما في عبارة : ilma forza parle (il me force a parler) ارغمني على الكلام) فان لفظة fors لها معنى مختلف تماما : لذا فهي وحدة لغوية مختلفة عن fors في المثال الاول .

### ٣ - الصعوبات العملية للتحديد

ان الطريقة التي تحدثنا عنها بسيطة جدا من الناحية النظرية ، ولكن هل هي سهلة التطبيق ؟ قد نظن انها سهلة حقا اذا بدأنا بفكرة ان الوحدات التي نريد عزلها هي الكلمات . وهل تتكون الجملة من شيء سوى الكلمات ؟ وهل هناك شيء اسهل على الفهم من الكلمات ؟ لنعد الى المثال السابق ، حيث نستطيع القول ان تحليل السلسلة المنطوقة si — ž — la — prá ينتج عنه تحديد اربع وحدات ، وان الوحدات هي كلمات . si — ž — la — prá apprends ولكننا سرعان ما نشك في الامر اذ نلاحظ ان العلماء قد اختلفوا في طبيعة الكلمة ، ولا نحتاج الى كثير من التفكير لنذكر ان المعنى المألوف للكلمة لا يتفق وفكرة الوحدة الملموسة .

واذا اردنا دليلا مقنعا فما علينا الا ان نتأمل الكلمة الفرنسية cheval «حصان» وصيغة الجمع لها . chevaux . فالناس متفقون على انها صيغتان لكلمة واحدة . ولكننا اذا اخذنا الكيان الكلي لهما فانهما ولاشك شيئان متميزان من ناحية المعنى والصوت . وفي mois) mwa (كما في mois de septembre = شهر ايلول) و mois) mwaz (في عبارة un mois après = بعد شهر) صيغتان لكلمة واحدة ، اما مسألة الوحدة الملموسة فغير واردة . ان المعنى واحد ولكن الشريحتين الصوتيتين مختلفتان . فاذا حاولنا تشبيه الوحدات الملموسة بالكلمات ، فاننا سرعان ما نقع في معضلة : اذ نجد انفسنا مضطرين الى اهمال العلاقة الواضحة التي تربط cheval و chevaux ، التي تربط الصوتين mwa و mwaz وغيرهما، والى القول انهما كلمتان مختلفتان ، او نضطر الى اهمال الوحدات الملموسة ونقتنع عوضا عنها بالشيء المجرد الذي يربط بين الصيغ المختلفة للكلمة الواحدة . علينا اذن ان نبحث عن الوحدة الملموسة في مكان آخر غير الكلمة . ثم ان كثيراً من الكلمات

انما هي وحدات مركبة ، يسهل علينا تشخيص الوحدات الفرعية فيها (كاللاحقة suffix والبادئة prefix والاصل radical) . فالكلمات المشتقة مثل (٣٢) pain - ful و delight - ful يمكن تقسيمها الى اجزاء متميزة ، كل منها له معنى واضح ووظيفة واضحة . وهناك وحدات اكبر من الكلمة : كالوحدات المركبة (مثال ذلك porte - plume = حاملة القلم في الفرنسية) والعبارات الشائعة (s, il vous plait = من فضلك) والصيغ المعربة (كما في ilaete = كان هو) وغيرها . ان هذه الوحدات غير قابلة تحديد شأنها شأن الكلمات الحقيقية فيصعب الفصل بين العلاقات المتشابكة للوحدات الموجودة في السلسلة الصوتية ، كما يصعب تحديد العناصر الملموسة التي يعتمد عليها عمل اللغة .

مما لاشك فيه ان المتكلمين لا يدركون الصعوبات العملية التي تواجه من يريد تحديد الوحدات . فكل شيء له نزر من الدلالة يبدو لهم عنصراً ملموساً ، يشخصونه دائماً في الحديث . ولكن الشعور بالصلة السريعة الدقيقة بين الوحدات شيء وتفسير هذه الوحدات بأسلوب تحليلي منتظم شيء آخر .

وثمة نظرية أخرى واسعة الانتشار تجعل من الجمل وحدات لغوية ملموسة . فنحن نتكلم بالجمل ثم نشخص فيها الكلمات . ولكن الى اي مدى تنتمي الجملة الى اللغة (لاحظ الفصل الخامس ، الفقرة ٢) ؟ فاذا كانت الجملة جزءاً من الكلام ، فانها لا يمكن ان تكون وحدة من وحدات اللغة . ولنفرض ان هذه الصعوبة يمكن تخطيها . فاذا تصورنا الكيان الكلي للجمل التي يمكن النطق بها فان ابرز صفة من صفات هذه الجمل انها لا تشبه بعضها البعض في اي شيء . وقد نحاول اول الامر ان نشبه التنوع الشديد للجمل بالتنوع الشديد بالافراد التي تتألف منها الفصيلة في علم الحيوان . ولكن هذا ضرب من الوهم : فالمميزات التي تشترك فيها الحيوانات التي تنتمي الى فصيلة واحدة ابرز من الاختلافات التي تفصل بينها . اما في الجمل فالعكس هو الصحيح ، حيث ان التنوع هو السائد ، فاذا بحثنا عن الجسر الذي يربط بين هذه الفروق ، نجد ثنائية ، دون قصد ان هذا الجسر هو الكلمة بمميزات النحوية . فنعود مرة أخرى لنواجه الصعوبات التي مر ذكرها .

#### ٤ - الخاتمة :

ان مسألة الوحدات لا تظهر في كثير من العلوم : فهذه الوحدات تحدد منذ البداية . ففي علم الحيوان يظهر الحيوان منذ البداية . ويستخدم علم الفلك وحدات معزولة في الفضاء وهي النجوم . ويستطيع الكيميائي ان يدرس طبيعة بايكرومات البوتاسيوم

(٣٢) وفي العربية مدرس... ون ، مدرس... ة ، مد... ا... رس وغيرها ، يمكن تمييز الاصل والاضافات . (المترجم).

وتركيبتها من دون ان يشك ولو لحظة واحدة ان هذا الشيء الذي يتعامل معه انما هو شيء له كيان محدد .

وإذا لم يكن لعلم ما وحدات ملموسة يمكن تشخيصها من الوهلة الاولى ، فان سبب ذلك هو ان مثل هذه الوحدات ليست ضرورية . ولنأخذ التاريخ على سبيل المثال : ما الوحدة هنا ؟ الفرد ام العصر ام الامة ؟ لانعلم . ولكن ما اهمية ذلك ؟ فنحن نستطيع ان ندرس التاريخ من دون ان نعرف جواب الاسئلة آنفة الذكر .

اما اللغة فتشبه تماماً لعبة الشطرنج . ففي لعبة الشطرنج تعتمد اللعبة كلياً على الارتباط بين قطع الشطرنج المختلفة ، وكذلك تتميز اللغة بانها نظام يعتمد كلياً على التقابل بين وحداته الملموسة . فنحن لا نستطيع الاستغناء عن الامام بهذه الوحدات ولا نستطيع ان نخطو خطوة واحدة من دون ان نعود اليها ، ومع ذلك يكون تحديد هذه الوحدات مسألة دقيقة تجعلنا نتساءل في بداية الأمر ، هل لهذه الوحدات وجود ؟ إذن فاللغة تتميز بصفة بارزة غريبة وهي انها لاتملك كيانات يمكن رؤيتها منذ البداية ، ومع ذلك لانشك ان هذه الكيانات موجودة . وان وجودها يتوقف على عملها . ان هذه الصفة ولاشك تميز اللغة عن غيرها من أنظمة الاشارات .

## الفصل الثالث

### التطابق اللغوي والحقائق الواقعية والقيم

ان ما قلناه سابقاً يؤدي بنا الى مسألة مهمة لان اية فكرة اساسية في علم اللغة الثابت تعتمد بصورة مباشرة على مفهومنا للوحدة بل تمتزج به . وهذا ما سأوضحه شيئاً فشيئاً بالنسبة لمفهوم التطابق والحقيقة الواقعية والقيمة في علم اللغة التزامني .

أ - ماذا نعني بالتطابق السنكروني ؟ ان المسألة هنا لاتتعلق بالتطابق الذي يربط بين اداة النفي الفرنسية pas = «لا» واللفظة اللاتينية *passum* «خطوة» فهذا تطابق دايكروني سنتحدث عنه في مكان آخر (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الثامن) ، بل المقصود التطابق التزامني الذي لا يقل اهمية عن التطابق الدايكروني وهو التطابق الذي يساعدنا على القول بأن جملتين مثل *jene sais pas* = «لا اعلم» و *ne dites pas cela* = «لاتقل ذلك» يحتويان على العنصر نفسه . وقد يقول احدهم هذه مسألة لافائدة فيها ، فوجود التطابق سببه ان الشريحة الصوتية الواحدة لها معنى واحد في الجملتين . ولكن هذا تفسير غير مقنع ، فاذا كان التشابه بين الشرائح الصوتية والافكار دليلاً على التطابق اللغوي (لاحظ ، فيما تقدم ، العبارتين : *about de force* : *la force du vent*) فإن العكس غير صحيح . ان قد يوجد تطابق لغوي من دون وجود مثل هذا التشابه فاذا اعيدت لفظة *Gentlemen* = «ايها السادة» عدة مرات في اثناء محاضرة ، يشعر المستمع ان العبارة ذاتها تستعمل في كل مرة . ومع ذلك يؤدي الاختلاف في النطق والتنغيم الى اختلاف صوتي ملموس في السياقات المختلفة - وهذه اختلافات لاتقل اهمية عن تلك التي تفصل بين الكلمات المختلفة (لاحظ الكلمات الفرنسية : *pomme* = تفاح و *paume* «كف اليد» ، *goutte* = نقطة و *je goute* اذوق ، *fuir* = يهرب و *fouir* = يحشو وغيرها . ثم ان الشعور بالتطابق يبقى حتى اذا لم يكن هناك تطابق مطلق بين لفظة «ايها السادة» في الحالة الاولى وفي الحالات الاخرى من ناحية المعنى . وكذلك يمكن أن تعبّر الكلمة الواحدة عن افكار مختلفة من دون ان يؤثر ذلك في تطابق الكلمة (لاحظ الكلمات الفرنسية *adopter une mode* = يتبنى طرازاً معيناً و *adopter un enfant* يتبنى طفلاً ، *La fleur du pommier* = زهرة التفاح و *La fleur de la noblesse* = زهرة النبلاء وغيرها) .

إن النظام اللغوي مكيف للاعراب عن الفروق والتطابق ، والفروق تقابل التطابق . فمسألة التطابق تظهر في كل مكان ، وهي تمتزج جزئياً بمسألة الكيانات والوحدات ، وتعدّ مظهراً معقداً لمسألة اكبر ، تلقي بعض الضوء عليها احياناً . وتظهر هذه الميزة

بنحو بارز اذا اجرينا مقارنة بينها وبين بعض الحقائق المأخوذة من خارج اللسان . مثال ذلك ، نحن نتكلم عن التطابق بين القطارين المغادرين من جنيف الى باريس الساعة ٨ر٢٥ مساءً ويفصل بين كل قطار وآخر أربع وعشرون ساعة . فنحن نشعر ان القطار واحد في كل يوم . مع ان كل شيء قد يكون مختلفاً - القاطرة والعربات والعاملين - او اذا هدم شارع ثم اعيد بناؤه نقول ان الشارع هو نفسه ، مع ان الشارع القديم ربما لم يبق منه شيء . لماذا يبقى الشارع نفسه رغم اعادة تشييده كلياً ؟ الجواب لان الشارع ليس عبارة عن كيان مادي محض ، بل انه يعتمد على شروط معينة تتميز عن الخواص المادية التي تناسب هذه الشروط : كموقع الشارع بالنسبة للشوارع الاخرى وكذلك القطار السريع الذي يغادر كل يوم من جنيف الى باريس هو القطار نفسه بسبب ساعة المغادرة والطريق الذي يسلكه القطار وبصورة عامة جميع الظروف التي تميزه عن غيره من القاطرات . فاذا تحققت الشروط نفسها وجدت الكيانات ذاتها . ومع ذلك ليست هذه الكيانات اموراً مجردة إذ اننا لانستطيع ان نتصور شارعاً او قطاراً بدون كيانه المادي .

لنقارن المثالين السابقين بمثال آخر مختلف وهو بدلة سرقت مني ثم وجدتتها في دكان لبيع الملابس العتيقة . عندنا في هذه الحالة كيان مادي يتألف من مادة خاملة العناصر كوجه القماش وبطانته والزر كشة وغير ذلك . ان بدلة اخرى لن تكون بدلتني رغم الشبه بينهما . ولكن التطابق اللغوي يختلف عن التطابق في الملابس ويشبه التطابق في القطار والشارع . وكل مرة اقول «ايها السادة !» انما اجدد المادة التي تتألف منها العبارة فكل نطق بهذه العبارة ينطوي على عمل صوتي جديد وعمل سايكولوجي جديد . والرابطة بين الاستعمالين للكلمة الواحدة لاتعتمد على التطابق المادي ولا على معنى واحد بل تعتمد على العناصر التي ينبغي على الباحث ان يفتش عنها ، التي تشير الى الطبيعة الحقيقية للوحدات اللغوية .

ب - ما الحقيقة الواقعية السنكرونية ؟ وما العناصر اللغوية الملموسة او المجردة التي تنطبق عليها هذه التسمية ؟

لنأخذ مثلاً التمييز بين اقسام الكلام . ما الدليل الذي يدعم تصنيف الكلمات الى اسماء وصفات وغيرهما ؟ هل يعتمد هذا التصنيف على مبدأ منطقي غير لغوي طبق على النحو من الخارج كخطوط الطول والعرض التي ترسم على الكرة الارضية ؟ ام انه يشبه شيئاً له مكان في النظام اللغوي وتكيف به ؟ وموجز القول : هل هو حقيقة واقعية سنكرونية ؟ تبدو الفرضية الثانية شيئاً محتملاً ، كما ان الفرضية الاولى لها ما يسوغها . ففي الجملة الفرنسية ces gants sont bon marche «هذه الكفوف رخيصة» هل bon marche صفة ؟ من الواضح انها صفة من وجهة النظر المنطقية ولكنها ليست صفة من وجهة النظر النحوية ، لان bon marche لاتسلك سلوك الصفة (فهي ذات صيغة واحدة كما

انها لا يمكن ان تسبق الاسم . الى اخره) ، فضلا عن انها تتألف من كلمتين . ان التمييز بين اقسام الكلام هو الشيء الذي ينبغي ان يساعد على تصنيف الكلمات في اللغة . ولكن كيف يمكن ان تنسب مجموعة من الكلمات الى احد هذه «الاقسام» ؟ واذا قلنا ان bon = «جيد» هو صفة و marché = «سوق» اسم فان ذلك لن يفسر شيئا . إذ انه تصنيف ناقص غير كامل . ولكن تقسيم الكلمات الى أسماء وافعال وصفات وغيرها ليست حقيقة واقعية لغوية ، لا يمكن اغفالها^(٣٤) .

فعلم اللغة اذن يستخدم دائما مفهومات صاغها النحويون ، من دون ان يعرفوا هل ان هذه المفهومات تطابق فعلا مكونات النظام اللغوي . ولكن كيف نستطيع ان نعرف ذلك ؟ واذا كانت هذه المكونات اشباحا فما الحقائق الواقعية التي يمكن ان تقابلها ؟ إذا اردنا ان نتخلص من الاوهام فعلينا ان نقنع انفسنا ان الكيانات الملموسة للغة لا يمكن الوصول اليها بصورة مباشرة . وإذا اردنا ان نفهمها عثرنا على الحقائق الصحيحة . ثم نبدأ من هناك فنضع جميع انواع التصنيف التي يحتاج اليها علم اللغة لتنظيم جميع الحقائق المتوفرة لديه . ومن جهة اخرى يعني إقامة التصنيف على أي اساس عدا الكيانات الملموسة كالقول مثلا إن اقسام الكلام هي مكونات اللغة لا لسبب إلا لأنها تشبه المقولات في علم المنطق - يعني اننا ننسى ان الحقائق اللغوية لاوجود لها عدا مادة الصوت المقسمة الى عناصر ذات معنى .

ج - وأخيرا ، ليست جميع الافكار التي ذكرناها ، في هذا الفصل مختلفة بصورة جوهرية عما اطلقنا عليه في مكان آخر بـ «القيم» ونذكر هنا مقارنة جديدة بقطع الشطرنج توضح هذه المسألة (لاحظ الجزء الاول ، الفصل الثالث ، الفقرة ٤) . لنأخذ الحصان - على سبيل المثال - أ هو في حد ذاته عنصر في لعبة ؟ الجواب : لا . فالتكوين المادي لهذه القطعة - خارج المربع والشروط الاخرى للعبة - لاهمية له للاعب : ولا تصبح القطعة عنصرا ملموسا حقيقيا الا عندما تمنح قيمة وتبقى هذه القيمة ملاصقة لها . ولنفرض ان القطعة فقدت او كسرت في اثناء اللعب . هل يمكن ان تحل محلها قطعة مماثلة ؟ نعم . ولا يشترط أن تكون القطعة الجديدة على هيئة حصان ، بل يمكن ان تكون باية هيئة أخرى ، وتشبه الحصان أو يتفق عليها أنها تشبه الحصان ، على شرط ان تكون لها قيمة القطعة الاولى . وهكذا نرى أن في انظمة الاشارات ، كما في اللغة ، حيث العناصر تحتفظ بحالة تعادل فيما بينها ، تمتزج فكرة التطابق مع فكرة القيمة

(٣٤) ان الشكل والوظيفة والمعنى تجعل من تصنيف اقسام الكلام في الانكليزية امرا اكثر صعوبة من الفرنسية . لاحظ — ten foot : ten — the pole is ten feet long : a ten — foot — pole (باسكن)

والعكس هو الصحيح . وبايجاز ، هذا هو سبب أن فكرة القيمة تضم مفهومات الوحدة والكيان الملموس والحقيقة الواقعية . وإذا لم يكن أي فرق جوهري بين هذه المفهومات المتنوعة ، فإن ذلك يعني أن المسألة يمكن التعبير عنها على التوالي وبأساليب متعددة . وسواء حاولنا أن نعرف الوحدة أو الحقيقة الواقعية أو الكيان الملموس أو القيمة ، فإننا نعود دائما إلى المسألة الأساسية التي تسود علم اللغة الثابت باجمعه .

ومن المهم ، من الناحية العملية ، أن نبدأ بالوحدات فنحدد ماهيتها ونفسر تنوعها عن طريق تصنيفها . ومن الضروري أيضا أن نبحث عن الأسباب التي نقسم بموجبها اللغة إلى كلمات - فرغم صعوبة تعريف الكلمة ، فهي وحدة تجذب الانتباه ، بكونها شيئا يمثل كيانا أساسيا في النظام اللغوي . إن هذا الموضوع يمكن أن يكرس له كتاب بأكمله . وعلينا بعد ذلك أن نصنف الوحدات الفرعية ثم الوحدات الكبيرة إلى آخره . فعلم اللغة السنكروني بتحديد بهذا الأسلوب ، العناصر التي يستخدمها يؤدي وظيفته بصورة كاملة . إذ أنه ينسب جميع الظواهر السنكرونية إلى المبدأ الأساسي .

ولا يمكن القول أن هذه المسألة الأساسية قد عولجت أو فهم مجالها وصعوبتها : فقد اقتنع الناس دائما في الأمور اللغوية بالوحدات المبهمة .

وعلى كل حال ، من الأفضل أن ندرس مسألة الوحدات - مع أهميتها الكبيرة - عن طريق دراسة القيمة ، لأنني أرى أن القيمة ذات أهمية كبرى .





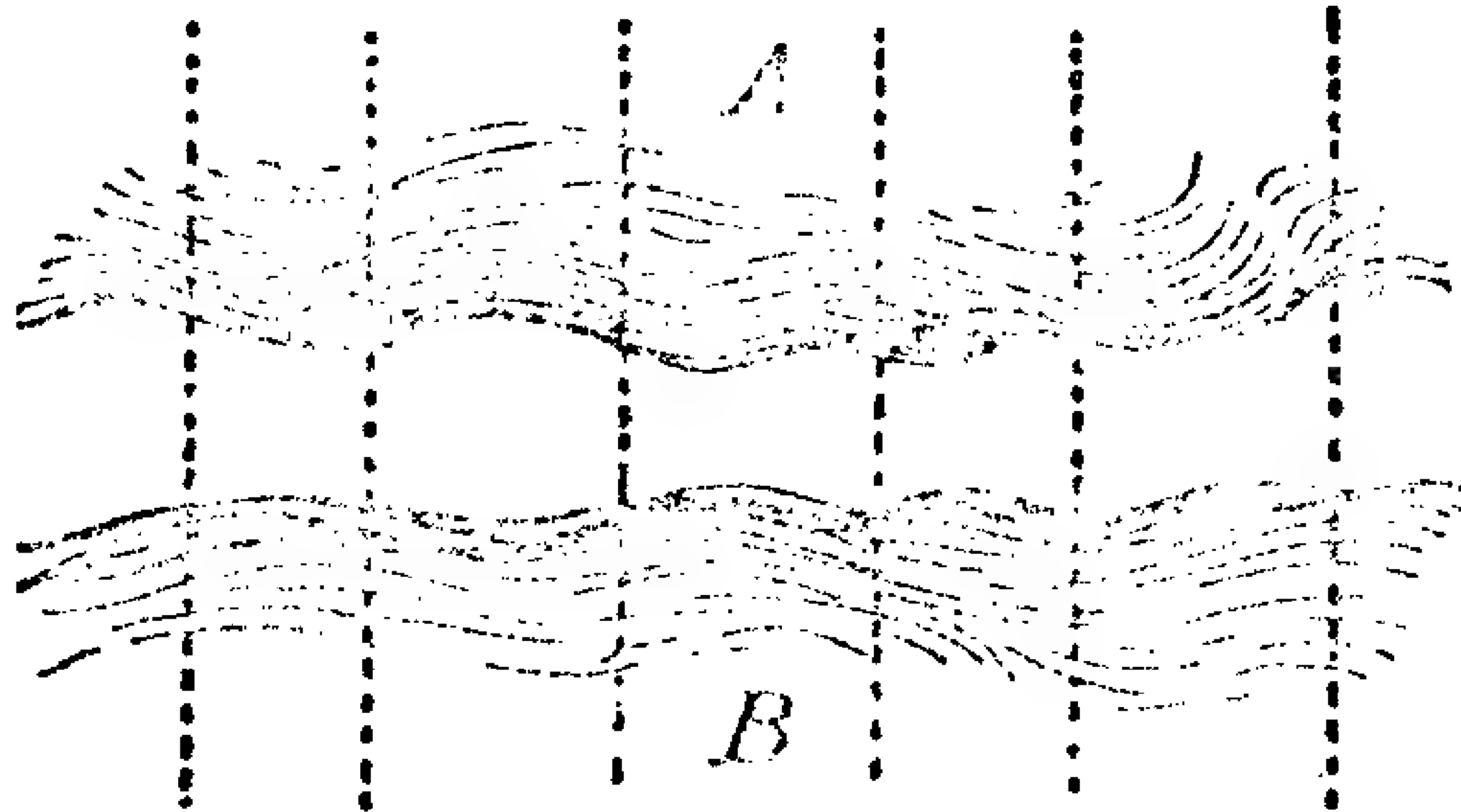
## الفصل الرابع

### القيمة اللغوية

#### ١ - اللغة فكرة منظمة مقرونة بالصوت :

إذا أردنا ان نبرهن على ان اللغة ليست الا نظاماً للقيم ، فما علينا الا ان نتأمل عنصرين ، يشتركان في تأدية اللغة لوظيفتها : وهما الافكار والاصوات .  
إن تفكيرنا من الناحية السايكولوجية - اذا اغفلنا التعبير عنه بالكلمات - ما هو الا كتلة غير متميزة لا شكل لها . وقد اتفق الفلاسفة وعلماء اللغة دائماً على انه لولا الاشارات لما استطعنا ان نميز تمييزاً واضحاً ، ثابتاً بين فكرتين . فلولا اللغة أصبحت الفكرة شيئاً مبهماً ، غير واضح المعالم . اذاً لا توجد افكار يسبق اللغة وجودها ، ولا تتميز هذه الافكار قبل ظهور اللغة .

وإذا قارنا مملكة الفكر العائمة بالاصوات ، فهل لهذه الاصوات ، بذاتها ، كيانات محددة سلفاً؟ كلا . فالاصوات كالأفكار في هذه الناحية . ان المادة الصوتية ليست أكثر ثبوتاً ولا أشد تحديداً من الفكر : وهي ليست قالباً يصب فيه الفكر بالضرورة : بل هي مادة مرنة تنقسم في كل حالة الى أجزاء متميزة لتوفر الدوال Signifiers التي يحتاج اليها الفكر . وبذلك يمكن ان نتصور الحقيقة اللغوية في مجملها - أي اللغة على انها سلسلة من التقسيمات المتجاورة التي حُددت على مستويين - المستوى غير المحدد للأفكار المقدسة (A) ومستوى الاصوات (B) الذي لا يقل عن الاول ابهاماً . ان الصورة الآتية ، توضح لنا هذه الفكرة بصورة عامة :



ان الدور المميز للغة بالنسبة للفكر ليس وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الافكار ، بل القيام بوظيفة حلقة الوصل بين الفكر والصوت ، في ظروف تؤدي بالضرورة الى التمييز المتبادل لوحدات الفكر والصوت . فالفكر الذي هو بطبيعته غير منتظم ، يتخذ نظاما معيناً في اثناء عملية تحليله . ولا تتخذ الافكار شكلا ماديا ، كما ان الاصوات لا تتحول الى كيانات عقلية : والحقيقة الغامضة هي ان «الفكر - الصوت» ينطوي على التقسيم ، وان اللغة تصوغ وحداتها في اثناء اتخاذها شكلا معيناً بين كتلتين لا شكل لهما .

تصور الهواء عند ملامسته سطح الماء : فاذا تغير الضغط الجوي ، تموج سطح الماء الى سلسلة من الاقسام ، او الامواج : وهذه الامواج تشبه الربط بين الفكر ومادة الصوت .

ويمكن وصف اللغة بأنها ميدان النطق ، تستخدم فيه الكلمة طبقا للتعريف الوارد في الصفحات الاولى من هذا الكتاب . فكل عنصر لغوي هو عضوا او نطق articulus ثبتت فيه فكرة في صوت ويصبح الصوت علامة للفكرة .

كما يمكن تشبيه اللغة بورقة : وجهها الفكرة وظهرها الصوت : لا يستطيع المرء ان يقطع الوجه من دون ان يقطع الظهر في الوقت ذاته . وكذلك في اللغة لا يستطيع المرء فصل الصوت عن الفكر كما لا يستطيع فصل الفكر عن الصوت .

ولا يمكن تحقيق هذا الفصل الا عن طريق التجريد ، فتكون النتيجة لا شيء سوى علم النفس او النظام الصوتي . فميدان علم اللغة ، اذن . منطقة حدود ترتبط فيها عناصر الصوت والفكر: وينتج عن ارتباطهما شكل ، وليس مادة .

ان هذه الآراء توضح بصورة افضل ما قيل سابقا (الجزء الاول، الفصل الاول) عن اعتبارية الاشارات . فالمسألة لا تقتصر على ان الميدانين اللذين تربط بينهما الحقيقة اللغوية لا شكل لهما ، بل اختيار شريحة صوتية معينة للتعبير عن فكرة معينة عملية اعتبارية محضة . ولولم يكن هذا صحيحا لقلت اهمية فكرة القيمة ، لانها ستضم عنصرا فرض عليها من الخارج . بيد ان القيمة تبقى دائما نسبية ، ولذلك تكون العلاقة بين الصوت والفكرة اعتبارية بصورة جذرية .

وتفسر الطبيعة الاعتبارية للاشارة بدورها قدرة الحقيقة الاجتماعية ، وحدها ، على خلق النظام اللغوي . فالمجتمع ضروري لوضع قيم يعتمد وجودها بصورة كلية على استعمالها وقبولها من قبل الجمهور . ان الفرد وحده لا يستطيع وضع قيمة لغوية واحدة . وفكرة القيمة ، تبين ان عدّها عنصراً ما يتألف فقط من الربط بين صوت معين وفكرة معينة - طبقا للتعريف السابق - شيء مضلل . فاستخدام هذا الاسلوب من التعريف بعزل العنصر عن النظام الذي ينتمي اليه : وهذا ينطوي على الزعم بأن المرء يستطيع ان يبدأ بالعناصر ويبنى منها النظام عن طريق الجمع بين هذه العناصر . في حين ان العكس

هو الصحيح ، اذ ينبغي للمرء ان يبدأ من الكل المترابط الاجزاء ، ويتوصل الى عناصره عن طريق التحليل .

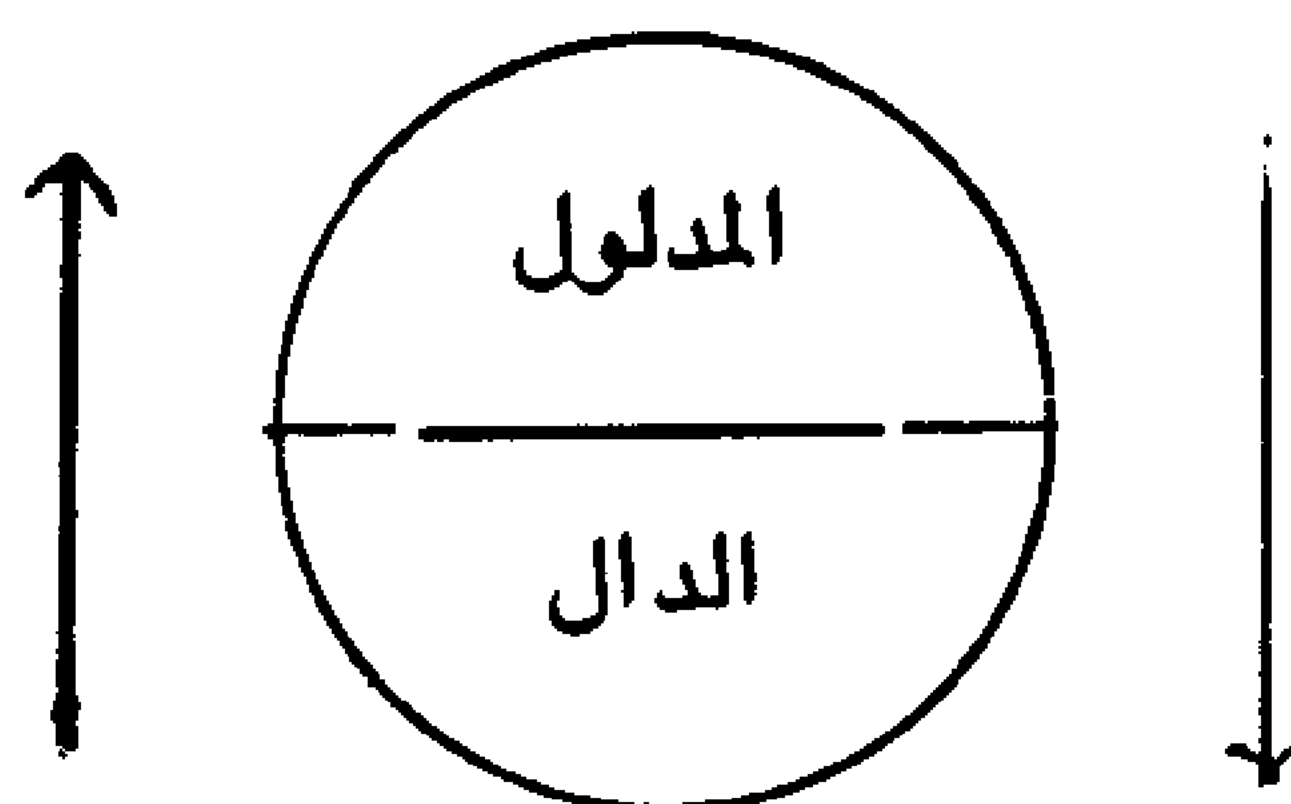
وسنطور هذا الرأي عن طريق دراسة القيمة بصورة تدريجية عن وجهة نظر المدلول او الفكرة (الفقرة ٢) ، والدال (الفقرة ٣) والاشارة الكاملة (الفقرة ٤) .  
وسنستخدم الكلمات لاننا غير قادرين على الحصول على الكيانات او الوحدات الملموسة للغة بصورة مباشرة . حقا ان الكلمة لا تطابق بدقة تعريف الوحدة اللغوية (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل الثاني) ، فهي مع ذلك قريبة الشبه بالوحدة ، وتمتاز بأنها شيء ملموس . لذا سنستعمل الكلمات بوصفها نماذج موازية للعناصر الحقيقية في نظام تزامني ، والمبادئ التي نتوصل اليها بالنسبة للكلمات تصح بالنسبة للكيانات بصورة عامة .

## ٢ - القيمة اللغوية من وجهة نظر فكرية

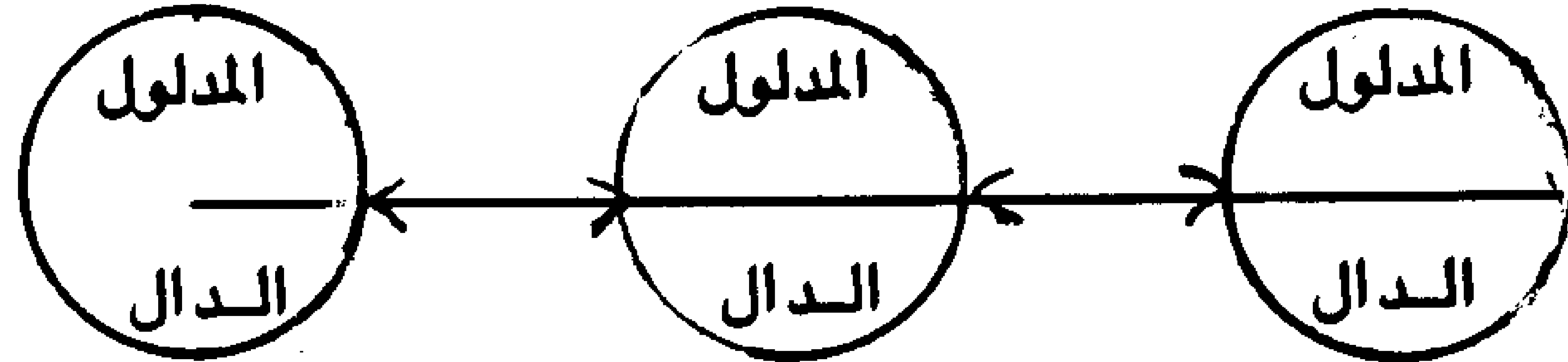
عندما نتحدث عن قيمة كلمة ما ، نفكر أولاً بالصفة التي تجعل الكلمة تمثل فكرة ، وهذا في الحقيقة جانب من القيمة اللغوية . ولكن إذا كان ذلك صحيحاً ، فكيف تختلف القيمة عن الدلالة signification ؟ هل ان اللفظتين مترادفتان ؟ لا أعتقد ذلك ، مع انه من السهولة الخلط بينهما ، طالما ان الالتباس لا يأتي في المقام الاول ، من التشابه بل من التمييز الدقيق الذي يفصل بينهما .

إن القيمة ، من وجهة النظر الفكرية ، ليست سوى عنصر واحد من عناصر الدلالة ، ومن الصعب أن نزع ان الدلالة تعتمد على القيمة ومع ذلك تتميز عنها . وعلى كل حال علينا أن نوضح المسألة وإلا جعلنا من اللغة عملية تسمية الأشياء حسب .  
(لاحظ الجزء الاول ، الفصل الاول) .

لنأخذ الدلالة أولاً بمعناها السائد ، وكما صورناها في الجزء الاول ، الفصل الاول ، يبين السهمان في الصورة أن الدلالة ليست سوى الجانب المقابل للصورة الصوتية . فكل ما يحدث يتعلق فقط بالصورة الصوتية والفكرة حين ننظر الى الكلمة على انها مستقلة قائمة بذاتها .



ولكن هذه حقيقة غريبة : فالفكرة من جهة الجانب المقابل للصورة الصوتية، ومن جهة أخرى تكون الإشارة بدورها الجانب المقابل للإشارات الأخرى في اللغة. إن اللغة نظام من العناصر المعتمد بعضها على بعض، تنتج قيمة كل عنصر من وجود العناصر الأخرى في وقت واحد، كما تبين لنا الصورة الآتية :



كيف يمكن إذن أن يحصل الالتباس بين القيمة والدلالة : أي الجانب المقابل للصورة الصوتية؟ يبدو أنه من الصعب أن نشبه العلاقات التي يعبر عنها السهمان الأفقيان بالعلاقات التي يعبر عنها السهمان العموديان : وبعبارة أخرى، إذا أخذنا مثال الورقة الذي يحاول المرء أن يقطعها إلى قسمين، فمن الواضح أن العلاقة المرئية بين القطع المختلفة A, B, C, D إلى آخره تختلف عن العلاقة بين وجه الورقة وظهرها كما في A/A', B/B' إلى آخره.

من أجل حسم هذه المسألة، نقول في بداية الأمر أن جميع القيم - حتى إذا كانت خارج اللغة - تخضع، على ما يبدو لمبدأ واحد، يظهر وكأنه ينطوي على تناقض. فهذه القيم تتكون دائماً من :

(١) شيء مختلف يمكن إستبداله بالشيء الذي نريد تحديد قيمته.

(٢) شيء مشابه يمكن مقارنته بالشيء الذي نريد تحديد قيمته.

إن كلا العاملين ضروري لوجود القيمة. فإذا أردنا تحديد قيمة قطعة ذات خمسة فرنكات فعلينا أن نعرف : (١) أن باستطاعتنا استبدالها بكمية ثابتة من شيء مختلف عنها كالخبز مثلاً، (٢) أن باستطاعتنا مقارنتها بقيمة مشابهة في النظام نفسه، كقطعة ذات الفرنك الواحد أو بقطعة نقود من نظام آخر (كالدولار أو غيره). وبهذا المفهوم يمكن أن نستبدل الكلمة بشيء مختلف كالفكرة : كما نستطيع أن نقارنها بشيء له طبيعة هذه الكلمة، أي نقارنها بكلمة أخرى. إذن فقيمة الكلمة لا تحدد بمجرد القول بأن الكلمة يمكن «إستبدالها» بفكرة معينة : أي أن لها هذه الدلالة أو تلك : بل ينبغي مقارنتها بقيم مشابهة، أي بكلمات أخرى تتقابل معها. فمحتوى الكلمة يحدد فقط بمجموع الأشياء التي تقع خارجها. ولما كانت الكلمة جزءاً من نظام، فهي لا تملك الدلالة حسب، بل لها

أيضا قيمة، فالقيمة والدلالة شيئان مختلفان.

ويمكن أن نبين صحة هذا القول بضرب بعض الأمثلة. ان اللفظة الفرنسية الحديثة mouton «غنم» يمكن أن تكون لها نفس الدلالة التي للكلمة الانكليزية sheep ولكن لا يمكن أن تكون لها نفس القيمة، لأسباب كثيرة، أهمها ان الانكليزية تستخدم mutton وليس sheep عند الكلام عن قطعة لحم جاهزة على مائدة الطعام. فالفرق في القيمة بين sheep و mouton يرجع الى ان sheep في الانكليزية لها لفظة أخرى تستعمل معها وهي mutton : في حين ليس للكلمة الفرنسية كلمة أخرى.^(٢٥)

إن الكلمات التي تعرب عن أفكار متقاربة في اللغة الواحدة يحدّد بعضها البعض. فالمرادفات مثل الكلمات الفرنسية redouter (يرعب)، craindre (يخاف)، avoir peur (يشعر بالخوف) تستمد قيمتها من التقابل فيما بينها. فلولم تكن كلمة redouter موجودة لتوزع محتواها على اللفظتين المنافستين فيما سبق. وعلى العكس من ذلك يزيد معنى بعض الكلمات غنى عن طريق اتصاله بغيره: مثال ذلك العنصر الجديد في (unvieillard décrépité) عجوز هرم) ناتجة من وجودها في آن واحد مع (un murd.) = حائط متداع). إذن فقيمة كل عنصر تتحدد طبقاً لمحيطه environment إذ يصعب تحديد قيمة حتى الكلمة التي تدل على «الشمس» من دون أن نرجع أولاً الى ما يحيط بها. ففي بعض اللغات لا يمكن القول «أجلس في الشمس».

إن ما قلناه عن الكلمات ينطبق على العناصر الأخرى في اللغة، كالكائنات النحوية مثلاً. فقيمة صيغة الجمع في الفرنسية لا تطابق قيمة الجمع في السانسكريتية، من ان دلالة الجمع في اللغتين واحدة عادة. ففي السانسكريتية ثلاث صيغ تدل على العدد (المفرد والمثنى والجمع) بدلاً من الصيغتين في الفرنسية (المفرد والجمع). إذن من الخطأ أن ننسب قيمة واحدة الى الجمع في السانسكريتية والفرنسية لأن قيمة الجمع تعتمد على العوامل الخارجية والمحيط بهذه الصيغة.

(٢٥) يمكن توضيح هذه المسألة كالاتي :

الفرنسية	الانكليزية	العربية
mouton	sheep	غنم
		mutton

ففي الانكليزية تتقابل sheep مع mutton ، في حين ليس مثل هذا التقابل في الفرنسية ، والعربية وهذا سبب الاختلاف في القيمة للكلمة الفرنسية والانكليزية . (المترجم) .

لو كانت الكلمات تمثل أفكاراً حول وجودها سلفاً، لكانت جميعاً تعبر عن معانٍ واحدة في اللغات المختلفة. ولكن هذا غير صحيح. فالفرنسية تستخدم كلمة واحدة (louer (une maison) للدلالة على معنى يؤجر ويستأجر في حين تستخدم الألمانية كلمتين mieten وvermieten. فمن الواضح عدم وجود تطابق في القيمة بين الكلمة الفرنسية والألمانية. ان الفعلين الألمانيين schätzen وurteilen يشتركان في عدد من الدلالات، مع الكلمتين الفرنسييتين estimer وjuger ولكنهما يختلفان عنهما في نقاط كثيرة.

ومن الأمثلة البارزة على مسألة القيمة الاعراب inflection. فتتميز الصيغ حسب الزمن وهو أمر مألوف عندنا، لا وجود له في بعض اللغات، فالعبرية لا تميز حتى بين الأزمنة الأساسية وهي الماضي والمضارع والمستقبل. والألمانية الأولى ليس لها صيغة خاصة للمستقبل: والقول بأن المستقبل يعرب عنه باستخدام صيغة المضارع غير صحيح، لأن صيغة المضارع ليست واحدة في الألمانية وفي اللغات التي تملك صيغة للمستقبل إلى جانب صيغة المضارع. واللغات السلافية تميز بين صيغتين للفعل: صيغة الماضي وتمثل اكتمال الحدث في نقطة زمنية معينة، وصيغة المضارع، وتمثل استمرار الحدث على خط الزمن. ان هاتين الصيغتين يصعب على الفرنسي فهمهما لأنهما لا توجدان في الفرنسية. فلو كانتا محددين سلفاً، لما وجد الفرنسي (أو غيره) صعوبة في فهم هذه الفكرة. ان ما نجده في جميع هذه الأمثلة ليس أفكاراً محددة سلفاً، بل قيماً تستمد وجودها من النظام. وإذا قيل ان هذه القيم تطابق الأفكار فالمقصود ان الأفكار إنما هي تفاضلية differential يحدد معناها ليس بمداهما الايجابي بل يحدد سلبياً عن طريق علاقاتها بغيرها من العناصر في ذلك النظام. ان أدق ميزة فيها انها تختلف عن غيرها. وهكذا يصبح التفسير الحقيقي للصورة واضحاً.



فالرسم السابق يعني ان الفكرة «يحكم» في الفرنسية مرتبطة بالصورة الصوتية juger: بايجاز فهي ترمز الى الدلالة. ولكن من الواضح ان الفكرة في أول الأمر لا تعني شيئاً، أي انها قيمة لا تحددها إلا علاقاتها بالقيم المشابهة الأخرى، وبدون هذه القيم لا وجود للدلالة. فإذا قلت ان كلمة ما تدل على شيء ما حين أقصد بذلك الارتباط بين الصورة الصوتية والفكرة، فإنما أعبر عن قول قد يوحي بما حدث فعلاً، ولكنني لا أعبر عن الحقيقة اللغوية في جوهرها، تعبيراً كاملاً.

### ٣ - القيمة اللغوية من وجهة النظر المادية

يتكون الجانب الفكري للقيمة من العلاقات والفروق بينها وبين العناصر الأخرى في اللغة حسب، ويمكننا أن نقول الشيء نفسه عن الجانب المادي للقيمة. والمهم في الكلمة ليس الصوت فقط بل الفروق الصوتية التي تساعد على تمييزه هذه الكلمة عن غيرها من الكلمات، لأن الفروق لها دلالة.

وقد يبدو هذا غريباً؟ ولكن كيف يصح عكسه؟

فأية صورة صوتية ليست أفضل من غيرها للتعبير عما كرست له، لذا فمن الواضح - بل من الواضح سلفاً - أن أي جزء من اللغة لا يمكن في أساسه أن يعتمد على أية فكرة سوى عدم التطابق بينه وبين غيره. فالاعتباطية والتفاضل هما صفتان متلازمتان.

إن تغيير الاشارات اللغوية يوضح هذه المسألة. فالعنصران a و b غير قادرين في جوهرهما بلوغ مستوى الشعور - لأن المرء يشعر دائماً بالفرق بين a/b فقط - لذا فكل عنصر منهما له حرية التغيير حسب القوانين التي لا تمت بصلة الى وظيفة الدلالة للعنصر. وفي اللغة الجيكية لا توجد إشارة خاصة تميز صيغة الجمع المجرور zen (لاحظ الجزء الأول، الفصل الثالث، الفقرة ٣) ومع ذلك تقوم الصيغتان zena = zen بوظيفتهما بأسلوب لا يقل جودة عن أسلوب الصيغتين القديمتين zenb, zena أن قيمة zen في كونها مختلفة ليس إلا.

وهذا مثال آخر يبين بصورة أوضح الدور المنتظم للفروق الصوتية: ففي الأغريقية تدل لفظة éphên على الصيغة غير المكتملة وصيغة estên على الماضي البسيط مع أن اللفظتين قد صيغتا بأسلوب واحد: فالأولى تعود الى نظام المضارع الخبري لللفظة phêmi (أقول) في حين لا توجد صيغة مضارع. ان العلاقة بين éphên و phêmi هي التي تدل على العلاقة بين المضارع وغير المكتمل (لاحظ edèiknun و dèiknūmi وغيرهما). فالاشارات إذن تقوم بوظيفتها - ليس بفضل قيمتها الموروثة فيها، بل بفضل موقعها النسبي.

ثم إن الصوت وهو عنصر مادي لا يمكن أن يعود الى اللغة. فهو شيء ثانوي، مادة يمكن استخدامها. وجميع قيمنا التقليدية تتميز بأنها تختلف عن العنصر الملموس الذي يدعمها. فعلى سبيل المثال ان قيمة العملة المعدنية ليست بالمعدن الذي تحتوي عليه العملة. فالقطعة المعدنية التي تساوي خمسة فرنكات قد تحتوي من معدن الفضة أقل من نصف قيمتها. حيث ان قيمتها تختلف طبقاً للرقم المكتوب عليها واستعمالها داخل حدود سياسية معينة أو خارجها. ويصح هذا بدرجة أكبر في الدال اللغوي، فهو لا يتكون من مادة صوتية ولا يتكون من أية مادة بل من الفروق التي تميز الصورة الصوتية لهذا الدال عن غيره.

إن هذا المبدأ أساسي جداً وينطبق على جميع العناصر المادية للغة، بما في ذلك الفونيمات. فجميع اللغات تصوغ كلماتها على أساس نظام من العناصر الصوتية، يكون كل عنصر فيه وحدة محددة تحديداً، وهي جزء من عدد ثابت من الوحدات في ذلك النظام. فالفونيمات لا تتميز - كما قد يعتقد المرء - بصفتها الايجابية الخاصة بها، بل بسبب انها متميزة فقط. ان الفونيمات هي قبل كل شيء كيانات تقابلية سلبية نسبية.

والبرهان على ذلك الحرية التي يتمتع بها المتكلم في نقاط الالتقاء ف النطق بالاصوات المتميزة . فالاستخدام العام في الفرنسية لنوع من صوت r ظهري لا يمنع بعض المتكلمين من استعمال صوت r رفيع في نهاية اللسان . فهذا لا يحدث اي ارباك في اللغة : ان كل ما تحتاج اليه اللغة ان يكون الصوت مختلفا ، وليس - كما قد يعتقد البعض - ان تكون له صفة ثابتة . بل انني استطيع ان الفظ الصوت r الفرنسي كالصوت الالماني ch في كلمة Bach و doch وغيرهما ، ولكنني لا استطيع في الالمانية ان استعمل r بدلا من ch ، لان الالمانية تضم كلا الصوتين وعليها ان تميز بينهما . والمتكلم في الروسية لا يملك حرية التصرف في لفظ الصوت t باتجاه t (وهو صوت حلقي) اذ ان ذلك يؤدي الى الخلط بين صوتين تميز بينهما الروسية (لاحظ govorit «تكلم» و goverit «هو، يتكلم» ولكن للمتكلم حرية النطق بالصوت Th (صوت t تنفسي) طالما ان هذا الصوت لا وجود له في نظام الفونيمات في اللغة الروسية .

ويلاحظ مثل هذه الحالة في الكتابة ، وهي نظام اخر من الاشارات ، لذا سنستخدم الكتابة للتعبير عن بعض المقارانات التي توضح هذه المسألة بأجمعها .

(١) الاشارات المستخدمة في الكتابة اعتباطية : اذ لا توجد صلة بين الحرف t على سبيل المثال والصوت الذي يعبر عنه هذا الحرف .

(٢) قيمة الحروف سلبية تفاضلية فحسب . اذ يستطيع الشخص نفسه ان يكتب الحرف بطرق مختلفة .

فالشرط الوحيد هنا هو ان الاشارة t ينبغي ان لا تخط عند كتابتها بالاشارات L و d الى آخره .

(٣) القيم في الكتابة لا تقوم بعملها الا من خلال التقابل المتبادل ضمن نظام ثابت يتألف من عدد ثابت من الحروف . ان الخاصية الثالثة هذه مع انها تتميز عن الخاصية الثانية ، فهي ترتبط بها لان الاثنتين تعتمدان على الخاصية الاولى . ولما كانت الاشارة الكتابية اعتباطية فلا اهمية لشكلها او ان اهمية الشكل تنحصر ضمن الحدود التي يفرضها النظام .

(٤) الوسيلة التي تخلق الاشارة لا اهمية لها ، لانها لا تؤثر في النظام (وهذا ايضا نتيجة للخاصية الاولى) . فسواء اكتب الحروف باللون الابيض أم الاسود أم بصورة بارزة أم محفورة أم بالقلم أم بالازميل لا اهمية له بالنسبة لدلالة الحرف .



#### ٤ - نظرة شاملة الى الاشارة باجمعها

يمكن ان نوجز جميع ماقلناه حتى الان بما يأتي : لاتوجد في اللغة سوى الفروق .  
والاهم من ذلك : ان الفرق ينطوي عادة على عناصر ايجابية يظهر بينها الفرق : اما في  
اللغة فلا يوجد سوى الفروق أي العناصر السلبية دون العناصر الايجابية . وسواء  
اخذنا المدلول او الدال فإن اللغة لاتملك افكاراً ولا اصواتاً لها وجود قبل النظام ، وكل ما  
تملكه هو الفروق الفكرية والصوتية التي نبعت من النظام . فالفكرة او المادة الصوتية  
التي تحتوي عليها الاشارة اقل اهمية من الاشارات الاخرى المحيطة بهذه الاشارة .  
والدليل على ذلك ان قيمة عنصر ما قد تتغير من دون ان يتأثر معناها او صوتها ، ويقتصر  
سبب ذلك على تغيير عنصر مجاور (انظر الفقرة الثانية من هذا الفصل) .

ولكن القول بأن كل شيء في اللغة سلبي انما يصح اذا اخذنا بنظر الاعتبار المدلول  
والدال بصورة منفصلة . اما اذا نظرنا الى الاشارة بأكملها ، وجدنا شيئاً ايجابياً في  
الصنف الذي تنتمي اليه . والنظام اللغوي هو سلسلة من الفروق الصوتية ترتبط  
بسلسلة من الفروق في الافكار : ولكن الربط بين عدد من الاشارات الصوتية السمعية  
وعدد مشابه من قطع مستمدة من كتلة الفكر يؤدي الى نظام من القيم : وهذا النظام  
يربط بين العناصر الصوتية والسايكولوجية في كل اشارة . ومع ان المدلول والدال كليهما  
تفاضلي وسلبي اذا نظرنا اليهما بصورة منفصلة ، فارتباطهما حقيقة ايجابية ، بل هي  
الحقيقة الايجابية الوحيدة التي تملكها اللغة لان الحفاظ على التوازي بين هذين الصنفين  
من الفروق انما هو الوظيفة المميزة للنظام اللغوي .

ان بعض الحقائق الدايكرونية نموذجية بالنسبة لهذه المسألة . لنأخذ الامثلة  
الكثيرة التي يؤدي فيها تغيير الدال الى تغيير في الفكرة وحيث المجموع الكلي للافكار  
المتميزة يساوي من حيث المبدأ المجموع الكلي للاشارات المتميزة . فأذا حصل مزج بين  
كلمتين بسبب التغيير الصوتي (كما في الكلمة الفرنسية decrepit المشتقة من decrepitus ،  
وكلمة decrepi المشتقة من crispus) فكثيراً ما يحصل الشيء نفسه في الفكرتين اللتين تعبر  
عنهما الكلمتان ، اذا كان بين الفكرتين صلة . او قد يكون للكلمة الواحدة اشكال مختلفة  
(لاحظ chaise كرسي و chaire منضدة) . فأذا ظهر فرق ما فإنه يصبح ، لاشك ، ذا دلالة ،  
مع انه قد لاينجح في ذلك من المحاولة الاولى . وعلى العكس من ذلك ، فأذا أدرك العقل  
فرقاً فكرياً ، فإن هذا الفرق يحاول أن يجد التعبير عن نفسه باستخدام دال متميز ، اما  
الفكرتان اللتان لم يعد لهما وجود متميز في العقل فأنهما يجنحان نحو الامتزاج في دال

واحد واذا قارنا الاشارات - العناصر الايجابية - بعضها ببعض لم يعد بمقدورنا  
الحديث عن الفروق : لان مثل هذه العبارة غير مناسبة ، لانها لاتصح الا على مقارنة  
صورتين صوتيتين كما في الاب والام او فكرتين كما في فكرة «الاب» وفكرة «الام» . واذا

اخذنا اشارتين من الاشارات لكل منهما دال ومدلول فانهما ليستا مختلفتين بل متميزتين . ولا يوجد بينهما سوى التقابل opposition . فالنظام اللغوي باجمعه ، الذي سنتناوله فيما بعد ، يعتمد على مثل هذا التقابل وعلى الفروق الفكرية والصوتية التي ينطوي عليها التقابل .

ان الذي ينطبق على القيمة ينطبق على الوحدة اللغوية ايضا (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل الثالث) . فالوحدة هي جزء من السلسلة المنطوق بها التي توازي فكرة معينة . فكلتاها تعتمد على طبيعة تفاضلية بحتة .

ومبدأ التفاضل ، اذا طبق على الوحدات ، يمكن التعبير عنه كالآتي : ان مميزات الوحدة تمتزج بالوحدة نفسها . ففي اللغة - كما في غيرها من انظمة الاشارات كل ما يميز بين اشارة والاشارات الاخرى يكون الاشارة والفرق ، يصنع الصفة المميزة كما يصنع القيمة والوحدة .

وهذه نتيجة اخرى غريبة بعض الشيء ، مستمدة من المبدأ نفسه : ان الذي يشار اليه «بالحقيقة النحوية» يطابق في جوهره تعريف الوحدة ، لانه يعبر دائما عن التقابل في العناصر ، ولا يختلف الا في ان التقابل له دلالة خاصة (كما في صيغة الجمع الالمانية في *Nachte : Nacht*) فكل عنصر في الحقيقة النحوية (المفرد دون الالة والصوت الاخير e يقابل الجمع بالادغام والصوت الاخير e) يتألف من العلاقة المتبادلة لعدد من التقابلات ضمن النظام . واذا فصلنا بين *Nach* و *Nachte* لم تعد لاية من اللفظتين اهمية . فالتقابل كل شيء . وبعبارة اخرى ان العلاقة التي تتمثل في *Nachte : Nacht* يمكن التعبير عنها بالصيغة الجبرية  $a/b$  وفي هذه الصيغة ليس الحرف *a* والحرف *b* عنصرين بسيطين ، بل نتجا عن مجموعة من العلاقات . فاللغة بمفهوم معين ما هي الا نوع من الصيغة الجبرية المؤلفة من العناصر المركبة فقط . وبعض انواع هذا التقابل اكثر دلالة من غيرها . ولكن الوحدات والحقائق النحوية انما هي اسماء مختلفة للتعبير عن جوانب متنوعة لحقيقة عامة واحدة : وهي الوظيفة التي يقوم بها التقابل اللغوي . ويعبر هذا القول عن حقيقة جوهرية تساعدنا على معالجة مسألة الوحدات بتناول الحقائق النحوية أولاً . فاذا تناولنا تقابلا مثل *Nachte : Nacht* فقد نسأل ما الوحدات التي يضمها هذا التقابل . هل يضم الكلمتين فقط ، ام جميع الكلمات المشابهة لهما ، ام الصوت *a* والصوت *e* ام جميع صيغ المفرد والجمع الى آخر ذلك ؟

لو كانت الاشارات اللغوية مؤلفة من شيء آخر غير الفروق لما خلطنا بين الوحدات والحقائق النحوية . ولكننا لن نجد شيئا بسيطاً في اللغة ، وهي في هذه الصورة ، مهما كان الاسلوب الذي اتبعناه في دراستها . ان نجد دائماً التعادل المعقد مابين العناصر التي تؤثر بعضها ببعض . وبعبارة اخرى اللغة هي شكل وليست مادة (لاحظ الجزء الثاني

الفصل الرابع) . وهذه حقيقة بالغة الأهمية ينبغي تأكيدها لأن جميع الأخطاء في تعابيرنا  
وجميع أساليبنا غير الصحيحة في تسمية الأشياء التي تعود إلى اللغة ، تنبع من التصور  
الاشعوري بأن الظاهرة اللغوية ينبغي أن يكون لها مادة .



## الفصل الخامس

### العلاقات السنتاكية والايحائية

#### ١ - تعريف :

يعتمد كل شيء في الحالة اللغوية على العلاقات . فكيف تعمل هذه العلاقات ؟  
تنقسم العلاقات والفروق بين العناصر اللغوية الى مجموعتين متميزتين ، ينبع من كل منهما صنف معين من القيم . ان التقابل بين الصنفين خير وسيلة لفهم طبيعة كل منهما . فهما يمثان اسلوبين من النشاط العقلي ، لاغنى عنهما لحياة اللغة .  
تكتسب الكلمات ، في الحديث ، علاقات تعتمد من جهة على الطبيعة الخطية للغة لانها ترتبطة بعضها ببعض . وهذه الحقيقة تحول دون النطق بعنصرين في آن واحد (لاحظ الجزء الاول ، الفصل الاول) . ان هذه العناصر مرتبة بصورة متعاقبة في سلسلة الكلام . فالربط الخطي بين العناصر تنتج عنه السنتاكة syntagm^(٣٦) . ويتألف السنتاكة من وحدتين متعاقبتين او اكثر (كما في الالفاظ الفرنسية re — lire = يقرأ ثانية ، و contretous = ضد الجميع ، Laviehumaine الحياة البشرية ، Dieu est bon = الله خير ، s,il fait beau temps, nous sortirans = اذا كان الطقس جميلا خرجنا ، الى غير ذلك) . ويكتسب العنصر قيمته في السنتاكة لانه يتقابل مع كل ما يسبقه او يأتي بعده ، او معهما في آن واحد .

كما تكتسب الكلمات علاقات خارج الحديث - تختلف عن الصنف المذكور آنفاً . فالكلمات التي تشترك في امر ما ترتبط معا في الذاكرة . ويتألف منها مجموعات تتميز بعلاقات متنوعة . فعلى سبيل المثال ، توحى الكلمة الفرنسية enseignement (تعليم) بصورة لاشعورية بعدد كبير من الكلمات (مثل enseigner : يعلم ، renseigner يتعرف على ، او توحى بالالفاظ armenrent = تسليح و changement تعديل ، او education تربية وتعليم ، apprentissage تلمذة الى غير ذلك) . جميع هذه الكلمات ترتبط بعضها ببعض بطريقة ما . ونلاحظ ان الارتباط الذي يتألف خارج الحديث يختلف كثيرا عن ذلك الذي يتكون داخل الحديث . فالارتباطات التي تقع خارج الحديث لا يدعمها التعاقب الخطي . ويكون مكانها في الدماغ : فهي جزء من الذخيرة الداخلية للغة التي يملكها كل متكلم . وتسمى هذه العلاقات بالعلاقات الايحائية .

(٣٦) ان دراسة السنتاكة تختلف عن دراسة النحو syntay فالنحو ما هو إلا اجزاء من دراسة السنتاكة (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل السابع) (بالى) .

ان العلاقات السنتاكية هي علاقات حاضرة : يعتمد على عنصرين او اكثر يقعان في سلسلة حقيقية فعالة . اما العلاقات الايحائية associative فهي تربط بين العناصر بصورة غيابية سلسلة ممنكة تعتمد على الذاكرة .

تشبه الوحدة اللغوية من وجهة النظر الايحائية والسنتاكية جزءاً ثابتاً من بناية ، كالدعامة ترتبط من جهة بالقوس الذي فوقها : فترتيب الوجدتين في الفضاء يوحي بالعلاقة السنتاكية . اما اذا كانت الدعامة اغريقية من نوع دورك ، فهي توحي بشبه عقلي لهذا الطراز مع انماط اخرى من الدعامة (الدعامة الايونية والكورنثية وغيرها) مع ان جميع هذه الدعامات لوجود لها في المكان الذي فيه الدعامة الاولى : فالعلاقة ايحائية .

ان كل صنف من هذين الصنفين من الارتباط يحتاج الى شرح .

## ٢ - العلاقات السنتاكية

تشير الامثلة التي ورد ذكرها آنفاً ، الى ان فكرة السنتاكم لاتصح على الكلمات فقط بل على مجموعة من الكلمات ايضاً ، وكذلك على الوحدات المعقدة مهما كان طولها او نمطها (المركبة منها والمشتقة ، والعبارات الخالية من الافعال والجمل بأكملها) . ولا يكفي ان ننظر الى العلاقة التي تربط بين الاجزاء المختلفة للسنتاكم (مثال ذلك الربط في الفرنسية بين contre = «ضد» و tous «الجميع» في عبارة contre tous ، والربط بين contre و maitre = السيد كما في contremaitre = رئيس المراقبين) . بل ينبغي ان يتذكر المرء العلاقة التي تربط الكل الى اجزائه (مثال ذلك contre tous مقابل contre من جهة و tous من جهة اخرى ، contremaitre مقابل contre و maitre^(٢٧) .

قد يعترض احدهم هنا بقوله ان الجملة هي النمط المثالي للسنتاكم . ولكن الجملة هي جزء من الكلام وليست جزء من اللغة (لاحظ المقدمة ، الفصل الثالث) . الا يعني ذلك ان السنتاكم هو جزء من الكلام ؟ انني لاعتقد ذلك . فالكلام يتميز بحرية تكوين ارتباطات ، اذن ينبغي على المرء ان يتساءل هل ان جميع انواع السنتاكم حرة ام لا ؟ يتضح منذ البداية ان كثيراً من العبارات هي جزء من اللغة . وهذه العبارات ثابتة لا يصيبها أي تغيير نتيجة الاستعمال ، وان كنا نستطيع تشخيص معاني عناصرها (لاحظ العبارتين الفرنسييتين a quoi bon ? = ما فائدة ذلك ؟ : allons donc = هراء) . وينطبق الشيء نفسه ، ولو بدرجة أقل على عبارات مثل prendre la mouche = سريع الغضب ، forcer la main a quelqu'un = اجبر الشخص على : rompre une lance = فتح

(٢٧) قارن هذا بالمثال الانكليزي head و waiter في headwaiter «رئيس الخدم» والمثال العربي رأس ومال في الرأس مال . (المترجم) .

صفحة جديدة ، بل حتى avoir mal = شعربصداع : aforce de (soins) = بقوة . que vous en semble ما رأيك في ؟ pas n'est besoin de لا حاجة الى ... وغيرها . ان هذه العبارات تتميز بأنها تتكون من تراكيب نحوية أومعان خاصة . فهذه العبارات الاصطلاحية لايمكن ارتجالها ، لأنها من صنع التقاليد . كما يجد المرء كلمات ، مع انها قابلة للتحليل ، تتميز ببعض الشذوذ في تركيبها الصرفي الذي يعتمد في وجوده على الاستعمال (لاحظ difficulte «صعوبة» ، الى جانب facilite «سهولة» وغيرهما ، وكذلك mourrai = «ساموت» و dormirai سأنام) .

وثمة براهين اخرى . فالانماط السنتاكية التي تصاغ حسب الصيغ القياسية هي جزء من اللغة وليست جزءاً من الكلام . ولما كانت اللغة لا تحتوي على اي شيء تجريدي ، فإن هذه الانماط لا يكون لها وجود الا اذا جمعت اللغة عددا كافيا من نماذج هذه الانماط . فاذا ظهرت كلمة مثل indecorable في الكلام (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الخامس) ، فإن ظهورها ينطوي على وجود نمط ثابت ، وهذا النمط لا يكون ممكنا الا اذا وجد عدد كاف من الكلمات الشبيهة بها ، التي تعود الى اللغة (imepardonable لايمكن التسامح معه ، intolérable لايمكن تحمله ، infatigable لايشعر بالتعب وغيرها) . وينطبق الشيء نفسه على الجمل والتعابير التي تبني على انماط قياسية . فالعبارتان الفرنسيتان la terre tourne تدور الارض و il — que vous dit ماذا يقول لك ؟ وغيرهما) تطابقان الانماط العامة التي تدعمها في اللغة الذكريات الملموسة .

ولكن ينبغي ان نتذكر أنه لا توجد في السنتاكم حدود واضحة بين حقائق اللغة ، وهي علامات للاستعمال الجماعي ، والحقائق التي تعود الى الكلام وتعتمد على الحرية الفردية . ومن الصعب في عدد كبير من الأمثلة أن نصنف ارتباط الوحدات لان كلا العاملين قد اشترك في تكوينها بنسب غير مقرر .

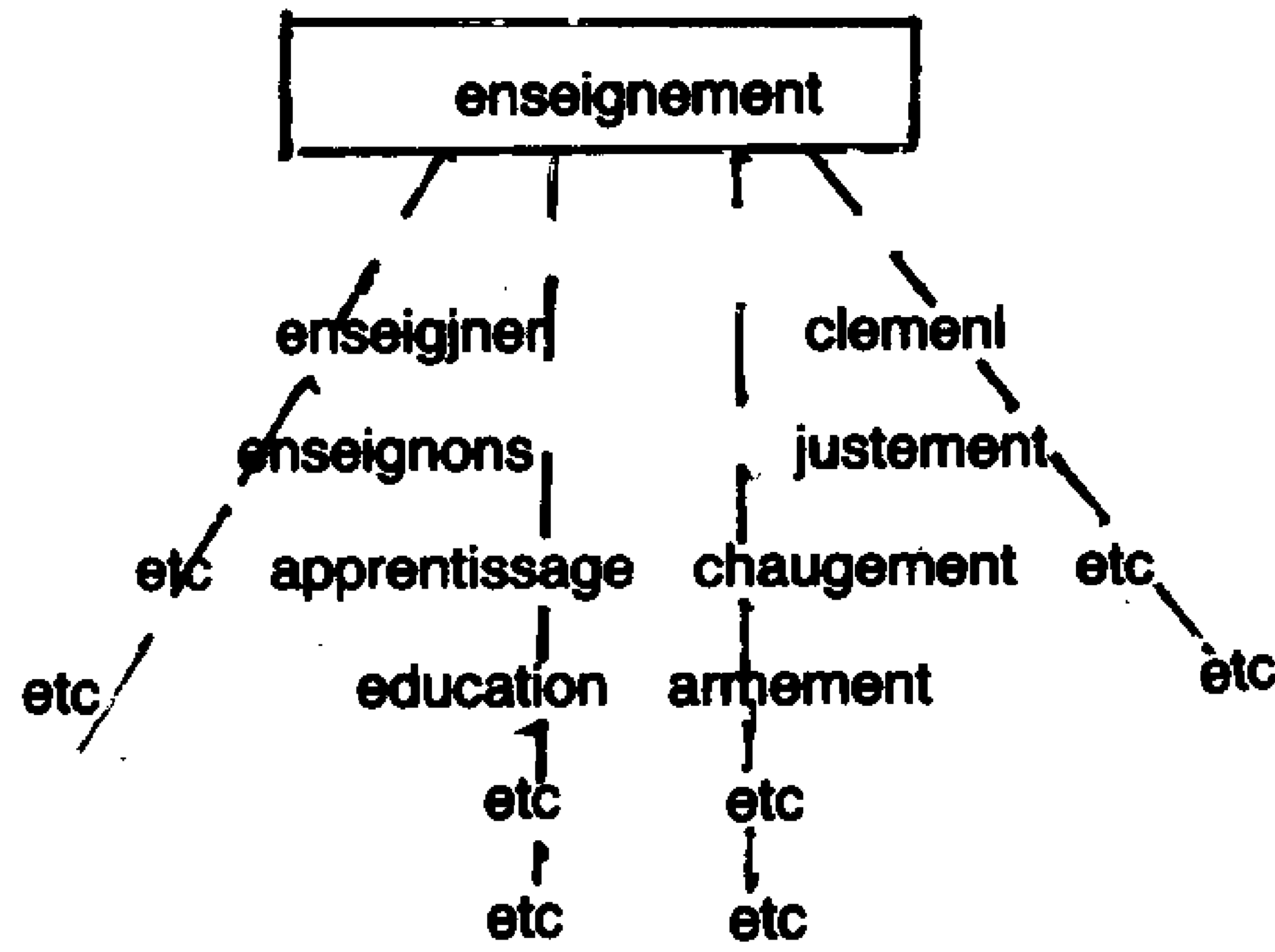
### ٣ - العلاقات الايحائية

ان الارتباطات الفكرية تخلق مجاميع اخرى فضلا عن المجاميع التي تستند الى المقارنة بين العناصر التي تشترك في صفة او اكثر .

فالعقل يدرك طبيعة العلاقات التي تربط بين هذه العناصر ، ثم يخلق عددا من المجاميع الايحائية ؛ يساوي عدد العلاقات المتنوعة الموجودة بين العناصر . مثال ذلك تشترك الكلمات enseignement (تعليم) enseigner (يعلم) و enseignons (نعلم) وغيرها في عنصر واحد هو الاصل . وقد ترد الكلمة نفسها في مجموعة مختلفة تركز على عنصر مشترك اخر ، وهو الحروف الزائدة التي تضاف الى اخر الكلمة (اللاحقة suffix) كما في chongement, arnement, changement وغيرها) ، وقد ينبع الارتباط الايحائي من القياس analogy للفكرة الموجودة في المدلول . education, apprentissage, instruction enseignement .

وغيرها) : وقد يتكون الارتباط من مجرد التشابه في الصور الصوتية (كما في enseignement و justement (على وجه التحديد)^(٢٨) وهكذا نجد في بعض الاحيان تشابهاً ثنائياً في المعنى والشكل ، وفي احيان اخرى تشابهاً في الشكل او المعنى فقط . فالكلمة تستطيع دائماً ان توحى بكل ما يرتبط بها على هذا النحو او على ذاك .

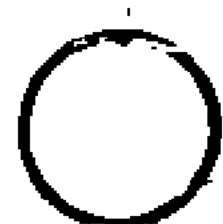
ان السنتاكن يدل دائماً على نظام من التعاقب وعلى عدد ثابت من العناصر ، اما العناصر في المجموعة الايحائية فهي لاتقع في نظام ثابت او عدد ثابت . فاذا ربطنا ايحائياً بين painfil و delightful و frightful وغيرها ، فننا لانستطيع التنبؤ بعدد الكلمات التي توحى بها الذاكرة او النظام الذي تظهر فيه هذه الكلمات . فالكلمة تشبه المركز في مجموعة فلكية : يلتقي فيها عدد غير محدود من العناصر المتشابهة (لاحظ الرسم الآتي)



(٢٨) ان الحالة الاخيرة نادرة ، يمكن ان تصنف ضمن الشواذ لان العقل عادة يرفض الارتباطات التي تؤثر سلباً في فهم الحديث . ولكن وجود الارتباطات يدل عليه صنف من التورية الذي يعتمد على الخلط بين المعاني ، وهو يمكن ان ينبع من تشابه الاصوات كما في العبارة الفرنسية les musiciens produisent les sons et les grainetiers les vendent

= الموسيقاريون يولف الالحان (sons = الحان او نخالة) وتاجر الحبوب يبيعهها . وفي الانكليزية : عبارة شكسبير Not on thy sole, but on thy soul (باسكن) : وفي العربية الى حتفي سعى قدمي ارى قدمي اراق دمي (الترجم) . وهذا يختلف عن الارتباط الايحائي الذي ، مع انه عرضي ، يستند الى مقارنة الافكار (كما في الفرنسية) eryot (مهمان) و eryoter (يجادل) ، وفي الالمانية blau (ازرق) و durchblauen (ضربه ضرباً شديداً) . فالمسألة تتعلق باحد العناصر الذي يكتسب تفسيراً جديداً . كما ان الاعتقاد الشعبي السائد في اصل الكلمة مهم في دراسة تطور المعنى ، ولكنه من الناحية التزامنية يشبه الارتباط الايحائي بين enseigner و enseignement (بالي) .

بيد اننا لانستطيع ان نتحقق الا من اولى الصفتين اللتين تمتاز بها المجموعة وهما النظام غير المحدد والعدد غير المحدد . اما الصفة الثانية فلا تخضع للتجربة . وهذا ما يحدث في الصيغ الاعرابية ، التي تُعدّ نموذجا للمجموعات الايحائية . ومما لاشك فيه ان الكلمات اللاتينية dominus, domini, domino الى آخره هي مجموعة ايحائية تركز حول عنصر مشترك ، وهو الاساس - domin . ولكن المجموعة ليست غير محددة كما هي الحال مع enseignement, chanement الى آخره . اذ إن عدد الحالات محدود . ومقابل ذلك ، ليس للكلمات نظام محدد من التعاقب ، والجمع بينها على نحو أو آخر ، انما هو عمل اعتباطي من جانب النحويين . ان حالة الرفع في عقل المتكلم ليست الحالة الاولى في الاعراب ، والترتيب الذي يتذكر به العقل هذه العناصر يعتمد على الظروف .





## الفصل السادس

### جهاز اللغة

#### ١ - الترابط السنتاكي:

إن الفروق الصوتية والفكرية، التي تُؤلف اللغة تنتج عن نوعين من المقارنات: فالعلاقات، في بعض الأحيان، إيحائية، وهي في أحيان أخرى سنتاكية. والمجموعات في كلا الصنفين تحددها، في أغلب الأحيان، اللغة: إن هذه المجموعة من العلاقات المألوفة تؤلف اللغة وتتحكم في وظيفتها.

وأبرز ما في ترتيب اللغة هو الترابط السنتاكي: إذ تكاد جميع الوحدات اللغوية تعتمد على ما يُحيط بها في السلسلة المنطوقة أو تعتمد على الأجزاء التالية لها.

ويدل على ذلك تكوين الكلمات. فالوحدة painful (مؤلم) مثلاً يمكن تحليلها إلى وحدتين فرعيتين (pain — ful)، ولكن هاتين الوحدتين الفرعيتين ليستا جزأين مستقلين جمع بينهما ارتباطاً (paint + ful) إن الوحدة ناتج نهائي، أو ترابط لعنصرين يعتمد أحدهما على الآخر، ويكتسبان قيمتهما من الفعل المتبادل بينهما في الوحدة العليا (pain × ful)^(٣٩) ولا وجود لللاحقة (— ful) إذا عزلناها عن هذه الوحدة. فهذا الملحق يأخذ مكانه في اللغة بفضل مجموعة من العناصر المألوفة مثل delight — ful, fright — ful وغيرها. كما أن الأصل ليس عنصراً مستقلاً: بل يعتمد وجوده على إرتباطه بالملحق ففي كلمة gos — ling (فرخ الأوز) لا وجود للعنصر gos — دون اللاحقة Ling — ولا قيمة لكل إلا من خلال أجزائه: كما لا قيمة للأجزاء إلا بفضل موقعها في الكل. لذلك لا تقل العلاقة السنتاكية بين الجزء والكل أهمية عن العلاقة بين الأجزاء.

إن هذا المبدأ العام ينطبق على جميع أنواع السنتاكي التي ورد ذكرها آنفاً (انظر الفصل السابق)، لأن الوحدات الكبيرة تتألف دائماً من وحدات أصغر ترتبط بعلاقات متبادلة.

مما لا شك فيه أن اللغة وحدات مستقلة ليس لها علاقات سنتاكية، لا بأجزائها ولا بالوحدات الأخرى. وخير أمثلة على هذه الوحدات المستقلة هي العبارات الشبيهة بالجمل مثل نعم، لا، شكراً، وغيرها. ولكن هذه الحقيقة الاستثنائية لا تؤثر في أهمية المبدأ العام. فنحن عادة لا نتفاهم باستخدام إشارات فردية معزولة، بل باستخدام مجموعات من الإشارات، أو كتل منتظمة، هي في حد ذاتها إشارات. ففي اللغة يمكن إرجاع كل شيء إلى

(٣٩) ويصح الشيء نفسه في الكلمة العربية مدرسون وغيرها. فهذه الكلمة لاتتألف من مدرس + ون، بل مدرس × ون - أي من الفعل المتبادل بين الوحدتين الفرعيتين في الوحدة العليا. (المترجم).

الفروق وكذلك الى المجموعات. ان جهاز اللغة الذي يتألف من التأثير المتبادل بين العناصر المتعاقبة يُشبه عمل محرك تقوم اجزأؤه بوظائفها، معتمداً بعضها على البعض الآخر، مع أن هذه الأجزاء مرتبة في بعد واحد (أي انها على هيئة خط).

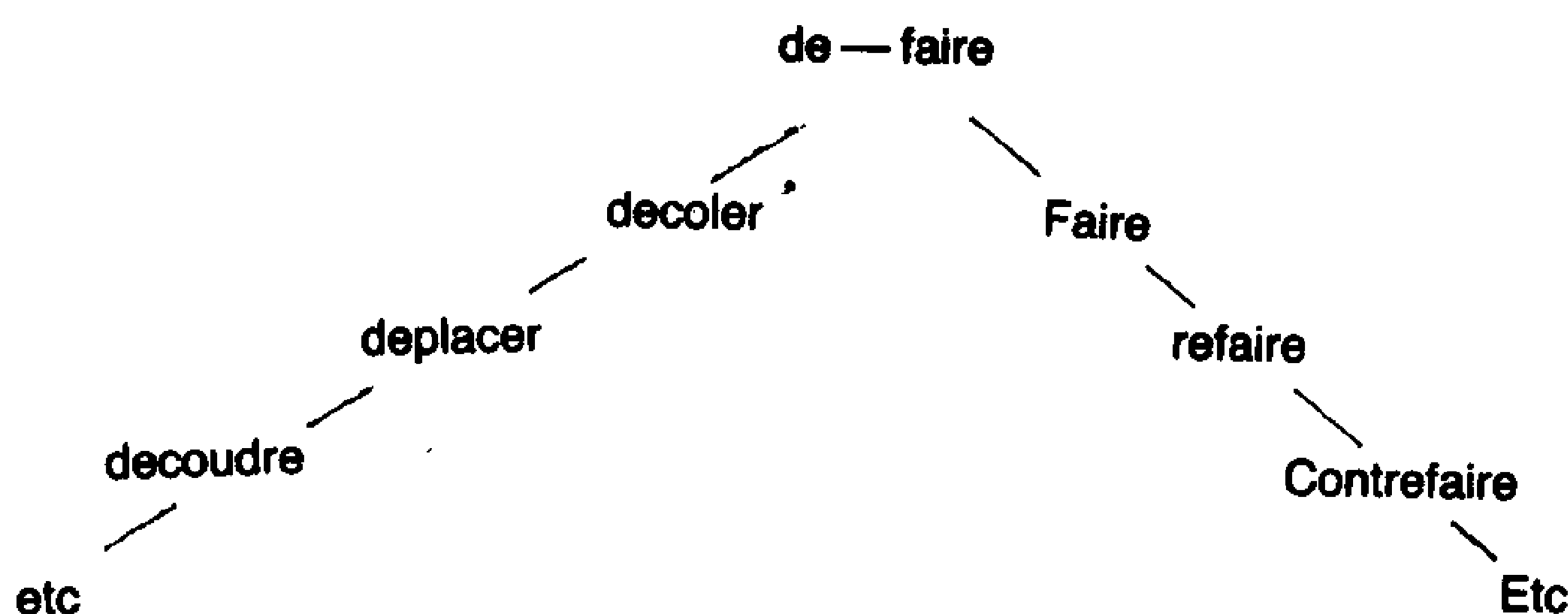
## ٢ - المجموعتان تعملان في آن واحد

ترتبط المجموعات السنتاكية - كما عرفناها - بعلاقات متبادلة: وكيف بعضها بعضاً. بل ان الارتباطات المكانية تساعد على خلق إرتباطات إيحائية، التي هي بدورها ضرورية لتحليل الأجزاء التي يتكون منها السنتاكم.

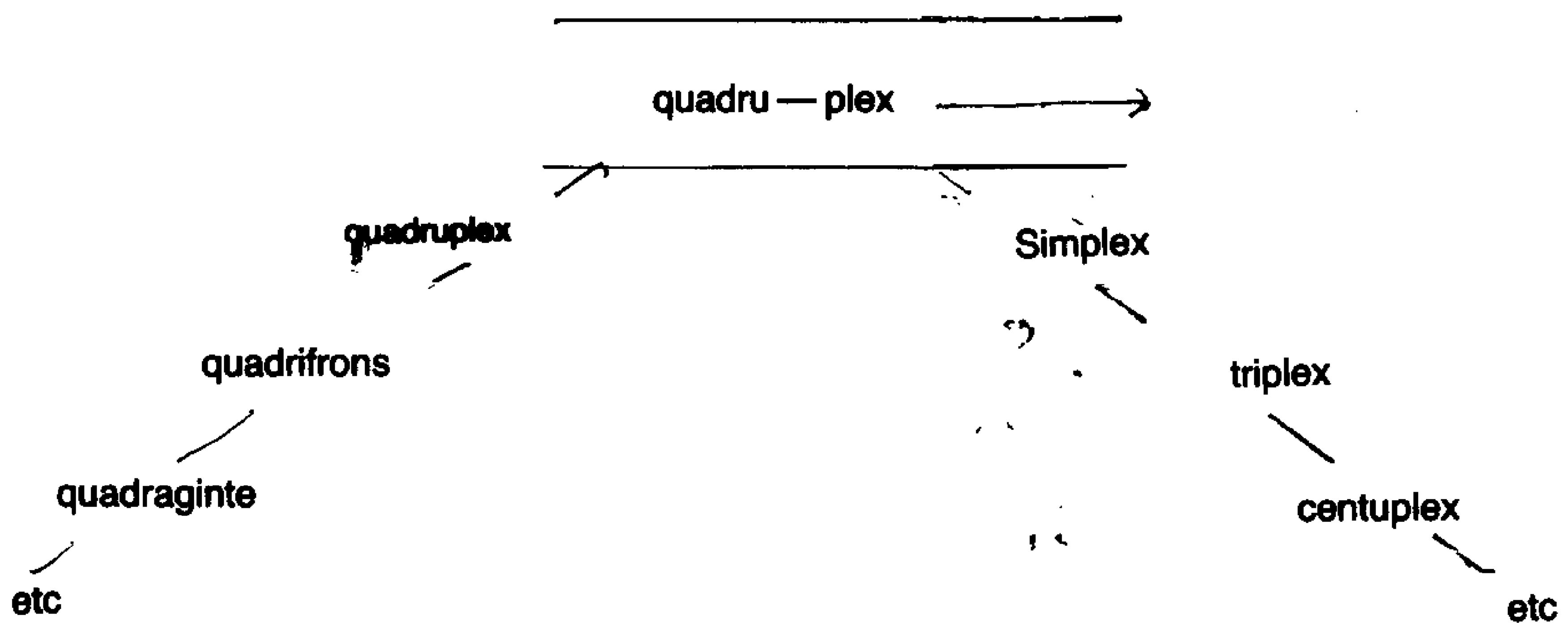
لنأخذ الكلمة الفرنسية المركبة dé — faire «حل، ابطال». ان هذه الكلمة يمكن تشبيهها بشريط أفقي يماثل السلسلة المنطوقة:



وتوجد في الوقت ذاته في محور آخر، وبصورة لا شعورية، مجموعة إيحائية أو أكثر تتألف من وحدات تشترك مع السنتاكم بعنصر واحد:



وينطبق الشيء نفسه على الكلمة اللاتينية quadruplex فهي سنتاكم. والسبب في ذلك انها ترتبط بمجموعتين إيحائيتين:



إذ يمكن تحليل الكلمتين الى وحدات فرعية طبقاً للصيغ التي تطفو حول quadruplex defaire ويمكن التعبير عن ذلك بالقول ان كلاً من الكلمتين هو سنتاكنم. فكلمة défaire لا يمكن تحليلها - على سبيل المثال - لو اختفت الألفاظ الأخرى التي تحتوي على - dé أو faire من اللغة. حيث تصبح هذه الكلمة آنذاك وحدة بسيطة، لا يمكن عقد تقابل بين جزأياها.

إن عمل هذا النظام الثنائي في الحديث واضح. إذ تحتفظ ذاكرتنا بذاكرة احتياطية من جميع الأنماط المعقدة للسنتاكنم، مهما كان صنفها أو طولها، ثم نستعين بالجامع الایحائية لنختار منها حين يحل وقت استعمالها. فعندما يقول الفرنسي marchons! «لنمش» يفكر بصورة لا شعورية عن عدد كبير متنوع من المجموعات الایحائية التي تلتقي في السنتاكنم، إذ يظهر هذا السنتاكنم في المجموعة marchez (امش أو امشوا) .

والتقابل بين marchons والصيغ الأخرى يحدد اختيار المتكلم: فضلاً عن ذلك فالكلمة marchons توحى بالمجموعة montons (لنصعد)، mangons (لنأكل) الى آخره: ويقع الاختيار على الكلمة الأولى بالأسلوب الذي مر ذكره في المثال السابق. ففي كل مجموعة يعلم المتكلم أي عنصر ينبغي تغييره لكي يحصل على التفاضل الذي يناسب الوحدة المطلوبة. فإذا غير المتكلم الفكرة التي يراد التعبير عنها، فانه يحتاج الى أنواع أخرى من التقابل للحصول الى قيمة أخرى: مثال ذلك قد يقول marchez (امش، امشوا) أو ربما montons (لنصعد).

لا يكفي القول - إذا نظرنا الى المسألة نظرة إيجابية - ان المتكلم يختار *marchons* (لنمش) لأن هذه العبارة تدل على ما يؤيد التعبير عنه. ان الفكرة - في الحقيقة - لا توحى بصيغة واحدة بل بنظام كامن بأكمله يساعد على إيجاد التقابل الضروري لتكوين الإشارة. ان الإشارة في حد ذاتها لا دلالة لها. فلولا صيغ مثل *marchez, marche* مقابل *marchons*، لاختفى عدد من التقابلات، وتغيرت قيمة *marchons* للسبب ذاته.

إن هذا المبدأ ينطبق حتى على الأنماط المعقدة جداً للسنتاكام والجمل. فالمتكلم حين يصوغ السؤال *il - que vous dit* ماذا يقول لك؟ يغير أحد عناصر النمط النحوي الكامن، مثال ذلك *il - que dit* ماذا قال لك؟ *il - que nous dit* ماذا يقول لنا؟ الى آخره، حتى يقع اختياره على الضمير *vous* (لك). في هذه العملية، التي تتألف من الغرلة العقلية لكل شيء لا يساعد على الحصول على التفاضل المرغوب في اللحظة المرغوبة، تقوم المجاميع الایحائية والأنماط السنتاكامية بدور فعال.

وعلى العكس من ذلك تتحكم عملية التحديد والاختيار بأصغر الوحدات وحتى العناصر الفونولوجية حيثما اكتسبت قيمة. أنا لا أفكر هنا فقط بحالات موجودة في الفرنسية كلفظة *potit* (صغيرة) (صيغة المؤنث التي تكتب *potite*) التي تقابل *poti* (صغير) (صيغة المذكر التي تكتب *petit*) أو الكلمة اللاتينية *domini* مقابل *dominiv* حيث يعتمد الفرق على الفونيم البسيط، بل أفكر أيضاً بالحقيقة الدقيقة المتميزة التي مفادها ان الفونيم وحده، يقوم بدور فعال في نظام حالة لغوية. مثال ذلك إذا كانت الأصوات *m, p, t* وغيرها لا تقع في نهاية الكلمة الاغريقية، فان ذلك يعني ان وجودها أو غيابها في موقع معين مهم في تركيب الكلمة وفي تركيب الجملة. ان في كل حالة من هذه الحالات يكون اختيار الصوت المفرد وكذلك كل وحدة من الوحدات الأخرى، بعد تقابل ثنائي عقلي. ففي المجموعة الخيالية *anma* على سبيل المثال، يتقابل الصوت *m* في علاقة سنتاكامية مع الأصوات المجاورة له وفي التقابل الایحائي مع جميع الأصوات التي تخطر على البال:

anma

v

d

### ٣ - الاعتباطية النسبية والمطلقة

يمكن توضيح جهاز اللغة من زاوية مهمة أخرى.

إن المبدأ الاساسي لاعتباطية الإشارة لا يمنعنا من تشخيص العنصر الاعتباطي الاساسي في كل لغة: أي الاعتباطي المطلق والعنصر الاعتباطي النسبي. ان بعض الاشارات اعتباطي مطلق ونلاحظ ان بعضها الآخر يتميز بدرجات من الاعتباطية: فقد

تكون الإشارة محفزة motivated نسبياً .

فكلمة vingt (عشرون) الفرنسية غير محفزة وكذلك كلمة dix — neuf (تسعة عشر) ولكن ليس بدرجة واحدة، فكلمة dix — neuf توحى بعناصرها وبالعناصر الأخرى المرتبطة بها (مثال ذلك dix (عشر)، neuf (تسعة) vingt — neuf (تسعة وعشرون)، dix — huit (ثمانية عشر) soixante — dix (سبعون) إلى آخره). فإذا أخذنا كل من dix وneuf بصورة مفردة فانهما من صنف vingt، ولكن dix — neuf مثال للتحفيز النسبي ويصح الشيء نفسه في كلمة poirer (شجرة الكمثرى) التي توحى بكلمة poire (الكمثرى)، كما توحى عن طريق اللاحقة فيها بكلمة cerisier (شجرة الكرز) وبكلمة pommier (شجرة التفاح) وغيرها. أما بالنسبة لكلمة frene (شجرة مرّان) وكلمة chene (بلوط) وغيرهما فالأمر مختلف تماماً. ولنقارن أيضاً كلمة berger (راع) وهي غير محفزة vacher (راعي البقر) محفزة نسبياً ويصح الشيء نفسه في geole (سجن) وdungeon (زنزانة) وhache (فأس) وcouperet (ساطور) وconcierge (فراش) وportier (بواب) وjadis (منذ القديم) وautrefois (سابقاً) وsouvent (غالباً) وfrequemment (كثيراً) aveugle (أعمى) وboiteux (أعرج) وsourde (أطرش) وbossu (أحدب) وsecond (ثانية) وdeuxieme (الثاني) وفي الألمانية Laub والفرنسية feuillage (أوراق الشجر) وفي الفرنسية metier (حرفة) والألمانية Handwerk. وصيغة الجمع الانكليزية ships (سفن) توحى بفضل تركيبها بالمجموعة flage (أعلام) وbirds (طيور) وbooks (كتب) وغيرها.^(٤٠) أما صيغة الجمع men (رجال) فلا توحى بشيء. وفي الاغريقية doso (سأعطي) تحتوي على فكرة الاستقبال التي عبر عنها بإشارة توحى بالعبارة Luso، tupso steso وغيرها. أما eimi (سأذهب) فهي عبارة مفردة معزولة.

ليس هذا بالمكان الذي ينبغي أن نبحث فيه عن القوى التي تكيف التحفيز في كل حالة، ولكن التحفيز يختلف، فهو يتناسب مع سهولة تحليل السنتاكم ووضوح المعنى للوحدات الفرعية الموجودة. ان بعض العناصر المكونة للسنتاكم مثل — ier في كلمة poir — ier تتقابل بسهولة مع ceris — ier وpomm — ier وغيرهما أما بعض العناصر الأخرى فهي غامضة أو لا معنى لها. مثال ذلك، هل ترتبط اللاحقة — ot — بعنصر ذي معنى في الكلمة الفرنسية cachot «زنزانة»؟ وإذا قارن المرء الكلمات coutelas (سيف الملاح) وfatras (كومة) وplatras (قمامة) وcanevas (قماش للرسم) وغيرها لا يتكون عنده سوى شعور غامض بأن — as — هو عنصر يدخل في تكوين الأسماء. وعلى كل حال لا يكون التحفيز، حتى في أحسن الأحوال، مطلقاً لأن العناصر المكونة للإشارة المحفزة ليست محفزة (قارن dix

(٤٠) وفي العربية توحى صيغة الجمع «مدرسون» بمجموعة تشمل على الكلمات «مهندسون»، «معلمون» و«رسامون» وغيرها. (المترجم).

(عشرة) neuf (تسعة) فهما عنصران غير محفزين، يشتركان في تكوين الإشارة المحفزة dix — neuf (تسعة عشر) فضلاً عن أن قيمة الإشارة بأكملها لا تساوي مجموع قيم الأجزاء المكونة لها. فالتركيب مدرس + ون لا يساوي مدرس × ون (لاحظ ما ذكرنا سابقاً).

لقد وضعنا التحفيز بذكر المبادئ التي أوردناها في الفقرة ٢. ففكرة التحفيز النسبي تنطوي على: (١) تحليل لفظة معينة، أي العلاقة السنتاكية، و(٢) الإيحاء بلفظة أخرى أو أكثر، أي العلاقة الإيحائية. وهذه هي الطريقة التي بوساطتها تقوم كل لفظة بوظيفتها للتعبير عن فكرة ما، ليس إلا. لقد ظهرت الوحدات حتى الآن على أنها قيم أي أنها عناصر في نظام معين، وقد نظرنا إلى تقابل هذه العناصر باهتمام. أما الآن فننتعرف على الروابط التي تربط بينها: وهي روابط إيحائية وسنتاكية، كما أنها تحدد الاعتباطية فكلمة dix — neuf ترتبط إيحائياً بكلمة dix — huit وsoixante — dix وغيرهما، كما ترتبط سنتاكياً كما أنها تحدد الاعتباطية. فكلمة dix — neuf ترتبط إيحائياً بكلمة dix — huit (ثمانية عشر) وsoixante — dix (سبعون) وغيرهما كما أنها ترتبط سنتاكياً بالعنصرين dix (عشرة) وneuf (تسعة). أن هذه العلاقة الثنائية تمنح الكلمة جزءاً من قيمتها.

إن كل شيء يرتبط باللغة نظاماً ينبغي، على ما اعتقد، أن يدرس من وجهة نظر تحديد الاعتباطية: وقد أهمل اللغويون وجهة النظر هذه مدة طويلة من الزمن. أن هذه هي خير وسيلة لدراسة اللغة على أنها نظام بل أن النظام اللغوي بأجمعه يستند إلى هذا المبدأ غير المنطقي وهو اعتباطية الإشارة. الذي قد يؤدي إلى تعقيد شديد إذا طبق دون قيد أو شرط، بيد أن العقل يحاول أن يدخل مبدأ الانتظام والقياس في بعض أجزاء كتلة الإشارات، وهذا هو الدور الذي يقوم به التحفيز النسبي. ولو كان جهاز اللغة منطقياً عقلانياً، لاختلف أسلوب دراسته. أن جهاز اللغة هو تصحيح جزئي لنظام تتصف طبيعته بالفوضى لذا فنحن نتبنى وجهة النظر التي تفرضها طبيعة اللغة وتدرسها بوصفها حدود الاعتباطية.

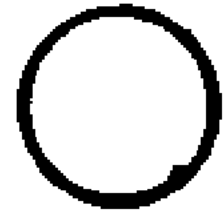
لا توجد لغة من اللغات وكل شيء فيها غير محفز، كما أن تعريفنا لا يسمح لنا أن نتصور لغة من اللغات، وكل شيء فيها محفز، أننا نجد جميع الأصناف الممكنة بين هذين القطبين - الحد الأدنى من الترتيب والحد الأدنى من الاعتباطية - واللغات المختلفة تضم دائماً عناصر من كلا النمطين - الاعتباطية الأساسية والتحفيز النسبي - ولكن بنسب مختلفة جداً. وهذه صفة مهمة قد تساعد على تصنيفها.

ويمكن القول أن اللغات التي تحتوي على أقل درجة من التحفيز هي أكثر معجمية Lexicological واللغات التي تحتوي على أكبر قدر من التحفيز هي نحوية. ولكننا ينبغي أن لا نغالي في هذا الرأي، وأن كان يوضح نوعاً من التقابل. وليس السبب في ذلك أن

«المعجمية» والاعتباطية يكونان جانباً من المعادلة وان النحوية والتحفيز النسبي يكون الجانب الآخر لها. بل لانهما يعتمدان على مبدأ واحد. فالطرفان يشبهان قطبين يتحرك بينهما النظام بأجمعه، فهما تياران متعاكسان يشتركان في حركة اللغة : التيار الذي يجنح نحو استخدام الجهاز المعجمي (الاشارة غير المحفزة) والتيار الذي يفضل إستخدام الجهاز النحوي (قوانين التركيب).

ف نجد مثلاً ان التحفيز له دور أكبر في الألمانية منه في الانكليزية. ولكن أشد الأنماط جنوحاً نحو المعجمية هو اللغة الصينية، في حين تمثل اللغة الهندية - الأوربية الأولى واللغة السانسكريتية أشد نمطين جنوحاً نحو القواعد. فحركة التطور في أية لغة من اللغات يمكن أن تتميز بالانتقال المستمر من التحفيز الى الاعتباطية ومن الاعتباطية الى التحفيز: وغالباً ما يؤدي هذا التآرجح الى تغيير ملموس في النسب التي يتصف بها كل صنف من هذين الصنفين من الاشارات. وهكذا إذا قارنا الفرنسية باللاتينية وجدناها تحتوي على قدر كبير من الاعتباطية. فالكلمة اللاتينية inimicus توحى بالبادئة in - amicus وهما عنصرا التحفيز في هذه الكلمة. أما الكلمة الفرنسية ennemi (عدو) فليس فيها أي عنصر من عناصر التحفيز - إذ انها ارتدت الى الاعتباطية المطلقة التي هي، في الحقيقة، الصفة الأساسية المميزة للاشارة اللغوية. ونلاحظ هذا التغيير في مئات الأمثلة: لاحظ stare) constare) : couter (يكلف)، forge: (faber) fabrica (كور، ورشة حدادة)، (magis) magister maitre (سيد) berger (berbia) berbicanus (راع) وغيرها.

فاللغة الفرنسية مدينة في مظهرها المتميز الى هذه الحقيقة.



## الفصل السابع

### القواعد وأقسامها

#### ١ - تعريفات : الأقسام التقليدية

إن علم اللغة الثابت أو وصف الحالة اللغوية هو القواعد بالمفهوم الدقيق الاعتيادي الذي تستخدم فيه هذه الكلمة في عبارات مثل «قواعد البورصة» وغيرها حيث نقصد بالقواعد شيئاً نظامياً معقداً يتحكم بالعلاقات المتبادلة بين القيم الموجودة في آن واحد .

والقواعد تدرس اللغة على انها نظام وسائل التعبير والشيء القواعدي يعني السنكرونى (التزامنى) الذي له معنى، ولما كان النظام لا يضم فترات كثيرة لم يوجد شيء، إذن، يسمى «القواعد التاريخية» ان المادة التي تطلق عليها هذه التسمية ما هي إلا علم اللغة التأريخي.

إن التعريف الذي قدمته للقواعد يختلف عن التعريف الضيق السائد. فقد جرت العادة ان يطلق على الصرف morphology والنحو syntax بالقواعد grammar، في حين يستثنى من هذه التسمية المعجم Lexicology أو علم الكلمات.

نبدأ بالقول : هل ان هذه التقسيمات تتفق مع الحقائق؟ هل تتفق مع المبادئ التي مر ذكرها قبل قليل؟

إن الصرف يدرس أصنافاً متنوعة من الكلمات (كالأفعال والأسماء والصفات والضمائر وغيرها والتغير الذي يصيب أشكالها. ويفصل اللغويون بين هذا الفرع من الدراسة وبين النحو، فيقولون ان النحو يهدف الى دراسة الوظائف التي ترتبط بالوحدات اللغوية، أما الصرف فيدرس أشكال هذه الوحدات. فالصرف على سبيل المثال يقتصر على القول بأن صيغة المجرور للكلمة الاغريقية phulax (ولي الأمر) هي phulakos، ويوضح النحو استعمال هاتين الصيغتين.

بيد ان هذا التمييز لا يستند الى الحقيقة. فالمجموعة التي تحتوي على صيغ الاسم phulax لا تصبح نمطاً اعربياً إلا عن طريق مقارنة الوظائف التي ترتبط بالصيغ المختلفة: وكذلك ليست الوظائف صرفية إلا إذا كانت كل وظيفة تطابق إشارة صوتية معينة. فالتصريف ليس قائمة من الصيغ أو الأشكال كما انه ليس قائمة من الأمور المنطقية المجردة، بل انه يتكون من الجمع بين المسألتين (لاحظ الجزء الأول، الفصل الثاني). فالأشكال والوظائف يعتمد بعضها على البعض الآخر، ومن الصعب، بل من المستحيل،



الفصل بينهما. والصرف من الناحية اللغوية ليس له موضوع مستقل. فهو لا يكون موضوعاً متميزاً عن النحو.

ثانياً: هل من المنطق أن نستثني علم المعجم عن القواعد؟ ان الكلمات كما ترد في المعجم تبدو وكأنها لا تخضع للدراسة القواعدية، التي تقتصر عادة على دراسة العلاقات بين الوحدات. ولكننا نلاحظ في الحال ان عدداً كبيراً من العلاقات يمكن التعبير عنها، بالكلمات بطريقة لا تقل كفاءة عن التعبير عنها بالقواعد مثال ذلك ان كلمتي *facio*، *fio* اللاتينيتين تتقابلان، كما تتقابل *dico* و *dico* وهما صيغتان من صيغ القواعد للكلمة ذاتها. والتمييز بين الصيغة الكاملة وغير الكاملة يعبر عنه بالقواعد في اللغة الروسية *spra-* و *sivat: sprosit* (يسأل) كما يعبر عنه معجمياً في الكلمتين *govrit: skazat* (يقول). وتضم حروف الجر عادة الى القواعد، ولكن عبارة الجر *en considération de* (إذا أخذنا بنظر الاعتبار) هي معجمية في جوهرها طالما ان كلمة *considération* تحتفظ بمعناها في العبارة الفرنسية هذه. وإذا قارنا العبارتين الاغريقيتين *peitho: peithomai* بالعبارتين الفرنسيتين *je persuade*: (اقنع) و *je obeis* (اطيع) نجد ان التقابل قد عبر عنه بالقواعد في الحالة الأولى (الاغريقية) ومعجمياً في الحالة الثانية (الفرنسية). وعدد كبير من العلاقات التي يعبر عنها في بعض اللغات عن طريق الحالات أو حروف الجر، يعبر عنها في لغات أخرى بألفاظ مركبة تشبه كلمات حقيقية (لاحظ في الفرنسية *royaume de cieux* «مملكة السماء» وفي الألمانية *Himmelreich*) أو يعبر عنها بالألفاظ المشتقة (كما في الفرنسية *moulin à vent* «طاحونة هوائية» وفي البولونية *wiatr — ak*). وأخيراً قد يعبر عنها بالكلمات البسيطة (كما في الفرنسية *bois de chauffage* «حطب» وفي الروسية *drová*، وفي الفرنسية *bois de construction* (خشب البناء) وفي الروسية *lès*). كما نجد كثيراً التبادل بين الكلمات البسيطة والعبارات في لغة واحدة (كما في الفرنسية *considérer* «يتأمل» *prendre en considération* يأخذ بنظر الاعتبار، *se venger de* «ينتقم» *tirer vengeance* يأخذ الثأر).

فالنحو والمعجم إذن قد يمتزجان في وظيفتهما، فلا يوجد من ناحية الجوهر أي فرق بين كلمة (غير) البسيطة والوحدة التي لا تتجزأ الى وحدات فرعية والعبارة، التي هي حقيقة نحوية. فترتيب الوحدات الفرعية للكلمة يخضع للمبادئ الأساسية نفسها التي تخضع لها مجموعة الكلمات في العبارة.

وموجز القول، إن التقسيمات التقليدية للقواعد قد تكون مفيدة من الناحية العملية، ولكنها لا تتفق مع التقسيمات الطبيعية. وإذا أردنا إقامة علم القواعد علينا أن نبحث عن مبدأ آخر من مرتبة أعلى.

## ٢ - التقسيم على أساس العلاقات:

الصرف والنحو والمعجم يتصل بعضها ببعض وتتداخل جميعها لأن الحقائق

السنكرونية (التزامنية) متماثلة، ولا يمكن رسم حدود تميز بينها سلفاً. ويقتصر التمييز على الصنفين المذكورين سابقاً - وهي العلاقات السنكرونية والعلاقات اللاحائية. وهذا هو التمييز الوحيد الذي لم يفرض من الخارج. فلا يمكن لنظام القواعد أن يكون له أساس آخر غير هذا الأساس.

ينبغي إذن أول الأمر، أن نجمع كل ما تتكون منه الحالة اللغوية ثم نضع هذه العناصر في نظرية للسنكرونيات وأخرى للعلاقات اللاحائية. ونجد في الحال أن بعض أجزاء القواعد التقليدي تناسب الصنف الأول بسهولة، في حين تطابق الأجزاء الأخرى الصنف الآخر. فاعراب أواخر الكلمات هو ولا شك نموذج مثالي للترابط اللاحائي بين الأشكال، الذي يحصل في عقل المتكلم: والنحو (أي نظرية الجمع بين الكلمات، طبقاً للتعريف المؤلف) يعود إلى نظرية السنكرونيات، لأن هذه المجموعات تعتمد دائماً على وحدتين في الأقل موزعتين في الفراغ المكاني. ولا يصح أن نصنف كل حقيقة سنكرونية إلى سنكرونيات، ولكن كل حقيقة نحوية تعود إلى صنف السنكرونيات.

ونستطيع أن نأخذ أية مسألة في القواعد لنبرهن بها على ضرورة هذه النظرة الثنائية. ففكرة الكلمة، مثلاً، تواجهنا بمشكلتين متميزتين طبقاً للنظرة التي تدرس بها الكلمة: هل هي لاحائية أم سنكرونية؟ ففي الفرنسية نجد للصفة *grand* «كبير» شكلين من النظرة السنكرونية (وهما *grāgarcon* وتكتب *grand grcon* (ولد كبير) و *grat afa* وتكتب *grand enfant* (طفل كبير)، وثمة شكلان آخران من النظرة اللاحائية (المذكر *grā* ويكتب *grand* والمؤنث *grād* ويكتب *grande*).

وهكذا ينبغي أن نوضح كل حقيقة في الصنف المناسب - الصنف السنكروني أو الصنف اللاحائي: ويرتب موضوع القواعد بأكمله طبقاً لهذين البعدين الطبيعيين ولا يوجد تقسيم آخر يستطيع أن يبين الأمور التي ينبغي تغييرها في الإطار المؤلف لعلم اللغة السنكروني. بيد أنني لا أستطيع بحث هذه المسألة هنا، لأن مهمتي تقتصر على ذكر المبادئ العامة حسب.

## الفصل الثامن

### «دور الكيانات المجردة في القواعد»

لم أتحدث حتى الآن عن موضوع مهم يشير الى ضرورة دراسة كل مسألة في القواعد من وجهتي النظر اللتين أشرنا اليهما في الفصل السابع : وهو موضوع الكيانات المجردة في القواعد . ولنتحدث عنها ، أولا ، من الناحية الايحائية .

ان الربط الايحائي بين شكلين لايعني فقط شعور المرء بوجود شيء مشترك بينهما بل يعني ايضا تشخيص طبيعة العلاقات التي تتحكم في الروابط الايحائية . مثال ذلك ان المتكلمين يشعرون دائما بأن العلاقة بين enseigner و enseignement او بين juger و jugement لا تشبه العلاقة بين enseignement و jugement (لاحظ الفصل الخامس) . وهذا يفسر كيفية ارتباط نظام العلاقات الايحائية بنظام القواعد . اذ نستطيع القول ان المجموع الكلي للتقسيمات الشعورية المنتظمة التي يقوم بها علماء القواعد الذين يدرسون الحالة اللغوية بدون اللجوء الى التاريخ ، يتفق مع الارتباطات الايحائية - الشعورية والاشعورية ، التي يتوصل اليها الباحث في الكلام . ان هذه الارتباطات تحدد في عقولنا اصناف الكلمات وانماط الاعراب ، والعناصر المكونة للكلمات (المصدر واللاحقة والنهايات الاعرابية وغيرها ..) .

لكن ، هل يقتصر الايحاء على تشخيص العناصر المادية ؟ كلا . فقد رأينا انه يجمع بين الكلمات التي لا علاقة بينها سوى المعنى (مثال ذلك enseigne- , apprentissage , ment education وغيرها) . ويصح الشيء نفسه في القواعد . لنأخذ الاشكال الثلاثة للخفض (المجرور) في اللاتينية ^١ - is, domin - árum, rég - ros ان اصوات النهايات الثلاثة لا يمكن ان تكون أساسا لاي نوع من الايحاء ، ومع ذلك ترتبط هذه النهايات فيما بينها ، بنوع من الشعور ، يوحي بوجود قيمة مشتركة بينها تحدد قيام هذه العناصر بوظيفة واحدة . وهذا يكفي لخلق الارتباط الايحائي عند عدم وجود اي ارتباط مادي ، وبذلك نأخذ فكرة المجرور مكانها في اللغة^(٤١) . وترتبط بالطريقة ذاتها النهايات الاعرابية - us - i - o ، وغيرها (كما في domini , dominus dominó الى اخره) بعضها ببعض في العقل ، فتؤلف أساسا للفكرة العامة للحالات النحوية والنهايات الاعرابية . وترتبط علاقات

---

(٤١) وفي العربية يستند الارتباط الايحائي بين المجرورات الى فكرة (النسبة) سواء كان المجرور مجرورا باضافة اسم أو مجرورا بحرف اضافة . (المراجع) .

ايحائية من الصنف ذاته ، ولكنها اوسع ، بين جميع الاسماء ، والصفات وغيرهما ، فتحدد فكرة اقسام الكلام .

جميع هذه الامور لها وجود في اللغة ، ولكنها كيانات مجردة ، يصعب دراستها لاننا لانعلم ، على وجه التحديد ، هل ان شعور المتكلم بها يماثل تحليل النحوي لها ام لا ؟ والمهم ان الكيانات المجردة تستند دائماً في جوهرها ، الى الكيانات الملموسة . ولا يمكن القيام بأي تجريد في القواعد من دون ان نعتمد في ذلك على مجموعة من العناصر المادية . وينبغي في آخر الامر أن نعود دائماً الى هذه العناصر .

لنتناول الآن النظرة السنتاكية . ان قيمة مجموعة ما غالباً ما تعتمد على تسلسل العناصر فيها . فالمرء عند تحليله للسنتاكم لا يقتصر على تشخيص اجزائه : فهو يلاحظ نظاماً معيناً من التسلسل في هذه العناصر . فمعنى الكلمة العربية (مؤلمة) والكلمة اللاتينية signi — fer يعتمد على مواقع الوحدات الفرعية في كل منها . فلا نستطيع ان نقول مؤلم — مؤلم او signum — fer . وقد لا تكون هناك علاقة بين قيمة ما وبين عنصر ملموس (كما في — مؤلم او — fer) بل تنبع النتيجة فقط من ترتيب الالفاظ . مثال ذلك اختلاف الداليتين للمجموعتين الفرنسيتين Je dois (ينبغي ان) ، و ؟ je — dois (هل ينبغي ان) سببه اختلاف نظام الكلمتين في كل مجموعة .^(٤٢) وقد تعبر لغة ما عن فكرة معينة عن طريق نظام تسلسل الالفاظ في المجموعة ، في حين تستخدم لغة اخرى لفظة ملموسة اضافية او اكثر للتعبير عن هذه الفكرة . وفي النمط السنتاكي gold watch, gooseberry wine وغيرها تعبر الانكليزية عن طريق تسلسل الكلمات عن العلاقات التي تعبر عنها الفرنسية الحديثة باستخدام حروف الجر (لاحظ vin de groseilles = شراب الكشمش البري ، و montre en or = ساعة ذهبية الى آخره) . وتعبر الفرنسية الحديثة عن فكرة التكملة المباشرة direct complement (المفعول به) بوضع الاسم بعد الفعل المتعدي مباشرة (كما في je cueille une fleur = اقطف زهرة) في حين تستخدم اللاتينية وبعض اللغات الاخرى حالة النصب التي تتميز باعراب معين في آخر الكلمة .^(٤٣)

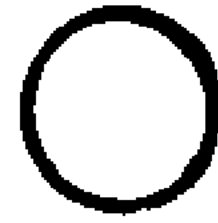
مما لا شك فيه ان نظام الكلمات في المجموعة هو كيان تجريدي : ولكن وجوده يعتمد كلياً على الوحدات الملموسة التي يضمها نظام الكلمات هذا ، تلك الوحدات التي تمتد على بعد واحد (اي لها تسلسل خطي) . ولكن من الخطأ ان نتصور وجود نحو غير ملموس خارج الوحدات المادية موزع في الفراغ المكاني . ففي العبارة the man I have seen (الرجل

(٤٢) يلاحظ ان اختلاف المعنى في الترجمة العربية لا يعتمد على تغيير تسلسل الكلمات في كل مجموعة بل على اضافة اداة الاستفهام «هل» فتسلسل الكلمات في العبارة اقل اهمية في العربية منه في الانكليزية او الفرنسية : لاحظ ، جاء علي ، علي جاء . (المترجم) .

(٤٣) العربية اقرب الى اللاتينية منها الى الفرنسية : لاحظ قرات كتاباً ، كتابا قرات . فالمفعول به يدل عليه خروجه على الاسناد (النصب) وليس موقع الكلمة في المجموعة . (المترجم) .

الذي رأيته) تستخدم الانكليزية علامة الصفر للتعبير عن حقيقة نحوية في حين تستخدم الفرنسية (que = that) للتعبير عن هذه الحقيقة (L'homme que j'ai un). ولكن مقارنة الحقيقة النحوية الانكليزية بالحقيقة النحوية الفرنسية انما يؤدي الى وهم مفاده ان اللاشيء يمكن ان يعبر عن الشيء. والحقيقة ان الوحدات المادية وحدها تخلق القيمة عن طريق ترتيبها باسلوب معين. حيث لانستطيع ان ندرس اية قيمة نحوية خارج عدد من الالفاظ الملموسة، ثم ان فهمنا لوحدة لغوية مركبة (لاحظ الكلمات الانكليزية المذكورة آنفاً) انما هو دليل على ان نظام تسلسل الكلمات وحده يعبر عن الفكرة.

إن الوحدة المادية لاجود لها الا من خلال معناها ووظيفتها. وهذا المبدأ له اهمية خاصة في فهم الوحدات الصغيرة، لان المرء يميل الى الاعتقاد ان هذه الوحدات لاجود لها الا بفضل صفتها المادية - فكلية love (حب) على سبيل المثال لاجود لها الا بفضل الاصوات التي فيها. وعلى العكس من ذلك، رأينا ان المعنى والوظيفة يعتمدان في وجودهما على بعض الاشكال المادية. ان هذا المبدأ قد صيغ بالنسبة للسنتاكنات الكبيرة او الانماط النحوية الكبيرة، لالسبب الا لان المرء يميل الى رؤية هذه الوحدات على انها اشياء تجريدية ليس لها كيان مادي، تطفو فوق عناصر الجملة. وهكذا يكمل المبدأن أحدهما الآخر، ويوضحان سوية ماقلته عن تحديد الوحدات (انظر الجزء الثاني، الفصل الثاني).





## الجزء الثالث

# علم اللغة الدايكروني





## الفصل الاول

### مبادئ عامة

لا يدرس علم اللغة الدايكروني diachronic العلاقات بين العناصر الموجودة في حالة لغوية ، بل العلاقات بين عناصر متعاقبة يحل كل عنصر منها محل العنصر الآخر بمرور الزمن .

ان عدم التغيير المطلق لاجود له . فكل جزء من اللغة يخضع للتغيير . ويعود لكل فترة . شيء من التطور الملموس . وقد يختلف التطور في سرعته وشدته ، ولكن هذا لا يؤثر في صحة مبدأ التغيير . فجدول اللغة يجري من دون انقطاع ، وسواء كان المجري هادئاً او هائجاً فذلك امر ذو أهمية ثانوية .

وكثيراً ما يخفى عنا هذا التطور المستمر وسبب ذلك ان اهتمامنا ينصب على اللغة الادبية ، وتُفَرَضُ هذه اللغة على اللغة الدارجة (اي اللغة الطبيعية) (كما سنرى في الجزء الرابع ، الفصل الثالث) كما انها تخضع لعوامل اخرى . فاللغة الادبية بعد ان تظهر الى الوجود ويتعزز مركزها ، تبقى عادة ثابتة الى حد كبير وتجنح نحو الاحتفاظ بكيانها . فاعتمادها على الكتابة يمنحها ضماناً خاصاً في الحفاظ على نفسها . لذا لاتبين لنا هذه اللغة مدى التغيير الذي يحدث في اللغة الطبيعية عندما تحرر من القيود الادبية .

ان علم الصوت - بجميع اجزائه - هو الموضوع الاساسي لعلم اللغة الدايكروني . بل ان تطور الاصوات يناقض فكرة الحالات اللغوية . فالمقارنة بين الفونيمات او مجموعات الفونيمات في فترة ما مع ما كانت عليه في فترة سابقة يعني اقامة دايكرونية . وقد تكون احدى الفترات شديدة الصلة بالفترة التي تليها . ولكن بعد ان تندمج الفترتان ينتفي دور علم الصوت . ولا يبقى سوى وصف للاصوات الموجودة في حالة لغوية ، وهذه مهمة النظام الصوتي ، الفونولوجيا .

ان الطبيعة الزمنية لعلم الصوت تلائم جيداً المبدأ القائل بأن كل ما هو ضمن علم الصوت لا دلالة له ولا قواعد بالمفهوم الواسع للفظلة علم الصوت (لاحظ المقدمة ، الفصل الرابع) . وعند دراستنا لتاريخ الاصوات في كلمة ما نستطيع ان نهمل المعنى ، ونقتصر على دراسة الغلاف المادي للكلمة ، فنقوم بتقطيع الشرائح الصوتية من دون ان نتساءل هل إن لهذه الشرائح دلالة ؟ فعلى سبيل المثال يمكن ان نتبع تاريخ المجموعة — ewo — التي لامعنى لها ، في الاغريقية الاتيكية . ولو كان تطور اللغة لايعني سوى تطور الاصوات فيها لاصبح التقابل واضحاً جداً بين الاشياء التي تعود الى كل فرع من فرعي

علم اللغة . وبذلك تعني الدراسة الدايكرونية تلك التي لاعلاقة لها بالقواعد ، والدراسة السنكرونية تلك التي لها علاقة بالقواعد .

بيد ان الاصوات ليست الامور الوحيدة التي تتغير مع الزمن . فالكلمات تتغير دلالاتها . والاصناف النحوية تتطور . فتختفي بعضها وتختفي معها الصيغ والالفاظ التي كانت تعبر عنها (مثال ذلك المثنى في اللاتينية) . واذا كانت الحقائق الايحائية والسنتاكنية في الحالة السنكرونية لها تاريخها الخاص بها ، فكيف يمكن ان نحافظ على التمييز المطلق بين الدايكروني والسنكروني ؟ اذ يصبح هذا الامر صعباً حين نخرج من نطاق علم الصوت .

من الملاحظ ان كثيراً من التغييرات التي غالباً ما تنسب الى القواعد انما هي في الحقيقة صوتية . فصيغ «القواعد» التي ظهرت الى الوجود مثل Hand : Hande في الالمانية وحلتا محل hant : hanti (لاحظ الجزء الاول ، الفصل الثالث) يمكن ان تفسر باللجوء الى علم الصوت . وثمة حقيقة صوتية اخرى هي اساس الالفاظ المركبة مثل Springbrunnen و Reitschule في الالمانية . ففي الالمانية العليا القديمة لم يكن العنصر الاول فعلاً بل اسماً . والكلمة المركبة Bete — hús كانت تعني «بيت الصلاة» ثم حصل تغير صوتي ادى الى اختفاء الحركة الاخيرة في beta (فأصبحت اللفظة — bet وحصل الشيء نفسه في غيرها من الكلمات) وارتبطت الكلمة من حيث المعنى بالفعل (beten وغيره) ! فأصبحت كلمة Bet haus تدل على «بيت للصلاة» .

وحدث شيء مشابه لذلك في الكلمات المركبة التي تحتوي على كلمة Lich «المظهر الخارجي» في الالمانية القديمة العليا (لاحظ redolich = له مظهر العقل ، mannolich له مظهر الرجل ، الى اخره) . واليوم يضم عدد من الصفات (لاحظ verzeilich وغيرهما) اللاحقة lich — التي تشبه اللاحق في believ — able, pardon — able وغيرهما ، وفي الوقت ذاته أصبح العنصر الاول ، بعد أن فقد الحركة الاخيرة (كما في redo — — red) يشبه الجذر في الفعل (reden من red) .

وفي كلمة glaublich يشبه الجذر — glaub بالفعل glauben وليس بالاسم Glaube ثم ان الاصل في sichtlich رغم الاختلاف ، ارتبط بالفعل sehen وليس بالاسم sicht .

فالتمييز بين الصنفين يبقى واضحاً في جميع الامثلة مارة الذكر وامثلة اخرى كثيرة مشابهة لها . وعلى اللغوي ان يحتفظ بهذا التمييز في عقله والاتوهم بانه يدرس علم القواعد التاريخي ، في حين انه — في الحقيقة — ينتقل بصورة متعاقبة من الدايكرونية ، حيث يدرس التغييرات الصوتية ، الى السنكرونية حيث يتمحّص النتائج التي تنبع من هذه التغييرات .

ولكن هذا القيد لايزيل جميع العقبات . فتطور الحقيقة القواعدية سواء كانت

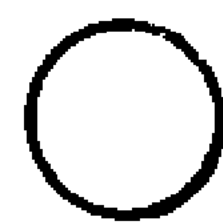
سنتاكمة اولها طبيعة قواعدية ، ليس كتطور الصوت . فهو ليس بسيطا بل يمكن تحليله الى عدد كبير من الحقائق المعينة وليست حقائق علم الصوت سوى جزء منها . ان نجد في تكوين صيغة المستقبل الفرنسية *prendre ai* التي اصبحت *preudrai* «سوف آخذ» حقيقتين متميزتين في الاقل ، الاولى سايكولوجية (اندماج عنصري الفكرة وهما *prendre* = يأخذ و *ai*) ، والثانية صوتية تعتمد على الاولى (اختزال الركزتين الى ركزة واحدة بعد ان اندمج العنصران في كلمة واحدة : *prendre ai* ← *prendrai*) .

ويعتمد تصريف الافعال القوية في الالمانية (كما في الالمانية الحديثة *gab, geben, gegeben* ، الى اخره ، لاحظ ايضا في الاغريقية *leipo, elipon, liloipa* الى اخره) على تغيير الحركة في الجذور بصورة رئيسية . ان هذه التغييرات التي بدأت بنظام بسيط نسبيا (لاحظ الفصل الثالث من هذا الجزء) هي ولا شك نتيجة محضة لحقيقة صوتية . ولكن التقابل لم يكتسب مثل هذه الاهمية الوظيفية الا بعد ان اصبحت النظام الاعرابي الاول بسيطا بسبب عدد من التطورات : فاختفت الانواع الكثيرة من صيغ الحاضر وظلال المعاني التي كانت مرتبطة بها : كما اختفت صيغة الفعل غير الكامل ، والمستقبل ، والماضي ، واندثرت صيغة التكرار للكامل وغيرها . ان هذه التغييرات غير الصوتية اختزلت الصيغ الصرفية للفعل الى مجموعة صغيرة من الاشكال (الصيغ) واصبحت تغييرات الاصل فيها مهمة جدا في تشخيص المعنى فالتقابل بين *e : a* اشد دلالة في *geben* منه في *gab* في *e : o* في الاغريقية *Léloipa : leipo* لان صيغة الفعل الكامل في الالمانية لاتنطوي على تكرار ما ، في حين نجد التكرار في الاغريقية .

ان التغيير الصوتي ، مع كونه يؤثر في التطور عادة ، لا يمكن ان يفسر التطور بأكمله . فما ان يختفي العامل الصوتي ، حتى تبقى لدينا البقية التي تبدو وكأنها تسوّغ فكرة «تاريخ القواعد» وفي هذا تكمن الصعوبة الحقيقية . ان هذا التمييز الضروري بين ماهو داكروني وما هو سنكروني يتطلب توضيحا مفصلا لامجال للقيام به في هذا الكتاب^(٤٤) .

(٤٤) يمكن ان نضيف الى هذا السبب التلقيني الخارجي سببا آخر : وهو ان دي سوسور لم يتناول قط علم لغة الكلام (لاحظ المقدمة ، الفصل الثالث) . علينا ان نتذكر ان اية صيغة جديدة تتبع دائما من سلسلة من الحقائق الفردية (لاحظ الجزء الاول ، من الفصل الثالث ، الفقرة ٩) . ويمكننا القول ان المؤلف رفض ان يصنف هذه الحقائق على انها جزء من القواعد ، لان الحقيقة الفردية المعزولة هي بالضرورة طارئة على اللغة وعلى نظامها ، الذي يعتمد على مجموعة من الانماط الجماعية . وما دامت هذه الحقائق جزءا من الكلام ، فهي خاصة جدا ، واستعمالات استثنائية للنظام القائم . وعندما تنطبع صيغة جديدة في الذاكرة بسبب التكرار المستمر ، وتدخل النظام اللغوي ، اذ ذاك تحدث تغييرا في ميزان القيم وتتغير اللغة ، تلقائيا بسبب هذه الحقيقة ذاتها . ويمكننا تطبيق ما قلناه في المقدمة (الفصل الرابع) وفي الجزء الاول ، الفصل الثالث الفقرة ٣ ، عن التطور الصوتي على التطور في القواعد ، فالنتيجة النهائية للتطور الاخير تكون خارج النظام : لان النظام لا يلاحظ ابدأ في اثناء تطوره : بل يختلف من لحظة الى اخرى . ان هذه المحاولة للتوضيح ما هي الا اقتراح بسيط نقدمه للقارئ . (بالي) .

سندرس في الفصول الآتية التغييرات الصوتية ثم التبدل والحقائق القياسية ، نم  
نختم دراستنا ببعض الملاحظات عن الاصول الشائعة للكلمات folk etymology - وعملية  
اللتصق agglutination .



## الفصل الثاني

### التغيرات الصوتية

#### ١ - طبيعتها القياسية المطلقة

لقد رأينا (الجزء الاول ، الفصل الثالث ، الفقرة ٦) ان التغير الصوتي لا يؤثر في الكلمات بل في الأصوات . فالذي يتغير هو الفونيم . وهذا التغير ، مع انه مفرد منفصل عن غيره شأنه شأن بقية الاحداث الزمنية ، يؤدي الى تغير مماثل في جميع الكلمات التي تضم ذلك الفونيم . وبهذا المفهوم تصبح التغيرات الصوتية منتظمة انتظاما مطلقا .

ففي اللغة الالمانية تغير كل صوت i الى ei ثم الى ai : فتغيرت الكلمات zeit, lihen, triden, win واصبحت zeit, leihen, treiben, wein واصبح الصوت u مركبا au : وتغيرت الكلمات r' uch, zún, hús واصبحت Rauch, Zaun, Haus : وتغير بالطريقة ذاتها u الى eu : كما في húser فاصبحت Hauser وغيرها . وعلى العكس من ذلك أصبحت الحركة الثنائية ie حركة فردية i ، وما تزال تكتب ie : لاحظ Tier, Lieb, biegen . كما تغير الصوت uo فأصبح u كما في Mut : muot وغيرها . وتغير الصوت z الى s (ويكتب ss . لاحظ المقدمة ، الفصل السابع) : كما في wazer ← Wasser ; fliezen ← fließen وغيرها . وأختفى الصوت h الذي يقع بين حركتين كما في sehen, Lihen (وتكتبان sehen, Leihen وأصبح w وهو صوت شفوي أسناني (يكتب v) كما في wazer ← waser (وتكتب Wasser) .

وتغير في الفرنسية الصوت L الى y : كما في piller (عمود) و bouillir (يغلي) فاصبحت الكلمتان تلفظان (buyir, piye) .

وفي اللاتينية ، تغير الصوت s الواقع بين حركتين فاصبح r في فترة اخرى : كما في *aséna, *genesis ← aréna, generis وغيرها .

فكل تغير صوتي ، اذا نظرنا اليه نظرة حقيقية وجدنا انه يؤكد الانتظام المطلق لجميع هذه التحولات .

#### ٢ - التغيرات الصوتية المشروطة :

تبين الامثلة السابقة ان الظواهر الصوتية ليست مطلقة دائما ، بل انها ترتبط في اغلب الاحيان بشروط ثابتة . وبعبارة اخرى فالذي يتغير ليس الفصيطة الفونولوجية بل الفونيم حسب موقعه في ظروف معينة - كالعناصر المحيطة به والركيزة وغير ذلك . فعلى سبيل المثال تغير الصوت s فاصبح r في اللاتينية عند وقوعه بين حركتين ، وفي بعض المواقع الاخرى : اما في غير ذلك فبقي على حاله (لاحظ equos, senex, est) .

اما التغيرات المطلقة التي لا تتقيد بأي شرط فنادرة جدا . فالتغيرات التي غالبا

ما تظهر وكأنها مطلقة ، سببها طبيعة الشروط المبهمة او العامة جدا . مثال ذلك ان الصوت i في الالمانية اصبح ai,ei في المقاطع المشددة tonic فقط . واصبح الصوت k₁ في اللغة الهندية - الاوربية الاولى h في اللغة الجرمانية (لاحظ k₁olsom في الهندية الاوربية الاولى ، collum في اللاتينية و Hats في الالمانية) ولكن هذا التغير لم يحصل بعد s (لاحظ skotos في الاغريقية skadus (ظل) في الغوطية) .

ثم ان تصنيف التغير الى مطلق ومشروط يعتمد على نظرة سطحية للامور . فأكثر منطقية وملائمة للاتجاه السائد الآن ، ان نقول : الظواهر الصوتية التلقائية والمترابطة combinatory . وتعدّ التغييرات تلقائية اذا كان سببها داخليا . وتكون مترابطة اذا كانت ناتجة عن وجود فونيم آخر أو اكثر . فانتقال الفونيم o من الهندية الاوربية الاولى الى a في اللغات الجرمانية (كما في Skadus الغوطية و Hals الالمانية وغيرهما) انما هو حقيقة تلقائية . والتغير في الأصوات الصحيحة الجرمانية او ما يسمى Lautverschiebungen يمثل تغييرا تلقائيا : فقد تغير k₁ في الهندية الاوربية الاولى واصبح h في اللغات الجرمانية الاولى (لاحظ collum في اللاتينية و hals في الغوطية) كما تغير الصوت t في الجرمانية الاولى واصبح z (يلفظ ts) في الالمانية العليا ، في حين بقي t في الانكليزية (كما في taihun الغوطية و ten الانكليزية و zehen الالمانية) . اما انتقال الصوتين ct و pt من اللاتينية الى الايطالية وظهورهما بهيئة tt انما هو حقيقة مترابطة . لان الصوت الاول اندمج في الثاني (كما في factum ← fattu; captivum ← cattivo كما ان الامالة في الالمانية umlaut تعود الى سبب خارجي ، وهو وجود الصوت i في المقطع التالي : فالكلمة gast لم تتغير في حين تغيرت gastu الى gesti ثم Gaste .

ان النتيجة ليست مهمة في كلتا الحالتين (التلقائية والمترابطة) ، فسواء حصل تغيير ام لا فلا اهمية لذلك . مثال ذلك ، عند مقارنة fisks الغوطية بالكلمة اللاتينية piscis ، والغوطية skadus بالكلمة الاغريقية skótos ، نلاحظ ، في الزوج الاول ، عدم حصول اي تغيير في i ، في حين تحول الصوت o الى a في الزوج الثاني . فالفونيم الاول بقي على حاله ، في حين تغير الفونيم الثاني ، ولكن المهم ان كل فونيم قام بدوره بصورة مستقلة عن الآخر .

ان الحقيقة الصوتية المترابطة مشروطة دائما ، اما الحقيقة التلقائية فليست مطلقة بالضرورة ، لانها ربما تكون مشروطة بشرط سلبي ، كعدم وجود بعض عوامل التغير . وهكذا فقد تغير تلقائيا الصوت k₂ في الهندية الاوربية الاولى واصبح qu في اللاتينية (لاحظ inquiline, quattuor وغيرهما) في حين لم يتغير هذا الصوت عندما كان متبوعا باحد الصوتين o او u (لاحظ coló, cottidie, secundus وكلمات اخرى) . وكذلك يكون بقاء الصوت i في الهندية الاوربية الاولى على حاله بعد انتقاله الى الغوطية كما في fisks

وغيرها من الكلمات امراً مشروطاً - فالصوت i لا يمكن ان يتبعه الصوت r او h والا اصبح e ويكتب ai (لاحظ wair ← في اللاتينية maiustus, vir ← Mist في الالمانية) .

### ٣ - قضايا اسلوبية

حينما نقوم بوضع اساليب للتعبير عن التغييرات الصوتية علينا ان نميز بين المسألتين المتقدمتين والا كانت دراستنا للحقائق غير دقيقة .  
وهذه بعض الامثلة على عدم الدقة :

تقول الصيغة القديمة لقانون فيرنر verner « ان الصوت P في اللغات الجرمانية الذي لم يكن في اول الكلمة قد تغير الى اذا اعقبت هذا الصوت ركزة » ، كما في fader ← faper (vater في الالمانية) ، *Lipumé ← *Liðumé (Litten في الالمانية) : اما في الامثلة الاتية فقد بقي الصوت p على حالة في pris* (drei في الالمانية) و bropr* (Bruder في الالمانية) Lipo* (Leide) . ان هذه الصيغة تمنح دورا فعالا للركزة وتفرض قيда للصوت p في اول الكلمة . اما الذي حصل فعلا فأمر اخر . لقد جنح الصوت p في اللغات الجرمانية ، وفي اللاتينية ، الى ان يصبح صوتا مجهوراً (ذا رنين) بصورة تلقائية في الكلمة ، ولم يمنع هذا التغيير الا وقوع الركزة على الحركة التي تسبق هذا الصوت . اذن فالمسألة معكوسة . ان هذا التغيير تلقائي ، وليس تغييرا مترابطا ، اما الركزة فهي عائق وليست عاملا مساعدا . لذا ينبغي ان نقول « ان كل صوت p في داخل الكلمة اصبح d الا اذا اعاقه موقع الركزة في الحركة التي تسبق هذا الصوت » .

ولكي نفصل بين ما هو تلقائي وما هو مترابط علينا ان نحلل مراحل التحول ولا نخلط بين النتيجة الوسيطة والنتيجة المباشرة . فمن الخطأ ان نفسر استخدام الصوت راء (كما في *genesis ← generis في اللاتينية) بقولنا مثلا ان الصوت s اصبح r بين حركتين ، لان الصوت s ليس حنجريا ، لذا فلا يمكن ان يتحول الى r مباشرة . ان هذا التغيير يضم حادثتين : فقد تغير الصوت s اولا الى z تغيرا مترابطا . ثم حل محل هذا الصوت صوت مقارب له وهو r طالما ان z لم يعد له وجود في النظام الصوتي لللاتينية . والتغيير التالي تلقائي . فمن الخطأ الجسيم ، اذن ، ان نعد الحقيقتين المختلفتين ظاهرة واحدة . فالخطأ هنا هو الخلط بين النتيجة الوسيطة والنتيجة المباشرة (s ← r بدلا من r ← z) ، وكذلك عدّ الظاهرة باجمعها متربطة ، في حين ان ذلك يصح في الجزء الاول فقط . وهذا يشبه القول بأن e اصبح a قبل صوت انفي في الفرنسية . والحقيقة هي حدوث ظاهرتين على التعاقب - التغيير المترابط - حيث تحول الى صوت انفي e بتأثير الصوت n (كما في ventum في اللاتينية vënt في الفرنسية ، و fémina في اللاتينية fēmd, fēmd في الفرنسية) : اعقب ذلك تغير تلقائي للصوت e الى a (كما في fāmd, vānt وهما الان fam, va . اما الاعتراض القائل بان التغيير لا يمكن ان يحدث الا قبل صوت انفي فلا معنى له .

فالمسألة ليست : لماذا تحولت الصوت *e* الى صوت انفي ، بل : هل ان تحول *e* الى *a* هو تلقائي ام مترابط ؟

ان اكبر خطأ في الاسلوب هو ما سأذكره الآن - مع انه لايتعلق بالمبدأ المذكور آنفاً - وهو صياغة القانون الصوتي بصيغة المضارع وكأن الحقائق التي يضمها القانون لها وجود ابدى في حين انها ظهرت واختفت في فترة من الزمن . وتؤدي مثل هذه الصياغة الى الفوضى : حيث ان التعاقب الزمني للحوادث يخفي عن الرؤية في مثل هذه الطريقة . وقد اكدت هذه النقطة (الجزء الاول ، الفصل الثالث ، الفقرة ٨) في تحليل تعاقب الظواهر التي تفسر ثنائية *trikho* *thriksi* . ومن يقول ان «الصوت *s* اصبح *r* في اللاتينية» كأنه يقول إن الصوت راء موروث في طبيعة اللغة ، اذ ذاك يصعب عليه ان يفسر الحالات الشاذة مثل *causa* و *risus* وغيرهما . ان الصيغة التي تقول «إن الصوت *s* اصبح *r* في اللاتينية» هي وحدها التي تسوّغ الاعتقاد بأن *causa* و *risus* وغيرهما لم يكن فيها الصوت *s* في اللحظة التي اصبح *s* ← *r* وبذلك نجت هذه الكلمات من التغير . والحقيقة ان المتكلمين كانوا ما يزالون يقولون *caussa* و *rissus* الى آخره .

وينبغي ان نقول للسبب ذاته «إن الصوت *a* تغير فاصبح *e* في اللهجة الايونية (كما في *mater* ← *meter* وغيرهما) والا ما استطعنا تفسير كلمات مثل *phasir*, *paser* وغيرهما (التي كانت ولا تزال *phansa*, *pansa* الى اخره في أثناء فترة التغير) .

#### ٤ - اسباب التغير الصوتي

ان البحث عن اسباب التغير الصوتي من اصعب مشاكل علم اللغة . وقد اقترحت تفسيرات كثيرة لذلك ، ولكن جميعها لاتفسر المشكلة تفسيراً كاملاً .

١ - من الناس من يزعم ان الميول العرقية تحدد سلفاً الاتجاه الذي يسير فيه التغير الصوتي . هذا يثير مسألة في علم الانثروبولوجيا المقارن : هل ان الجهاز الصوتي يختلف من جنس الى آخر ؟ كلا : فمثل هذا الاختلاف لايفوق الاختلاف في هذا الجهاز بين فرد وآخر فالطفل الزنجي اذا نقل الى فرنسا فإنه سيتكلم الفرنسية كالفرنسي . ثم ان عبارات مثل «الجهاز الصوتي عند الايطاليين» او «فم المتكلمين الالمان» لايسمح بذلك «توحي بأن الحقيقة التاريخية المحضة انما هي صفة ثابتة . وهذا يشبه الخطأ الذي يعبر عن القانون الصوتي بصيغة المضارع . فالقول بأن الجهاز الصوتي عند الايونيين يجد صعوبة في لفظ الصوت الطويل *a* فيغيره الى *e* خطأ لا يقل خطورة عن القول بأن *a* «يصبح» *e* في اللهجة الايونية .

ان الجهاز الصوتي عند الايونيين ما كان يكره الصوت *a* ، لان هذا الصوت كان موجوداً في بعض الامثلة . وهذا ، لاشك ، ليس مثالا على عدم قدرة جنس من الاجناس ، بل هو مثال على التغير في عادة النطق . ومثل ذلك ما نجده في اللاتينية ، اذ لم تحتفظ



بالصوت s الواقع بين حركتين (*gene6is ← genevis) ، ثم عادت فتبنت هذا الصوت بعد فترة قصيرة (لاحظ *rissus ← risus) . ان هذه التغييرات لاتشير الى ميل ثابت في الصوت اللاتيني .

ومما لاشك فيه ان الظواهر الصوتية تتخذ اتجاهها عاما محددا في فترة معينة وفي امة معينة . فتحول الحركات المركبة الثنائية الى حركات فردية في اللغة الفرنسية الحديثة . انما هو مظهر من مظاهر هذا الاتجاه . ولكننا نجد مثل هذه الاتجاهات العامة في التاريخ السياسي ولانشك في أنها مسألة تاريخية ، ليس للجنس فيها تأثير مباشر .

٢ - غالبا ما عُدَّت التغييرات الصوتية تكييفاً لظروف القربة والمناخ . فبعض اللغات الشمالية تكثر فيها الاصوات الصحيحة ، في حين تكثر الحركات في بعض اللغات الجنوبية مما يكسبها تناسقا صوتيا . ان المناخ وظروف الحياة قد يؤثران في اللغة ، ولكن المشكلة تتعقد حالما ندخل في التفاصيل فالى جانب اللغات الاسكندنافية التي تكثر فيها الاصوات الصحيحة هناك اللغات الفنلندية واللابلاندية التي تزخر فيها الحركات اكثر من اللغة الايطالية . وكذلك نلاحظ ان تراكم الاصوات الصحيحة في الألمانية الحديثة انما هو شيء جديد في كثير من الأحوال ، يرجع سببه الى الحركات التي تقع بعد المقطع المشدد ، وان بعض اللهجات الفرنسية في الجنوب اكثر تقبلا لمجموعات الاصوات الصحيحة من اللهجات الفرنسية في الشمال : وان اللغة الصربية لها من الاصوات الصحيحة ما يماثل الاصوات الصحيحة في الروسية .

٣ - كما فسر سبب التغيير الصوتي بقانون الاقتصاد في الجهد ، ومفاده ان لفظتين تُعوَّض بلفظة واحدة او اللفظة الصعبة تحل محلها لفظة أسهل .

ان هذه الفكرة ، مهما قيل عنها ، تستحق الدراسة . فقد توضح سبب التغيير الصوتي او تشير ، في الأقل ، الى الاتجاه الذي ينبغي ان يتخذه البحث عن السبب . ان قانون الاقتصاد في الجهد يفسر - على ما يبدو - بعض الحالات : كتحويل صوت الغلق الى صوت تنفسي (habere في اللاتينية ← avoir في الفرنسية) ، ووقوع مجموعات الاصوات الصحيحة في المقاطع النهائية في كثير من اللغات وهما نوع من الادغام (مثال ذلك ly ← ll كما في *alyos ← állos في الاغريقية ، in ← nn في *atnos ← annus في اللاتينية) ، وتحول الحركات الثنائية الى أحادية ، وهو نوع آخر من الادغام (مثال ذلك ai ← e كما في الفرنسية maizan ← mezò وتكتب maison «بيت») وغيرها .

ولكن نستطيع ان نذكر عددا مماثلا من الحالات حيث يقع فيها عكس ما ذكرناه سابقاً مثال ذلك ان التحول الى الحركة الثنائية في الالمانية في الاصوات u, u, i الى ei, eu, au . واذا كان الاقتصاد في الجهد يفسر تحول الصوتين السلافيين فأن العكس قد حدث في بعض الأصوات الالمانية (fater ← väter, geben ← gében) ان يمكن أن يفسر على أساس

استخدام الجهد الأقصى . وإذا كان الصوت المجهور أسهل على النطق من الصوت المهموس (لاحظ obra ← opera في لغة البروفنس) فإن العكس يتطلب جهداً أكبر ، ومع ذلك فالاسبانية تحولت في z الى x (كما في hixo وتكتب hixo) . وفي الألمانية تحولت الاصوات b, d, g الى p, t, k . وإذا عدنا فقدان التنفيس اقتصاداً في الجهد (لاحظ bheró في الهندية - الاوربية الاولى ← beran في الألمانية) فماذا يمكن القول عن الألمانية التي أدخلت التنفيس في كلمات لم يكن موجوداً فيها (pute, Tann وغيرهما حيث تلفظ phute, Thanne) ؟ إن الملاحظات التي ذكرتها سابقاً لاتدحض التفسير المقترح . اذ قلما نستطيع ان نجزم أي الأصوات هو السهل وأيها هو الصعب على النطق في كل لغة من اللغات . ان الاختصار في طول الصوت معناه جهد أقل بمفهوم الامتداد الزمني ، ولكن يصح ايضاً القول بأن الاصوات الطويلة تسمح بالنطق الذي لايتصف بكثير من الاهتمام : اما الاصوات القصيرة فتحتاج الى جهد اكبر . وإذا اخذنا بنظر الاعتبار الميول المختلفة ، فأنا نستطيع ان نقدم حقيقتين مضادتين من زاوية واحدة . فالصوت k اصبح ts (كما في cédere اللاتينية cedere في الإيطالية) وفي هذا زيادة في الجهد اذا اخذنا بنظر الاعتبار النتيجة النهائية للتغيير ، ولكن رأينا يتغير اذا تتبعنا سلسلة التغييرات حتى نصل الى الناتج النهائي : فقد اصبح الصوت k حنكي k' بسبب الادغام بالحركة التالية : ثم تحول الصوت k' الى ky : ولم يصبح النطق بهذا الصوت اصعب : حيث فصل عنصران في k ، وانتقل المتكلمون من ky الى ts, tx, ty بصورة متعاقبة في كل مكان وبجهود أقل . ان قانون الاقتصاد في الجهد يتطلب دراسة شاملة . ويحتاج الى أن يأخذ بنظر الاعتبار النظرة الفسلجية (مسألة النطق) والنظرة السايكولوجية (مسألة الانتباه) في آن واحد .

٤ - وثمة تفسير آخر ، ساد منذ بضع سنوات ، وهو ينسب التغيير في اللفظ الى تدريس علم الصوت في مرحلة الطفولة ، اذ ينجح الطالب بعد محاولات كثيرة من الخطأ والصواب ، ويصبح قادراً على لفظ ما يسمعه من حوله : وهذه بداية جميع التغييرات اذ تنتصر بعض الاخطاء التي تبقى من غير تصحيح ، وتظل عند الفرد ، ثم تتعزز وتثبت في الجيل النامي . فكثيراً ما يلفظ الطفل الصوت t بدلا من k ، وليس في تاريخ لغاتنا تغيير صوتي مماثل لهذا ، ولكن ذلك لايصح في أمثلة اخرى من التشويه . مثال ذلك ان كثيراً من الاطفال في باريس يقولون fléur (زهرة) و blanc (ابيض) باستخدام صوت L حنكي . فهذه العملية اصبحت الكلمة florem تلفظ flóre ثم fiore في الإيطالية .

ان الملاحظات السابقة تستحق اهتماماً كثيراً ولكنها تترك المسألة كما هي . ثم ان العوامل التي تشجع جيلاً من الاجيال على الاحتفاظ ببعض الاخطاء دون غيرها ، مع أن الأخيرة طبيعية أيضاً ، هذه العوامل غير واضحة . ويبدو ان اختيار النطق غير الصحيح

عملية اعتباطية ، وليس لها سبب واضح . اضيف الى ذلك سبب بروز هذه الظاهرة في فترة زمنية معينة دون غيرها ؟

ويصح السؤال نفسه في جميع أسباب التغيرات الصوتية مارة الذكر، إذا عددناها صحيحة . فالتأثير المناخي، والميل العرقي والجنوح نحو الاقتصاد بالجهد كلها عوامل ثابتة طويلة الأمد، فلماذا تعمل عملها بين فترة وأخرى وتؤثرها تارة في هذه المسألة من النظام الصوتي وتارة في تلك؟ ولابد للحادثة التاريخية في كل حالة من الأحوال من ان ينطلق عنها تغيير، سببه العام موجود منذ زمن طويل.

هذه أصعب مسألة للتفسير.

٥ - قد تنسب التغيرات الصوتية في بعض الأحيان الى الحالة العامة للأمة في لحظة من اللحظات . فاللغات تمر في بعض الفترات التي هي أكثر اضطراباً من غيرها . وقد حاول البعض أن يعزي التغيير الصوتي الى الفترات المضطربة في تأريخ الأمة، وان يجد بهذه الطريقة، حلقة وصل بين عدم الاستقرار السياسي وعدم الاستقرار اللغوي . وبعد الانتهاء من ذلك، يزعم البعض ان في استطاعته تطبيق النتائج المتعلقة باللغة عامة على التغيرات الصوتية . فيقول - على سبيل المثال - ان أشد الثورات في اللاتينية في أثناء تطورها الى اللغات الرومانسية اتفق مع فترات الغزو المضطربة جداً . ومن المفيد ان نذكر مثالين من التمييز:

آ - إن الاستقرار السياسي لا يؤثر في اللغة بالطريقة نفسها التي يؤثر بها عدم الاستقرار السياسي : ولا يوجد تأثير ثنائي متبادل في ذلك . وعندما يقوم التوازن السياسي بتقليل سرعة تطور اللغة، فان ذلك ينطوي على عامل إيجابي مع انه خارجي . أما عدم الاستقرار، وله تأثير معاكس للأول، فعمله سلبي . وقد يكون لعدم التغيير - أي الثبات النسبي للغة ما - عامل خارجي (كأثر البلاط أو المدرسة أو الأكاديمية أو الكتابة وغيرها) .

وهذا العامل يؤثر تأثير إيجابياً في التوازن السياسي والاجتماعي . أما إذا حدثت ثورة فأثرت في تعادل الأمة وانبثق عنها تطور لغوي، فسبب ذلك ان اللغة ترتد الى حالتها الحرة وتتبع مجراها المعتاد . فاستقرار اللاتينية في الفترة الكلاسيكية سببه عوامل خارجية، أما التغيرات التي حصلت في اللغة، بعد ذلك، فقد نبعت بصورة تلقائية في غياب بعض الظروف الخارجية .

ب - إن اهتمامنا يقتصر على الظواهر الصوتية ولا يشمل جميع أنواع التغيير اللغوي . مما لا شك فيه ان التغيرات في القواعد متشابهة . ولما كانت الحقائق في القواعد ترتبط دائماً ارتباطاً وثيقاً بالفكر، سهل تأثرها بالثورات الخارجية، التي لها رد فعل مباشر على العقل . ولكن لا صحة للاعتقاد القائل القائل بأن التطورات الفجائية في أصوات لغة من

اللغات تتفق مع التغيرات المضطربة في تأريخ تلك الأمة.

ومع ذلك، من المستحيل أن نذكر فترة من الفترات لم يظهر فيها تغيير صوتي - حتى بين تلك الفترات التي تبدو فيها اللغة وكأنها في حالة من الاستقرار التام. ٦ - قد يُعزى سبب التغيير الصوتي الى «الطبقة السفلى» للغة. إن إمتصاص المواطنين الجدد للمواطنين الأصليين يؤدي الى تغييرات معينة. فالفرق بين البروفنسال والفرنسية (لغة oc ولغة oïl) يتفق بنسبة مختلفة مع السكان الأصليين من الكلت في هذين الجزأين من بلاد الغال. وقد استخدمت هذه النظرية أيضاً في اكتشاف الفروق في اللهجات الايطالية وتأثير الليغوريان والأتروسكان وغيرهما، اعتماداً على المنطقة. بيد أن هذه الفرضية تزعم وجود ظروف قلما نجد مثلها. ثانياً، على أن المرء أن يكون أكثر تحديداً: هل ادخل المواطنون القدامى بعض عادات النطق عندهم في اللغة الجديدة التي تبَنُّوها؟ ان هذا شيء وطبيعي مقبول. أما إذا عدنا الى العوامل العرقية التي لا يمكن التكهن بها، فاننا نقع مرة أخرى في الأخطاء التي ذكرناها سابقاً.

٧ - نأتي الآن الى التفسير الأخير - وهو لا يكاد - يستحق التسمية هذه - فهو يُشبه التغيير الصوتي بالتغيير في المودة أو طراز اللبس. ولكن هذه التغييرات لم يستطع تفسيرها أحد. وكل ما نعرفه عنها انها تعتمد على المحاكاة، والمحاكاة من اختصاص علماء النفس. ان هذا التفسير وان كان لا يحل المشكلة التي نحن بصدد حلها، يتميز بأنه يمكن أن يقع ضمن إطار مشكلة أكبر، ويفترض أساساً سايكولوجياً للتغيير الصوتي. ولكن أين تبدأ المحاكاة؟ هذا سر غامض في التغيير الصوتي وكذلك في طراز اللبس.

## ٥ - أثر التغيير الصوتي لا حدود له

إذا حاولنا أن نجزم الى أي مدى تصل التغييرات الصوتية، فاننا ندرك في الحال ان هذه التغييرات لا حدود لها ولا يمكن احصاؤها: أي اننا لا نستطيع التكهن في المدى الذي تقف عنده. فمن السخف أن نزع أننا نستطيع أن نغير الكلمة الى حد معين فقط وكأن الكلمة تملك ما يصونها. ان التغييرات الصوتية تستمد طبيعتها من اعتبارية الإشارة اللغوية^(٥) التي تتميز عن المدلول.

ومن السهل أن نلاحظ ان أصوات كلمة ما قد تأثرت في فترة من الفترات ونرى مدى هذا التغيير، ولكننا لا نستطيع أن نقول سلفاً الى أي مدى أصبح شكل الكلمة أو قد تغير تغييراً أصبح معه صعب التشخيص.

(٤٥) اي الدال - لاحظ الجزء الاول - الفصل الثاني ، الفقرة ٢ ، الملاحظة (باسكن).

فالكلمة الهندية الأوربية الأولى *aiwom (لاحظ aevom في اللاتينية) وغيرها من الكلمات التي لها النهاية نفسها قد تغيرت الى aiw, aiwa, aiwan في اللغة الجرمانية الأولى، ثم أصبحت *aiw ← ew في الألمانية القديمة العليا، وهذا ما حدث لغيرها من الكلمات التي تحتوي على المجموعة aiw : وتغير w الى o في آخر الكلمة، فنتج عن ذلك eo الذي انتقل بدوره الى io، eo طبقاً للقواعد العامة الأخرى : وأخيراً تغير io فأصبح ie وje ومنه جاء je في الألمانية (لاحظ das schonste, was ich je gesehen haben أجمل ما رأيته).

فالكلمة الحديثة لا تحتوي على أي من العناصر الأصلية إذا نظرنا إليها من زاوية البداية والنتيجة النهائية. وإذا نظرنا الى كل خطوة بصورة منفصلة وجدناها واضحة ومنظمة ومحددة في أثرها. أما إذا نظرنا الكلمة بأكملها حصل لدينا إنطباع بحدوث عدد غير محدود من التغييرات. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن الكلمة اللاتينية calidum، فنهمل أولاً الأشكال التي مرت بها الكلمة ونقارن الشكل الأخير بالكلمة الفرنسية so (التي تكتب chaud «حار») ثم نتبع الخطوات الآتية : calidum ← calidu ← caldu ← cald ← calt ← tsalt ← tsaut ← šot ← šo.

كما يمكن مقارنة كلمة *waidanju في اللاتينية العامية التي أصبحت ge (وتكتب gain ريع)، وminus ← mwe (التي تكتب moins «أقل») وhoc illi ← wi (تكتب oui «نعم»). كما ان التغيير الصوتي غير محدد، لأنه يؤثر في جميع أنواع الاشارات، فلا يميز بين الأصل باللاحقة وغيرهما. ولا بد ان يصح هذا سلفاً، فاذا تدخل النحو امتزجت الظاهرة الصوتية بالحقيقة السنكرونية، وهو أمر يستحيل حدوثه من حيث الأساس. ونستطيع من هذا المنطلق ان نقول ان للتطورات الصوتية طبيعة عمياء.

فعلى سبيل المثال وقع الصوت s في الاغريقية بعد n ليس فقط في *khanses (اوز)، *mensis (اشهر)، (ومنها جاءت الكلمتان khènes, menes) حيث لم تكن له أية قيمة في القواعد، بل حدث الشيء نفسه في صيغ الأفعال مثل *etensa *ephansa وغيرهما (ومنها جاءت الكلمتان éphéna, éteina) التي كانت تدل على الماضي. وفي الألمانية العليا الوسيطة تغيرت الحركات i, e, a, o الواقعة بعد المقطع المشدد، وأصبحت بصورة منتظمة e (gibil ← giebel, meistar ← Meister) مع ان عدداً من حالات الاعراب لنهاية الكلمة تميزت باختلاف في الجرس الصوتي timbre. وبهذه الطريقة اندمجت صيغة النصب المفرد boton وحالة المفعول غير المباشر المفرد boten وأصبحت صيغة واحدة boten. وهكذا يؤدي التغيير الصوتي الى اضطراب شديد في جهاز القواعد، إذا لم يمنعه عائق : وهو موضوع الفصل القادم.

## الفصل الثالث

## التطور الصوتي وأثره في القواعد

## ١ - كسر قيد القواعد

في مقدمة نتائج الظاهرة الصوتية كسر قيد القواعد الذي يربط بين وحدتين أو أكثر فلا يشعر المرء نتيجة ذلك ان كلمة ما قد اشتقت من كلمة أخرى:

masió •mansionáticus

«تدبير شؤون البيت» ménage // maison «بيت» .

كان العقل الجماعي لمجتمع المتكلمين ينظر في السابق الى عبارة *mansió — náticus على انها مشتقة من mansió. ثم فصلت التغييرات الصوتية بين العنصرين. وينطبق الشيء نفسه على : (vervéciarius — vervéx) في اللاتينية العامية berbiciarius — berbix brebis «نعجة» // berger «راعي الغنم».

ومن الطبيعي أن يؤثر هذا الفصل في القيمة. ففي بعض اللهجات المحلية تعني كلمة berger قطعاً من الثيران. وهذه أمثلة أخرى:

Gratianopolis — grātiā nopolitanus | | | | decem — undecim

أحد عشر onze // عشرة dix Grenoble II Grésivaudan ومثال ذلك في  
 الفوطية bitan «بعض» bitum «نحن نعض» bitr «مر، عملية العض». وحدث في الألمانية  
 الغربية ان تغير الصوت t الى (z) ts من جهة واحتفظت اللغة بالمجموعة tr من جهة أخرى،  
 لذا نجد فيها bizumc bizan // bitr.

أضف الى ذلك ان القطور الصوتي قد يكسر العلاقة الاعتيادية بين صيغتين صرفيتين لكلمة واحدة. مثال ذلك، تغيرت الصيغتان comes — comitem في الفرنسية القديمة وأصبحت cuens // comte ، baro — baronem ← ber // baron ، presbiter — presbiterum ← prestre // provoire .

وقد تنقسم نهاية الكلمة الى الكلمتين، ففي اللغة الهندية - الأوربية الأولى كانت تنتهي صيغة النصب في المفرد بالصوت m - (كما في *ek, wom , *podm , matern وغيرها. (٤٦)

أما في اللاتينية فلم يحدث تغيير جذري بهذا الاتجاه. ولكن جميع الأصوات الصائتة sonant والساكنة con — sonant الأنفية في الإغريقية تطورت تطوراً مختلفاً، فنتج عن ذلك ظهور فصيلتين من الصيغ : hippon ، ó (w) in يقابلهما mitera, póda. وتشير صيغ

(٤٦) اوبالصوت  $n$  — انظر الجزء الاول ، الفصل الثاني ، الفقرة ٦ .

النصب في الجمع الى حقيقة مشابهة لما ذكرنا آنفاً (لاحظ hippous و pódas).

## ٢ - محور تركيب الكلمة

وقد يؤدي التغير الصوتي الى أثر آخر في القواعد، فتصبح الأجزاء المتميزة التي تساعد على تحديد قيمة الكلمة غير قابلة للتحليل. وتغدو الكلمة وحدة واحدة غير قابلة للتقسيم. وهذه بعض الأمثلة: في الفرنسية ennemi «عدو» (وفي اللاتينية amicus — in — imicus)، في اللاتينية perdere (لاحظ الصيغة القديمة per — dare)، amicium (بدلاً من jacio * ambjacio). وفي الألمانية Drittel (بدلاً من Teil — drit — teil).

مما لا شك فيه ان محور تركيب الكلمة يتعلق، في نواح كثيرة بأواصر القواعد (لاحظ الفقرة الأولى فيما تقدم). مثال ذلك نبدأ بكلمة ennemi فنقول انها غير قابلة للتحليل، وهذا القول يعني ان أجزاءها لا يمكن مقارنتها بعضها ببعض الآخر، كما كانت الحال في in — imicus المشتقة من amicus. فالصيغة:

amicus — inimicus

ami || ennemi

## تشبه كثيراً

mansió — mansiónaticus

maison || ménage

لاحظ أيضاً decem — undecim في مقابل dix // onze.

وتعود الصيغ البسيطة في اللاتينية الكلاسيكية hanc, hunc, hác وغيرها الى hon — ce, han — ce, ha — ce (وتدل على ذلك النقوش التي وجدت في أماكن مختلفة).

والصيغ البسيطة هي نتيجة لصق الضمير بالحرف — ce. وكان باستطاعة المرء أن يقارن بين hon — ce الى آخره و ec — ce وغيرها في السابق: ثم لم تعد هذه المقارنة ممكنة بعد ان اختفى الصوت e: وبعبارة أخرى: إن عناصر hanc, hunc, hác وغيرها لم تعد متميزة.

فالتطور الصوتي يطمس معالم التحليل أول الأمر، ثم يجعل هذا التحليل غير ممكن. وهذا ما حدث في الأسماء في اللغة الهندية — الأوربية الأولى.

فكان تصريف الاسم في اللغة الهندية — الأوربية الأولى كالاتي: المفرد المرفوع

*pod — s النصب *pod — m الأداة *pod — ai، المكان *pod — i، الجمع المرفوع *pod — es والنصب *pod — ns، الى آخره. وكان اعراب *ek, wos أول الأمر مماثلاً لهذا:

*ek, wo — s، *ek, wo — m، *ek, wo — ai، *ek, wo — i، *ek, wo — es، *ek, wo — ns الى آخره.

وكانت الصيغة *ek, wo تشخص في تلك الفترة بسهولة شأنها شأن *pod. ولكن

هذه الحالة تغيرت عندما تقلصت الحركات، فأصبحت المفعول غير المباشر *ek, woi والمكان



*ek, woi والرفع في الجمع *ek, wos. تتأثر منذ تلك اللحظة، الكيان والمميز للأصل — *ek wo وتعذر تحليله وحصلت تغييرات أخرى بعد ذلك كالتمييز بين حالات النصب (لاحظ ما ذكرنا سابقاً فاختلف آخر أثر للحالة الأصلية. وربما كان معاصرو المؤرخ الكاتب زينفون Xenophon يعتقدون أن الأصل هو — hipp وان الاعراب في نهاية الكلمة هو المقطع الحركي (hipp — os الى آخره) ونتج عن ذلك التمييز بين نهايات الكلمات مثل *ek, wo — s و *pod — s. ففي الاعراب كما في غيره من الأمور، كل ما يؤثر في التحليل إنما يساعد على التخفيف من قيود القواعد.

### ٣ - لا وجود للثنائيات الصوتية Phonetic doublets

نلاحظ في الحالتين اللتين ذكرناهما (في الفقرتين الأولى والثانية) أن التطور أدى جذرياً الفصل بين عنصرين: كانا في الأصل متحدين في القواعد. وقد تؤدي هذه الظاهرة الى خطأ جسيم في تفسيرها.

فعندما يلاحظ المرء التشابه النسبي بين الكلمتين barō : barōnem في اللاتينية و الاختلاف بين الكلمتين ber : baron في الفرنسية القديمة أفلا يحق له أن يقول إن هناك وحدة أصلية (— bar) تطورت باتجاهين مختلفين ونتجت عنها لفظتان؟ كلا، لأن الوحدة نفسها لا يمكن أن تخضع لتغييرين مختلفين في آن واحد ومكان واحد. إن مثل هذا التغيير يناقض تعريف التغيير الصوتي نفسه. فالتطور الصوتي، وحده، لا يمكن أن يخلق لفظتين تحلان محل لفظة واحدة.

ونورد بعض الاعتراضات التي قد يثيرها المرء على الرأي الذي ذكرته، نذكرها فيما يأتي بالأمثلة:

ربما يقول قائل لقد نبع من كلمة collocare كل من coucher «ينام» و colloquer «يضع». هذا غير صحيح، لقد أخذت منها كلمة coucher فقط، أما colloquer فهي كلمة أدبية فصلى اقتبست من اللاتينية (لاحظ rançon «فدية» و rédemption «فداء»).

وهذا اعتراض آخر، كلمة cathedra أعطتنا كلمتين حقيقتين في الفرنسية هما chaire «منبر» و chaise «كرسي». والصحيح أننا كثيراً ما ننسى أن chaise هي كلمة تعود الى إحدى اللهجات المحلية. وفي اللهجة الباريسية تغير الصوت r بين حركتين الى z. فكان المتكلم يقول - على سبيل المثال - mèse, pèse بدلاً من père «اب» و mère «ام». ولن تحتفظ الفرنسية الأدبية إلا بلفظتين من اللهجة المحلية هما chaise و besicles والكلمة الأخيرة (ثنائية béracles «نظارات» المشتقة من béryl «حجر ثمين»). وينطبق الأمر نفسه على كلمة rescape من لغة بيكارد. «الذي ينجو من الموت أو الأذى» التي شاعت الآن في الفرنسية، وتقابل الآن «الذي هرب من السجن». وفي الفرنسية cavalier «راكب» و chevalier «فارس» و cavalcade «ركوب» و chevauchée «المسافة التي قطعت» وجدت جميعها جنبا إلى



جنب لأن كلمتي cavalier وcavalcade اقتبستا من الإيطالية. ومثل هذا حدث لكلمة calidum التي أصبحت chaud «حار» في الفرنسية وcaldo في الإيطالية. ان جميع الأمثلة المارة الذكر هي حالات من الاقتباس.

أما الجواب عن الاعتراض القائل إن الضمير mé في اللاتينية قد نتج عنه ضميران في الفرنسية هما me وmoi (كما في il me voit = يراني، c'esk moi qu'il voit أنا الذي يرى) فهو كالآتي: ان الضمير: mé غير المشدد في اللاتينية أصبح me في الفرنسية في حين أصبح mé المشدد moi. ووجود الركيزة أو عدم وجودها لا يعتمد على القوانين الصوتية التي جعلت mé تتحول الى me وmoi: بل يعتمد على وظيفة الكلمة في الجملة: وهذه ثنائية قواعدية. وبهذه الطريقة ذاتها بقي العنصر —ur* في الألمانية على حاله إذ كان مشدداً، وأصبح —er إذا وقع قبل الركيزة (كما في ertauben وurlaub) ولكن وظيفة التشديد نفسها مرتبطة بالأنماط التركيبية التي تحتوي على ur، وبذلك فهي مرتبطة بعامل للقواعد عامل سنكرونى. وأخيراً. نعود الى المثال الأول، ففروق الشكل والركيزة في الكلمتين barónem: báró تعود، ولا شك، الى الفترة السابقة للتغيرات الصوتية.

إنَّ الثنائيات doublets الصوتية لا وجود لها. وتطور الأصوات لا يؤكد إلا الفروق السابقة. وإذا كانت هذه الفروق لا تنبع من العوامل الخارجية (كما في الكلمات المقتبسة)، فهي تنطوي على ثنائية في القواعد وفي السنكرونية: وهذه الحالات الثنائية لا علاقة لها بالتغيرات الصوتية.

#### ٤ - التداول

قلما تثير اهتمامنا كلمتان مثل maison وménage كي نحاول أن نجد سبب الفرق بينهما: لأن العناصر التي تفصل بينهما (zö - و en -) لا تخضع للمقارنة بسهولة، أو لعدم تكرار مثل هذا النمط في اللغة. ولكن غالباً ما نجد كلمتين متشابهتين في كل شيء إلا في عنصر واحد أو عنصرين، يسهل تشخيصهما، ثم اننا نجد هذا الفرق يتكرر في مجاميع تتألف من أزواج مماثلة. هذا ما نسميه التداول: وهو أكثر حقائق القواعد شيوعاً وأكبرها عدداً بين الحقائق، التي تقوم فيها التغيرات الصوتية بدور مهم.

إن الصوت o في المقاطع المفتوحة في اللاتينية أصبح eu في الفرنسية إذا كان مشدداً ou إذا سبق المقطع المشدد: وأدى ذلك الى ظهور أزواج مثل pouvons «نقدر» وpeuvent «يقدر» وoeuvre «عمل» وouvrier «عامل» وneuf : nouveau «جديد» وغيرها، حيث يسهل علينا ان نشخص عامل الفرق، ووجوده تشخيصاً منتظماً في هذه الكلمات. واستعمال «الصوت» «راء» في اللاتينية أدى الى تداول gero مع gestus؛ وoneris مع onus وmaeor مع maestus: وغيرها. ولما كان الصوت z يختلف حسب موقع الركيزة في اللغات

الجرمانية استعملت الألمانية العليا الوسيطة : fiesen gekoren : kissen , ferloren : ferliesen : gefroren وغيرها. واختفاء الصوت e من اللغة الهندية - الأوربية الأولى قد انعكس في الألمانية الحديثة في التقابل بين الأزواج الآتية ritt : reiten , Litt : Leiden , biss : beissen وغيرها.

إن العنصر الذي يتناوله التغيير في جميع الأمثلة، مارة الذكر هو الأصل. بيد أن التقابل يمكن أن يظهر في أي جزء الكلمة فالبادئة prefix التي تتخذ أشكالاً مختلفة طبقاً لتركيب الجزء الأول من الأصل مألوفة جداً (كما في ap — erchomai apo — didomai في الاغريقية، و inconnu «غير معروف» و inutile «غير ذي فائدة» في الفرنسية). والتداول بين الصوتين e : o في الهندية - الأوربية الأولى الذي يعتمد في جوهره على أساس صوتي، يظهر في عدد كبير من عناصر اللاحقة suffix (كما في الكلمات الاغريقية híppe : híppos , gén — es — os بدلأ من gén — e — os : gén — os , pher — e — te : phéro — men وغيرها).

وقد نظرت اللغة الفرنسية القديمة نظرة خاصة الى الصوت اللاتيني المشدد a الذي يلي الأصوات الحنكية، وأدى ذلك الى التداول بين e : ie في عدد من اعراب أواخر الكلمات. (كما في jug — ier : chant — er , jug — ie : chant — e , jug — ez , chant — ez , jug — iez وغيرها).

يمكن تعريف إذن التداول بأنه التطابق الموجود بين صوتين معينين أو مجموعتين من الأصوات والتغيير المنتظم الذي يقع بين مجموعتين من الأشكال الموجودة معاً.

إن التغييرات الصوتية وحدها لا يمكن أن تفسر الثنائيات، كما انها ليست السبب الوحيد والسبب الأساس للتداول. فالذي يقول ان العنصر — nov في اللاتينية أصبح new — و now و neuve و nouveau في الفرنسية) بسبب التغيير الصوتي إنما يخلق وحدة خيالية، ويغفل عن رؤية ثنائية سنكرونية. فاختلاف موضع العنصر — nov في nov — us و nov — ellus سابق للتغيير الصوتي ويخص ولا شك القواعد (لاحظ baro iusl : baronem) فالثنائية السنكرونية هي التي تخلق وتصنع جميع أنواع التداول. أما الظاهرة الصوتية فلم تكسر أية وحدة : بل انحصر عملها في إبراز التقابل بين العناصر الموجودة عن طريق نبذها لبعض الأصوات. فمن الخطأ الشائع عند كثير من اللغويين الزعم بأن التداول ظاهرة صوتية، لأن مادة التداول الأصوات. وهي مسؤولة عن خلقه عن طريق تداول هذه الأصوات. والصحيح ان التداول - سواء نظرنا اليه من نقطة البداية أو من النتيجة النهائية - إنما هو دائماً، جزء من القواعد السنكرونية.

## ٥ - قوانين التداول

هل يمكن أن نخضع التداول للقوانين؟ وإذا كان الجواب بالاثبات، فما طبيعة هذه

لنأخذ تداول الصوتين e : i الذي يقع كثيراً في الألمانية الحديثة. فإذا وضعنا جميع الأمثلة السابقة سوية وتأملناها من دون تمييز (Wittern: Wetter, Gefilde: Feld, gibt: geben, Sicht: sehen, Hilfe: helfen وغيرها. فإننا لا نستطيع أن نصوغ أية قاعدة عامة: أما إذا استخرجنا من المجموعة العشوائية الزوج geben: gibt وقابلناه بالأزواج الآتية Schilt: Schelten, hilft: helfen, nimmt: nehmen وغيرها. فسنرى أن التداول يتفق مع التمييز بين الصيغة الزمنية، وصيغة المتكلم أو المخاطب أو الغائب، وغيرها. وفي Lange: lang, Starke: stark, Harte: hart وغيرها. يرتبط هذا التقابل بتكوين الأسماء من الصفات: وفي Hande: Hand, Gaste: Gast وغيرها، يدلّ التقابل على صياغة الجمع، وهكذا بالنسبة لكثير من الحالات التي يصنفها طلاب اللغة الألمانية تحت ما يسمى ابلات (ablaut) (استبدال الحركة). (لاحظ أيضاً fand: finden أو Fund: finden, band: binden أو Bund: binden, Fluss: floss, Fliessen: Schuss, Schoss: Schiessen وغيرها).

فظاهرة ابلات أو تنوع حركة الأصل التي تتفق مع التقابل في القواعد، إنما هي أهم مثال للتداول، ولا تتميز عن ظاهرة التداول عامة بأية صفة خاصة. وهكذا فالتداول، عادةً، يتوزع بصورة منتظمة بين عدد من العناصر ويتفق مع تقابل مهم في الوظيفة، أو الصنف أو التحديد. ويمكن للمرء أن يتحدث عن القوانين القواعدية للتداول، ولكن هذه القوانين إنما هي نتيجة عرضية للحقائق الصوتية التي ترتكز عليها. وعندما تخلق الحقائق الصوتية تقابلاً منتظماً بين مجموعتين من العناصر التي لها تقابل في القيمة، يدرك العقل في الحال الفرق المادي، فيضفي عليه دلالة، ويجعل منه عاملاً، يحمل الفرق بين الفكرة (لاحظ الجزء الأول، الفصل الثالث). فقوانين التداول، كبقية القوانين السنكرونية، إنما هي مبادئ تركيبية بسيطة: فهي غير ملزمة. ومن الخطأ أن نقول، كما يفعل البعض، أن الحركة a في Nacht تتحول إلى a في صيغة الجمع Nachte لأن هذا يوهم المرء بأن تغييراً يتحكم فيه مبدأ ملزم يأتي بين عنصر وآخر. والصحيح أن الحالة التي نحن بصدها هي تقابل بسيط للأشكال (الصيغ) ناتج عن التطور الصوتي. أن القياس (الذي سنتحدث عنه في الفصل السادس) يمكن أن يخلق أزواجاً جديدة؛ يظهر فيها الفرق الصوتي نفسه (كما في Kranz: Kranze اللذين صيغا على قياس Gaste: Gast). وهكذا يبدو أن القانون ينطبق كما تنطبق القاعدة التي تتحكم بالاستعمال فتغيره. ولكن ينبغي أن نتذكر أن هذه التغييرات تقع في اللغة تحت رحمة عوامل قياسية متضاربة، ويكفي هذا للدلالة على أن هذه القواعد غير مستقرة دائماً، ينطبق عليها بدقة تعريف القانون السنكروني.

وقد يكون السبب الصوتي للتداول ما يزال واضحاً في بعض الأحيان. ففي الألمانية

القديمة العليا مثلاً كانت الكلمات *geben: gibt*، *Feld: Gefilde* (وغيرها من الكلمات، مارة الذكر) لها الأشكال *geban: gibit*، *feld: gefildi* فكان الأصل في تلك الفترة يحتوي على الصوت *i* بدلاً من *e* إذا أعقبه *i* وعلى *e* في الحالات الأخرى. كما يرتبط التداول في الكلمات اللاتينية *conficio: facio*، *inimicus: amicus*، *difficilis: facilis* وغيرها بشرط صوتي: ربما عبر عنه المتكلمون بقولهم: ان الصوت *a* في الكلمات *amicus: facio* يتداول مع *i* في المقاطع الوسيطة لكلمات الصنف نفسه.

بيد أن جميع أمثلة التقابل الصوتي المذكورة آنفاً تشير إلى الملاحظات نفسها التي تشير إليها قوانين القواعد: أي أنها سنكرونية. فإذا نسبنا هذا الأمر وقعنا في خطأ التفسير الذي أشرنا إليه سابقاً (لاحظ الجزء الأول، الفصل الثال، الفقرة ٩). فعند دراستنا لزواج من الكلمات مثل *conficio: facio* ينبغي أن لا نخلط العلاقة بين هاتين الكلمتين الموجودتين في وقت واحد بالعلاقة التي تربط الكلمات المتعاقبة التي تعود إلى الحقيقة الدايكرونية (*confació ← confició*) إذ قد نخلط بين العلاقتين طالما أن السبب الصوتي الذي يفرق بينهما ما يزال ظاهراً في الكلمتين: ولكن الحقيقة الصوتية تعود إلى الماضي، والمتكلم لا يدرك إلا التقابل الدايكروني في مثل هذه الحالة.

كل هذا يؤكد ما قلناه عن الطبيعة القواعدية للتداول. وقد استخدمت لفظة الابدال *permutation* بدلاً من التداول - وهي مناسبة في بعض الأحيان، ولكن ينبغي تجنبها لأنها كثيراً ما استخدمت للدلالة على التغييرات الصوتية، وتوحي، خطأ، بوجود حركة، حيث لا يوجد سوى حالة لغوية.

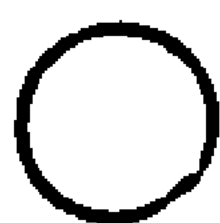
## ٦ - التداول وقيد القواعد

لقد رأينا كيف يكسر التطور الصوتي أواصر القواعد التي تربط بين الكلمات، عن طريق تغيير شكل الكلمات. ولكن هذا ينطبق فقط على أزواج مفردة معزولة مثل *Drittel: Teil* و *ménage: maison* وغيرها، ولا ينطبق على التداول.

إذ يتضح منذ البدء أن أي تقابل صوتي منتظم وإن كان ضئيلاً، بين عنصرين يمكن أن يؤدي إلى إقامة آصرة بينهما. فالتكلم يربط بالفطرة بين كلمة *Wittern* و *Wetter* لأنه قد إعتاد على ظاهرة التداول بين *e* و *i*. وما أن يشعر المتكلم بوجود قانون عام يتحكم بالتقابل الصوتي، حتى يصبح التطابق أشد وقعاً على العقل، ويساعد ذلك على تعزيز آصرة القواعد وليس تخفيفها. وهذا يفسر كيف أن تغيير الحركة *ablaut* في الألمانية ساعد على تشخيص وحدة الأصل من خلال التغيير في الحركات (لاحظ الفقرتين ٤ و ٥ السابقتين).

ويصح الشيء نفسه في أمثلة التداول غير المهمة التي ترتبط بشرط صوتي. ففي

الفرنسية نلاحظ ان البادئة re - (كما في reprendre «يأخذ ثانية»، regagner «بعيد ثانية»، retoucher «يلمس ثانية» وغيرها) تختزل الى r - قبل الحركة (كما في rouvrir «يعيد فتح» racheter «يشترى ثانية» وغيرها). ونلاحظ الشيء نفسه والظروف ذاتها في البادئة in - التي ما تزال تستخدم كثيراً مع انها من أصل ثقافي عال، فلهذه البادئة صيغتان : - é (كما في inconnu «غير معروف»، indigne «غير مستحق» invertébré «لا فقريات» وغيرها). و - in (كما في inavouable «لا يسمح به» inutile «غير مفيد» inesthétique «لا جمالي» وغيرها). إن هذا الفرق لا يكسر أبداً وحدة الفكرة، فالمعنى والوظيفة في هذه الحالة شيء واحد، وقد حددت اللغة متى تستخدم أحدهما، ومتى تستخدم الأخرى.



## الفصل الرابع

### القياس

#### ١ - تعريف وأمثلة

لقد اتضح الآن أن التطور الصوتي عامل يخل بتركيب الكلمة . فهو اذا لم يؤد الى التداول ، ساعد على التخفيف من قيود القواعد بين الكلمات : فيزداد العدد الكلي للصيغ من دون فائدة : ويصيب الغموض والتعقيد العمل اللغوي حتى ان الصيغ الشاذة التي تولد من التغييرات الصوتية تنتصر على الصيغ التي تدخل في انماط عامة . وبعبارة اخرى تنتصر الاعتباطية المطلقة على الاعتباطية النسبية (لاحظ الجزء الثاني).

بيد ان القياس يعادل أثر التحويلات الصوتية . فالقياس مسؤول عن جميع التغييرات الاعتيادية غير الصوتية التي تحدث للجزء الخارجي للكلمات .

ويعتمد القياس على وجود نموذج والمحاكاة النظامية له . والصيغة القياسية هي الصيغة التي صنعت طبقا لنموذج صيغة اخرى او اكثر ، حسب قاعدة معينة .

فصيغة الرفع honor في اللاتينية ، مثلا هي صيغة قياسية . فقد استخدم المتكلمون اول الامر  $honós : honósem$  ، ثم حصل تغير ، نتيجة شيوع الصوت «راء» بدلا من s ، فاستخدم المتكلمون  $honos : honórem$  ، واصبح للاصل بعد هذه الفترة صيغتان . ثم اندثرت هذه الثنائية بعد ظهور الصيغة honor ، التي صيغت على نمط  $órátorem órator$  وغيرهما ، حسب طريقة يمكن ان نضعها على شكل معادلة :

(  $órátorem : órator = honorem$  )

( = honor )

وهكذا عادل القياس التنوع الذي سببه التغير الصوتي ( $honórem : honós$ ) ووجد الصيغ ثنائية كما أعاد الانتظام ( $honórem : honor$ ) .

لقد استخدم الفرنسيون مدة طويلة من الزمن  $il prouve, ils prouvent, nous prouvons$  . اما اليوم فيقولون  $il prouve$  «هو يبرهن»  $ils prouvent$  «هم يبرهنون» ، فهم يستخدمون صيغاً ليس لها تفسير صوتي . كما اشتقت العبارة  $il aime$  «هو يحب» من اللاتينية  $amat$  : في حين صيغت  $nous aimons$  «نحن نحب» على قياس  $amons$  كما ينبغي للمتكم ان يقول  $amable$  بدلا من  $aimable$  «حلو المعشر» . وفي الاغريقية اختلف الصوت s الواقع بين حركتين : فتغيرت المجموعة -  $eso$  الى -  $eo$  (كما في  $géos$  بدلا من  $génesos$ ) .*

ومع ذلك ما زال الصوت s مستخدما في صيغة المستقبل والماضي ، رغم وقوعه بين

حركتين : (كما في élúsa, lúso وغيرها) . حيث إن القياس بصيغ مثل túpsó étupsa التي احتفظت بالصوت s أدى الى الابقاء على s في المستقبل والماضي . اما في الالمانية فان Bälge : Balg , Gäst : Gast صيغ صوتية ، والصيغ kranze : kraz (سابقاً kränza : kranz) ، Halse : Hals (سابقاً halsa) ، وغيرها مدينة بوجودها الى المحاكاة .

يفصل القياس الانتظام . ويجنح نحو توحيد الاساليب الاعرابية وأسلوب التركيب . ولكنه قد لا يكون منطقياً : فنجد ، فضلاً عن kränze : kranz أمثلة من طراز Salze, Salz, Tage : Tag التي قاومت القياس لسبب أو آخر . اذن لا يمكننا التكهن عن أي مدى تبلغ محاكاة نموذج ما ، وما هي الانماط التي تؤدي اليها المحاكاة . والصيغ الكثيرة لا تؤدي ، بالضرورة ، الى انبثاق القياس . فصيغة التام في الاغريقية هي في المبني للمعلوم pepheugamén, pépheugas, pépheuga ولكن الصيغ الوسيطة يكون تصريفها دون الصوت a : كما في pepheugmetha, pepheugmai وغيرهما : وتبين لغة هوميروس أن الصوت a لم يكن له وجود في العصور السابقة : في صيغة الجمع والمثنى المبني للمعلوم (لاحظ eikion, idmen وغيرهما) . فقد بدأ القياس من صيغة المتكلم المفرد المبني للمعلوم . ثم شاع في جميع أنماط صيغة الكامل الخبري . ولهذا التطور اهمية ، لان القياس تناول الصوت a وكان في الاصل أحد عناصر الصرف - وربطه بالاصل فنتج عن ذلك pepheuga — men . والشائع هو عكس ذلك ، اي ربط احد عناصر الاصل الى اللاحقة (لاحظ الفصل الخامس آنفاً) .

وكثيراً ما تكفي كلمتان أو ثلاث لخلق صيغة عامة كما في النهاية الاعرابية ففي الالمانية القديمة العليا تنتهي الأفعال الضعيفة weak مثل lobon, haben في صيغة المضارع المسند الى المتكلم بالصوت m — . وقد اشتق الصوت m — من عدد من الأفعال ، التي تشبه الأفعال الاغريقية المنتهية بالصوتين : m — (كما في tuom, gum, *stam, bim) ، وطغت هذه الأفعال على تصريف الأفعال الضعيفة كلها فغيرت نهاية الفعل . ويلاحظ أن القياس هنا لم يبلغ فرقاً صوتياً بل اشاع اسلوباً في الصياغة .

## ٢ - الظواهر القياسية ليست تغييرات

لم يفهم اللغويون الاوائل طبيعة ظاهرة القياس التي سموها «بالقياس الكاذب» فظنوا ان اللاتينية ارتكبت خطأ بحق النمط الاساس honos عندما ابتكرت الصيغة honor . اذا كانوا يعدّون كل شيء يخرج على الحالة الاصلية شذوذاً وتشويهاً لصيغة مثالية فوقعوا في الوهم الذي كان سائداً في عصرهم ، حين نظروا الى الحالة الاصلية للغة على انها شيء مثالي كامل . ونتج عن ذلك أنهم لم يسألوا انفسهم سؤالاً بسيطاً هل سبقت تلك الفترة المثالية فترة اخرى ؟ . لقد عدّوا كل خروج على هذه الحالة من باب الشذوذ

والغربة في اللغة وأول من وضع القياس في مكانه المناسب هو مدرسة القواعد الجديدة ،  
اذ بينت هذه المدرسة ان القياس ، والتغييرات الصوتية ، هما العاملان الأساسان في  
تطور اللغات . وهو الأسلوب الذي به تمر اللغات من حالة من التنظيم الى حالة اخرى .  
ولكن ما الظواهر القياسية ؟ يعتقد الناس عادة انها تغييرات . فهل هي كذلك ؟ إن  
الحقيقة القياسية تتألف من تفاعل ثلاثة عناصر هي :

١ - العنصر التقليدي ، وهو الوريث الشرعي (مثال ذلك honor) .

٢ - العنصر المنافس (honor) .

٣ - والطبيعة الجماعية التي تتألف من الصيغ التي خلقت المنافس  
(órátorem, órátor, honórem وغيرها) . وقد يفترض المرء أن صيغة honor هي تعديل او  
«تغير» لكلمة honor . فيقول إن هذه الكلمة استحدثت جل مادتها من honor . والصحيح  
ان الصيغة الوحيدة التي لم تشترك في خلق كلمة honor هي honor نفسها .  
ويمكن توضيح ظاهرة القياس بالجدول الآتي :

### الصيغة الجديدة

### الصيغ التقليدية

honor

honor (ليس لها دور في خلق الكلمة)

honorém, órátor, órátoem وغيرها

(مجموعة فعالة في خلق الكلمة الجديدة)

نلاحظ هنا ، على وجه التحديد ، ظاهرة اقامة منافس الى جانب الصيغة التقليدية  
ويطلق عليها «paraplasme» . وهي ، اختصاراً ، ظاهرة خلق . والتغير الصوتي لا يأتي  
بشيء جديد من دون أن يلغي الشيء الذي سبقه (فكلمة honorém تحل محل honorém) ، أما  
القياس فلا يؤدي بالضرورة الى اختفاء الصيغة القديمة . إذ عاشت الصيغة honor جنباً  
الى جنب مع honor مدة طويلة من الزمن واستخدمت الواحدة بدلا من الأخرى . وعلى كل  
حال تكره اللغة الاحتفاظ بدالين لفكرة واحدة ، ولما كانت الصيغة الأصلية اقل انتظاماً  
فقد قل استعمالها ثم اختفت . فبدت نتيجة ذلك وكأنها تحول . فالقياس ما ان ينتهي من  
عمله ، حتى يظهر التقابل بين الحالة القديمة (honorém : honor) والحالة الجديدة  
(honor : honorém) وكأنه التقابل الناتج عن تطور الأصوات .

والحقيقة أن ظهور honor الى الوجود لم يغير شيئاً طالما ان honor لم تحل محل اي  
كلمة : كما ان اختفاء كلمة honor ليس تغييراً ، لان هذه الظاهرة لاعلاقة لها بالظاهرة  
الاولى . فحيثما تتبعنا مجرى الحوادث اللغوية ، وجدنا ان خلق صيغة جديدة عن طريق



القياس واختفاء الصيغة القديمة ، هما شيئان مختلفان ، ولانجد تحويلا في اي من هذه الامثلة .

لا يتميز القياس ، إذن ، باستخدام صيغة عوضا عن صيغة اخرى ، بل يؤدي الى خلق صيغ لاتحل محل أي شيء . فالالمانية يمكنها ان تصوغ اسم التصغير باستخدام chen - في الاسماء ذات المعنى الملموس . واذا دخلت الصيغة Elefantchen اللغة فهي لا تحل محل كلمة اخرى . في الفرنسية ، كذلك ، يستطيع المرء ان يصوغ interventionnaire répressionnaire وغيرها بمعنى «الذي يدعم التدخل» و «الذي يدعم القمع» .. الى آخره ، استنادا الى النموذج pension : pensionnaire (تقاعد : له علاقة بالتقاعد) ، réaction réactionnaire (رجعية ، رجعي) الى آخره .

ان هذه العملية تشبه تلك التي نتجت عنها كلمة honor فكلتاها توجي بالمعادلة ذاتها :

(: réaction : réactionnaire = répression)

( = répressionnaire

ولا يوجد في أي من الحالتين ما يسوّغ الحديث عن التغيير : ان répressionnaire لاتحل محل اية كلمة . وهذا مثال آخر : يستخدم بعض الفرنسيين الصيغة القياسية finaux بدلا من finals التي تُعدّ عادة الصيغة الصحيحة . وقد يبتكر احدهم الصيغة firmamental ويستخدم لها صيغة الجمع firmamentaux . هل ينبغي ان نقول بوجود تغيير في finaux وخلق كلمة جديدة في firmamentaux ؟ الصحيح ان الحالتين تقعان ضمن عملية الخلق . فقد ابتكر المتكلمون على نمط mur «حائط» enmurer «يحيط» الصيغ tour «غير الاتجاه» entourer «يحيط» و jour «ضوء» ajourer «يفتح» (كما في un travail ajoure «الشيء الذي يسمح بالضوء : مخرم») ان هذه الاشتقاقات الحديثة هي عملية خلق - على ما يبدو . واذا لاحظت ان entorner و ajourer اللتين اشتقا من torn و jorn قد استخدمتا في فترة سابقة ، فهل ينبغي ان اغير رأيي وأقول ان entourer و ajourer هما تعديل الصيغتين القديمتين ؟ ان الوهم الذي يقول ان القياس تغيير انما هو ناتج عن إقامة علاقة بين الصيغة الجديدة والصيغة القديمة التي تحل محلها . ولكن هذا خطأ طالما ان التكوين الذي يصنف على أنه تغيير (كما في honor) في جوهره هو الشيء نفسه الذي اطلقت عليه الخلق (كما في répressionnaire).

### ٣ - القياس عامل خلق في اللغة

بعد ان نظرنا في الأمر الذي لا يمكن ان يكون قياساً، نبدأ الآن بدراسة القياس

نفسه وما يعنيه. فنجد ان القياس على ما يبدو يمتزج بمبدأ الابتكار اللغوي بصورة عامة. فما هذا المبدأ.

القياس عملية سايكولوجية، ولكن هذا لا يكفي لفصله عن الظواهر الصوتية، لأن هذه الظواهر أيضاً يمكن عدها سايكولوجية (لاحظ الفصل الثاني آنأ. إذن ينبغي أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان القياس جزء من القواعد، فهو ينطوي على شعور المرء وإدراكه وجود علاقة بين الصيغتين. ولا مكان للمعنى في التغيير الصوتي، في حين يدخل المعنى في القياس.

وأغلب الظن ان الانتقال من الصوت s الواقع بين حركتين الى الصوت r في اللاتينية لم يكن له أية علاقة مقارنة بالصيغ الأخرى أو بالمعنى. فهيكل صيغة hon' osom قد انتقل الى hon' orem. في حين يجب تناول صيغ أخرى، كي نفسر ظهور honor الى جانب hon' or. وهذا ما تبينه المعادلة الآتية:

$$\text{orátorem i orátor} = \text{honorem} \text{ : (1)}$$

$$(\text{ } = \text{honor})$$

فلولا ان العقل يربط بين الصيغ المختلفة عن طريق المعاني لما كان للمجموعة الجديدة أي أساس.

إن القياس بأكمله يقع ضمن القواعد، ولكن ينبغي أن نضيف في الحال ان نتيجته النهائية - الخلق - إنما تعود في أول الأمر الى الآلام. فهي الناتج الطارئ لتكلم واحد. وعلينا أن نبحث عن هذه الظاهرة، في الأمر، في حواشي اللغة. وعلى كل حال ينبغي أن نفصل بين أمرين هما:

(١) الشعور بالعلاقة التي تربط بين الصيغ المثمرة، و(٢) والنتيجة التي توحى بها المقارنة، أي الصيغة التي يرتجلها المتكلم للتعبير عن فكره. فالنتيجة وحدها تعود الى الكلام. القياس، درس آخر، يفرض علينا الفصل بين اللغة والكلام (لاحظ المقدمة، الفصل الرابع). فهو يوضح لنا ان الكلام يعتمد على اللغة، كما يشير الى جوهر الجهاز اللغوي الذي شرحناه في الجزء الثاني، الفصل السادس. فعملية الخلق، مهما كان نوعها، ينبغي ان تسبقها مقارنة لا شعورية لمحتويات الذخيرة اللغوية، حيث ترتب الصيغ المثمرة حسب علاقاتها السنتاكية والايحائية.

يكتمل الجزء الأكبر من ظاهرة القياس، إذن، قبل أن تظهر الصيغة الجديدة. فاللسان يقوم دائماً وبصورة مستمرة، بتحليل وحداته، وتنطوي هذه الفعالية على إمكانية الكلام الفعال، فضلاً عن إمكانية الابتكار عن طريق القياس. ومن الخطأ والاعتقاد ان عملية الخلق لا وجود لها الا في اثناء صيغة الكلمة الجديدة فعلاً. فالعناصر كانت موجودة هناك سلفاً. مثال ذلك ان كلمة جديدة مثل (in — décorable) كان لها وجود ممكن كامن في اللغة : فجميع عناصرها

موجودة في سنتاكلمات مثل décor — er «يزخرف» décor — ation «زخرفة» , pardonner — able «معذور» mani — able «يمكن تدبيره» in — connu «غير معروف» , in — sensé «مجنون» وغيرها والخطوة النهائية في تحقيق هذه الكلمة الجديدة في الكلام انما هي عملية بسيطة بالمقارنة مع تراكم القوى التي تجعل الكلمة ممكنة .

وموجز القول ، ان القياس ، اذا درس في حد ذاته ، جانب واحد من ظاهرة التفسير ، ومظهر واحد للفعالية العامة التي تشخص الوحدات التي تستخدم فيما بعد . وهذا ما يجعلني اقول ان القياس بأكمله يقع ضمن القواعد والظاهرة السنكرونية . والطبيعة القواعدية السنكرونية للقياس توحى لنا بمسألتين تؤكدان ما قلته عن الاعتبارية النسبية المطلقة (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل السادس) وهما :

١ - يمكن ان تقاس قدرة الكلمات على خلق كلمات اخرى استنادا الى قابلية الكلمات على التحليل . فالكلمات البسيطة بطبيعة تعريفها غير مثمرة (لاحظ magasin «مخزن» , arbre «شجرة» , racine «جذر» وغيرها) .

أما كلمة magasinier «صاحب المخزن» فلم تشتق على قياس magasin : بل على قياس prisonier «سجين» , prison «سجن» وغيرها . وكذلك emmagasiner «يخزن» فهي مدينة بوجودها الى القياس بالصيغ enmailloter «لف» و encadrer «يضع في اطار» و encapuchonner «يضع على رأسه قلنسوة» وغيرها . وهي تحتوي على maillot «قمباط» و cadre «طار» و capuchon «قلنسوة وغيرها» . كل لغة ، إذن ، تحتوي على كلمات مثمرة وكلمات عقيمة ، بنسب مختلفة . ويعود بنا هذا الامر الى التمييز بين اللغات «المعجمية» واللغات «القواعدية» . (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل السادس) . فأكثر الكلمات في الصينية غير قابلة للتحليل اما في اللغة المصطنعة فتكاد جميع كلماتها تخضع للتحليل . فالمتكلم بالاسبيرانتو (لغة مصطنعة) له مطلق الحرية في بناء كلمات جديدة من جذور معروفة .

٢ - لقد رأينا ، فيما تقدم ، أن الخلق عن طريق القياس يمكن التعبير عنه بهيئة معادلة . وتستخدم هذه الصيغة كثيرا لتوضيح ظاهرة الخلق بالقياس ، ولكننا وضحناها عن طريق تحليل العناصر التي تقدمها اللغة . وإعادة تركيبها . ان هاتين الفكرتين تتعارضان . فاذا كان اسلوب المعادلة ملائما لتوضيح هذه المسألة ، فلماذا يستخدم اسلوب تحليل العناصر ؟ ان صياغة كلمة indecorable لا يتطلب تحليلها الى عناصرها (in — décor — able) فكل ما نحتاج اليه هو ان نأخذ المسألة بأكملها ونضعها في معادلة :

( ) pardonner : impardonnable, etc = décorer :

( ) = indécorable

فانتكلم ، في هذه الحالة ، لايفترض عملية معقدة كالتحليل المقصود الذي يقوم به عالم القواعد ففي kranz : kränze التي صيغت على قياس Gast : Gäste وغيرها يبدو التحليل أقل احتمالا من المعادلة طالما ان جذر النموذج قد يكون - Gast او - Gast وربما انتقلت الميزة الصوتية لكلمة Gäste الى كلمة kranze .

أي من النظريتين إذن تطابق الحقائق ؟ (وينبغي ان نتذكر ان kranz لاتستبعد التحليل بالضرورة . اذ وجدنا التداول في الجذور والبادئة ، والشعور بالتداول قد نجده جنبا الى جنب مع التحليل الايجابي ، (لاحظ الفصل الثالث) .

ان الفكرتين المختلفتين المذكورتين سابقا تعكسان نظرتين مختلفتين في القواعد . فعلماء القواعد في اوربا يستخدمون المعادلة : فيفسرون صيغة الماضي في الالمانية على سبيل المثال - بأخذ الكلمات باجمعها اولا . اذ يتعلم الطالب كيف يصوغ على قياس setzte : setzen ماضي كلمة lachen وغيرها .

اما كتاب قواعد اللغة الهندية فيدرس الجذور (- 'setz - lach وغيرها) في احد الفصول ، ثم نهايات الماضي (te - وغيرها) في فصل آخر . وتحدد العناصر الناتجة من التحليل ، ثم تستخدم هذه العناصر لاعادة بناء كلمات بأكملها . فجميع معاجم السانسكرتية ترتب الافعال حسب جذورها .

ويستخدم علماء نظريات القواعد النظري الاسلوب الشائع في المجموعة اللغوية التي يدرسونها .

ان اللغة اللاتينية القديمة تفضل - على ما يبدو - اسلوب التحليل . وهذا دليل واضح على ذلك : فكلمة factus و actus تختلفان في طول (كمية) الحركة فيهما ، رغم وجود الكلمتين agó و faciô : اذ لا بد ان كلمة actus تعود الى agtos* وتُعزى زيادة طول الحركة الى الصوت الصحيح المجهور الذي يأتي بعد الحركة، ومما يدعم هذه الفرضية اللغات الرومانسية . إذ ان التقابل بين spèció : spèctus : lègô : tectus ينعكس في الفرنسية في dépil (رغم ذلك) (despèctus) و toit «سقف» (= tectum) لاحظ ايضا conficiô : confectus (في الفرنسية confit «شبع بالسكر») مقابل réctus : regô (diréctus - في الفرنسية droit مستقيل) . بيد ان الكلمات *regtos, *tegtos, *agtos لم تات من الهندية - الاوربية الاولى ، التي كانت تستخدم *tektos, *aktos الى آخره ، بل دخلت هذه الكلمات الى اللاتينية في فترة قبل التاريخ رغم صعوبة لفظ صوت مجهور قبل صوت مهموس . ان هذا اللفظ الصعب أصبح ممكنا بسبب شعور المتكلم بالوحدات الجذرية - ag - , teg - , reg - .

فالشعور بأجزاء الكلمة، إذن، (كالجذور واللاحق وغيرها) وترتيبها كان قويا في اللاتينية القديمة. وربما لم يكن هذا الشعور ، قويا بهذه الدرجة في اللغات الحديثة ولكنه في الألمانية أقوى منه في الفرنسية (لاحظ الملحق للجزأين الثالث والرابع).

## الفصل الخامس

### القياس والتطور

#### ١ - كيف تدخل الى اللغة كلمة ابتكرت بالقياس ؟

لا يدخل الى اللغة شيء اذا لم يختبر في الكلام، وكل ظاهرة من ظواهر التطور تنبع جذورها من الفرد. ان هذا المبدأ - الذي مر ذكره (في الجزء الاول الفصل الثالث) ينطبق بصورة خاصة على الابتكارات القياسية. فكلمة honor قبل ان تصبح منافسا قويا تحل محل honós. ابتكر احد المتكلمين الكلمة الجديدة، وتكررت الكلمة على لسان غيره حتى شقت طريقها الى اللغة الفصيحة.

ولكن الحظ لا يحالف جميع الابتكارات القياسية. فقد تظهر كلمات جديدة لن تتبناها اللغة ابدا. وهذا مانجده في لغة الاطفال، ان تزخر بمثل هذه الكلمات، لان الطفل ليس ملما بعد باللغة الفصيحة ولا يتقيد بها. فالطفل الفرنسي يقول viendre بدلا من venir «يأتي» و mouru عوضا عن mort «ميت» وغير ذلك. ولكن البالغين يفعلون ذلك ايضا. مثال ذلك أن كثيرا من الناس يقولون traisait (وهذه الكلمة موجودة في كتابات رسو) بدلا من trayait «يحلب». ان جميع هذه الابتكارات قياسية: يمكن تفسيرها بنفس الطريقة التي تفسر بها كثير من الكلمات التي دخلت اللغة: فكلمة viendre - على سبيل المثال تنبع من المعادلة:

(:eteindrai : éteindre = viendrai)

(= viendre)

كما صيغت traisait على نمط plaire «يسر» plaisait «هويسر» وغيرهما. ولا تحتفظ اللغة الا بعدد قليل من الصيغ الجديدة في الكلام، ولكن تلك التي تدوم كثيرة، حتى انها تغير تماما المظهر الخارجي للمفردات اللغوية والقواعد من فترة الى اخرى.

ويتضح مما قلناه في الفصل السابق ان القياس، وحده، لا يمكن ان يكون قوة من قوى التطور، وان حلول الصيغ الجديدة محل الصيغ القديمة بصورة مستمرة هو ابرز سمة في تغيير اللغات. ففي كل مرة تظهر فيها كلمة جديدة وتستقر في اللغة لتطرد الكلمة المنافسة، يعني خلق شيء واندثار شيء آخر، وبذلك يمثل القياس مكانة مهمة في نظرية التطور.

وهذه مسألة أريد أن أؤكد لها .

## ٢ - الابتكارات القياسية دليل للتغيير في التفسير

لا تتوقف اللغة أبدا عن تفسير وحداتها وتحليلها . ولكن لماذا يختلف التفسير دائما من جيل الى آخر ؟ ينبغي ان نبحث عن سبب هذا الاختلاف في العدد الكبير من القوى التي تهدد دائما التحليل الشائع في حالة لغوية معينة . وسأذكر بعض هذه القوى .

إن أهم هذه القوى التطور الصوتي (لاحظ الفصل الثاني) . فالتغيرات الصوتية تجعل بعض التحليل غامضا والبعض الآخر مستحيلا ، فهي بذلك تؤثر في ظروف التحليل ونتائجه ، فتغير حدود الوحدات اللغوية وطبيعتها (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الاول فيما يخص الكلمات المركبة مثل  $\beta\epsilon\tau\alpha - \eta\upsilon\varsigma$  و  $\rho\epsilon\delta\omicron - \lambda\acute{\epsilon}\chi$  والجزء الثالث ، الفصل الثالث فيما يخص إعراب الأسماء في اللغة الهندية - الأوروبية الاولى) .

ونجد ، فضلا عن التطور الصوتي ، عملية اللصق agglutination (وسنتحدث عنها فيما بعد) التي تربط العناصر في وحدة واحدة ، وقد تشترك جميع الظروف ، مع انها عوامل خارجية ، في تغيير تحليل الكلمات ، فمن الواضح ان التحليل ناتج من المقارنة بين مجاميع معينة ، لذا فهو يعتمد دائما على المحيط الايحائي للكلمة . فكانت صيغة افعال  $sw\acute{a}d - is - to - s$  في الهندية الأوروبية الاولى تحتوى على لاحقتين مستقلتين :  $- is$  وتحمل معنى التفضيل بين شيئين (لاحظ  $mag - is$  في اللاتينية) و  $- to$  التي كانت تدل على المكانة المعينة للشيء في المجموعة (لاحظ  $tri - to - s$  «الثالث» في الاغريقية) ثم لصقت اللاحقتان (لاحظ  $h\acute{e}d - isto - s$  او  $h\acute{e}d - ist - os$  في الاغريقية) . ولكن عملية اللصق هذه لاقت دعما من فكرة اخرى لاعلاقة لها بصيغة افعال (التفضيل) : فقد اختفت صيغة التفضيل (بين شيئين) التي كان يعبر عنها بـ  $- is$  وحل محلها صيغ تنتهي بـ  $- j\acute{o}s$  ولم يعد  $- is$  يشخص على انه عنصر مستقل لذا لم يعد يعرف في  $- isto$  .

ولا بد ان نشير هنا الى ظاهرة الجنوح نحو اختزال المصدر وتشجيع العناصر الاخرى المكونة للكلمة ، ولاسيما اذا كان الجذر ينتهي بالحركة . وهكذا أخذت اللاحقة  $- t\acute{a}t$  في اللاتينية (كما في  $veri - t\acute{a}t - em$  بدلا من  $v\acute{e}ro - t\acute{a}t - em$  ، وفي الاغريقية  $dein\acute{o} - tet - a$ ) الصوت  $i$  من الاساس ، فنتج عن ذلك الشكل التحليلي  $ver - itat - em$  : وتغيرت بالطريقة ذاتها كلمتا  $R\acute{o}m\acute{a} - nus$  و  $Alb\acute{a} - nus$  (لاحظ ايضا  $aenus$  بدلا من  $s - aesno$ *) فاصبحتا  $R\acute{o}m - \acute{a}nus$  ، الى اخره .

ان التغيير في التفسير ، مهما كان منبعه يصبح دائما واضحا بسبب وجود صيغ قياسية . ليس هذا حسب بل ان الوحدات الحية ، التي يدركها المتكلم في فترة ما اذا كانت تستطيع وحدها ان تخلق كلمات قياسية ، تنطوي على اعادة لتوزيع الوحدات كما

تنطوي ايضا على امتداد محتمل في استعمال هذه الوحدات . فالقياس ، اذن ، دليل ايجابي على ان العنصر المكون للكلمة الجديدة موجود في لحظة معينة وهو عنصر مهم . فاستخدام لفظة merídonális (لاكتانيوس) بدلا من meridialis يبين ان التقسيم هو ónalis — septemtri — ónalis, regi — وإذا أردنا أن نبرهن على ان اللاحقة — tat — قد وسعت باضافة — celer الصوت i اليها ، الذي اقتبس من المصدر ، فما علينا الا أن نشير الى كلمتي itátem : وصياغة anus — pag — us من pág — us تكفي لتوضيح الطريقة التي كان المتكلم اللاتيني يحل فيها كلمة Róm — ánus . أما تحليل redlich فثابت من وجود كلمة sterblich التي صيغت من جذر الفعل .

ويوضح لنا مثال خاص كيف أن القياس يخلق وحدات جديدة من فترة الى أخرى : ان كلمة somnolent «استولى عليه النعاس» في الفرنسية الحديثة تحليلها Somnol — ent وكأنها اسم الفاعل . ويدل على ذلك الفعل somnoler (أخذ النوم) اما التقسيم في اللاتينية فهو somno — lentus كما في succu — lentus وغيرها ، وكأن هذا التقسيم كان قبل ذلك على هيئة somn — olentus «يشم منه رائحة النوم» من olére كما في vin — olentus «يشم منه رائحة الخمر» .

أهم نتيجة من النتائج الواضحة للقياس إذن هي إحلال الصيغ المنتظمة المؤلفة من عناصر حية محل الصيغ الشاذة القديمة والصيغ البائدة . مما لاشك فيه أن الامور لاتجري بهذه السهولة دائماً . فعمل اللغة كثير ما يعثره التردد والتقريب وشبه التحليل . فلا تمتلك أية لغة في اي وقت من الأوقات نظاما كاملا مستقرا من الوحدات . اذ يتضح مما قيل عن تصريف *ekwos مقابل *pods أن تحليل صيغة غير التام يؤدي في بعض الاحيان الى خلق صيغ قياسية مرتبكة . فالكلمات الهندية الاوربية الاولى *geus — etai, *gus — tos, *gus — tis تساعدنا على تشخيص الجذر — geus و — gus . ثم تلاشي الصوت s بين حركتين في الاغريقية ، وقد أصاب الغموض تحليل geustós, geúomai . وادى ذلك الى التذبذب ، وشخص الجذر على انه — geus في بعض الاحيان . و — geu في احيان اخرى . ويؤكد القياس بدوره هذا التذبذب ، فحتى الجذور في — eu تأخذ في أواخرها الصوت s (مثال ذلك — pneuma, pneu والصفة المشتقة من الفعل — pneus — tós) .

بيد أن القياس يؤثر في اللغة حتى في حالة التردد والغموض . لان القياس ، مع انه ليس تطورا في حد ذاته ، يعكس عادة التغييرات التي تؤثر في عمل اللغة ، ويعززها من خلال صياغة مجموعات جديدة . فهو يتعاون بصورة فعالة مع جميع القوى التي تحور بصورة مستمرة بناء لغة ما ، فهو من هذه الناحية عنصر قوي في التطور .

### ٣ - القياس قوة محافظة وقوة للتجديد

قد يتساءل المرء : هل للقياس الاهمية التي نسبت له هنا، وهل له اثر بعيد المدى كالتغيير الصوتي ؟ ان تاريخ كل لغة يبين لنا تراكما متنوعا من الحقائق التي تعزى الى القياس . وهذه التعديلات المستمرة باجمعها تقوم بدور في تطور اللغة، يفوق في اهميته دور التغيير الصوتي .

بيد ان المسألة التي تهم اللغوي اكثر من غيرها هي أن جميع العناصر تقريبا تبقى محتفظة بكيانها منه في الظواهر القياسية الكثيرة التي تتراكم خلال قرون من التطور. والذي يتغير في هذه العناصر هو توزيعها. فالابتكار عن طريق القياس ظاهرة اكثر منه حقيقياً. فاللغة رداء مرقع برقع كثيرة قطعت من قماش اللغة . ان اربعة اخماس اللغة الفرنسية هي من اللغة الهندية - الاوربية الاولى اذا فكرنا بالمادة التي تؤلف الجمل . اما الكلمات التي انتقلت من لغة الام الى اللغة الفرنسية الحديثة كاملة من دون تغيير قياسي فلا تتجاوز الصفحة الواحدة (مثال ذلك est (فعل الكينونة) مشتق من esti والاعداد ، وكلمات مثل ours (دب) و nez (انف) و pere (اب) و chien (كلب) وغيرها). والاعلبية الكبيرة من الكلمات هي ، بطريقة او أخرى، مجموعات جديدة لعناصر صوتية اشتقت من صيغ قديمة. فالقياس بهذا المفهوم عنصر محافظ جدا لانه يستخدم دائماً مادة قديمة لصنع صيغ جديدة.

بيد ان للقياس دوراً مهماً أيضاً بكونه قوة محافظة فقط . فهو يتدخل ليس فقط حين يعاد توزيع المادة القديمة في وحدات جديدة بل ايضا حين تبقى الصيغ من دون تغيير . ولكي نفهم هذه المسألة فما علينا الا ان نتذكر ان الابتكار القياسي وجهاز اللسان لهما اساس واحد (لاحظ الفصل الرابع - الفقرة ٣) .

لقد وصلت كلمة agunt اللاتينية من فترة ما قبل التاريخ (عندما كان الناس يقولون *agonti) بدون تغيير حتى مستهل فترة الرومانس . واستخدم الناس ، جيلا بعد جيل ، هذه الصيغة من دون ان يكون لها منافس يحل محلها طول تلك الفترة . فالقياس في هذه الحالة يقوم بدور العامل المحافظ على الصيغة . إن ثبات كلمة agunt من عمل القياس ، كما ان الابتكار من عمله . حيث اندمجت agunt في النظام اللغوي ودعمتها صيغ مثل dicunt و legunt وكذلك agimus و agitis وغيرها . ولولا هذا الاطار من الألفاظ ، لحلت محل agunt صيغة جديدة مؤلفة من عناصر جديدة . والصيغة التي انتقلت الى اللاتينية ليست agunt بل ag - unt . فلم تتغير الصيغة لان - unt, ag - تظهران بانتظام في مجموعات اخرى ، وقد ساعدت هذه المجموعات على الحفاظ على agunt من البداية الى النهاية . لاحظ ايضا sex - tus التي تدعمها مجموعتان هما sex - aginta, sex الى آخره من وجهة و quin - tus, quar - tus الى آخره من جهة أخرى .



فالصيغ إذن كثيرا ما تحتفظ بكيانها لأنها تتجدد باستمرار بفضل القياس . إذ ينظر الى الكلمة على أنها وحدة وسنتاكم في آن واحد . ويحافظ عليها الى درجة أن عناصرها لا تتغير. وعلى العكس من ذلك لا يتهدد وجود الكلمة الا الى درجة اختفاء عناصرها من الاستعمال . لاحظ ماذا حدث للكلمتين الفرنسييتين dites (انت تقول) و faites (انت تعمل) اللتين جاءتا مباشرة من اللاتينية dict — itis و fac — itis . وتحاول اللغة اليوم أن تستخدم كلمتين جديدتين عوضا عن هاتين الكلمتين ، لانهما تفتقران الى دعم من قبل النظام الصرفي الحديث للفعل . وكثيرا ما تستخدم اليوم الصيغتان disez و faisez (على نمط plaisez و lisez (اقرأ) وغيرهما) : وقد شاعت هذه النهايات في كثير من الكلمات المركبة (contredisez) (ناقص).

إن الصيغ الوحيدة التي لم يؤثر فيها القياس هي بطبيعة الحال كلمات منفردة مثل اسماء الاعلام لاسيما أسماء الأماكن (مثل باريس وجنيف واكن وغيرها). وهذه الكلمات لاتخضع للتحليل، لذا لا يمكن تفسير عناصرها. ولا تظهر كلمة جديدة منافسة الى جانب هذه الكلمات.

نلاحظ ، إذن ، ان الصيغة تحافظ على كيانها بفضل أحد العاملين المضادين : انعزالها التام او اندماجها التام بالنظام اللغوي الذي يحافظ على الأجزاء الأساسية للكلمة من دون تغيير ويهب هذا النظام دائما لانقاذ الكلمة. فآثر القياس في الابتكار لا يكون إلا في المجموعة الوسطى للصيغ التي لاتدعمها الصيغ المحيطة بها. وعلى كل حال ، سواء تناولنا مسألة الحفاظ على صيغة ما مؤلفة من عدد من العناصر او مسألة اعادة توزيع المادة اللغوية في تراكيب جديدة نلاحظ إن للقياس وجوداً فيها . إذ إنه يقوم دائما بدور مهم .

## الفصل السادس

### الاصول الشعبية للكلمات (الاثمولوجيا الشعبية)

قد نشوه الكلمات ذات الأشكال والمعاني غير المألوفة ، فيعزز الاستعمال في بعض الأحيان هذا التشويه . وهذا ما أصاب الكلمة الفرنسية القديمة *coute — pointe* (المشتقة من *coute* أي *couelte* «يغطي» و *pointe* اسم المفعول للفعل *poindre* «بطن القماش») فتغيرت إلى *courte — pointe* «غطاء للسريز» وكأنها مشتقة من الصفة *court* (قصير) والاسم *pointe* (نقطة).^(٤٧) ان مثل هذه البدع ، مهما كانت غريبة في مظهرها ، ليست وليدة المصادفة تماما : بل انها محاولات فجّة لتطويع الكلمات العنيدة لتفسير معين بربطها بشيء معروف .

تبدو هذه الظاهرة ، التي تسمى بالاصول الشعبية للكلمات او الاثمولوجيا الشعبية *folk etymology* أول وهلة وكأنها لا تتميز عن القياس . فعندما ينسى المتكلم الفرنسي وجود الكلمة الفرنسية *surdite* «صمم» ويصوغ استنادا إلى القياس كلمة *sourdite*^(٤٨) تكون النتيجة نفسها وكأنه أساء فهم كلمة *surdite* وشوهاها بسبب تذكره الصفة *sourd* «اصم» . والفرق الوحيد هو ان الصيغ القياسية تعتمد على المنطق ، في حين تتصف الاصول الشعبية للكلمات بالعشوائية وتؤدي الى صيغ غير منطقية .

بيد ان هذا الفرق الذي يخص النتائج ليس جوهريا . اما الفروق الجوهرية بين الظاهرتين فأعمق من ذلك . ولكي نفهم طبيعة هذه الفروق نورد بعض الامثال للانماط الاساسية للاصول الشعبية للكلمات .

نذكر اولا الكلمات التي تكتسب دلالات جديدة من دون أن يتغير شكلها . فتعود اصول الكلمة الالمانية *durchblauen* «يضرب ضربا مبرحا» إلى *bliuwan* «يضرب بالعصا» ولكن الكلمة تربط بالصفة *blau* «ازرق» بسبب البقع الزرقاء التي يؤدي اليها الضرب . وفي القرون الوسطى اقتبست الالمانية *adventure* «مخاطرة» من الفرنسية وصاغت الكلمة القياسية *Abenteuer, abenture* : كما ارتبطت الكلمة من غير تشويه بكلمة *Abend* (حكاية المساء) : فكانت النتيجة أن كتبت الكلمة في القرن الثامن عشر بصيغة *Abendteuer* . واشتقت عن الكلمة الفرنسية القديمة *soufrait* «حرمان» (= *suffracte* من *subfrangere*) الصفة *souffreteux* «مريض» وترتبط الكلمة الاخيرة الآن بالفعل *souffrir* «يقاسي» ولا علاقة

(٤٧) لاحظ *scam — faest* في الانكليزية القديمة «منغمس في العار» . أصبحت هذه الكلمة في مستهل الانكليزية الحديثة *shame — fast* ثم *shame — faced* . (باسكن) .

(٤٨) لاحظ في الانكليزية *pronoun ciation* الى جانب *pronun ciation* (باسكن) .

بين الكلمتين^(٤٩) . والكلمة الفرنسية *lais* هي اسم مشتق من الفعل *laisser* (يترك) ، ولكنها ترتبط في هذه الأيام ، بكلمة *leguer* «أوصى به» لذا تكتب *legs* : بل يلفظها بعض الناس بهيئة *le — g — s*^(٥٠) . وقد يوحي هذا بأن التغيير في الشكل قد نتج عن التفسير الجديد للكلمة ، ولكن سبب التغيير الحقيقي هو من اثر الشكل المكتوب الذي حاول الناس عن طريقه الاعراب عن رأيهم في أصول الكلمة من دون تغيير لفظها . وقد حدث الشيء نفسه للكلمة الفرنسية *homard* «سرطان البحر» . لقد اقتبست هذه الكلمة من النرويجية القديمة *hummar* (لاحظ الكلمة الدانماركية *hummer*) ، ثم أضيف الحرف *d* الى آخر الكلمة قياسا على الكلمات الفرنسية التي تنتهي بالمقطع *— ard* : ولكن الخطأ في التفسير هنا الذي ينعكس في طريقة الكتابة قد اثر في نهاية الكلمة ، وقد حصل تشابه بينها وبين لاحقة مألوفة (لاحظ *bavard* «ثرثار» وغيرها) .

وكثيرا ما شوه الناس الكلمات لكي يجعلوها تتلاءم مع العناصر التي يعتقدون انهم يعرفونها فيها . فتغيرت الكلمة الألمانية *Sauerkraut* فاصبحت في الفرنسية *choucroute* (*chou* = لهانة و *croute* «قشرة») وتغيرت الكلمة الألمانية *dromedarius* فاصبحت *trampeltier* «الحيوان الذي يستخدم المخالب» في لفظة مركبة جديدة تحتوي على الكلمات المعروفة *trampeln* و *tier* . وفي الألمانية العليا القديمة تحولت كلمة *margarita* اللاتينية الاصل فاصبحت *mari — greos* «حساء البحر» عن طريق الربط بين كلمتين معروفتين .

وهذا مثال آخر وله اهمية خاصة : لقد تغيرت الكلمة اللاتينية *carbunculus* «قطعة صغيرة من الفحم» فاصبحت *karfunkel* (لارتباطها بكلمة *funkeln* «وهج») في الألمانية و *escarboucle* «عقيق أحمر» (لا ارتباطها بكلمة *boucle* «حلقة») في الفرنسية . وتغيرت *calfetrer, calfeter* فاصبحتا *calfeutrer* «فتحة» في الفرنسية تحت تأثير *feutre* «لباد»^(٥١) . ان الذي يجذب الانتباه في جميع هذه الأمثلة هو أن كلاً منها يحتوي على عنصر معروف يرد في سياقات أخرى وجزء آخر لاشبيه له في كلمات سابقة (*— kar* , *— escar* , *— cal*) . ولكن من الخطأ ان نعتقد ان هذه العناصر أشياء جديدة ، ظهرت نتيجة لهذه الظاهرة . الصحيح هو عكس ذلك : فالتفسير لايمس الاجزاء (*— kar* , *— escar* , *— cal*) . والاصح أن نقول انها اجزاء من الأصول الشعبية التي توقفت في منتصف الطريق . ويصح على *karfunkel* ما يصح على *Abenteuer* (اذا اعتبرنا *teuer* — بقية لاتفسير لها) ، كما يمكن مقارنة ذلك بكلمة *homard* ، حيث ان المقطع *— hom* لا معنى له في حد ذاته .

(٤٩) لاحظ الكلمة الانكليزية *liquorice* (من اللاتينية *liquiritia*) التي لاتتصل بكلمة *liquor* سوى صلة الشكل الكتابي . (باسكن) .

(٥٠) لاحظ الكلمة الانكليزية *gooseberry* المشتقة عن الفرنسية *groseille* (باسكن) .

(٥١) لاحظ الكلمة الانكليزية *crayfish* (نوع من السمك) مشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة *crevice* (باسكن) .

لا يخلق التشويه ، اذن ، فروقا جوهرية بين الكلمات التي تشوهها الأصول الشعبية : فجميع هذه الكلمات انما هي تفسير لأشكال اساء الناس فهمها في ضوء أشكال معروفة .

وهكذا أدركنا كيف ان الاصول او الاتمولوجيا تشبه القياس وتختلف عنه في الوقت ذاته .

ولا تشترك هاتان الظاهرتان الا في صفة مميزة واحدة : حيث يُستخدم الناس عناصر ذات دلالة توفرها اللغة في الظاهرتين : وما عدا ذلك تختلف الظاهرتان جوهريا . فالقياس ينطوي دائما على إهمال الصيغ القديمة . كما في العبارة القياسية *il traisait* فهي لا تعتمد على تحليل العبارة القديمة *il trayait* (لاحظ الفصل الرابع) . بل ينبغي أن ننسى الصيغة القديمة قبل ان تظهر الصيغة المنافسة الى الوجود . ولا يأخذ القياس شيئا من مادة الاشارات التي يحل محلها . اما الأصول الشعبية فهي ليست سوى تفسير للصيغة القديمة : ويُعدُّ تذكر الصيغة القديمة ، مهما كان مشوها نقطة البداية للتشويه الذي يصيب الصيغة القديمة . فأساس التحليل هو التذكر في احدى الحالتين والنسيان في الحالة الثانية . وهذا الفرق غاية في الأهمية .

لاتعمل الاصول الشعبية ، اذن ، الا تحت ظروف معينة ، وقلما تؤثر في المصطلحات التقنية والكلمات الاجنبية التي يقتبسها الناس من اللغات الاخرى إلا ما ندر . اما القياس فهو يخص جميع اللغات ، ويُعد من الوظائف الطبيعية للغة . ان هاتين الظاهرتين ، مع انهما تتشابهان في بعض الامور ، تختلفان بصورة جوهرية . لذا ينبغي الفصل بينهما فصلاً كاملاً .

## الفصل السابع

### اللصق Agglutination

#### ١ - تعريف

أشرنا في الفصلين السابقين الى أهمية القياس . ثم عامل آخر ، فضلاً عن القياس ، يعمل على صياغة وحدات جديدة في اللغة ، ويسمى باللصق agglutination . لا يضاهاه هذين العاملين في أهميتهما في خلق الوحدات اللغوية أي عامل آخر فالكلمات التي توحى أصواتها بمعانيها (لاحظ الجزء الأول / الفصل الأول) onomatopoeia والكلمات التي تبتكر عن قصد ومن غير الاعتماد على القياس ، بل حتى الاتمولوجيا الشعبية، كلها ضئيلة الأهمية.

وتعني عملية اللصق (agglutination) دمج عنصرين أو أكثر من العناصر الأصلية المتميزة التي كثيراً ما تستخدم بهيئة سنتاكم في الجملة، فتصبح هذه العناصر وحدة واحدة مطلقة يصعب تحليلها. هذه هي عملية اللصق، فهي عملية وليست أسلوباً، لأن الكلمة الأخيرة تنطوي على الإرادة أو القصد : أما اللصق فيتميز بعدم وجود الإرادة. وهذه بعض الأمثلة. فقد استخدم المتكلمين الفرنسيون أول الأمر كلمتين هما ce ci . ثم دمجت الكلمتان في كلمة واحدة ceci (هذا) : فكانت النتيجة كلمة جديدة، مع ان مادتها والعناصر المكونة لها ل يتغيرا. لاحظ أيضاً في الفرنسية : غمس تمس كل يوم، toujours (دائماً) au jour d'hui (في يوم اليوم)، aujourd'hui (اليوم)، dès já (منذ الآن) : (قد (مع الماضي) )، vert jus (عصير أخضر) : verjus (العصير الحامض للفواكه غير الناضجة). وقد يؤدي اللصق الى دمج الوحدات الفرعية للكلمة، كما رأينا (في الفصل الخامس) في حالة صيغة التفضيل من الدرجة الثالثة superlative في الكلمة الهندية الأوربية الأولى swād — is — to — s والأغريقية héd — isto — s.

وإذا تأملنا ظاهرة اللصق، من كتب ، وجدنا انها تنطوي على ثلاث مراحل.

١ - الربط بين عدد من العناصر في سنتاكم. ويشبه السنتاكم الجديد السنتاكمات المعروفة الأخرى.

٢ - اللصق الحقيقي أي اتحاد عناصر السنتاكم في وحدة جديدة. ويحدث هذا الاتحاد بصورة مستقلة في عملية آلية، وعندما يعبر عن فكرة مركبة بسلسلة متعاقبة من الوحدات المألوفة جداً التي لها دلالة، يترك العقل فكرة التحليل - فيختصر الطريق ويطبق الفكرة على مجموعة الاشارات بأكملها، فتصبح هذه المجموعة وحدة بسيطة، (تغيير في الفكرة أو المعنى).

٣ - كل تغيير ضروري آخر يحول مجموعة الاشارات القديمة الى ما يشبه كلمة

بسيطة : كتوحيد الركزة (vert — jús ← verjús) وتغييرات صوتية خاصة وغير ذلك .  
وكثيراً ما يقال ان التغييرات الصوتية وتغيير الركزة (٣) تسبق التغيير في المعنى  
(٢)، وان الدمج في المعنى أو الدلالة يأتي من خلال اللصق والدمج المادي . وربما كان هذا  
بمثابة وضع العرب قبل الحصان (عكس الحقيقة) . فمن المحتمل جداً ان tous jours  
وغيرهما أصبحت كلمات بسيطة لأن العقل عدّها فكرة واحدة . vert jlis .

## ٢ - اللصق والقياس

الفروق بين القياس واللصق بارزة واضحة .

١ - ففي اللصق تندمج وحدتان أو أكثر في وحدة واحدة بطريقة الاتحاد (كما في  
encore «مرة أخرى» الفرنسية من hanc horam) أو تصبح وحدتان فرعيتان وحدة واحدة  
(كما في héd — isto — s من swad — is — to — s)* . أما القياس فيبدأ من الوحدات الصغيرة  
ويبنى منها وحدات أكبر . فقد ابتكر القياس كلمة pāg — ánus بالربط بين الأصل — pāg  
واللاحقة — anus .

٢ - يعمل اللصق ضمن اطار السنتاكم فقط ولا يؤثر إلا في مجموعة معينة . ولا  
ينطوي على شيء آخر . أما القياس فيخص العلاقات الإيحائية كما يخص السنتاكمات .  
٣ - والأهم من ذلك ، ان عملية اللصق تخلو من الارادة والدور الفعال الايجابي .  
فقد ذكرت انها عملية بسيطة يحدث فيها الدمج بصورة تلقائية . أما القياس فهو ، على  
العكس من ذلك ، أسلوب يحتاج الى التحليل والربط ، والعمل العقلي والارادة .  
وكثيراً ما يستخدم البناء والتركيب لمناقشة تكوين الكلمات ، ولكن معناهما يختلف  
استناداً الى العملية المستخدمة : هل هي القياس أم اللصق ؟ فإذا طبقت اللفظتان . (البناء  
والتركيب) على اللصق ، أوحتا بأن العناصر المتصلة في السنتاكم تتحد تدريجياً حتى  
تتلاشى العناصر الأصلية المكونة لها . أما إذا طبقنا ذلك على القياس ، فان البناء يعني  
الترتيب دفعة واحدة ، في عملية الكلام ، عن طريق إعادة ربط عدد من العناصر أخذت من  
مجاميع إيحائية أخرى .

إن أهمية الفصل بين القياس واللصق أمر واضح . فنلاحظ في اللاتينية — مثلاً —  
ان كلمة possum نتجت من دمج الكلمتين potis و sum «أنا السيد» : فهي كلمة نتجت من  
اللصق . أما agrieola, signifier وغيرهما من الكلمات فهي ناتجة عن القياس ، أي انها أبنية  
قياسية وفرتها اللغة . وينبغي أن نطلق لفظة الكلمات المركبة أو الاشتقاقات على الكلمات  
الناتجة عن القياس فقط .^(٥٢)

(٥٢) وهذا يعني ان الظاهرتين تعملان سوية في تاريخ اللغة . ولكن اللصق يحدث اولاً دائماً ، وهو الذي يوفر النموذج للقياس . فعلى سبيل —

ويصعب غالباً ان نجزم هل ان صيغة ما قابلة للتحليل ظهرت نتيجة اللصق أم القياس. فقد ناقش اللغويين مدةً طويلة مسألة الصيغ الهندية الأوربية الأولى *es — mi، *es — ti، *ed — mi وغيرها. هل كان العنصران — es، — ed وغيرهما كلمة حقيقية طوال زمن قديم جداً، ثم لصقت بكلمات أخرى (ti، mi وغيرهما)؟ أم ان *es — mi، *es — ti وغيرهما جاءت نتيجة الربط بين عناصر استمدت من وحدات معقدة مشابهة؟ وفي الحالة الأخيرة تسبق عملية اللصق زمنياً ظهور النهايات الاعرابية في اللغة الهندية الأوربية الأولى. ولما كانت الأدلة التاريخية غير متوفرة لم تمكن الاجابة عن هذا السؤال.

إن التأريخ وحده يمكن أن يلقي الضوء على هذه المسألة. فإذا إستطعنا القول ان هذا العنصر البسيط كان في يوم ما يؤلف عنصرين أو أكثر في الجملة فان العملية هي اللصق: كما في hunc اللاتينية التي أصلها hon ce (ce ترد في بعض النقوش). أما إذا لم تتوفر الأدلة التاريخية، فمن الصعب ان نشخص ما هو لصق وما هو قياس.

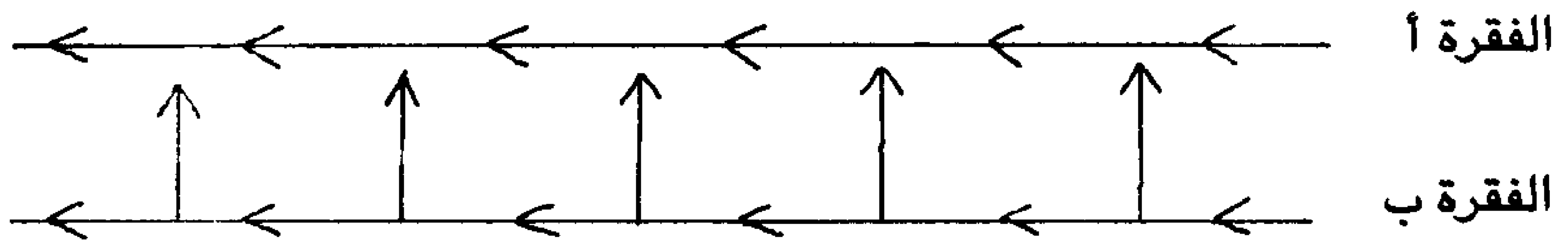
---

المثال ، الكلمات المركبة التي نتج عنها s — dromo — hippo وغيرها في الاغريقية بدأت عن طريق اللصق الجزئي في فترة لم تكن فيها النهايات الاعرابية معروفة في اللغة الهندية الأوربية الأولى (فكانت عبارة ekwo dromo تشبه الكلمة المركبة بيت الريف وغيرها) ولكنها غدت عن طريق القياس وسيلة مثمرة لخلق الكلمات المركبة قبل ان يكمل دمج عناصر الكلمة . ويصح الشيء نفسه في صيغة المستقبل في الفرنسية (je ferai سأفعل الى اخره) . التي ظهرت في اللاتينية العامة عن طريق اللصق بين المصدر وصيغة المضارع للفعل habere (facere habeo ، «على ان افعل» ) . وهكذا ساعد تدخل القياس عملية اللصق على خلق انماط نحوية . فاللصق جزء من القواعد ، وإذا ترك ليعمل وحده أدى الى دمج العناصر حتى تصبح وحدات كاملة وتصبح كلمات لا يمكن تحليلها وغير مثمرة (كما في encore ← hanc hórám في الفرنسية (ما يزال) اي انها جزء من المعجم . (بالي) .

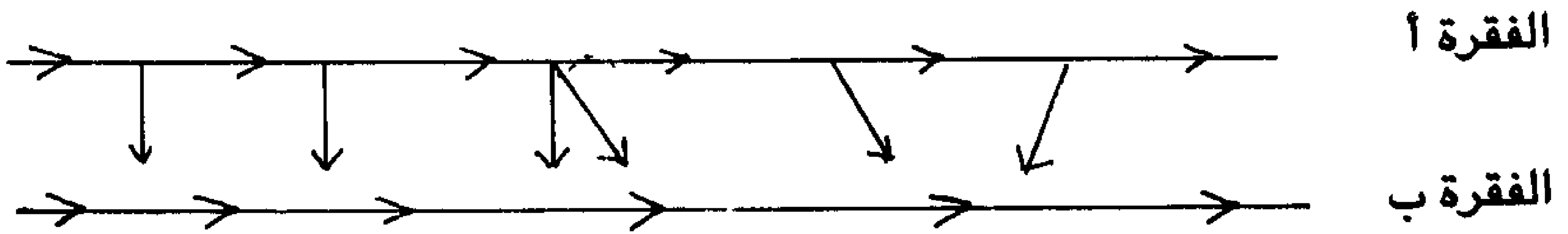
## الفصل الثامن

### الوحدات الزمنية والتطابق والحقائق الواقعية

يعمل علم اللغة الثابت بوحدات تعتمد في وجودها على ترتيبها السنكروني. وكل ما ذكرنا، فيما تقدم، يدل على أن العناصر في التعاقب الدايكروني ليست محددة تحديداً نهائياً كما قد يوحي بذلك الشكل الآتي:



بل أن العناصر توزع توزيعاً مختلفاً بين لحظة وأخرى بسبب الحوادث التي تقع على مسرح اللغة. لذا يكون من الأفضل أن توضح بالرسم الآتي:



ويؤكد هذا كل ما ذكرناه سابقاً عن نتائج التطور الصوتي والقياس واللصق وغيرها.

ويكاد كل مثال أوردناه حتى الآن، يعود إلى عملية صياغة الكلمات word formation وهذا مثال من النحو syntax. لا يوجد في اللغة الهندية الأوربية الأولى حروف الجر فالعلاقات التي تعبر عنها هذه الحروف كان يعبر عنها بالحالات النحوية المتعددة التي كانت لها دلالات بارزة. ولم تكن هذه اللغة تستخدم الأفعال المركبة بإضافة عناصر إلى مقدمة الفعل. بل كانت تقتصر على استخدام الحروف - وهي كلمات صغيرة تضاف إلى الجملة لتحديد وتحور الحدث الذي يدل عليه الفعل. فلم يكن ما يماثل على سبيل المثال - العبارة اللاتينية *ire ob mortem* «يواجه الموت» أو عبارة *obire mortem*؛ حيث كانت هذه اللغة تستخدم ما يشبه *ire mortem ob*. وهذا ما نلاحظه أيضاً في الأغريقية القديمة: (١) في *oreos bañō káta*، تعني عبارة *oreos bañō* لوحدها «جئت من الجبل». فحالة الجر هنا لها معنى حالة الأداة. (٥٢) وتضيف *káta* إلى العبارة معنى إضافياً وهو:

(٥٢) المقصود بحالة الأداة هي الحالة الاعرابية التي يعبر عنها بحرف الجر والاسم في «كتب بالقلم»، وهي حالة متميزة في اللاتينية وبعض اللغات الأخرى. (المترجم).



«بالمجيء الى الأسفل». وكانت العبارة في فترة أخرى هي (٢) *katà óreos bainō*، حيث تعمل كلمة *katà* عمل حرف الجر، كما نجد (٣) *kata — baino oreos* حيث اللصق بين الفعل والحرف *kata* الذي أصبح عنصراً يلحق بمقدمته الفعل.

في هذه العملية ظاهرتان أو ثلاث متميزة استناداً الى التفسير الذي يُعطى للوحدات :

١ - لقد ظهر صنف جديد من الكلمات، وهي حروف الجر، عن طريق تغيير موقع الوحدات الموجودة فقط. وهو ترتيب لم تكن له أهمية في الأصل، وربما جاء عن طريق المصادفة فسمح بتركيب جديد. فكلمة *kata* التي كانت مستقلة في الأصل ارتبطت بالاسم *óreos* ثم ارتبطت الوحدة المركبة بكلمة *bainō* لتقوم بوظيفة التكملة لها.

٢ - كما ظهر صنف جديد من الأفعال (*katabainō*) وهذا ترتيب سايكولوجي آخر، يدعمه توزيع معين للوحدات، وتعزيزه عملية اللصق. (٣) فضعف معنى النهاية (*óre — os*) التي تدل على حالة الجر، وهذه نتيجة طبيعية. ثم أصبح لازماً على كلمة *katà* أن تعبر عن الفكرة الأساسية التي كان يعبر عنها من قبل بحالة الجر وحدها. فقلت كثيراً أهمية النهاية الاعرابية. والظاهرة الأخيرة هي نقطة البداية التي أدت أخيراً الى اختفاء *— os* .

نجد، إذن، في الأمثلة الثلاثة التي ذكرت سابقاً، توزيعاً جديداً للوحدات. إذ اكتسبت المادة القديمة وظائف جديدة. والمهم هنا ان هذه التغييرات حصلت من دون أن يكون لأي تغيير صوتي أثر فيها. ولكننا ينبغي أن لا نفكر ان هذا التغيير يخص المعنى فقط - وإن بقيت المادة من دون تغيير. إذ لا توجد ظاهرة نحوية لا تتحد فيها سلسلة معينة من الأفكار مع سلسلة أخرى من الوحدات الصوتية (لاحظ الجزء الثاني، الفصل السابع) وهذه نفسها هي العلاقة التي حصل فيها تغيير. لقد بقيت الأصوات على حالها، لكن الوحدات ذات الدلالة تغيرت عما كانت عليه.

لقد رأينا (الجزء الأول الفصل الثاني) ان الذي يغير الإشارة هو تغيير في العلاقة بين الدال والمدلول. ان هذا التعريف لا ينطبق على تغيير العناصر في النظام حسب، بل ينطبق أيضاً على تطور النظام نفسه. فالظاهرة الدايكرونية في مجملها لا تتجاوز هذه الحقيقة.

ولكن مجرد تدوين بعض التغييرات في الوحدات التزامنية لا يكون في حد ذاته سجلاً كاملاً لما حدث في اللغة. فهناك أيضاً مسألة الوحدات الزمنية القائمة بذاتها. إذ ينبغي علينا في كل حادثة ان نسأل: أي العناصر مسه التغيير مساً مباشراً؟ وقد لاحظنا مشكلة مشابهة لهذه عند الحديث عن التغيير الصوتي (الجزء الأول، الفصل الثالث، الفقرة ٦). فهذا التغيير يؤثر في فونيمات منفردة وتبقى وحدة الكلمة على حالها. ولما كانت الحوادث الدايكرونية متنوعة جداً، لزمنا الاجابة عن مسائل كثيرة من هذا النوع،

والوحدات التي نحددها في الدراسة الدايكرونية لن تتطابق بالضرورة مع الوحدات التي نحددها في الدراسة السنكرونية، وحسب المبدأ الذي ذكرناه في الجزء الأول لن يكون مضموننا عن الوحدة واحداً في كلتا الحالتين.

وعلى كل حال لا نستطيع أن نحدد الوحدة بدقة قبل أن ندرسها من وجهتي النظر المتطورة والثابتة. ولا نستطيع أن نخترق الغلاف الخارجي للتطور ونصل الى اللب إلا بعد أن نحل مسألة الوحدة الدايكرونية. ففهمنا للوحدات مهم هنا بقدر أهميته في السنكرونية، إذا أردنا أن نفرق بين الوهم والواقع (لاحظ الجزء الثاني، الفصل الثالث).  
بيد أن التطابق الدايكروني يثير مسألة صعبة أخرى. فقبل أن نستطيع القول أن هذه الوحدة قد بقيت متطابقة أو أنها تغيرت في شكلها أو معناها مع بقائها وحدة متميزة - فكل الاحتمالين وارد - ينبغي علينا أن نعرف الأساس الذي تنطلق منه في تحديد أن عنصراً ما في فترة معينة (كما في الكلمة الفرنسية *chaud* «حار») هو نفس العنصر في فترة أخرى (كما في الكلمة اللاتينية *calidum*).

الجواب عن ذلك أن *calidum* قد أصبحت *chaud* بسبب التغييرات الصوتية القياسية، إذن *calidum* = *chaud*. هذا تطابق صوتي. ويصح الشيء نفسه في *sevrer* «يفطم» و *sēparāre*. أما كلمة *fleurir* «يزهر» فتختلف عن الكلمة اللاتينية *florēre* (التي كان ينبغي أن تصبح *flouroir**) الى آخره.

يبدو للوهلة الأولى أن التطابق الدايكروني يمكن تفسيره تفسيراً مقنعاً عن طريق التطابق الصوتي. ولكن يصعب على الصوت وحده أن يفسر التطابق. مما لا يشك فيه أننا نستطيع القول أن الكلمة اللاتينية *more* ينبغي أن تصبح في الفرنسية *mer* «بحر» لأن الصوت *a* تغير دائماً الى الصوت *e* في ظروف معينة، إذ أن الصوت *e* المشدد في آخر الكلمة اختفى، الى آخره، ولكن القول أن هذا التماثل (*a* ← *e*، *e* ← *e* صفر الى آخره) يمكن أن يفسر التطابق إنما هو عكس الواقع، لأنني استخدمت التماثل بين *mare* اللاتينية و *mer* الفرنسية لتحديد أن الصوت *a* قد تحول الى الصوت *e* وأن *e* في آخر الكلمة اختفى، الى غير ذلك.

وقد يقول أحدهم *se facher* «أصبح غاضباً» في حين يقول آخر يعيش في منطقة أخرى من فرنسا *se - acher*: ولكن هذا الاختلاف غير مهم إذا قورن بحقائق القواعد التي تساعدنا على تشخيص وحدة لغوية واحدة في هاتين الصيغتين المتميزتين. والقول بأن كلمتين مختلفتين مثل *calidum* و *chaud* يؤلفان متطابقة دايكرونية إنما يعني أن المتكلمين انتقلوا من الصيغة الأولى الى الصيغة الثانية بعد أن مروا بسلسلة من المتطابقات السنكرونية في كلامهم، من دون أن تحصل فجوة في الأصرة المشتركة بين هذه الصيغ، رغم التغييرات الصوتية المتعاقبة. وهذا ما حملني على القول أن معرفة كيفية

احتفاظ عبارة : Gentlemen على كيان واحد عندما تكرر عدة مرات في محاضرة واحدة أمر مهم بقدر أهمية معرفة لماذا تُعد أداة النفي pas مطابقة للأسم pas في الفرنسية، ولماذا تطابق كلمة chaud الفرنسية كلمة calidum اللاتينية (لاحظ الجزء الثاني، الفصل الثالث).  
فالمسألة الثانية إنما هي امتداد وتعقيد للمسألة الأولى.



## ملحق بالجزء الثالث والرابع

### ١ - التحليل الذاتي والتحليل الموضوعي

إن التحليل الذي يقوم به المتكلمون بصورة مستمرة للوحدات اللغوية هو التحليل الذاتي subjective analysis. وينبغي للمرء أن يميز بين هذا التحليل والتحليل الموضوعي objective analysis، الذي يعتمد على التأريخ. فالنحوي يميز، مثلاً، في صيغة الكلمة الاغريقية hippos ثلاثة عناصر: الجذر واللاحقة والنهاية (s — o — hipp). أما المتكلمون الاغريق فكانوا لا يشخصون سوى عنصرين أنظر الجزء الثالث، الفصل الثالث). ويكشف التحليل الموضوعي عن أربع وحدات فرعية في amábás (s — bá — á — am)؛ أما المتكلمون الرومان فقد شخصوا ثلاث وحدات فقط (s — bá — amá)؛ وربما عدوا bás — مقطعاً اعرابياً، يتميز عن الأصل. في الكلمة الفرنسية entier «كل» (teger — in «كامل» في اللاتينية) وenfant «طفل» (fans — in «الذي لا يتكلم» في اللاتينية) وenceinte «حبل» (cencta — in «من دون حزام» في اللاتينية)، قد يميز المؤرخ بادئة مشتركة هي — en التي تمثل — النفي في اللاتينية : أما التحليل الذاتي الذي يقوم به المتكلمون لهذه الكلمات فهو يهمل تماماً هذه البادئة.

وقد يظن النحوي أن التحليل التلقائي للغة غير صحيح، والصحيح أن التحليل الذاتي ليس أكذب من القياس «الكاذب» (لاحظ الجزء الثالث، الفصل الرابع). فاللغة لا تخطئ أبداً، بل تبني وجهة نظر مختلفة. ولا يوجد مقياس مشترك يقاس به تحليل المتكلمين وتحليل المؤرخ، مع أن الاثنين يستخدمان أسلوباً واحداً — دراسة مجموعة تحتوي على عنصر مشترك. فكل التحليلين له ما يسوغه، وكذلك له قيمته. ولكن الكلمة الأخيرة هي لتحليل المتكلمين، لأن هذا التحليل يستند مباشرة الى الحقائق اللغوية.

إن التحليل التأريخي هو شكل محور للتحليل الذاتي. فهو في جوهره يعرض أبنية فترات مختلفة على سطح واحد. وهو يشبه التحليل التلقائي في أنه يحاول أن يشخص الوحدات الفرعية للكلمات، ولكنه يختلف عنه في أنه يركب جميع التقسيمات التي حصلت بمرور الزمن لكي يصل الى أقدمها. فالكلمة كالبُيت الذي غير ترتيب غرفه المختلفة ووظيفتها مرات كثيرة. والتحليل الموضوعي يضيف وينظم الترتيبات المتعاقبة، أما الذين يسكنون البيت فلا يرون إلا ترتيباً واحداً. إن تحليل s — o — hipp الذي ناقشناه، آنفاً، ليس كاذباً، لأنه وجد في عقول المتكلمين: فهو يتصف بالمفارقة الزمنية فقط. إذ يعود الى فترة تسبق الفترة التي اشتقت منها الكلمة. فالصيغة القديمة s — o — hipp لا تناقض صيغة hipp — os للاغريقية الكلاسيكية. ولكن التحليلين لا يمكن أن يثمنّا بأسلوب واحد. وهذا أيضاً يشير الى الفرق الجذري بين الدايكرونية والسنكرونية.

وهو يساعدنا أيضاً على إيجاد حل لمسألة أسلوبية ما تزال بغير حل في علم اللغة . كانت المدرسة القديمة تقسم الكلمات الى جذور وأسس ولاحقات وغيرها واهتمت اهتماماً مطلقاً بهذه التقسيمات . ويعتقد المرء بعد قراءته للغوي بوب وتلاميذه، أن الاغريق حملوا معهم منذ الأزل ذخيرة من الجذور واللاحق استخدموها في بناء الكلمات، وكانوا يصنعون الكلمات في أثناء الكلام : فكانت كلمة páter عندهم، مثلاً، تتألف من الجذر — pā — واللاحقة — ter وكلمة dōsō تتألف من dō + sō + نهاية تدل على الشخص وغيرها .

فكان لابد أن يقوم رد فعل على أخطاء المدرسة القديمة، وتحت شعار مناسب هو : لاحظ ماذا يحدث في اللسان كل يوم وفي اللغات المعاصرة، ولا تنسب الى الفترات القديمة أية ظاهرة لا يمكن ملاحظتها الآن . ولما كانت اللغة الحية لا تسمح عادة بالتحليل الذي اتبعه بوب، قال النحويون الجدد مؤكدين مبدأهم ان الجذور والاسس واللاحقات وغيرها إنما هي عناصر تجريديّة لا تستخدم إلا لتسهيل الشرح . ولكن إذا لم يكن مسوغ لتحديد هذه العناصر، فما الفائدة فيها ؟ وإذا استخدمنا هذه العناصر، فما القياس الذي بموجبه تقول ان تقسيم hipp — o — s ، على سبيل المثال، أفضل من hipp — os ؟ بعد أن أشارت المدرسة الحديثة الى عيوب المدرسة القديمة، وهو أمر سهل، اكتفت برفض النظرية ولكنها بقيت في الواقع مقيدة بجهاز علمي لم تستطع التخلص منه . فإذا تأملنا العناصر «التجريدية» ، من كُثْب ، عرفنا الواقع الذي تمثله ولا نحتاج إلا الى مقياس بسيط من التصحيح كي نضفي معنى وسبباً على الأساليب التي استخدمها النحويون . وهذا ما فعلته عندما ذكرت ان التحليل الموضوعي الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحليل الذاتي للغة الحية، له مكانة حقيقة محددة في الأساليب التي يستخدمها علم اللغة .

## ٢ - التحليل الذاتي وتعريف الوحدات الفرعية

لا نستطيع، إذن، في التحليل أن نتبع أسلوباً معيناً ونحدد بموجبه التعريفات إلا بعد أن نتبنى وجهة النظر السنكرونية. وهذا ما أريد أن أوضحه عن طريق بعض الملاحظات عن أقسام الكلمة: البادئة والجذر، والأصول، واللواحق والنهايات الاعرابية.^(٥٤)

نبدأ بالنهاية الاعرابية، أي العنصر المتغير الذي يقع في نهاية الكلمة ويميز الصيغ المختلفة للأنماط في الاسم والفعل. ففي *zeúgnū — si*، *Zeúgnū —*، *zeúgnū — mi* إلى آخره «الجم الحصان»، «تلجم الحصان» إلى آخره، تبرز النهايات الاعرابية *mi*، *s*، *si* - إلى آخره، لأنها تتقابل بعضها مع البعض الآخر، وكذلك مع الجزء الذي يسبقها في الكلمة (*zeuymū*) ونعيد إلى الذاكرة أن غياب النهاية الاعرابية في اللغة الجيكية له أهمية تساوي أهمية وجود النهاية المنتظمة (كما في حالة الجمع المجرور *žen* التي تتقابل مع حالة المفرد المرفوع *žena*: لاحظ الجزء الأول، الفصل الثالث، والجزء الثاني، الفصل الرابع). ويصح الشيء نفسه في العبارات الاغريقية *zeúgnū* (أنت) الجم الحصان «التي تقابل *zeúgnu — te* (أنتم) الجموا الحصان»، و*rhētor* التي تقابل *rhētor — os* إلى آخره، وفي الفرنسية: *mars* تكتب *marche* (أنت امش) التي تقابل *maršo* «لنذهب (نحن)» وجميعها صيغ لها نهايات اعرابية تساوي صفراً.

وإذا تركنا النهاية الاعرابية بقي أصل الكلمة أو الأساس الاعرابي. وهو العنصر المشترك الذي يظهر تلقائياً عندما نقارن مجموعة من الكلمات المترابطة، سواء كانت أواخرها تعرب أو لا تعرب ولها معنى مشترك بين كلمات المجموعة. ففي الكلمات الفرنسية *roulis* «الشوبك» و*rouleau* «اللفة» و*roulage* «مسلفة» و*roulement* «اللف»، يبرز الأصل *roul —* ولكن المتكلمين كثيراً ما يشخصون في تحليلهم للكلمات عدداً أو درجات من الأصول في أسرة واحدة من الكلمات. فصيغة *zeugnū —* التي تميز عن *zeúgnū — mi*، *zeúgnū — s* إلى آخره هي أصل من الدرجة الأولى. فهي ليست غير قابلة للتحليل، لأن *zeug — nu* احتمال واضح إذا قارنا *zeúgnu —* بمجموعات أخرى (*zeuk — tós*، *zeúgnūmi*)، *zugón*، *zeuktēr*، *zeuksis* إلى آخره، من جهة، و*deiknūmi*، *órnūmi* إلى آخره، من جهة أخرى).

إذن *Zeug —* (وأشكالها الأخرى *zeug —*، *zeuk —*، *zug* لاحظ الجزء الثالث، الفصل الرابع) هي أصل من الدرجة الثانية: فهذه الصيغة، *zeug —* غير قابلة للتحليل: لا يمكن

(٥٤) - لم يدرس دي سوسور مسألة الكلمات المركبة - من وجهة النظر التزامنية في الاقل - لذا نترك هذا الجانب من المسألة - ما لاشك فيه أن التمييز الذي ذكره، آنفاً، بين الكلمات المركبة والكلمات التي تتبع اللصق لا يصح هنا في دراسة تحليل الحالة اللغوية. ولا حاجة إلى أن نذكر أن هذه الملاحظات عن الوحدات الفرعية لا تزعم بأنها تحل المسألة الصعبة التي أثبتت، آنفاً، عن تحديد الوحدة - الكلمة

قطعها الى أجزاء أصغر بمقارنتها مع الأشكال الأخرى في المجموعة.

والجذر root هو العنصر المشترك بين جميع كلمات الأسرة الواحدة، ولا يمكن تحليله الى عناصر أخرى. ولكن التحليل الذاتي التزامي يفصل بين العناصر المادية عن طريق ملاحظة المعنى المشترك الذي يدخل في كل عنصر، إذن فالجذر بهذا المفهوم هو العنصر الذي يبلغ فيه المعنى المشترك بين كلمات المجموعة أعلى درجة من التجريد والتعميم. مما لا شك فيه ان التعميم يختلف من جذر الى آخر، ولكنه يعتمد أيضاً، وإلى حد ما، على المدى الذي يمكن ان نحلل اليه الأصل. فكلما استطعنا ان نقصر الجذر زاد احتمال التجريد في المعنى، وهكذا توحى zeugmation بمجموعة صغيرة، و zeūgma، بأية مجموعة، و—zeug بالفكرة العامة للفعل «الجم». (٥٥).

نستنتج من هذا ان الجذر لا يمكن ان يؤلف كلمة، وتلحق به نهاية اعرابية مباشرة. بل ان الكلمة تمثل دائماً فكرة محددة الى درجة ما، من وجهة نظر القواعد في الأقل: وهذا يناقض الطبيعة التجريدية العامة للكلمة. ولكن ماذا عن الجذور والأصول الاعرابية الكثيرة التي تمتزج فيما بينها؟ لنأخذ الكلمة الاغريقية phlōks في حالة الجر phlogós، وتقابلها بالجذر —phleg أو —phlog الذي نجده في كلمة من كلمات المجموعة (لاحظ —o phlég الى آخره). ألا يناقض هذا التمييز الذي تحدثنا عنه قبل قليل؟ كلا: إذ ينبغي ان نفصل —phleg : —phlog بمعناهما العام عن —phlog بمعناه الخاص أو تقع في الوهم فنعتبر الشكل المادي وحده دون المعنى. إذ نجد هنا عنصراً مادياً واحداً، له قيمتان مختلفتان. فهو، إذن، يتألف من عنصرين لغويين متميزين (لاحظ الجزء الثاني، الفصل الثاني). لقد وضحنا، فيما يقدم ان zeūgnū كلمة لها نهاية اعرابية هي صفر. وكذلك —phlog فهو أصل له اللاحقة صفر. وبذلك يزول الالتباس. ويتميز الأصل عن الجذر حتى عندما يكون للثنتين صيغة صوتية واحدة.

إذن فالجذر حقيقة لها وجود في عقل المتكلمين. صحيح ان المتكلمين لا يشخصون الجذر دائماً على درجة واحدة من الدقة. إذ يختلف الناس في هذه المسألة: في اللغة الواحدة أو من لغة الى أخرى لكن تتوفر في بعض اللغات مميزات محدودة تجعل الجذر واضحاً للمتكلمين. ففي الألمانية على سبيل المثال يكون الجذر منتظماً قياسياً.

ويكاد يتألف دائماً من مقطع واحد (لاحظ —streit، —bind، —haft الى آخره).

ويخضع لقواعد معينة للتركيب. إذ لا تظهر الفنونيمات بصورة عشوائية: فلا نجد اجتماعاً لبعض الأصوات الصحيحة في آخر

(٥٥) وكذلك في العربية: «يكتبون» تدل على مجموعة واحدة (جمع مضارع) و«يكتب» على مجموعة أوسع (مضارع مفرد يكتب الولد، ومضارع جمع يكتب الاولاد)، الجذر ك، ت، ب، يدل على فكرة عامة جداً هي «الكتابة» (المترجم).

الكلمة. كاجتماع صوت مغلق مع سائل: فالمجموعة — werk ممكنة، أما — wekr فغير ممكنة: كما نجد — half و— word في حين لا نجد — heft و— wedr. نذكر ان البدائل المنتظمة، لا سيما بين الحركات، تؤدي، عادةً، الى تعزيز شعورنا نحو تمييز الجذور والوحدات الفرعية. وهنا أيضاً تختلف الألمانية بتغيير الحركات فيها (ablaut) (لاحظ الجزء الثالث، الفصل الثالث) عن الفرنسية. وتتميز الجذور في اللغات السامية بهذه الصفة، ولكن بدرجة أكبر. فالبدائل في هذه اللغات قياسية يتحكم في عدد كبير من التقابلات المعقدة (لاحظ الصيغ العبرية qatal، qattem، qöl، qitlu الى آخره، جميع صيغ هذا الفعل تعني «قتل»). أضف الى ذلك، ان الجذور السامية كالجذور الألمانية تتألف من مقطع واحد، وعلى نحو أوضح. تضم دائماً ثلاثة أصوات صحيحة (لاحظ الجزء الخامس، الفصل الخامس).

أما اللغة الفرنسية فتختلف تماماً. إذ لا تملك إلا عدداً قليلاً من البدائل، ونجد فضلاً عن الجذور الأحادية المقطع (roul —، march —، mang —) جذوراً كثيرة مؤلفة من مقطعين أو ثلاثة (commec —، hésit —، epouvant —) ثم ان هذه الجذور تحتوي — لا سيما في نهايتها — على مجموعات مختلفة لا يمكن إخضاعها للقواعد (لاحظ tu — er «قتل»، rég — ner «حكم» quid — er «أرشد» grond — er «زمجر» souffl — er و«هب» tard — er «أخر»، entr — er «دخل»، hurl — er «نبح»: وغيرها). لا عجب، إذن، ان لا يشعر المتكلم في الفرنسية بالجذر.

يقترن بتحديد الجذر تحديد البادئة prefix واللاحقة suffix. فالبادئة تسبق الجزء الذي سميناه الأصل (كما في — hupo في الكلمة الاغريقية hupo — zeugnuml). أما اللاحقة فهي العنصر الذي يضاف الى الجذر لكي نحصل على الأصل (كما في — mat — Zeug) أو يضاف الى أصل من الدرجة الأولى، للحصول على أصل من الدرجة الثانية (كما في — io — Zeugmat). وقد رأينا، فيما تقدم ان اللاحقة كالنهاية الاعرابية، قد تكون صفراً. فتحديد اللاحقة هو جزء آخر من تحليل الأصل.

قد يكون لللاحقة في بعض الأحيان معنى ملموس، أو قيمة لغوية كما في — tēr zeuk حيث اللاحقة tēr تشخص العامل أو الفاعل الذي يقوم بالفعل. وفي أحيان أخرى يكون لللاحقة وظيفة نحوية فقط، كما في (— mi) — nu zeug حيث ان — nū — تعبر عن فكرة المضارع. وتقوم البادئة أيضاً بكلتا الوظيفتين، مع ان الوظيفة النحوية للبادئة نادرة في اللغات الأوربية: لاحظ — ge في الألمانية وتدل هذه البادئة على اسم المفعول (ge — setzt الى آخره)، والبادئة في اللغات السلافية، التي تدل على اكتمال الفعل (كما في — pisāt na الروسية وغيرها).

كما تختلف البادئة عن اللاحقة في صفة مميزة مع انها عامة لكنها غير مطلقة.



فالبادئة معالمها أوضح، لأن فصلها عن الكلمة أسهل. والسبب في ذلك يعود الى طبيعة البادئة. فالكلمة تبقى كاملة عادة بعد إزالة البادئة عنها (كما في الكلمات الفرنسية recommenced «يبدأ ثانية»، commencer يبدأ indigne = لا «يستحق»، digne = «يستحق» maladroït غير «ماهر»، adroit «ماهر» : contre poids = «ثقل موازن» : puids = «ثقل» الى آخره).

وفي اللاتينية والاعريقية والالمانية أمثلة أفضل. ثم إن كثيراً من أنواع البادئة تعمل عمل الكلمة المستقلة. لاحظ في الفرنسية contre = ضد، mat = ردىء avant = قبل، sur = على : وفي الالمانية vor، unter، وغيرها، وفي الاعريقية pró، katá وغيرها. أما اللاحقة فتختلف عن ذلك تماماً. حيث ان الأصل، بعد إزالتها، لا يؤلف كلمة كاملة : كما في الفرنسية organisation «مؤسسة» — organis، وفي الالمانية Trennung : — trenn؛ وفي الاعريقية zeugma : — zeug وغيرها.^(٥٦) ثم ان اللاحقة ليس لها وجود مستقل.

فالجزء الأول من الأصل، إذن، يُشخص عادة سلفاً. فيعرف المتكلم قبل القيام بأية مقارنة مع الصيغ الأخرى، أين يرسم الخط بين البادئة والجزء الذي يتبعها في الكلمة. ولكن هذا لا يصح في الجزء الأخير من الكلمة : حيث لا يستطيع المرء ان يرسم الحدود من دون أن يقارن أولاً بين الصيغ التي لها أصل واحد أو لاحقة واحدة، وبذلك تختلف خطوط الحدود حسب طبيعة الكلمات التي تشملها المقارنة.

وفي التحليل الذاتي، يستمد الأصل واللاحقة قيمتها من التقابل السنتاكي والايحائي حسب. إذ نستطيع عادة أن نجد عنصراً من عناصر التكوين وعنصراً من عناصر الأصل في جزأين متقابلين للكلمة، إذا توفر مثل هذا التقابل. ففي الكلمة اللاتينية dictátórem مثلاً نجد الأصل (em) — dictátor إذا قارنا هذه الكلمة بكلمة consul — em أو ped. — em الى آخره، والأصل (torem) — dictá إذا قارناها بكلمة Lic — tórem، Scrip — tórem الى آخره، والأصل (tátorem) — dic إذا فكرنا بكلمة pó — tátorem، ean — tátorem الى آخره. وعلى العموم يستطيع المتكلم ان يتوصل الى تقسيمات لا حصر لها إذا توفرت الظروف الملائمة (فيتوصل الى dictat — orem من am — orem، ard — orem الى آخره) و dict — átorem من ór — átorem، ar — átorem الى آخره). فنحن نعرف ان نتائج هذه التحليلات التلقائية تظهر في الصيغ القياسية لكل فترة من الفترات (لاحظ الجزء الثالث، الفصل الخامس). ونستطيع، عن طريق هذه الصيغ، أن نشخص الوحدات

(٥٦) ان هذا النمط لا ينطبق بالضرورة على الكلمات الانكليزية المشتقة من اللغات الجرمانية (teach — er, sad — ly, hope — less) ولكنه يصح في الكلمات المشتقة من اللغات الرومانسية (duch — ess, appari — tion, cap — able) (باسكن). وفي العربية لا ينطبق رأي دي سوسور على بعض الكلمات (معلمة — كاتبة) ولكنه يصح في كلمات اخرى (قنبلة، عاصمة، قاطرة) (المترجم).

الفرعية (الجذر، والبادئة واللاحقة والنهاية) التي تحددها اللغة، والقيم التي تنسبها الى هذه الوحدات الفرعية.

### ٣ - الاتمولوجيا Etymology

ليس الاتمولوجيا علماً قائماً بذاته، ولا هو جزء من علم اللغة التطوري. بل هو تطبيق خاص للمبادئ التي تربط بين الحقائق السنكرونية والدايكرونية. فهو يرجع الى تأريخ الكلمات ليجد ما يفسرها.

إن الحديث عن أصل الكلمة وانها «جاءت من كلمة أخرى مسألة قد تعني أشياء كثيرة: فالكلمة الفرنسية sel جاءت من الكلمة اللاتينية sal بعملية بسيطة هي التغير الصوتي: وكلمة labourer «يحرث» جاءت من الفرنسية القديمة labourer «يعمل» عن طريق تغيير في المعنى فقط وكلمة couvrir «يخضن البيض» جاءت من الكلمة اللاتينية cubare «في المنام» عن طريق التغير في المعنى والصوت: وأخيراً القول بأن الكلمات الفرنسية pomme «شجرة التفاح» جاءت من pomme «تفاح» أمر ينطوي على مسألة الاشتقاق. ان الأمثلة الثلاثة الأول تخص التطابقات الدايكرونية، أما المثال الرابع فيعتمد على العلاقة السنكرونية لعدد من العناصر، وكل ما قلناه عن القياس يبين ان هذه العلاقة هي أهم جزء في البحث الاتمولوجي.

إذ لا نستطيع ان نحدد أصل كلمة bonus بمجرد الرجوع الى dvenos. ولكن إذا جدنا ان كلمة bis تعود الى كلمة dvis وهذا ينطوي على وجود علاقة بينها وبين duo، لعملية، إذن، هي اتمولوجيا. ويصح الشيء نفسه في المقارنة بين الكلمة الفرنسية oiseau «طير» والكلمة اللاتينية avicellus، لأن مثل هذه المقارنة تُظهر وجود علاقة بين oiseau وavis. علم الاتمولوجيا، إذن، هو في جوهره تفسير للكلمات من خلال دراسته التاريخية لعلاقة هذه الكلمات بالكلمات الأخرى. وتعني كلمة تفسير، إيجاد علاقة بينها وبين الكلمات المعروفة، وفي علم اللغة نقول إن تفسير كلمة ما هو الكشف عن علاقتها بغيرها من الكلمات. إذ لا توجد علاقات ضرورية بين الصوت والمعنى (حسب مبدأ الطبيعة الاعتبارية للإشارة، الجزء الأول، الفصل الأول).

إن الاتمولوجيا لا يفسر الكلمات المفردة حسب ثم يقف عند ذلك، بل يجمع تأريخ مجموعات الكلمات ومجموعات عناصر تكوين الكلمة - كالبادئة واللاحقة وغيرهما.

والاتمولوجيا شأنه شأن علم اللغة الثابت، وعلم اللغة (التطوري) يصف الحقائق. ولكن هذا الوصف ليس منتظماً لأنه لا يتبع أسلوباً ثابتاً. إذ يأخذ علم الاتمولوجيا معطياته، في أثناء جمعه لتأريخ الكلمات، من علم الصوت والصرف (مورفولوجيا) وعلم الدلالة (سمانتيك) وغيرها. ويستخدم الاتمولوجيا الوسائل المتوفرة له في علم اللغة، من أجل تحقيق الهدف، ولكنه لا يهتم بطبيعة العمليات التي يُضطر الى القيام بها.

## الجزء الرابع

# علم اللغة الجغرافي

## الفصل الأول في تنوع اللغات

نأتي الآن الى مسألة العلاقات المكانية بين الظواهر اللغوية، وبذلك نترك علم اللغة الداخلي وندخل علم اللغة الخارجي. وقد حددنا نطاق علم اللغة الخارجي في الفصل الخامس من المقدمة.

إن أبرز ما يظهر في دراسة اللغات هو تنوعها - أي الفروق اللغوية التي تظهر عند الانتقال من بلد الى آخر، بل من منطقة الى أخرى. وكثيراً ما يغيب عن بال الملاحظ التنوع الزمني، أما التنوع المكاني فيظهر للمرء في الحال. بل يدركه حتى الرجل البدائي بفضل اتصاله بأبناء قبيلة تتكلم لغة أخرى. وهذه المقارنات هي التي تجعل الأمة تشعر بلغتها. ونذكر أن هذا الشعور يجعل الناس البدائيين ينظرون الى اللغة على انها عادة أو تقليد كالملابس أو الأسلحة. فلفظة idiom (اصطلاح = لغة) تصح في اللغة لأنها تعكس صفات «يختص بها المجتمع» (لفظة idioma في الاغريقية تعني «تقليداً خاصاً»). ولكن هذه الفكرة، مع انها مناسبة، تصبح مضللة عندما يذهب المرء الى ان اللغة ليست من صفات الأمة، بل من صفات العرق، شأنها شأن لون البشرة أو شكل الرأس. ومما يستحق الذكر أيضاً ان كل أمة تؤمن بتفوق لغتها، وتعد الذي لا يتكلم هذه اللغة أعجيباً. فلفظة barbaros الاغريقية، على سبيل المثال، كانت تعني «الشخص الذي يتلعثم» وارتبطت بالكلمة اللاتينية balbus: والروس يطلقون على الألمان صفة Nëmtsy أي «بكم».

فالتنوع الجغرافي، إذن، أول مسألة لاحظها علم اللغة. وقد حدد هذا التنوع المراحل الأولى للبحث العلمي في اللغة، حتى عند الاغريق. بل ان الاغريق اهتموا فقط بتنوع اللهجات الهيلينية المختلفة، وسبب ذلك ان اهتمامهم لم يتجاوز، عادةً حدود بلاد الاغريق.

بعد أن يلاحظ المرء اختلاف لغتين، يبدأ عادة بالبحث عن أوجه الشبه بينهما. وهذا ميل طبيعي عند المتكلمين. فكثيراً ما يقارن الفلاحون لهجتهم بلهجات القرى المجاورة. والأشخاص الذين يتكلمون عدة لغات يلاحظون أوجه الشبه بينها. ولكن علم اللغة، لأسباب غامضة، قد انتظر وقتاً طويلاً قبل أن يستفيد من نتائج هذه الملاحظات. فالاغريق على سبيل المثال لاحظوا كثيراً من نقاط التشابه بين الكلمات اللاتينية التي في لغتهم ولكنهم لم يستطيعوا استخلاص أية نتائج لغوية من ذلك.

إن الملاحظة العلمية لأوجه التشابه اللغوية تدل على أن لغتين أو أكثر تنتمي الى

أسرة واحدة، وان لها أصلاً واحداً. فمجموعة اللغات المتقاربة تؤلف أسرة واحدة. وقد شخّص علم اللغة الحديث تشخيصاً متعاقباً عدداً من الأسر اللغوية: منها الهندية - الأوربية والسامية، والبانتيو^(٥٧) وغيرها. وإذا قارنا هذه الأسر وجدنا انها تشير في بعض الأحيان الى علاقات تشابه أوسع وأقدم. فقد جرت محاولات لايجاد أوجه الشبه بين أسرة فينو - اوكرىك^(٥٨) والهندية - الأوربية، وبين الأسرة الأخيرة والأسرة السامية وغيرها ولكن مثل هذه المقارنات تواجه صعوبات كبيرة. وينبغي للمرء أن لا يخلط بين ما هو محتمل وما يمكن ملاحظته. ان التقارب الشامل بين اللغات أمر غير محتمل، وحتى إذا كان حقيقة - كما يعتقد اللغوي الايطالي ثرومبيني^(٥٩) فلا يمكن البرهنة عليه بسبب التغييرات الكثيرة التي حصلت بين فترة وأخرى.

هناك، إذن، تنوع بين اللغات المتقاربة، كما ان هناك تنوعاً مطلقاً - فروقاً بين اللغات التي لا تنتمي الى أصل واحد يمكن معرفته أو يمكن ملاحظته. ما الأسلوب الذي ينبغي لعلم اللغة ان يتبعه في الحالتين؟ لنبدأ بالحالة الثانية، وهي أكثر شيوعاً. فقد لاحظنا ان عدداً لا يحصى من اللغات والأسر اللغوية لا ينتمي الى أصل واحد. وخير مثال على ذلك، اللغة الصينية والهندية - الأوربية. ان هاتين الأسرتين تختلفان ولكن هذا لا يعني اننا لا نستطيع مقارنتهما، لأن المقارنة ممكنة دائماً ومفيدة. فهي تطبق على الأنظمة النحوية والأساليب العامة للتعبير عن الفكر وعلى الأنظمة الصوتية. كما تضم الحقائق الدايكرونية والتطور الصوتي للفتين وغير ذلك. واحتمالات المقارنة، مع انها لا تحصى، تتقيد بعض المعطيات الصوتية والسايكولوجية الثابتة، التي تحدد تركيب أية لغة من اللغات. فاكشاف هذه المعطيات الثابتة هو الهدف الأساس لكل مقارنة بين اللغات التي تنتمي الى أصل واحد.

أما النوع الآخر من الفروق - الفروق ضمن الأسر اللغوية فهي تسمح بمجال غير محدد للمقارنة. فقد تختلف لغتان بدرجات مختلفة. كما يمكن ان تتشابهما الى حد كبير، كاللغة الزندية والسانسكريتية. وقد تختلفان تماماً كما هي الحال مع السانسكريتية الكالية. وبين الحالتين درجات. فالشبه بين الاغريقية واللاتينية أكثر منه بين السانسكريتية وأي من اللغتين. واللغات التي تختلف قليلاً جداً تسمى باللهجات *dialects*. ولكن استعمال هذه اللفظة غير دقيق. إذ سنرى ان الاختلاف بين اللغات واللهجات في النوع، وليس في طبيعة الظاهرتين اللغويتين.

(٥٧) بانتيو مجموعة لغات تتكلمها قبائل في جنوب افريقيا ، لاسيما قبائل كافيير . (بالي)

(٥٨) تضم أسرة فينو - اوكرىك - من بين ما تضم - اللغة الفنلندية اولغة سومي ومورديفيا ولاب وغيرها . ويتكلم الناس بهذه اللغات في شمال روسيا وسيبيريا . مما لاشك فيه ان اللغات هذه تعود الى أصل واحد . وهذه الأسرة جزء من أسرة اورال - التيك التي لم يتوصل اليها البحث الى أصلها المشترك ، مع وجود بعض أوجه الشبه بين جميع هذه اللغات . (بالي) .

(٥٩) لاحظ كتابة *l'unità d'origine del Linguaggio* بولون ١٩٠٥ . (بالي)

## الفصل الثاني

### التعقيد في التنوع الجغرافي

#### ١ - وجود عدد من اللغات سوية في نقطة واحدة

لقد تحدثنا عن التنوع الجغرافي حتى الآن في شكله المثالي: ففي العالم مقاطعات جغرافية، قدر اللغات المختلفة. ان أسلوبنا هذا له ما يسوغه، لأن الحدود الجغرافية لا هي أقوى العوامل في التنوع اللغوي، ولكن هناك عوامل ثانوية تغير من هذه العلاقة المثالية وتؤدي الى وجود عدد من اللغات في منطقة جغرافية واحدة.

نذكر أولاً شيئين ذكراً سريعاً. أولاً التمازج أو الاختلاط العضوي الحقيقي بين لغتين يؤدي الى تغيير في النظام اللغوي (كما حدث للانكليزية بعد الغزو النورماندي). ثانياً، الظرف السياسي الذي يجعل من عدد من اللغات، التي تعود الى مناطق جغرافية مختلفة توجد ضمن حدود دولة واحدة، كما في سويسرا. ان ما يهمنا هنا هو وجود لغتين في مكان واحد، من دون تمازجهما. وهو كثيراً ما يحصل: ويكون على نوعين. أولاً: قد يفرض القادمون الجدد لغتهم على لغة البلاد الأصلية. مثال ذلك ما حدث في جنوب أفريقيا، فقد جاء الاستعمار الهولندي وأعقبه الاستعمار الانكليزي ليجلبا معهما اللغة الهولندية واللغة الانكليزية، وهاتان اللغتان تعيشان الآن جنباً الى جنب مع عدد من اللغات الزنجية. وحصل الشيء ذاته حين أدخلت اللغة الاسبانية الى المكسيك. وهذا التغلغل اللغوي لا يقتصر على العصور الحديثة. فقد امتزجت الأمم خلال عصور مختلفة من التاريخ، ومع ذلك حافظت على لغاتها بصورة متميزة، فما علينا إلا ان ننظر الى خارطة أوربا لنذكر هذه الحقيقة: اللغة الكلتية واللغة الانكليزية في ايرلندا، فكثير من الارلنديين يتكلم اللغتين. واللغة الفرنسية والبريتونية في بريتاني (فرنسا). ونجد في مقاطعة الباسك ثلاث لغات: الفرنسية والاسبانية والباسك. وفي فنلندا، عاشت السويدية والفنلندية سوية مدة طويلة من الزمن، ثم أضيفت الروسية في الآونة الأخيرة. وفي كورلاند وليفونيا يتكلم الناس اليديشية والألمانية والروسية: وقد أدخل الألمانية المستعمرون في اثناء وصاية عصابة هانسيك في القرون الوسطى، وتكلم بها الآن طبقة معينة من الناس. ثم دخلت الروسية عن طريق الغزو، وشاهدت لقوانين إدخال اللغة البولونية جنباً الى جنب مع اللغة اللتوانية نتيجة اتحادها في الماضي مع بولندا، ودخلت الروسية الى هذه البلاد بعد أن ضمتها روسيا اليها. وكانت اللغة السلافية والألمانية مستخدمة حتى القرن الثامن عشر في جميع المنطقة الألمانية الواقعة الى الشرق من الألب. واللغات في بعض الأقطار أكثر تشابكاً مما ذكرنا. فنجد في مقدونيا عدداً كبيراً من اللغات - التركية والبلغارية والعربية

والاغريقية والالبانية والرومانية وغيرها - وتمتزج هذه اللغات بأساليب مختلفة وفي أماكن مختلفة من هذه البلاد.

إن اللغات الموجودة في منطقة ما لا تتشابه دائماً بصورة مطلقة : فقد نجد توزيعاً جغرافياً نسبياً : كما في حالة لغتين، تستخدم إحداهما في المدن والأخرى في الريف، لكن مثل هذا التوزيع لا يكون واضحاً دائماً.

ونجد القصة نفسها في الأزمنة القديمة. فالخريطة اللغوية للامبراطورية الرومانية تبين حقائق مماثلة لما ذكرناه آنفاً. ففي نهاية العصر الجمهوري، على سبيل المثال، نجد في كامبانيا ثلاث لغات أو أربعاً : لغة الاوسكان، المذكورة في النقوش بومباي، والاغريقية. وهي لغة المستعمرين الذين شيدوا نابولي وغيرها، واللاتينية، وربما الاتروسكان، وكانت الأخيرة هي السائدة قبل مجيء الرومان. وفي قرطاجنة، بقيت اللغة الفينيقية جنباً إلى جنب مع اللاتينية (وقد ظلت هذه الحال حتى الفتح العربي)، كما كانت اللغة النوميديّة مستخدمة في منطقة قرطاجنة. ويمكن القول ان الأقطار التي كانت تتكلم لغة واحدة في حوض البحر المتوسط، في العصور القديمة، تكون الاستثناء لا القاعدة.

ويُعد الغزو السبب المألوف لفرض اللغة من الخارج، ولكن هذه الحالة قد تأتي أيضاً من خلال التغلغل الذي يأتي عن طريق الاستيطان. أو قد تأخذ القبائل الرحل لهجاتها معها، وهذا ما فعله الفجر، لاسيما أولئك الذين سكنوا المجر، إذ يؤلفون قري قائمة بذاتها، وتبين دراسة لغتهم أنهم لابد ان جاؤوا من الهند في فترة غير معروفة من الماضي. وفي دوبرويا في مصب نهر الدانوب تنتشر قري التتر على هيئة نقاط صغيرة على خارطة اللغوية للمنطقة.

## ٢ - اللغة الأدبية واللغة المحلية

وقد تنشئت الوحدة اللغوية عندما تتأثر لغة طبيعية بلغة أدبية. وهذا يحدث دائماً كلما سعت أمة لبلوغ مرحلة من المدنية. وأعني باللغة الأدبية لغة الأدب فضلاً عن لغة الثقافة على نحو عام، واللغة الرسمية التي تخدم المجتمع بأكمله. فإذا أطلقت الحرية للغة فإنها تنتشعب إلى لهجات حسب، وليس لأية لهجة ميزة على الأخرى، ولهذا السبب تتفرع اللغة عادة. وما أن تتحسن وسائل الاتصال والسفر، بتقدم المدنية، حتى يقع الاختيار العام على إحدى اللهجات لتكون وسيلة للتعبير عن كل ما يتعلق بالامة. وتختلف أسباب هذا الاختيار إلى حد كبير. فقد يقع الاختيار على لهجة المنطقة التي هي أكثر تقدماً في المدنية من غيرها، أو لهجة المنطقة المتفوقة سياسياً ولها سلطة مركزية. وقد يفرض البلاط لهجته على الأمة. وبعد ان تصبح اللهجة المختارة اللغة الرسمية واللغة الفصيحة، فإنها قلما تبقى على حالتها الأولى. بل تكتسب عناصر محلية من مناطق أخرى، وتصبح خليطاً

أكثر فأكثر، من دون أن تفقد، تماماً، طابعها الأول. وهكذا تُعد لهجة ايل دي فرانس واللغة الأدبية الفرنسية ولهجة توسيكان اللغة الإيطالية الفصيحة. ولكن اللغة الأدبية لا تُفرض على الناس بين ليلة وضحاها، فنجد أغلبية الناس يتكلمون الفصيحة واللجة المحلية. وهذا ما نجده في أجزاء من فرنسا، مثل سافوري، حيث الفرنسية، وهي لغة مستوردة، لم تقض تماماً على اللهجة الشعبية المحلية، كما نجد ذلك في المانيا عامة وفي إيطاليا، حيث بقيت اللهجات جنباً إلى جنب مع اللغة الرسمية.

وينطبق الشيء نفسه على الأمم التي بلغت مرحلة معينة من المدنية. فكان للاغريق لغتهم الفصيحة «كواني» المستمدة من لهجتي اتيكا وأيونا فضلاً عن اللهجات المحلية الموجودة معها. وربما للبابليين القدامى لغة رسمية ولهجات للمناطق المختلفة.

هل تنطوي اللغة الفصيحة بالضرورة على استخدام الكتابة؟ إن أشعار هوميروس - على ما يبدو - خير دليل على أن الجواب عن ذلك يكون بالنفي. فمع أن هذه الأشعار ألفت في وقت قلما استعملت الكتابة فيه، أولم تكن مستعملة قط، كانت لغتها تقليدية؛ لها جميع سمات اللغة الأدبية.

إن الحقائق التي ناقشناها في هذا الفصل مألوفة، بل إنها قد تُعد عوامل طبيعية في تأريخ اللغات. ولكي لا نخرج عن الموضوع، يجب أن نتجنب كل ما من شأنه تمويه الظاهرة الجوهرية للتنوع الجغرافي الطبيعي ونعدها شيئاً مستقلاً عن لغة أجنبية دخيلة أو عن لغة أدبية. أن هذا التبسيط في الخط يخالف - على ما يبدو - واقع الحال، ولكن الحقيقة الطبيعية ينبغي أن تدرس لوحدها.

وطبقاً لهذا المبدأ يجب أن نقول أن بروكسل المانية لأنها تقع في منطقة الفليمك من بلجيكا: ومع أن اللغة المستخدمة هناك هي الفرنسية، يكون المهم هو الحدود بين مقاطعات الفليمك ومقاطعات فابلون. ومدينة لياج رومانية للسبب ذاته: فهي في منطقة والون. والفرنسية لغة أجنبية فرضت على لهجة محلية تعود إلى الأصل الذي تنتمي إليه الفرنسية. وكذلك تعود برست لغوياً إلى بريتون، والفرنسية المستعملة هناك لا علاقة لها باللغة الأصلية لمقاطعة بريتاني. وبرلين حيث يكاد جميع الناس يتكلمون الألمانية العليا، هي جزء من الألمانية السفلى، إلى غير ذلك.



## الفصل الثالث

### أسباب التنوع الجغرافي

١ - الزمن، السبب الأساس.

إن التنوع المطلق يثير مشكلة نظرية بحتة (لاحظ الجزء الرابع، الفصل الأول)، أما التنوع ضمن لغات تنتمي الى أصل واحد فأمر يمكن ملاحظته، والعود به الى الوحدة اللغوية. فالأصل المشترك للفرنسية والبروفنسال يمكن تفسيره بأن اللاتينية العامة اتجهت اتجاهين مختلفين في القسم الشمالي والقسم الجنوبي من بلاد الغال.

ونستطيع أن نصل الى السبب الأساس في التمييز المكاني للغات، إذا بسطنا الظروف النظرية الى أبعد حد ممكن. ماذا يحدث لو نقلت لغة ما مستعملة في مكان محدد - كجزيرة صغيرة - وزرعها المستوطنون في مكان مُحدّد آخر - جزيرة أخرى مثلاً؟ بعد مرور مدة من الزمن تظهر فروق المفردات والقواعد واللفظ؛ تفصل اللغة الأصلية (S) عن اللغة التي زرعها المستوطنون (S').

من الخطأ الاعتقاد ان اللغة المنقولة هي التي تتغير وحدها، وتبقى اللغة الأصلية ثابتة، أو عكس ذلك. فقد يظهر التغيير في إحدى اللغتين أو في كلاهما في آن واحد. لنأخذ العنصر اللغوي (a) الذي يمكن أن يحل محله b، c، d، الى آخره. سنجد ان التمييز قد يحدث بثلاثة أساليب مختلفة:

$$\longrightarrow \frac{b}{a}$$

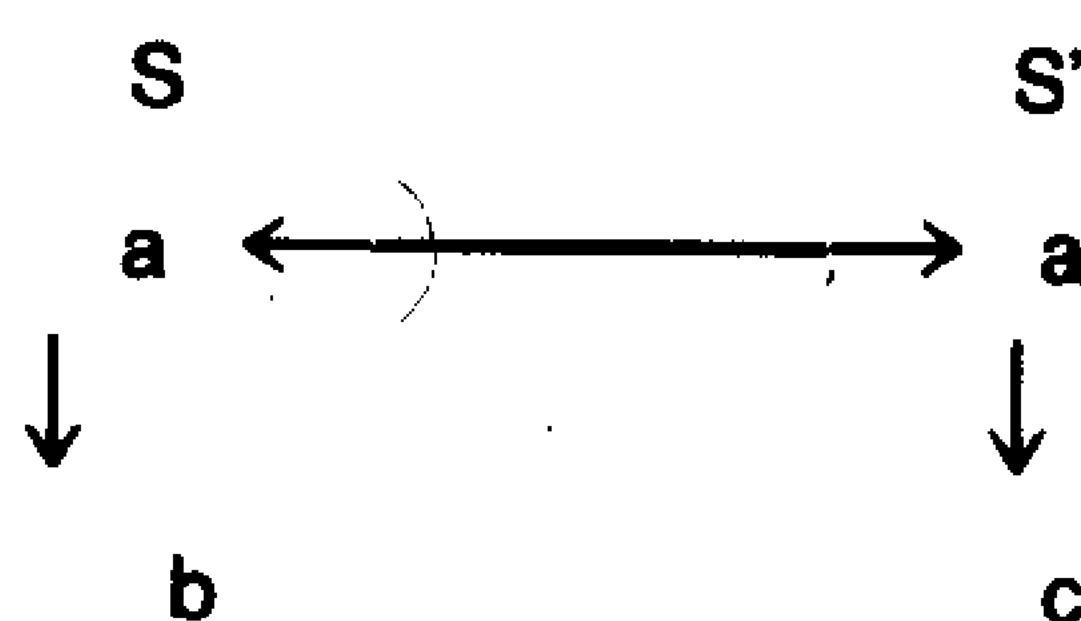
$$\frac{a \text{ (الأصل S)}}{a \text{ (اللغة المنقولة S')}} \longrightarrow \frac{a}{c}$$

$$\longrightarrow \frac{b}{c}$$

فدراسة المسألة من جانب واحد لا تفي بالغرض، لأن العناصر الجديدة في اللغة الأولى مهمة كاللغة الثانية.

ما الذي خلق الفروق؟ من الخطأ الاعتقاد بأن المكان وحده هو السبب. فالمكان وحده لا يمكن أن يؤثر في اللغة. فالمستوطنون القادمون من S كانوا يتكلمون اللغة نفسها التي تكلموها في اليوم السابق، وذلك يوم وصولهم الى جزيرة S'. ومن السهل أن ننسى عامل الزمن، لأنه أقل وضوحاً من المكان. ولكنه في الحقيقة العامل الذي يؤدي الى التمييز

اللغوي. فالتنوع الجغرافي ينبغي أن يسمى بالتنوع الزمني. إذا أخذنا الصفتين المتميزتين b، c. وجدنا انه ما من متكلم انتقل من العنصر الأول الى الثاني، أو من العنصر الثاني الى الأول. فإذا أردنا أن نفهم كيف تحدث الوحدة اللغوية تنوعاً لغوياً، فعلياً أن نعود الى الصفة الأصلية a التي يحل محلها العنصران a، b فقد تغير a وأصبح b و c. لذا تصح الصورة التالية للتمييز الجغرافي في الحالات المماثلة:



إن الفصل بين اللغتين يبين الشكل الملموس لهذه الظاهرة ولكنه لا يفسرها. مما لا شك فيه ان الفصل المكاني شرط ضروري - مهما كان حجمه صغيراً - ولكن البعد وحده لا يخلق الفروق. فالحجم في هذه الحالة لا يقاس بسطح واحد، بل بإضافة بعد ثالث، العمق، وكذلك التمييز الجغرافي؛ لا يمكن تصويره كلياً إلا إذا أضيف اليه العمق الزمني. وقد يعترض البعض فيقول ان الفروق في البيئة والمناخ والطوبوغرافيا والتقاليد المحلية (كالفرق بين عادات سكان الجبال وسكان الشواطئ) كلها تؤثر في اللغة، لذا تتكيف الفروق جغرافياً. بيد ان مثل هذه العوامل موضع خلاف (لاحظ الجزء الثالث، الفصل الثاني)، حتى إذا استطعنا البرهنة على صحتها، فنحن نحتاج الى تمييز آخر وهو: ان اتجاه الحركة، الذي تتحكم فيه دائماً العوامل القوية المتسلطة التي لا يمكن ملاحظتها أو وصفها، يعزى الى البيئة. فقد تغير الصوت a وأصبح b في لحظة معينة وفي بيئة معينة. لماذا تغير هذا الصوت في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، ولماذا أصبح b بدلاً من a؟ لا نستطيع الاجابة عن هذا السؤال. ولكن التغير نفسه - أو عدم استقرار اللغة - ينبع من الزمن وحده (إذا تركنا الاتجاه الذي يتخذه التغير والأشكال التي يظهر بها). فالتنوع الجغرافي، إذن، هو جانب ثانوي من هذه الظاهرة العامة ووحدة اللغات المتقاربة لها وجود في الزمن فقط. وإذا لم يدرك اللغوي المهتم بمقارنات اللغات هذا المبدأ إدراكاً جيداً، فمن المحتمل جداً أن يقع في وهم.

## ٢ - تأثير الزمن في المنطقة المتصلة

لنأخذ الآن قطراً يتكلم لغة واحدة، أي قطعاً له وحدة لغوية ومكان مستقر، كبلاد الغال نحو عام ٤٥٠م، حيث استقرت اللغة اللاتينية في كل مكان من هذه البلاد. ماذا

سيحدث في هذه الحال؟

(١) لما كانت حالة الاستقرار المطلق (عدم التغيير) في اللسان شيئاً لا وجود له (لاحظ الجزء الأول، الفصل الثاني) فإن اللغة لن تبقى على حالها بعد مضي فترة من الزمن.

(٢) لن يكون التطور واحداً في جميع أجزاء البلاد، ولكنه سيختلف من منطقة الى أخرى. إذ لا تتوفر لدينا سجلات تشير الى ان لغة ما قد تغيرت بطريقة واحدة في جميع أجزاء البلاد، فالرسم الأول إذن غير صحيح والرسم الثاني هو الصحيح. كيف تظهر الفروق التي تؤدي الى لهجات متنوعة جداً؟ وما النمط الذي يسير بموجبه تطورها؟ إن التمييز من خلال الزمن، وهو أكثر تعقيداً مما يبدو، له صفتان أساسيتان:

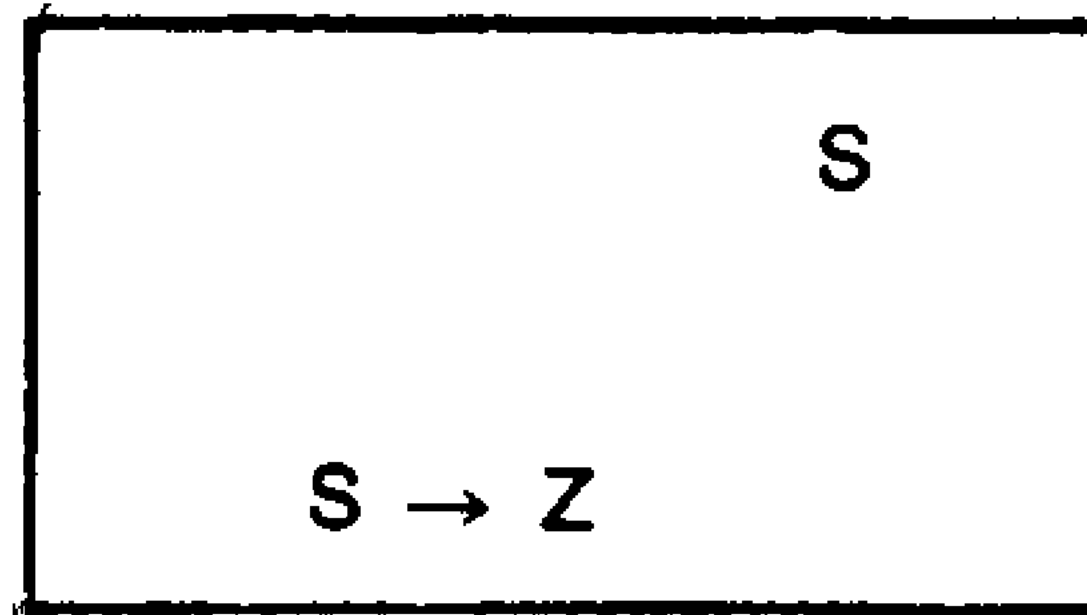
(١) يأتي التطور على هيئة خلق حقائق جديدة، متعاقبة، دقيقة. وهذا يضم حقائق جزئية كثيرة، بقدر يستطيع المرء معه احصاءها ووصفها وتصنيفها حسب طبيعتها (صوتية ومعجمية، ومورفولوجية (صرفية) ونحوية وغير ذلك).

(٢) كل حقيقة جديدة تضم مجالاً محدداً معيناً، وفي ذلك احتمالان: قد يضم مجال الحقائق الجديدة المنطقة الجغرافية بأكملها، فلا يؤدي ذلك الى فروق في اللهجات (وهذا أقل الاحتمالين حدوثاً)، أو قد يشمل التغيير جزءاً من المنطقة الجغرافية، وتختص كل لهجة بمنطقة جغرافية معينة (وهو احتمال أكثر حدوثاً).

ويمكن توضيح ذلك بأمثلة من التغيير الصوتي، وإن كان التغيير يشمل جميع المجالات. مثال ذلك، قد تشهد بعض أجزاء المنطقة الجغرافية تغييراً في الصوت  $a$  فيصبح  $e$ :



وقد يحدث تغيير آخر في المنطقة نفسها، ولكن ضمن حدود أخرى فيتحول الصوت  $s$  الى  $z$ :



فوجود هذه المناطق الجغرافية المتميزة يفسر تنوع أشكال اللسان، حسب الأماكن في موطن اللغة، التي تُركت لتتطور تطوراً طبيعياً. ولا يوجد سبيل إلى التكهّن عن هذه المناطق: ولا يوجد ما يشير إلى طريقة توزيعها: فكل ما نستطيع عمله هو تسجيلها. فهي تؤلف على الخريطة أنماطاً معقدة جداً، حيث تتقاطع الحدود مرات كثيرة وتبدو هذه الأنماط غريبة في بعض الأحيان. فقد تغير الصوتان c، g قبل a وأصبحا ts، dš ثم s، z (لاحظ cantum ← chant «أغنية»، verge virga «عصا») في الجزء الشمالي من فرنسا كله، عدا بكاردي وجزءاً من نورماندي، حيث بقي الصوتان c، g من دون تغيير (لاحظ استعمال cat بدلاً من chat «قط» في بكاردي، وكذلك rescapé بدلاً من réchappé وقد دخلت الكلمة الأخيرة الفرنسية قبل مدة قصيرة، وvergue المشتقة عن virga التي ذكرت آنفاً، وغير ذلك).

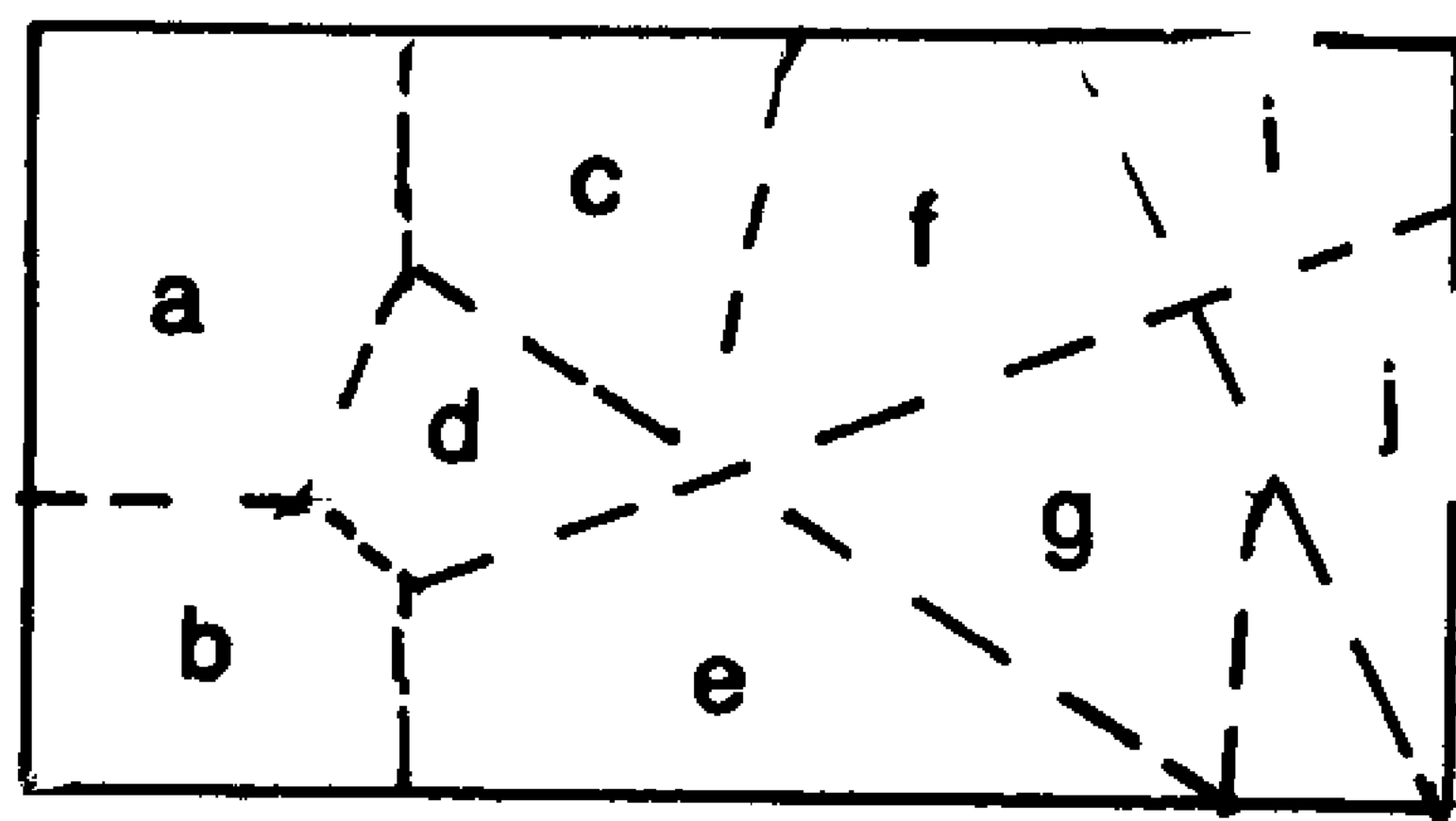
ما نتيجة التنوع (التمييز) من خلال الزمن؟ قد تسيطر لغة واحدة على منطقة جغرافية بأكملها، في لحظة معينة من التاريخ، وبعد مرور خمسة قرون، أو عشرة، ربما لا يستطيع سكان جزء هذه من المنطقة أن يفهموا لغة سكان جزء آخر بعيد عنهم. ومع ذلك يفهم سكان كل جزء من المنطقة لغة سكان الجزء المجاور لهم. فالمسافر من نهاية هذه المنطقة إلى النهاية الأخرى لن يلاحظ سوى فروق محلية صغيرة، من مكان إلى آخر. ولكن المجموع الكلي لهذه الفروق يزداد شيئاً فشيئاً حتى يصل المسافر إلى لغة لا يفهمها سكان المكان الذي بدأ منه سفره. أو أنه إذا بدأ من نقطة معينة في المنطقة وسافر بعيداً عنها، مرة في هذا الاتجاه ومرة في ذلك الاتجاه، فسيجد مجموع هذه الفروق يزداد في كل اتجاه، ويختلف مجموع الفروق في اتجاه ما عن الاتجاه الآخر.

فالصفات الخاصة بلهجة قرية ما قد تظهر ثانية في الأماكن المجاورة، ولكن لا يوجد من سبيل يدلنا على المدى الذي تصل إليه هذه الصفات. فعلى سبيل المثال، يطلق على جنيف في دوفين بسافوري العليا «دنفا». وتسمع هذه اللفظة إلى الشرق والجنوب من تلك المنطقة، ولكن سكان الجانب الآخر من بحيرة جنيف يقولون «دزنفا». ومع ذلك ليست المسألة مسألة لهجتين متميزتين تميزاً واضحاً لأن الحدود تختلف بالنسبة لظاهرة لغوية أخرى. فالتكلمون في دوفين يستخدمون daue بدلاً من deux «أثنان» ولكن هذه اللفظة تستخدم في منطقة جغرافية أصغر من المنطقة التي تستخدم دنفا denva. فالتكلمون عند سفوح سالييف، على بعد كيلومترات قليلة من دوفين يستخدمون due.

### ٣ - اللهجات ليس لها حدود طبيعية

الرأي السائد اليوم، وهو يختلف عن رأينا، هو عدُّ اللهجات أنماطاً لغوية محددة متميزة، لها حدود في جميع الجهات، وتغطي هذه اللهجات مناطق جغرافية متميزة، تقع

الواحدة الى جانب الأخرى على الخارطة (a, b, c, d الى آخره). بيد ان التغييرات الطبيعية في اللهجات تؤدي الى نتائج مختلفة تماماً عما ذكرناه آنفاً. فما إن ندرس كل ظاهرة، وحدها، ونحدد توزيعها حتى يتغير رأينا القديم ويحل محله رأي جديد. فلا توجد لهجات طبيعية، بل مميزات طبيعية للهجات وبعبارة أخرى يوجد من اللهجات بقدر وجود الأماكن الجغرافية.



ففكرة اللهجات، الطبيعية إذن لا تتفق وفكرة المناطق المحددة الثابتة. ولم يبق لدينا سوى خيارين: (١) يمكن أن نحدد اللهجة عن طريق مجمل الصفات المميزة لها - وهذا ينطوي على اختيار نقطة على الخارطة، وتحديد أشكال اللسان لمنطقة جغرافية واحدة فقط، طالما ان هذه المميزات لن تمتد الى أبعد من النقطة المحددة على الخارطة، أو (٢) قد نحدد اللهجة باستخدام إحدى المميزات لخاصة بها، ونرسم خريطة لانتشار هذه الصفة فقط - وهو، ولا شك، أسلوب مصطنع، لأن الحدود التي نرسمها على الخارطة لن تتفق مع واقع الحال لأية لهجة.

لقد كان البحث في الصفات المميزة للهجات هي نقطة البداية في رسم الخرائط اللغوية. وخير نموذج للأطلس اللغوية هو أطلس جيليرون الموسوم بالأطلس اللغوي لفرنسا (Atlas Linguistique de la France).

كما ينبغي ان نذكر الخارطة التي رسمها فنكر لألمانيا.^(٦٠)

ويحدد شكل الأطلس سلفاً، لأن علينا أن ندرس منطقة بعد أخرى من البلاد التي نرسم خريطتها، ولن تضم الخارطة إلا عدداً قليلاً من مميزات اللهجة الموجودة في مكان معين. وعلى المرء أن يغربل الحقائق لكل منطقة عدة مرات لكي يلقي الضوء على المميزات الصوتية والمعجمية والصرفية الى آخره، الذي يفرض بعض منها على البعض الآخر. إن مثل هذا العمل يحتاج الى مجموعة من الخبراء، وأسئلة معدة إعداداً جيداً، وتعاون من

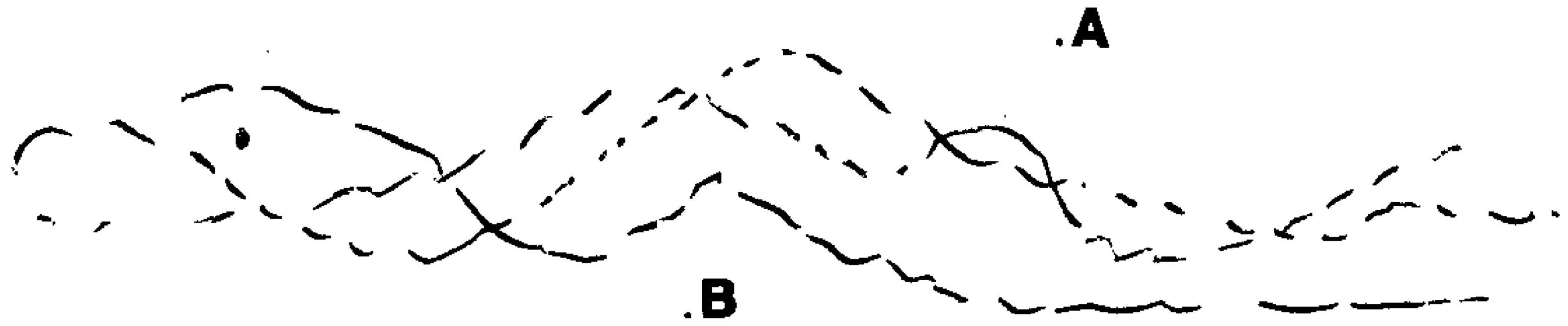
(٦٠) لاحظ ايضا Weigand, Linguistischer Atlas des dakorumatischen Gebiets (١٩٠٩) : وكذلك Miardet

Petit atlas linguistique d'une region des Landes (١٩١٠) . سوسور .

جانب المراسلين المحليين، الى غير ذلك. ولا بد أن نذكر هنا مشروعاً من هذه المشاريع يهتم بدراسة اللهجة الشعبية المحلية للناطقين بالفرنسية في سويسرا. فالأطالس اللغوية مفيدة لأنها توفر مادة يمكن استغلالها في علم اللهجات dialectology. فهناك مقالات كثيرة تستند الى أطلس جيليرون.

لقد سميت الخطوط، التي تفصل بين المميزات العامة للهجات، خطوط اللهجات isogloss Lines أو isoglosses. ان هذه اللفظة التي صيغت قياساً على لفظة isotherme «خطوط الحرارة»، مبهمة في معناها وغير مناسبة، لأنها تعني «التساوي في اللغة». ولما كانت لفظة glosseme تعني «طبيعة إصطلاحية»، فان لفظة isoglossematic line أفضل إذا كانت عملية. ومع ذلك أفضل استخدام لفظة innovating waves «موجات التجديد» وكان أول من استخدم هذه اللفظة ج. شمت. J. Schmidt.

وسأبين في الفصل الثالث لماذا أفضل هذه اللفظة على غيرها. إذا القينا نظرة سريعة على الأطلس اللغوي فربما رأينا موجتين أو ثلاثة تتفق أو تتوافق في منطقة واحدة:



إن اللفظتين A، B تفصل بينهما مثل هذه المنطقة، ونجد فيهما بعض الانحرافات فهما يؤلفان نوعين متميزين من اللسان. ولا يكون التوافق جزئياً، بل يتميز به محيط منطقتين أو أكثر بالكلمة:



فتحدد اللهجة، تحديداً عاماً، عن طريق تراكم قدر كاف من التوافق. وتستند أسسها الى عوامل ، اجتماعية وسياسية ودينية الى آخره، وهي أمور لا تهمنا الآن، تغطي، ولكنها لا تلمس كلياً الحقيقة الجوهرية والطبيعية للتمييز بين منطقة وأخرى.

#### ٤ - اللغات ليس لها حدود طبيعية

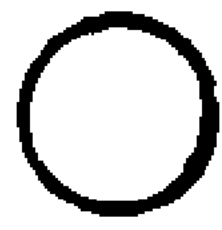
من الصعب أن نحدد تحديداً دقيقاً كيف تختلف اللغة عن اللهجة. فكثيراً ما يطلق على لغة ما لهجة لأن لها نتاج أدبي. كما هي الحال مع اللغة البرتغالية والهولندية. كما أن للفهم دوراً في هذه المسألة: فالجميع يتفقون على أن الناس الذين يفهم بعضهم بعضاً يتكلمون لغات مختلفة. وعلى كل حال تملك اللغات، التي تطورت في منطقة متصلة وبين سكان مستقرين، تملك - بوجه عام - خصائص تشبه خصائص اللهجات. إذ تظهر موجات التجديد هنا وهناك، مع فارق واحد وهو: أنها تشمل منطقة واحدة مشتركة بين عدد من اللغات.

ويصعب، حتى في الأمثلة الفرضية التي أوردناها، أن نضع حدوداً بين اللهجات. وهذا ينطبق على اللغات المتقاربة (التي هي من أصل واحد). ولا شأن لحجم المنطقة في هذا الأمر. إذ لا نستطيع أن نحدد أين تبدأ الألمانية العليا وأين تنتهي الألمانية السفلى، كما لا نستطيع أن نرسم الخط الفاصل بين الألمانية والهولندية، وبين الفرنسية والإيطالية. نعم هناك نقاط واضحة نستطيع فيها أن نجزم أن «الفرنسية تسود هنا والإيطالية تسود هناك»، ولكن التمييز يختلف في المناطق التي تقع بين هاتين النقطتين. وقد نتصور منطقة واضحة محددة للانتقال من لغة إلى أخرى، كما في البروفنس التي تقع بين الفرنسية والإيطالية - ولكن مثل هذه المنطقة لا وجود لها. إذ كيف يمكن أن نرسم حدوداً لغوية دقيقة لمنطقة تغطيها من إحدى نهايتيها إلى النهاية الأخرى لهجات، تتدرج شيئاً فشيئاً في التمييز؟ فالخطوط الفاصلة بين اللغات، كالخطوط الفاصلة بين اللهجات تختفي في مراحل الانتقال. وكما أن اللهجات هي تقسيمات اعتباطية لمجمل ظاهر اللغة فكذلك الحدود الفرضية التي تفصل بين لغتين إنما هي مسألة عرف.

ومع ذلك يكون الانتقال لمفاجيء من لغة إلى أخرى أمراً معروفاً: سببه الظروف التي أدت إلى القضاء على الانتقال غير الظاهر. وأشد هذه الظروف حركة السكان. فقد تميزت الأمم دائماً بالترحال. وتضاعفت الهجرات عبر القرون، فأدى ذلك إلى الارتباك في كل مكان، واختفت في كثير من الأماكن جميع آثار الانتقال اللغوي. وخير مثال على ذلك أسرة اللغات الهندية - الأوروبية. فلا بد أن لغات هذه الأسرة كانت متقاربة جداً في أول الأمر، تتمثل في سلسلة متصلة من المناطق اللغوية. إذ نستطيع أن نعيد رسم الخطوط العريضة للمناطق الكبيرة منها. فتشرك اللغة السلافية في صفات معينة مع الإيرانية والجرمانية، وهذا يتفق مع التوزيع الجغرافي للغات الثلاث: واللغة الجرمانية، كذلك، هي الحلقة الوسطى التي تربط بين السلافية والكلتية: وهذه الأخيرة ترتبط بدورها ارتباطاً وثيقاً بالطلانية: واللغة الأخيرة تتوسط بين الكلتية واللاغريقة، وهكذا يستطيع اللغوي أن يضع كل لغة في مكانها المناسب، من دون أن يعرف موقعها الجغرافي. ومع ذلك، نجد إذا

أردنا أن نرسم الحدود بين مجموعتين من اللغات (كما في الحدود بين الجرمانية والسلافية) انقطاعاً فجائياً ولا نجد منطقة انتقال. إذ تصطدم المجموعتان بدلاً من زحفهما الواحدة على الأخرى. وسبب ذلك هو اختفاء اللهجات التي كانت تتوسط بين المجموعتين. فلا الأقوام السلافية ولا الأقوام الألمانية كانت مستقرة، بل هاجرت وفتحت الأقاليم، كل مجموعة على حساب المجموعة الأخرى. فالسكان السلاف وجيرانهم الألمان اليوم ليسوا نفس الأقوام القديمة، التي كانت تتصل فيما بينها. ولو سكن الإيطاليون الذين يعيشون في كالابريا على الحدود الفرنسية، لحطم هذا الانتقال، بطبيعة الحال، الانتقال، غير المرئي بين الإيطالية والفرنسية. وهناك حقائق مشابهة لهذه تفسر توزيع مجموعات اللغات الهندية - الأوربية.

ثمة عوامل أخرى تساعد على القضاء على مراحل الانتقال بين اللغات : منها انتشار اللغات الفصحى على حساب اللهجات الشعبية (لاحظ الفصل الثاني). فاللغة الفرنسية الأدبية اليوم تمتد حتى الحدود (وكانت في السابق لغة ايل دو فرانس) : وتصطدم عند الحدود باللغة الإيطالية الرسمية (وكانت في السابق لهجة توسكان)، وبقاء اللهجة الشعبية التقليدية اليوم في مناطق الألب الغربية. إنما هو من باب المصادفة، فقد اختفت جميع آثار أشكال اللسان التي تتوسط بين اللغتين في الحدود اللغوية الأخرى.





## الفصل الرابع

### انتشار الموجات اللغوية

#### ١ - الاتصال والاقليمية

ان القوانين التي تتحكم بانتشار الظواهر اللغوية هي نفسها التي تتحكم بالعوادات مهما كان نوعها كطراز الأزياء . ففي كل مجموعة بشرية تعمل قوتان في آن واحد ، وباتجاهين متضادين : القوة الأولى هي الفردية او الاقليمية esprit de clocher والثانية الاتصال بين الناس .

تدفع الاقليمية بمجتمع لغوي محدد الى أن يتمسك بتقاليده الخاصة . والانماط التي يكتسبها الفرد في طفولته قوية ثابتة . ولو عملت هذه الأنماط وحدها لخلقت عددا لا يحصى من الصفات الخاصة في اللسان .

ولكن الاتصال ، وهو القوة المضادة ، يحد من أثر العامل الأول . فالاقليمية تدفع الناس الى الاستقرار ، أما الاتصال فيدفع بهم الى التنقل . فيجلب الانتقال الناس من المناطق المجاورة الى القرية ، وينقل جزءاً من السكان حيثما وجد احتفال او معرض ، ويجمع بين الناس من مناطق مختلفة في الجيش ، الى غير ذلك . وبعبارة اخرى الاتصال هو القوة الرابطة التي تقف بوجه التفكك الناتج عن عمل الاقليمية .

والاتصال ينشر اللغة ويمنحها الوحدة : ويعمل بأسلوبين : الاسلوب السلبي : اذ يمنع التشتت الناتج عن اللهجات ، وذلك بالقضاء على الظاهرة الجديدة كلما برزت واينما برزت : والاسلوب الايجابي : وهو يشجع الوحدة اللغوية عن طريق تبني ظاهرة جديدة ونشرها . والاسلوب الثاني للاتصال يبرر استخدام لفظة الموجة في تسمية الحدود الجغرافية لحقيقة من حقائق اللهجة (لاحظ الفصل الثالث) لان خط اللهجات يشبه السطح المتموج للفيضان .

ومن الغريب ان نجد في بعض الاحيان لهجتين متباعدتين في لغة واحدة ، لهما صفة لغوية مشتركة . وسبب ذلك ان التغيير الذي ظهر في مكان ما من المنطقة لم يواجه اية عقبة عند انتشاره فامتد شيئاً فشيئاً الى مكان بعيد عن نقطة البداية . فلا يوجد ما يعرقل عمل الاتصال في كتلة لغوية لاتحتوي الا على مناطق انتقال غير مرئية .

إن تعميم حقيقة ما - مهما كان حجم المنطقة - يحتاج الى وقت ، وقد نستطيع في بعض الاحيان قياس هذا الوقت . فتحول p الى d الذي نقله الاتصال الى جميع انحاء المانيا القارية ، انتشر هذا التغيير اول الامر في الجنوب بين عامي ٨٠٠م و ٨٥٠م ، عدا منطقة فرانكونيا حيث بقي الصوت p يلفظ d رقيقة ولم يستسلم للصوت d إلا بعد ذلك التاريخ . اما تحول t الى z في الالمانية (ويلفظ هذا الصوت ts) فقد جاء ضمن حدود

اصغر ، وبدأ في فترة تسبق اول وثيقة مكتوبة متوفرة لدينا : فلا بد انه بدأ في الالب نحو عام ٦٠٠م وانتشر شمالا وجنوبا حتى بلغ لومبارديا . اذ بقي الصوت t مستعملا حتى القرن الثامن في ميثاق ثورنجا . وبعد ذلك اصبح الصوتان i , u حركتين ثنائيتين في الالمانية (لاحظ تحول min الى mein و brún الى braun) . وقد استغرقت هذه الظاهرة ٣٠٠ سنة ، فبدأت في بوهيميا نحو عام ١٤٠٠م ثم وصلت الى الراين وانتشرت في موطنها الحالي .

لقد انتشرت الحقائق اللغوية ، مارة الذكر عن طريق التأثير المتبادل بين اللهجات ، وربما يصح الشئ نفسه في جميع الموجات : فهي تبدأ من نقطة معينة ثم تنتشر . وهذا يأخذها الى ملاحظة مهمة اخرى : يمكن توضيحها ايضا بأمثلة من ابدال الاصوات الصحيحة في الالمانية .

فعندما تحول الفونيم t الى ts في نقطة معينة من المقاطعة الجرمانية ، اخذ الصوت الجديد ينتشر من نقطة البداية ، فاصبح الصوت ts ينافس الصوت الاصلي t او الأصوات الاخرى ، التي ربما تطورت منه في اماكن اخرى . ان مثل هذا التغيير هو صوتي محض في اصله ، ولكنه يثبت في الأماكن الاخرى بالتأثير الجغرافي والاثر المتبادل بين اللهجات . لذا يصح الرسم الاتي :



على بساطته بالنسبة لنقطة البداية حسب . واذا حاولنا تطبيقه على الانتشار ظهرت الصورة مشوهة .

ينبغي على عالم الصوت إذن ان يميز تمييزاً دقيقاً بين نقطة الاصل ومناطق الانتشار . فالفونيم يتطور في نقطة الاصل طبقاً لمحور الزمن . ولكن الحقائق الصوتية وحدها لا تفسر المناطق الاخرى التي تأثرت بهذه الظاهرة ، لان هذه المناطق هي نتيجة الامتزاج بين الزمن والمكان . لناخذ الصوت ts الذي جاء من مصدر خارجي وحل محل الصوت t . هذا المثال ليس لتغيير نمط اولي تقليدي ، بل لمحاكاة لهجة مجاورة ، مهما كان النمط الاول . لقد جاءت كلمة Herza «قلب» من منطقة الالب وحلت محل الكلمة القديمة herta التي كانت مستخدمة في ثورنجا . هذا مثال لاقتباس فونيم وليس مثالا للتغيير الصوتي .

## ٢ - اختصار القوتين في قوة واحدة :

إذا ركزنا على نقطة جغرافية واحدة - واعني بالنقطة منطقة صغيرة تشبه النقطة كالقرية - فمن السهل تشخيص ما يعزى الى كل من القوتين ، الاقليمية والاتصال : ان اية حقيقة من الحقائق تعتمد على احدى القوتين وليس على القوتين كليهما . فكل صفة مشتركة مع لهجة اخرى سببها الاتصال : وكل صفة تعود الى لهجة هذه النقطة فقط سببها الاقليمية .

ولكن ما ان ننتقل الى منطقة اكبر - اقليم او مقاطعة - حتى تظهر صعوبة جديدة . اذ لا نستطيع ان نجزم اى القوتين مسؤولة عن ظاهرة معينة . فكلتا القوتين ، على الرغم من أنهما تعملان في اتجاهين متضادين ، تشتركان في كل صفة من صفات اللغة . فكل ما يميز المنطقة A تشترك فيه جميع اجزاء هذه المنطقة وتمنع القوة الفردية المقاطعة A من محاكاة شيء من المقاطعة B وتمنع المقاطعة الأخيرة من محاكاة المقاطعة A . ولكن القوة الموحدة ، الاتصال ، تشترك أيضا في هذه العملية ، فتظهر في اجزاء مختلفة من المنطقة A (A¹, A², A³ الى آخره) . تعمل القوتان ، اذن ، في المناطق الكبيرة في آن واحد ، ولكن بنسب مختلفة . وكلما كان الاتصال يدعم التجديد توسعت رقعة المنطقة . اما الاقليمية فهي تجنب نحو المحافظة على حقيقة لغوية معينة في عموم المنطقة التي توجد فيها ، وذلك عن طريق حمايتها من حقائق منافسة تأتيها من الخارج . ولا نستطيع التكهن بنتائج عمل القوتين . ففي المقاطعة الجرمانية ، التي امتدت من جبال الألب الى بحر الشمال ، كان التغيير من b الى d عاما ، أما التغيير من t الى ts فقد شمل الجنوب فقط (لاحظ ما جاء في هذا الفصل) :

لقد خلقت الاقليمية نوعا من التقابل بين الجنوب والشمال ، في حين كان الاتصال مسؤولا عن الوحدة اللغوية بين كل من المنطقتين . ليس بين الظاهرة الاولى والثانية ، اذن ، فرق جوهري . إذ تشترك القوتان ، ولكن شدتهما تختلف .

وهذا يعني ، من الناحية العملية ، أننا نستطيع اهمال القوة الفردية في دراستنا للتطورات اللغوية . أي اننا نستطيع عدّها الجانب السلبي للقوة الموحدة . وقد تكون القوة الأخيرة قوية تكفي لتوحيد المنطقة باجمعها . واذا لم تكن كذلك ، توقفت الظاهرة بعد ان تكون قد امتدت الى جزء من المنطقة فقط . ويؤلف هذا الجزء في داخله وحدة متماسكة . ولهذا السبب يمكن ان نختصر فننسب كل شيء الى قوة موحدة واحدة من دون ان ندخل في الحسابان الاقليمية ، التي ليست سوى قوة اتصال مختصة بمنطقة معينة .

## ٣ - التمييز اللغوي في مقاطعات منفصلة :

ينبغي للمرء ان يدرك ثلاثة أمور قبل ان يستطيع دراسة لغة تطورت في آن واحد في منطقتين منفصلتين : وهذه الامور : (١) لا يكون التماسك بدرجة واحدة لجميع

الظواهر اللغوية في جمهور ناطق بلغة واحدة ، (٢) الانتشار لا يشمل جميع الحقائق الجديدة ، (٣) الاستمرارية الجغرافية لاتمنع ظهور التمييز اللغوي بصورة مستمرة . ان مثل هذه التطورات التي تحدث في آن واحد شائعة . فعندما انتقلت الاقوام الجرمانية من القارة الاوربية الى الجزر البريطانية - على سبيل المثال - بدأ تطور في اتجاهين : فتطورت اللهجات الألمانية من جهة ، وتطورت ، من جهة اخرى ، اللهجات الانكلو - ساكسونية ، التي انحدرت منها اللغة الانكليزية . وهذا مثال آخر ، اللغة الفرنسية بعد ان نقلت الى كندا . ولاياتي الانفصال دائما عن طريق الاستيطان والغزو فقط : فقد يكون سببه العزلة . إذ فقد الرومانيون الاتصال بالكتلة اللاتينية بعد أن حجزت بينهما الاقوام السلافية . ولكن السبب غير مهم : المهم معرفة : ان كان للفصل دور في تاريخ اللغات ، وان كانت اثاره تختلف عن تلك التي تظهر في المناطق المتصلة جغرافياً .

ولكي نوضح الأثر الكبير للزمن فقد تصورنا كيف يمكن أن تتطور لغة ما في آن واحد في نقطتين محدوتين - جزيرتين صغيرتين في مثالنا السابق - حيث يمكن ان نهمل الانتشار التدريجي . اما في حالة وجود منطقتين تغطيان مساحة اوسع ، فاننا نجد مرة اخرى أن الانتشار التدريجي يؤدي في النهاية الى فروق اللهجات . ان عدم اتصال المنطقتين الجغرافيتين لايجعل المسألة أسهل . اذ ينبغي ان لاننسب الى الفصل شيئاً يتمكن تفسيره بدونه .

وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه علماء اللغة الاوائل الذين درسوا اللغة الهندية - الاوربية (لاحظ المقدمة ، الفصل الاول) . فقد واجه هؤلاء اللغويون أسئلة كبيرة من اللغات التي تختلف فيما بينها كثيراً ، ولم يدركوا ان الفروق يمكن ان يكون سببها شيئاً آخر غير التشتت الجغرافي . فكان من السهل عليهم وعلى غيرهم ، أن يتصوروا لغات مختلفة في مناطق جغرافية منفصلة : فالنظرة السطحية لاتحتاج الى اكثر من هذا لتفسير الفروق . ولكنهم ذهبوا الى ابعد من ذلك . فربطوا القومية باللغة ، مستخدمين الاولى لتفسير الثانية . فتصوروا السلاف والالمان واقوام والكيلت وغيرهم وكأنهم مجموعات كثيرة من النحل تنتمي الى خلية واحدة ، وتصوروا ان هذه القبائل بعد ان انفصلت عن الاصل وهاجرت ، اخذت معها اللغة الهندية - الاوربية الاولى الى مناطق كثيرة مختلفة .

ولم يصحح هذا الخطأ الا بعد مدة طويلة . فقد بقي اللغويون في جهلهم حتى عام ١٨٧٧ حين اقترح يوهانس شميت نظرية الاستمرارية او الموجات (wellen — theorie) في كتابه Die verwandtschaftsverhältnisse der Indogermanen فأدرك اللغويون ، آنذاك أن التشتت الجغرافي يكفي لتفسير العلاقات المتبادلة للغات الهندية الاوربية ، وليس من الضروري ان يفترضوا أن الاقوام المختلفة رحلوا الى اماكن جديدة (لاحظ الفصل

الثاني من هذا الجزء) . اذ يمكن ان تظهر فروق اللهجات ، ولا بد انها ظهرت ، قبل انتشار هذه الاقوام في الاتجاهات المختلفة . فنظرية الموجات ، اذن ، تقدم صورة للغة الهندية - الاوربية الاولى ، اقرب الى الواقع ، كما انها تكشف عن أسباب الفروق والظروف التي تحدد صلات القربى بين اللغات .

ونظرية الموجات تخالف نظرية الهجرة ، ولكنها لا ترفضها تماما . ففي تاريخ اللغات الهندية الاوربية امثلة كثيرة للأمم التي فقدت اتصالها بالاسرة الرئيسية بسبب الهجرة ، ولا بد ان هذا الامر قد ادى الى نتائج معينة . ولكن هذه النتائج امتزجت بنتائج الفروق التي حدثت في أثناء استمرار الاتصال بين هذه اللغات والأصل ، وصعوبة تشخيص كل نوع من النوعين يعود بنا الى مسألة تطور لغة ما في مناطق جغرافية منفصلة .

لنأخذ الانكليزية القديمة . فقد انفصلت عن الأصل الجرمانى بسبب الهجرة . ولعل هذه اللغة كانت تختلف عن شكلها الحاضر لوبقي الساكسون في القارة الاوربية ولم يهاجروا في القرن الخامس الميلادى . ولكن ما الآثار اللغوية الخاصة بالهجرة ؟ علينا اولا أن نسأل أما كان هذا التغيير أو ذاك سيظهر لو استمر الاتصال الجغرافى ؟ فلوسكن الانكليز بوتلاند بدلا من الجزر البريطانية لكان من المحتمل أن بعض الحقائق الذي ينسب الى الانفصال المطلق ، كان ، سيظهر في هذه المنطقة المجاورة للأصل . اذ ليس لدينا دليل يشير الى ان الانكليزية احتفظت بالصوت القديم p بسبب انفصالها عن المنطقة الأصلية ، حيث اصبح هذا الصوت d في كل القارة الاوربية (لاحظ thing في الانكليزية ، Ding في الألمانية) . وليست الاستمرارية الجغرافية بالضرورة ، كذلك ، سبب انتشار هذا التغيير في المنطقة الجرمانية بأكملها من القارة الاوربية ، اذ كان من الممكن ان يعترض هذا الانتشار عائق ، يمنع حركته رغم الاستمرارية الجغرافية . فالخطأ ناتج من مقارنة الفروق بين اللهجات المتصلة واللهجات المنفصلة . فليس ما يدل على ان التأثير بين اللهجات كان سيساعد في انتشار الصوت d في كل اجزاء الموطن الذي افترضناه للغة الانكليزية وهو جزيرة يوتلاند . فقد رأينا في المنطقة اللغوية الفرنسية ، على سبيل المثال ، أن الصوت k(+ a) بقي في الزواية التي تتكون من بيكاردي ونورماندي ولكنه أصبح s(ch) في الأماكن الأخرى . فالعزلة ، اذن ، سبب سطحي غير مقنع ، يمكن للتمييز اللغوي ان يفسر بدونها . فكل ما قد يحدث بسبب العزلة ، قد يحدث بسبب الاستمرار الجغرافى . واذا كان بين هذين النوعين من الظواهر فرق ، فأنا لانستطيع فهمه .

ولكن الصورة تختلف اذا نظرنا الى لغتين متقاربتين ، ليس من وجهة النظر السلبية للفروق بينهما بل من وجهة النظر الايجابية للتماسك بينهما . اذ ذاك نرى ان الفصل يفتح الباب في الحال لاحتمال قطع كل علاقة من العلاقات اما الاستمرار الجغرافى

فيعزز التماسك حتى بين اللهجات المحلية التي تختلف اختلافاً بارزاً ، اذ كانت هذه الاشكال تربط بينها لهجات وسيطة .

فاذا اردنا ان نحدد درجة القرابة بين اللغات ، فعلياً ان نميز تتميزاً دقيقاً بين الاستمرار والفصل . اذ تحتفظ لغتان منفصلتان من لغة الام بعددٍ من الصفات تدل على صلة القربى بينهما ، ولكن كل واحدة من اللغتين ستتطور بصورة مستقلة ، فتظهر في احدهما مميزات لانجدها في الأخرى (عدا بعض المميزات التي تظهر بعد الانفصال في اللغتين عن طريق المصادفة المحضة) . اما الذي لا يحدث فهو انتشار المميزات التي تظهر في احدى اللغتين ، الى الأخرى من خلال التأثير المتبادل . فاللغة التي تطورت بمعزل عن اللغات التي تنتمي اليها تملك عادة عدداً من الصفات التي تميزها عنها . واذا تفرغت هذه اللغة ايضاً ، فأن لهجاتها تبدو أكثر تقارباً بسبب الصفات المشتركة التي تربط بينها وتميزها عن اللهجات من المنطقة الأخرى . فهذه اللهجات تؤلف فرعاً متميزاً ، منفصلاً عن الجذع .

كما تختلف ، كثيراً ، العلاقات بين اللغات الموجودة في منطقة متصلة جغرافياً . وليس من الضروري أن تكون الصفات المشتركة بينها أقدم من الصفات التي تميز بينها . فالتغيير الذي يبدأ في نقطة معينة ، قد ينتشر في كل لحظة؛ وقد يشمل المنطقة بأكملها . ثم ان المناطق التي تشملها الحقائق الجديدة تختلف في الحجم ، فقد يكون للفتين مجاورتين صفة مميزة واحدة ، من دون أن تؤلفا مجموعة واحدة منفصلة عن غيرها : وكل لغة من اللغتين قد ترتبط بلغات مجاورة لها عن طريق صفات أخرى ، كما هي الحال في اللغات الهندية - الأوربية .

الجزء الخامس

# في علم اللغة المختص بتأمل الماضي

## الفصل الاول

### نظرتان لعلم اللغة الزمني

ينظر الى علم اللغة السنكروني ، من وجهة النظر ، المتكلم فقط ، لذا فله طريقة واحدة فقط . اما علم اللغة الدايكروني فيحتاج الى نظرة تتأمل المستقبل prospective ونظرة تتأمل الماضي retrospective (لاحظ الجزء الاول ، الفصل الثالث) .

والاسلوب المختص يتأمل المستقبل الذي يتناول واقع مجرى الحوادث ، هو الاسلوب الذي ينبغي أن نستخدمه في تطوير اية نقطة تختص بتاريخ لغة او لغات ، ويقتصر هذا الاسلوب على فحص الوثائق المتوفرة . ولكن المشاكل الكثيرة لعلم اللغة الزمني لا يمكن ان يعالجها جميعا اسلوب تأمل المستقبل .

بل اننا اذا اردنا ان نقدم تاريخا مفصلا للغة من اللغات عن طريق تتبع مجرى تلك اللغة من خلال الزمن ، احتجنا الى عدد لا يحصى من الصور الفوتوغرافية ، التي اخذت في اوقات مختلفة . ان هذا الشرط لا يمكن توفيره ابداً . فعلماء اللغات الرومانسية - على سبيل المثال - مع انهم كانوا يحسنون اللاتينية وهي نقطة البداية لبحوثهم ويملكون عددا كبيرا من الوثائق التي تغطي قرونا كثيرة متعاقبة ، يشعرون دائما بوجود فجوات واسعة في الجانب التوثيقي من عملهم . مما يجعلهم مضطرين الى نبذ اسلوب تأمل المستقبل الدليل المباشر - والعمل في الاتجاه المعاكس مستخدمين الاسلوب الذي يعود بالزمن الى الماضي . وهذا يعني اختيار فترة معينة ، ثم تحديد أقدم عنصر نبع منه العنصر الذي نحن بصددده دون الاهتمام بكيفية تطور هذا العنصر أو ذاك .

إن أسلوب تأمل المستقبل يعني في الواقع سرد بسيط ، يعتمد كلياً على نقد النص ، اما النظرة المختصة بتأمل الماضي فتحتاج الى اسلوب اعادة البناء الذي تدعمه المقارنة . من الصعب أن نحدد الشكل الاصلي لاشارة واحدة لوحدها ، ولكن بمقارنة اشارتين مختلفتين لهما اصل واحد (كما في pater اللاتينية و pitar السانسكريتية ، او اصل الكلمة اللاتينية ges - tus, ger - o) تظهر الى الوجود في الحال مسألة الوحدة الدايكرونية التي ترجع الاشارتين الى نمط أولي يمكن اعادة بنائه بالاسلوب الاستقرائي . وكلما زاد عدد المقارنات ، زادت دقة الاستقراء ، وكانت النتيجة إعادة بناء العناصر الحقيقية اذا توفرت معطيات كافية .

ويصح الشيء نفسه في اللغات بأكملها . فلا نستطيع أن نستنتج شيئاً عن لغة الباسك فهي لغة وحيدة لا يمكن مقارنتها بأية لغة أخرى . في حين أستطاع علماء اللغة ان يقارنوا مجموعة من اللغات المتقاربة كالاغريقية واللاتينية والسلافية القديمة ، الى آخره ، فشخصوا العناصر الأصلية المشتركة بينها ، وأعادوا بناء الاسس الجوهرية



لغة الهندية الاوربية الاولى على حالتها التي وجدت فيها قبل ان تتشعب جغرافيا . وقد كرر العلماء ، على نطاق ضيق ، ما قاموا به على نطاق واسع - متبعين دائماً الأسلوب نفسه - بالنسبة لكل جزء من اجزاء اللغة الهندية الاوربية الاولى - كلما اقتضت الضرورة الى ذلك وكان الأمر ممكناً . فنحن نعرف عدداً من اللغات الجرمانية مباشرة عن طريق الوثائق ، ولكننا نعرف الالمانية الاولى - وهي أصل هذه اللغات - بصورة غير مباشرة ، بأسلوب إعادة البناء . وقد استخدم اللغويون الأسلوب نفسه ، وبدرجات مختلفة من النجاح للوصول الى الاصل الواحد لبعض الأسر اللغوية الاخرى (لاحظ الجزء الرابع ، الفصل الاول) .

إن أسلوب تأمل الماضي يأخذنا الى فترة أقدم من الوثائق في تقصي تاريخ لغة ما . وهكذا استطاع علماء اللغة أن يرسموا الخط لتأمل الماضي العريض للاتينية ، التي لم يبدأ تاريخها قبل القرن الثالث او الرابع قبل الميلاد ، ولكن بعد إعادة بناء اللغة الهندية الاوربية الاولى التي ألقت بعض الضوء على الحوادث التي وقعت بين الفترة الاصلية التي كانت فيها اللغة واحدة والفترة التي تظهر فيها أول وثيقة مكتوبة باللاتينية .

ويشبه علم اللغة التطوري - فيما يخص إعادة البناء - علم الجيولوجيا وهو علم تاريخي آخر . وقد يقوم علم الجيولوجيا بوصف حالات ثابتة (مثال ذلك الحالة الحاضرة لحوض بحيرة جنيف) دون الأخذ بنظر الاعتبار ما حدث في الفترة السابقة لتلك الحالة : ولكن هذا العلم يهتم بصورة رئيسة بسلسلة الحوادث والتغيرات التي تتألف منها الظواهر الدايمونية ويمكن لنا أن نتصور علم الجيولوجيا المختص بالحاضر ، ولكن هذا العلم في الواقع له عادة نظرة تختص باقتفاء الماضي فقط . فقبل أن يوضح عالم الجيولوجيا ما حدث في نقطة معينة على الارض ، عليه أن يعيد بناء سلسلة الحوادث وأن يحاول تحديد الشيء المسؤول عن الحالة الحاضرة لذلك الجزء من الكرة الارضية .

ولا تختلف النظرتان في الأسلوب حسب ، بل ان استخدام النظرتين في آن واحد لتوضيح أمر معين إنما هو خطأ . فدراسة التغير الصوتي - على سبيل المثال - تقدم لنا صورتين مختلفتين بناء على النظرة المستخدمة . فاذا استخدمنا أسلوب تأمل المستقبل ، ربما سألنا ماذا حدث للصوت e أحد الاصوات اللاتينية الكلاسيكية في اللغة الفرنسية . فنرى أن صوتاً واحداً تطور خلال الزمن فتغير ادى الى ظهور عدد من الفونيمات : كما في pedem ← pye (قدم = pied) ، ventum ← va (ريح = lectum ← li (lit) = منام) ، necare ← nwaye (غرق = noyer) . ويمكن ان نستخدم مقابل ذلك النظرة التي تتأمل الماضي لمعرفة ماذا يمثل الصوت الفرنسي المفتوح e في اللاتينية ، فنجد أن هذا الصوت هو نقطة النهاية لعدد من الفونيمات الاصلية المتميزة : كما في ter (terre = ارض) = verž, tēram = (عصا = verge) = fait) = حقيقة) = factum الى

اخره . وهكذا نستطيع ان نقدم تطور العناصر المكونة للكلمات بطريقتين ، فنحصل على صورتين مختلفتين . وكل ما قلناه عن صياغة الكلمات حسب القياس (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الخامس) انما هو دليل منطقي لذلك ، فالبحث عن أصل اللاحقة التي ينتهي بها اسم المفعول في الفرنسية é — يعود بنا الى اللاحقة اللاتينية átum — وتربط اللاحقة اللاتينية اتمولوجيا بالأفعال اللاتينية المشتقة من الاسماء ، التي تنتهي باللاحقة — áre ، التي ترجع بصورة رئيسة الى الاسماء المؤنثة المنتهية باللاحقة — a (كما في planta : plántare ، وفي الاغريقية tima : timáo الى آخره) ، ثم إن اللاحقة átum — ما وجدت لولا ان اللاحقة — to — في الهندية الاوربية الاولى فعالة مثمرة (لاحظ الكلمة الاغريقية klu — tó — s واللاتينية in — clu — tu — s والسانسكريتية c,ru — ta — s وغيرها) . واخيرا تحتوي اللاحقة átum — على العنصر المكون m — وهو علاقة المفرد المنصوب (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الثالث) . وعلى العكس من ذلك ، فإن طريقة تأمل المستقبل للبحث عن العناصر الفرنسية المكونة للكلمات التي تنبع من اللاحقة الاصلية — to — تكشف أن هناك لاحقات مختلفة — سواء كانت مثمرة ام لا تختص اسم المفعول (aimé = finitum = منته ، clos = finitum ، مغلوق = clausum عوضا عن *claudlum الى آخره) ، ولاحقات كثيرة غيرها مثل u — = útum — (كما في cornú = ذوقرون = cornutum) و tif — (لاحقة مختصة بالاسلوب الرفيع) = في اللاتينية tivum = fugitif = negatíf, sensitíf, fugitivum الى آخره) وعدد آخر من الكلمات التي لم تعد قابلة للتحليل ، كما في point = نقطة = اللاتينية ، dé «يموت» = chetif, datum «تعس» = captivum الى غير ذلك .

## الفصل الثاني

### اللغة الأقدم واللغة الأم

لم يدرك علماء اللغات الهندية الأوربية في المراحل الاولى الغاية الحقيقية من المقارنة وأهمية أسلوب إعادة البناء (لاحظ المقدمة ، الفصل الاول) . وهذا يفسر أحد الأخطاء الكبيرة التي وقعوا فيها : وهو المبالغة في دور السانسكريتية واعتباره الدور الوحيد تقريبا . فقد عدّوا السانسكريتية اللغة الأم أو النمط الاول لأنها أقدم وثيقة للغة الهندية الأوربية الاولى . إن التصور بأن اللغة الهندية الأوربية الاولى ولدت منها السانسكريتية والاغريقية والسلافية والكلتية الطليانية وغيرها شيء ، ووضع إحدى هذه اللغات في منزلة اللغة الهندية - الأوربية الاولى شيء آخر يختلف تماما . وكان للخطأ الكبير الذي وقع فيه هؤلاء اللغويون عواقب مختلفة وخيمة . صحيح أنهم لم يعبروا عن فرضيتهم بأسلوب محدد قطعي كالذي استخدمناه ، ولكنهم قبلوا بهذه الفرضية ضمنا وطبقوها في دراستهم . فقد كتب بوب يقول انه : لا يعتقد أن السانسكريتية يمكن أن تكون الأصل المشترك ، وكأن مثل هذه الفرضية محتملة ، بالرغم من الشك .

وهذا يدفع بالمرء الى التساؤل : ماذا يقصد بالقول ان لغة ما أقدم من الأخرى . لهذا السؤال ثلاثة أوجه للتفسير من الناحية النظرية :

(١) قد تشير لفظة «أقدم» الى البداية ، الى النقطة التي تبدأ منها لغة ما . ولكننا لانحتاج إلا الى قليل من التفكير لنذكر ان اللغة - اية لغة - لا يمكن ان ينسب لها عمر معين ، فكل لغة هي استمرار لما كان يتكلم به الناس من قبلها . فالذي ينطبق على البشرية لا ينطبق على اللسان : فالاستمرارية المطلقة للسان لا تسمح بتمييز اجيال منه . والنقد الذي وجهه غاستون باريس Gaston Paris الى فكرة اللغة البنت واللغة الام له ما يسوغه : طالما ان هذه الفكرة تفترض ضمنا وجود انقطاع . اذن فلفظة «أقدم» بهذا المفهوم لا معنى لها .

(٢) قد تعني لفظة «أقدم» أن إحدى الحالات للغة التي ندرسها أقدم من الحالة الأخرى للغة نفسها . فالفارسية التي نجدها في النقوش الاخمينية أقدم من فارسية الفردوسي . ففي حالة محددة مثل هذه ، حيث تطورت لغة من لغة أخرى وعرفت اللغتان بصورة جيدة ، تكون الإشارة هي الى اللغة الاولى من حيث الزمن . ولكن الاسبقية في الزمن لا معنى لها الا اذا توفر الشرطان المذكوران . فاللغة اللتوانية ، التي يرجع تاريخها المعروف الى عام ١٥٤٠ ، ليست أقل أهمية من السلافية القديمة التي دونت منذ القرن العاشر ، أو من سانسكريتية (ريك فيدا) .

(٣) قد تشير لفظة «أقدم» الى حالة لغوية أكثر توغلا في القدم اي الى حالة صفات

تقترب من صفات النموذج الأصل : دون الأخذ بنظر الاعتبار التواريخ . فبهذا المفهوم تكون اللغة اللتوانية التي يرجع تاريخها الى القرن السادس عشر أقدم من اللاتينية للقرن الثالث قبل الميلاد .

إن السانسكريتية ليست أقدم اللغات إلا بالمفهوم الثاني أو الثالث . إذ يصح عليها التعريفان . فالاعتقاد السائد أن ترانيم الفيدا تسبق زمنياً أقدم نصوص إغريقية من جهة ومن جهة أخرى - وهذه مسألة مهمة جداً - أن للسانسكريتية عدداً كبيراً من الصفات القديمة بالمقارنة مع تلك التي نجدها في اللغات الأخرى (لاحظ المقدمة ، الفصل الاول) . ولكن فكرة العمر لم تكن واضحة عند اللغويين الأوائل ، لذا وضعوا السانسكريتية على رأس الأسرة اللغوية بأكملها . وقد نتج عن ذلك أن اللغويين الذين جاعوا بعد ذلك ، مع أنهم صححوا فكرة أن السانسكريتية هي اللغة الأم ، ظلوا ينسبون أهمية أكبر مما ينبغي للدلة التي تقدمها هذه اللغة عند الاستعانة بها دليلاً إضافياً .

يعترف . أ . بكتيه A. Pictet في كتابه les Origines indo — européennes (أصول اللغات الهندية الأوروبية) (الصفحة ٢٢٤) بوجود أمة بدائية لها لغتها الخاصة بها ، ومع ذلك فهو يؤكد ضرورة الرجوع الى السانسكريتية أولاً ، وأن الدليل الذي تقدمه هذه اللغة أهم من الأدلة التي يقدمها عدد من اللغات الهندية الأوروبية مجتمعة . وهذا الوهم نفسه أسهم مدة طويلة من الزمن في إضفاء اللبس على مسائل ذات أهمية كبيرة ، كمسألة نظام الحركات في اللغة الهندية الأوروبية الأولى .

وقد تكرر هذا الخطأ على نطاق أصغر وفي التفاصيل ، فاعتقد الذين درسوا فروعاً معينة من اللغات الهندية الأوروبية أن أقدم لغة معروفة هي نموذج كامل مقنع للمجموعة بأكملها ولم يحاولوا أن يتعرفوا على نحو أفضل على الحالة الأصلية . فبدلاً من الكلام عن اللغات الجرمانية - مثلاً - لم يترددوا عن الاقتباس من اللغة الغوطية ووقفوا عند هذا الحد ، لأن الغوطية ، أسبق ، في الزمن ، من اللهجات الجرمانية الأخرى ببضعة قرون . فاغتصبت الغوطية دور اللغة الأم وأصبحت مصدر اللهجات الأخرى . أما في اللغات السلافية فقد اعتمد العلماء في بحثهم على اللغة السلافونية أو السلافية القديمة فقط ، المعروفة منذ القرن العاشر ، لأن بقية اللهجات السلافية معروفة بعد هذا التاريخ .

قلما نجد نموذجين من لغة واحدة ، دوناً كتابة في تاريخين متعاقبين يمثلان اللغة نفسها في لحظتين من تاريخها . وكثيراً ما نلاحظ أن إحدى اللهجتين هي الخلف اللغوي للهِجة الأخرى . فالاستثناء يدل على القاعدة . وأشهر استثناء هو اللغات الرومانسية بالنسبة لللاتينية : فالمرء حين يعود بالفرنسية الى اللاتينية إنما يتبع خطأً عمودياً ، والمنطقة التي وجدت عليها اللغات الرومانسية تتفق والمنطقة التي تكلمت باللاتينية . وكل

لغة من اللغات الرومانسية انما هي حالة متأخرة للاتينية . والاستثناء الآخر هو الفارسية . فالفارسية المستخدمة في نقوش داريوس هي اللغة الفارسية نفسها المستخدمة في القرون الوسطى . ولكن عكس هذا الاتجاه هو اكثر شيوعا . فالوثائق المدونة في فترات مختلفة تعود عادة الى لهجات مختلفة لأسرة لغوية واحدة . فاللغة الجرمانية مثلا تظهر في غوطية اوليفلاس (ولا يعرف خلف هذه اللهجة) ، ثم في نصوص الالمانية القديمة العليا ، ثم في النصوص الانكلوساكسونية والنصوص النرويجية وغيرها . وليست أية مجموعة او لهجة من هذه اللهجات تُكوّن استمرارية للهجة او المجموعة المعروفة التي قبلها . ويوضح الرسم ، الآتي ، النمط المعتاد ، حيث تشير الأرقام الى اللهجات والنقاط الى الفترات المتعاقبة .

- أ..... ١ .... الفترة ١  
ب..... ٢ .... الفترة ٢  
ج..... ٣ .... الفترة ٣  
هـ..... ٤ .... الفترة ٤

إن هذا النمط شيء مهم لعلم اللغة . فاذا كان التعاقب عموديا ، فان اللهجة الاولى المعروفة (أ) تحتوي على كل شيء يمكن استنتاجه عن طريق تحليل الحالات المتعاقبة . ولكن اذا بحثنا عن نقطة الالتقاء لجميع هذه اللهجات (أ ، ب ، ج ، د الى اخره) في هذا النمط فقد نجد عنصراً أقدم من أ (اي اللغة الام س) وهكذا نتجنب اللبس بين أ وس .

## الفصل الثالث

### إعادة البناء

#### ١ - طبيعتها وهدفها :

ان الوسيلة الوحيدة لاعادة البناء هي المقارنة ، والهدف الوحيد للمقارنة هو اعادة البناء . ويكون أسلوبنا عقيما الا اذا نظرنا الى علاقات عدد من الصيغ من زاوية نظر الزمن وننجح في إعادة بناء صيغة واحدة . لقد اكدت هذه النقطة مرات كثيرة (لاحظ المقدمة ، الفصل الاول ، والملحق ، الفصل الثالث) . وهكذا نفسر اللفظة اللاتينية *medius* بالمقارنة باللفظة الاغريقية *mésos* ، من دون أن نرجع الى اللغة الهندية الاوربية الاولى ، فنفرض صيغة أقدم هي **methyos* باعتبارها مصدر الكلمتين *medius* و *mésos* . أو قد نقارن صيغتين من اللغة نفسها وليس من لغتين مختلفتين : كما في الكلمتين اللاتينيتين *geró* و *gestus* اللتين تعودان الى الأصل - **ges* وكان في وقت من الاوقات مشتركا بين الكلمتين .

— ولا بد أن نذكر أن المقارنات تخص التغير الصوتي لذا فهي تعتمد دائما اعتمادا كبيرا على اعتبارات صرفية . فعندما أدرس الكلمتين اللاتينيتين *patior* و *passus* أشير الى *factus* و *dictus* وغيرهما لأن كلمة *passus* هي صيغة من صيغ الصنف نفسه . وأعتمد في الاستنتاجات على العلاقات الصرفية بين *factus* و *facio* الى آخره ، لذا استطيع ان أحدد العلاقة نفسها ، بالنسبة لفترة اقدم ، بين *patior* و **pat - tus* . كما ينبغي ان استخدم علم الصوت لالقاء الضوء على المقارنة الصرفية (المورفولوجية) . فأقارن بين الكلمة اللاتينية *meliosem* والاعريقية *hedio* لان الكلمة الاولى تعود من ناحية الصوت الى **meliosm* و **meliosm* وتعود الثانية (*hédió*) الى **hádioa* و *hádiosa* و **hádiosm* .

ليست المقارنة اللغوية عملية آلية محضة ، فهي تنطوي على جميع المعطيات التي تخص المسألة . وعلى كل حال فهي تؤدي دائما الى الحدس الذي نعبر عنه بصيغة ما ، الذي يهدف الى اعادة تحديد شيء سابق : فهو يؤدي دائما الى إعادة بناء الصيغ . ولكن هل الهدف من تأمل الماضي هو إعادة بناء جميع الصيغ الملموسة لحالة لغوية سابقة ؟ أم إن إعادة البناء تنحصر في أقوال جزئية تجريدية ، تخص أجزاء الكلمات (القول بأن الصوت *f* في الكلمة اللاتينية *fumus* يمثل الصوت *p* في الايطالية الاولى ، أو العنصر الاول في الكلمة الاغريقية *állo* واللاتينية *aliud* له وجود في هيئة *a* في اللغة الهندية الاوربية الاولى) ؟ قد تنحصر إعادة البناء على الهدف الثاني : فأسلوبها التحليلي لاهدف له سوى هذه الملاحظات الجزئية . ومع ذلك ، نستطيع ان نتوصل الى استنتاجات عامة من مجمل هذه الحقائق الفردية . فباستخدام مجموعة من الحقائق المشابهة لتلك الخاصة بكلمة

fūmus نستطيع أن نقول بتأكيد أن الصوت p موجود في النظم الصوتي في الإيطالية الأولى . كما نستطيع أن نقول أن أعراب الأسماء في اللغة الهندية الأوروبية الأولى له مفرد جامد^(٦١) ينتهي بـ d — ويختلف عن m في الصفات . ونستنتج هذه الحقيقة المورفولوجية العامة من مجموعة مستقلة من الملاحظات (لاحظ الكلمتين اللاتينيتين istud و aliud مقابل bonum ؛ وفي الإغريقية τό = *tod ، *allo = *alod مقابل kalón ؛ وفي الانكليزية that ، الى آخره) . ونستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك . فمن الممكن ، بعد أن نعيد بناء الحقائق المختلفة ، أن نركب تلك الحقائق التي تخص الصيغة بأكملها ونعيد بناء كلمات بأكملها (مثال ذلك الكلمة الهندية الأوروبية الأولى *alyod) ، وأنماط الأعراب وغير ذلك . ويتألف التركيب من الجمع بين عبارتين منفصلتين . مثال ذلك ، عندما نقارن الأجزاء المختلفة للكلمة *alyod التي أعيد بناؤها ، نلاحظ فرقا كبيرا بين العنصر d — الذي يثير مسألة في القواعد ، والعنصر a الذي لا أهمية له في القواعد . فالصيغة التي أعيد بناؤها ليست وحدة متماسكة بل مجموع يمكن دائما تحليله صوتيا . ويمكن فصل كل جزء وفحصه لوحده . فالصيغ التي أعيد بناؤها ، إذن ، تعكس دائما ، بدقة ، الاستنتاجات العامة التي تصح عليها . فقد أعيد بناء الكلمة الهندية الأوروبية الأولى التي تدل على «حصان» في صيغ متعاقبة هي *akvas, *akwas, *ekvos, وأخيرا ، ekwos . وكان جميع أجزاء هذه الصيغ موضع خلاف سوى الصوت s وعدد الفونيمات التي تتألف منها هذه الكلمة .

فالأغاية من إعادة البناء ، إذن ، ليست إعادة صيغة ما من أجل الصيغة نفسها — فأقل ما يقال في هذا الهدف أنه لا معنى له — بل بلورة وتكثيف مجموعة من الاستنتاجات التي يمكن التوصل اليها بصورة منطقية ، من استقراء النتائج التي يتوصل اليها الباحث في كل لحظة : وباختصار : الأغاية من إعادة البناء هي تدوين تقدم علم اللغة . فلم يدافع أحد عن علماء اللغة والتهمة السخيفة التي نسبت اليهم وهي أنهم يرغبون في إعادة بناء اللغة الهندية الأوروبية الأولى بصورة كاملة وكأنهم يريدون استعمالها . فهم لا يرغبون في هذا الهدف حتى في دراسة اللغات التي لها تاريخ معروف (فالمرء لا يدرس اللاتينية لغويا لكي يحسن التكلم بها) . وهذا المسوغ أوهن في حالة الكلمات المفردة للغات ما قبل التاريخ .

إن إعادة البناء ، مع أنها تخضع لتصحيح مستمر ، ضرورة ، لاكتساب نظرة عامة عن اللغة التي يدرسها الباحث ونمطها اللغوي فيها . وهي وسيلة لا يمكن الاستغناء عنها للوصول بسهولة نسبية الى عدد كبير من الحقائق العامة ، السنكرونية والدايكرونية منها . فالمجموعات التي أعيد بناؤها تلقي في الحال كثيرا من الضوء على الخطوط

(٦١) جامد الجنس ، لا ذكر ولا أنثى = neuter . (المترجم)

العريضة للغة الهندية الاوربية الاولى . فنحن نعرف - على سبيل المثال - ان البادئة كانت تصاغ من بعض العناصر (r, s, t وغيرها) دون غيرها ، وان التنوع المعقد للحركات في الأفعال الالمانية (كما في worden, warde, ward, wirst, werden) تضيف كثيرا من الغموض على القواعد التي تتحكم في مجموعة واحدة من البدائل وهي : e - o - o - o - o . فاعادة البناء إذن يساعد كثيرا على دراسة تاريخ الفترات التي تعقب الفترة التي نحن بصددھا ، فبدون اعادة البناء يصعب كثيرا تفسير التغييرات التي حصلت منذ فترة ما قبل التاريخ .

## ٢ - الدقة النسبية للصيغ التي أعيد بناؤها

نستطيع أن نجزم جزماً مطلقاً بصحة بعض الصيغ التي أعيد بناؤها ، اما بعضها الآخر فموضع جدل ، أو انها تثير مشاكل مستعصية . وقد رأينا ان دقة الصيغ باكملها تعتمد على الدقة النسبية التي ننسبها الى إعادة الترميم الجزئي ، الذي يدخل في عملية التركيب . وبناء على هذا المنطق لا يمكن أن تتطابق كلمتان تماما . ويكاد هذا الامر يصح دائما . فهناك فرق بين صيغتين معروفتين في اللغة الهندية الاوربية الاولى مثل *esti «هو كائن» و didóti «(هو) يعطي» ، لان الحركة المكررة في الصيغة الثانية هي موضع شك (لاحظ الكلمة السانسكريتية dadati والكلمة الاغريقية didósi) .

وثم اتجاه عام في اعتبار الصيغ التي أعيد بناؤها أقل دقة من واقع حالها . ولكن هناك ثلاث حقائق تعزز ثقتنا بعملية اعادة البناء ، هي :

الحقيقة الاولى ، وهي ذات اهمية كبيرة وقد سبق ذكرها (لاحظ مبادئ النظام الصوتي ، الفصل الاول) . فنحن نستطيع أن نميز بوضوح أصوات كلمة ما ، وعدد هذه الاصوات والحدود التي تفصل بينها ، كما رأينا (النظام الصوتي ، الفصل الثاني) كيف ينبغي ان ننظر الى الاعتراضات التي يثيرها بعض اللغويين عندما ينظرون شذرا من خلال مجهر النظام الصوتي . مما لاشك فيه ان في سلسلة مثل - sn - أصواتا خفية أو انتقالية ، ولكن الاهتمام بهذه الاصوات كثيرا لايتفق وعلم اللغة ، فالاذن الاعتيادية لا تشخصها ، والاهم من ذلك - ان المتكلمين يتفوقون دائما على عدد العناصر التي تؤلف هذه السلسلة . يمكننا القول ، إذن ، بأن الكلمة الهندية الاوربية الاولى *ek1wos كانت تتألف من خمسة عناصر متميزة مختلفة يهتم بها المتكلمون .

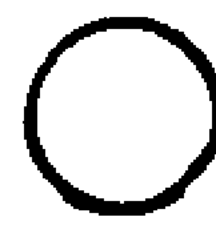
والحقيقة الثانية : تخص عناصر النظام الصوتي لكل لغة . فكل لغة تقوم بوظيفتها مستخدمة سلسلة واضحة محددة من الفونيمات (لاحظ المقدمة ، الفصل السابع) . واقل العناصر شيوعا في اللغة الهندية الاوربية الاولى تظهر بما لا يقل عن نحو اثنتي عشرة صيغة - والعناصر الأكثر شيوعا بألف صيغة - وجميعها معروفة في الامثلة التي



اعيد بناؤها .

واخيرا ، لايتطلب منا أن نحدد الصفات الايجابية للوحدات الصوتية لكي نعرفها . بل علينا ان نعدّها كيانات تفاضلية تتصف بأنها متميزة (لاحظ الجزء الثاني ، الفصل الرابع) . وهذه مسألة أساسية ، اذ نستطيع ان نحدد العناصر الصوتية لصيغة ما يراد إعادة بنائها من العدد أو أية اشارات أخرى . ولا حاجة الى تحديد الصفة المطلقة للصوت  $\theta$  في  $*\theta k, wos$  ولا سبب في أن نختار في امر  $\theta$  هل هو مفتوح او مغلق ، وما موقعه بدقة في الجهة الأمامية من الفم ، الى غير ذلك . كل هذه الامور غير مهمة الا اذا شخصنا عدة أنواع من الصوت  $\theta$  . والمهم أن لانخلط بينها وبين عنصر آخر تميزه اللغة ( $\theta, \delta, \alpha$  الى آخره) . وبعبارة أخرى ان الفونيم الاول لكلمة  $*\theta k1wos$  لا يختلف عن الفونيم الثاني في  $*m\ddot{e}dhy\ddot{o}s$  ، والفونيم الثالث في  $\alpha g\theta$  ، وغيرها ، واننا نستطيع أن ندون هذا الصوت في قائمتنا الصوتية ونعطي له رقما في جدول فونيمات اللغة الهندية - الاوربية الاولى من دون أن نحدد طبيعته الصوتية . فالصيغة  $*\theta k1w\ddot{o}s$  ، إذن، التي اعيد بناؤها تعني ان اللفظة الهندية الاوربية الاولى المعادلة لللفظة اللاتينية  $equos$  ، واللفظة السانسكريتية  $acva - s$  الى آخره ، كانت تتألف من خمسة فونيمات محددة ، مستمدة من سلسلة عناصر النظام الصوتي في اللغة الاصلية .

فالامثلة التي يعاد بناؤها لها قيمة ، ضمن هذه الحدود التي اشرنا اليها .



## الفصل الرابع

### إسهام اللغة في علم المجتمعات البشرية (الانثروبولوجيا) وعلم ما قبل التاريخ

#### ١ - اللغة والعرق

يستطيع اللغويون بفضل أسلوب تأمل الماضي أن يعودوا الى قرون ماضية، ويعيدوا بناء اللغات التي كانت يتكلمها بعض الأمم قبل زمن طويل من بدء التاريخ المكتوب. ولكن ألا تزودنا نماذج إعادة البناء بمعلومات عن الأمم نفسها - عن عرقها ونسبها وعلاقاتها الاجتماعية وعاداتها وأنظمتها، وغير ذلك؟ وباختصار هل يمكن للغة أن تقدم أجوبة للأسئلة التي تثيرها دراسة علم المجتمعات البشرية (الانثروبولوجيا) وعلم الأجناس البشرية (الانتوكرافيا) وعلم ما قبل التاريخ؟ يعتقد كثير من الناس ان هذا الأمر ممكن، أما أنا فأعتقد ان هذا ضرب من الوهم في مجمله. لندرس باختصار بعض هذه المسألة العامة.

١ - العرق: من الخطأ أن نعتقد أن اللغة الواحدة تعني قرابة الدم، وان الأسرة اللغوية تتفق والأسرة الانثروبولوجية. فواقع الأمر ليس بهذه السهولة. فهناك مثلاً، عرق جرمانى له مميزات بشرية خاصة: الشعر الأصفر، واستطالة في الجمجمة، وقامة طويلة وغير ذلك، وخير نموذج لهذا العرق الاسكندنافيون: ومع ذلك لا تظهر هذه الصفات في جميع الأقاليم التي تتكلم باللغات الجرمانية.

فالأقاليم السوابية التي تعيش عند جبال الألب تختلف كثيراً عن الأقاليم الاسكندنافية. هل يمكن أن نزعّم أن لغة ما تعود الى عرق واحد فقط، وإذا تكلمت بها أمم أخرى تنتمي الى أجناس مختلفة فسبب ذلك ان هذه اللغة قد فرضت عليهم عن طريق الغزو؟

مما لا شك فيه ان الأمم كثيراً ما تتبنى أو تجبر على تبني لغة الفاتحين (كما حدث لأقاليم بلاد الغال بعد ان انتصر عليهم الرومان)، ولكن هذا لا يفسر كل شيء. فعلى سبيل المثال، ان الأقاليم الجرمانية ربما أخضعت لسلطانها أمماً كثيرة ولكنها ما كانت لتستطيع امتصاصها جميعاً، فعلينا أن نتصور مدة طويلة من السيطرة لفترة ما قبل التاريخ وظروفاً أخرى لا يمكن البرهنة عليها.

قرابة الدم والوحدة اللغوية، إذن، لا ترتبطان بالضرورة، ولا نستطيع أن نتوصل الى استنتاجات من إحداهما ونطبقها على الأخرى. ففي الحالات الكثيرة حين لا تتفق الأدلة الانثروبولوجية مع الأدلة اللغوية ليس من الضروري ان نعد النوعين من الأدلة مضادين ونختار أحدهما دون الآخر: فكل نوع له قيمته الخاصة.

## ٢ - الوحدة الاجتماعية

ماذا نتعلم من الدليل الذي تقدمه اللغة؟ أن الوحدة العرقية وحدها قوة ثانوية ليست ضرورية، في أي حال من الأحوال، للوحدة اللغوية. بيد أن هناك نوعاً آخر من الوحدة - له أهمية أكبر، يتألف من الأواصر الاجتماعية: وهي الوحدة الاجتماعية *ethnisme*. وأعني بذلك الوحدة التي تستند إلى العلاقات المتنوعة للدين والحضارة والدفاع المشترك وغير ذلك، وهذه الوحدة تنبع حتى بين الأمم التي تنتمي إلى أجناس مختلفة، ولا تجمع بينها أصرة سياسية.

تبرز بين الوحدة الاجتماعية واللغة علاقة متبادلة مر ذكرها (المقدمة، الفصل الخامس). وتخلق الأصرة الاجتماعية الوحدة اللغوية وربما تفرض على اللغة المشتركة بعض الصفات الخاصة. ومن جهة أخرى تكون اللغة المشتركة مسؤولة إلى حد ما عن الوحدة العرقية. وعلى العموم تكفي الوحدة العرقية دائماً لتفسير اللغة المشتركة. مثال ذلك، أن الوحدة الاجتماعية الرومانسية في أوائل العصور الوسطى ربطت بين أمم تنتمي إلى أصول مختلفة، مع عدم وجود أصرة سياسية. وكذلك علينا أن نستشير اللغة أولاً، في مسألة الوحدة العرقية، والمعلومات التي تزودها اللغة لها الأسبقية على كل شيء آخر. هذا مثال واحد لذلك. كانت أقوام الاتروسكان تعيش في إيطاليا القديمة جنباً إلى جنب مع الأقوام اللاتينية. فإذا حاولنا أن نحدد العوامل المشتركة بين الأمتين من أجل أن نعود بهما إلى أصل واحد: استطعنا أن نستغل كل ما وصل إلينا منهم (الأبنية الأثرية، والطقوس الدينية، والأنظمة السياسية، وغير ذلك) ومع ذلك نفتقر إلى الضمان الذي تقدمه اللغة في الحال. إذ تكفي ثلاثة أسطر من اللغة الاتروسكية لتبين أن المتكلمين بهذه اللغة ينتمون إلى أمة تتميز عن المجموعة العرقية التي تتكلم اللغة اللاتينية.

اللغة، إذن، وثيقة تأريخية، ضمن الحدود التي ذكرناها. فاللغات الهندية الأوروبية - مثلاً - تؤلف أسرة لغوية، وهذا دليل على وحدة عرقية بدائية تناقلتها الأقوام بصورة مباشرة، تقريباً من خلال الانتماء الاجتماعي لكل أمة تتكلم إحدى هذه اللغات اليوم.

٣ - باليوننتولوجي أو علم الآثار اللغوي قد تسمح لنا الوحدة اللغوية بالتأكد من الوحدة العرقية، ولكن هل تكشف اللغة عن طبيعة هذه الوحدة العرقية المشتركة؟

لقد عُدَّت اللغات مدة طويلة مصدراً لا ينضب للوثائق التي تخص الأمم، التي تتكلم هذه اللغات وتأريخها الغابر ما قبل التاريخ. لقد اشتهر أدولف بكتبه، من رواد الدراسة الكلتية، بكتابه الموسوم بأصول اللغات الهندية الأوروبية (١٨٥٩-١٨٦٣). وعُدَّ كتابه نموذجاً لعدد كبير من الكتب: وما يزال موضع إهتمام عند عدد كبير من القراء. يذهب (بكتبه) إلى اللغات الهندية الأوروبية ليستقي منها المعلومات التي تكشف عن الصفات الأساسية لحضارة «الآريين» ويعتقد أنه يستطيع أن يشخص تفاصيل متنوعة

كثيرة: كالأشياء المادية (الأدوات والأسلحة والحيوانات الأهلية) والحياة الاجتماعية (هل كانوا أقواماً بدواً أم زراعيين؟) والأسرة ونظام الحكم وغيرها. ويحاول أن يشخص مهد الآريين، فيجعله باكتريانا، ويدرس النباتات والحيوانات في البلاد التي سكنوها. وتُعد دراسة بكتبه أهم دراسة من نوعها. والعلم الذي أوجده يسمى باليونتولوجي (علم الآثار اللغوي).

وقد قامت جهود أخرى في الاتجاه ذاته منذ ذلك الوقت. من أحدثها كتاب هيرمان هيرت الموسوم بـ Die Indogermanen (١٩٠٥-١٩٠٧).^(١٢)

لقد اعتمد هيرت في بحثه على نظرية شملت فحاول أن يشخص البلاد التي سكنتها الأقوام الهندية الأوربية. ولكنه لا يقلل من أهمية علم الآثار اللغوي. وقد أظهرت له الحقائق المعجمية أن الأقوام الهندية الأوربية كانوا يشتغلون بالزراعة، وهو يرفض أن يحدد موطن هذه الأقوام في جنوب روسيا، الذي يناسب الأقوام البدوية على نحو أفضل. فكثرة أسماء الأشجار وتكرارها، ولاسيما بعض الأنواع (كالزان والبلوط، السنديان تحمله على الاعتقاد بأن موطن هذه الأقوام كان كثير الشجر وأنه يقع بين جبال هارتز والفستيو لا، وأغلب الظن في منطقة براندنبيرك وبولين.

كما ينبغي أن نذكر أن أولبيرت كوهن وغيره سبقوا بكتبه في استخدام اللغة لإعادة بناء الأساطير والديانة للأقوام الهندية الأوربية.

يبدو لي أن المرء ينبغي أن لا يتوقع من اللغة أن تزودنا بمثل هذه المعلومات للأسباب الآتية: أولاً عدم التأكد من الاتمولوجيا. لقد أدرك العلماء أخيراً قلة الكلمات التي لها أصول مؤكدة، فأصبحوا أكثر حذراً. وهذا مثال للتسرع الذي كان شائعاً في الماضي. قارن العلماء كلمتي servus و servare وربما لم يكن لهم الحق أن يفعلوا ذلك - فأعطوا للكلمة الأولى معنى «مرشد» واستطاعوا بذلك أن يستنتجوا أن العبد كأن يستخدم أول الأمر «حارساً». ثم إن معنى الكلمتين تطور، فمعنى الكلمة كثيراً ما يتغير كلما غيرت قبيلة موطنها. كما أخطأ العلماء حين زعموا أن عدم وجود كلمة ما إنما هو دليل على أن المجتمع البدائي كان يجهل الشيء الذي تشير إليه الكلمة. فكلمة «يحرث» غير موجودة في اللغات الآسيوية، ولكن هذا لا يعني أن الحراثة لم تكن معروفة في البداية عند

(١٢) لاحظ ايضا Les premiers habitants de l'Europe

(١٨٧٧) مؤلفه d'Arbois de Judain ville

Sprachvergleichung und urgeschichte

و Penlexicon der in dogermanischen Alter kums kurde

للمؤلف O.Schrader

(وهذه المؤلفات ظهرت قبل كتاب هيرت بقليل)

و Europa in lichte der vorgeschichte للمؤلف S. Feist (١٩١٠). (بالي).

هؤلاء الأقوام. فمن المحتمل ان الكلمة تركت، أو ان هؤلاء الأقوام كانوا يتبعون أساليب أخرى للزراعة تعرف بأسماء مختلفة.

واحتمال استعارة الكلمات سبب ثالث لعدم التأكد من المسألة. فالشيء الذي يستعار قد يجلب معه اسمه. فعلى سبيل المثال، دخل القنب الى منطقة البحر المتوسط في فترة متأخرة، ودخل الى الأقطار التي الى الشمال منها بعد ذلك: وجاء اسم هذا النبات معه في كل مرة من هذه المرات. فعدم ظهور المعطيات غير اللغوية في كثير من الأحيان لا يسمح لنا بتأكيد ان وجود هذه الكلمة في عدد من اللغات سببه الاستعارة أم انه دليل على مصدر مشترك.

إن نقاط الضعف التي ذكرت، آنفاً، لا تمنعنا من ان نميز بدون تردد، بعض الصفات العامة، بل بعض المعلومات الدقيقة. مثال ذلك، ان الألفاظ المألوفة التي تشير الى القرابة كثيرة وقد تناقلتها العصور بوضوح. وهي تساعدنا على القول بأن الأسرة عند الأقوام الهندية الأوربية كانت نظاماً معقداً مستقراً، إذ باستطاعة لغاتهم التعبير عن معان دقيقة لصلات القرى لا وجود لها في لغاتنا الآن. فكلمة aináteres عند هوميروس تعني «امرأة الأخ» بالنسبة لعدد من زوجات الأخوة، وكلمة golóbi تشير الى الصلة بين الزوجة وأخت الزوج. وتقابل الكلمة اللاتينية janitricas الكلمة الاغريقية eináteres في الشكل والمعنى. وكذلك لـ «زوج الأخت» لفظة غير اللفظة التي تدل على (الصلة بين أزواج عدد من الأخوات). فنستطيع ان نشخص في هذا تفاصيل دقيقة، ولكننا نكتفي عادة بالمعلومات العامة. وينطبق الشيء نفسه على الحيوانات ففي الأجناس المهمة كالأبقار نستطيع ان نعتمد على الاتفاق بين الكلمة الاغريقية boūs والكلمة الألمانية Kuh والكلمة السانسكريتية gau — s، الى آخره، فنعيد بناء الكلمة الهندية الأوربية الأولى s — g₂ ou^(*)، ثم ان إعراب كل كلمة من هذه الكلمات له السمة نفسها في جميع هذه اللغات، وهذا لا يمكن أن يحصل لو ان الكلمة اقتبست من لغة أخرى في تأريخ لاحق.

من المناسب أن نتحدث هنا عن حقيقة صرفية أخرى تتميز بأمرين: فهي تنحصر في منطقة محددة وترتبط بنقطة من نقاط التنظيم الاجتماعي.

ورغم كل ما قيل عن الصلة بين dominus و domus يبدو ان اللغويين غير راضين تماماً، لأن اللاحقة — no — التي تستخدم في الاشتقاقات الثانوية تختلف اختلافاً كبيراً عن المألوف. فلا توجد صيغ مثل oiko — no — s أو oike — no — s مشتقة من oikos في الاغريقية، أو oçva — na من açva في السانسكريتية. ولكن «قلة» وجود مثل هذه الصيغ يعطي اللاحقة في dominus قيمتها وأهميتها. ففي اللغات الجرمانية عدد من الكلمات التي لها أهمية خاصة — على ما اعتقد — في هذا المجال:

١ — pseud — na — z «رأس pseudō، الملك» في الغوطية، و thiodan في السكسونية

القديمة (peudō في الغوطية piuda = في الاوسكان touto «الناس»).

٢ - drux — ti — na — z (تغيرت جزئياً الى drux — ti — na — z) * رأس  
الـ drux — ti — z ، الجيش ، (من هنا جاءت اللفظة المسيحية للسيد ، أي الله) ، لاحظ  
اللفظة النرويجية القديمة Drottinn ، واللفظة الانكلوساكسونية Dryhten ، والكلمتان تنتهيان  
بـ ina — z .

٣ - *kindi — na — z رأس الـ *kindi — z في اللاتينية gens ، ولما كان رأس gens هو  
نائب الحاكم بالنسبة لرأس *beudo . فالكلمة الجرمانية kindins (مفقودة تماماً في النصوص  
الأخرى) يستخدمها اولفيلاس لتسمية الحاكم الروماني فبطريقته الجرمانية في التفكير ،  
كان مفوض الامبراطور رئيس القبيلة بالنسبة للفظه piudans : ومهما كانت هذه الصلة من  
الناحية التأريخية ، فلا شك ان كلمة kindins التي تختلف تماماً عن كل ما هو روماني ، تشير  
الى تقسيم الشعوب الجرمانية الى *kindi — z .

وهكذا عندما تضاف اللاحقة الثانوية — na — الى الأصل (themc) المستمدة من  
الجرمانية الأولى ، يعني «رأس مجتمع معين» . بقي أن نقول ان اللفظة اللاتينية tribūns  
تشير الى «رأس القبيلة tribus» بالطريقة نفسها التي تشير الى piudans الى «رأس piuda» .  
وأخيراً فان dominus يعني رأس domus . والتقسيم الأخير — piuda = touta . ويبدو لي ان  
كلمة dominus التي تنتهي باللاحقة الدالة على المفرد ، دليل قاطع ليس على اللغة المشتركة  
حسب بل على أنظمة مشتركة بين المجموعات العرقية الايطالية والجرمانية .  
وهنا أيضاً لابد أن نقول ان المقارنة بين اللغات قلما تؤدي الى مثل هذه الأدلة  
القاطعة .

#### ٤ - النمط اللغوي وعقل المجموعة الاجتماعية

إذا كانت اللغة لا تزودنا بالمعلومات الدقيقة الصحيحة عن الأنظمة التي  
استخدمها المتكلمون بها ، فهل يمكن للغة ان تحدد مميزات عقل المجموعة الاجتماعية  
التي تتكلم بها ؟ الاعتقاد السائد هو ان اللغة تعكس سايكولوجية الأمة . ولكن الاعتراض  
المهم على هذا الرأي هو ان الأسباب السايكولوجية لا تقف بالضرورة وراء العمليات  
اللغوية .

فاللغات السامية تعبر عن الرابطة بين الاسم الذي يحدد اسماً آخر باستخدام  
الاضافة البسيطة «قارن هذا بالعبارة الفرنسية La parole de Dieu = كلمة الله» .  
صحيح ان الاسم المحدد له شكل خاص يسمى «حالة الاضافة» وهو يسبق الاسم الذي  
يحدده . لنأخذ الكلمتين العبريتين dabar «كلمة» و elóhim^(٦٢) «الله» : فالعبارة datbar' elóhím

(٦٢) ان الرمز (.) يشير الى ألف ، وهو صوت حلقى يشبه الصوت التنفس الدقيق في الاغريقية . (سوسود) .

تعني «كلمة». هل يمكننا القول ان هذا النمط النحوي يكشف شيئاً عن العقلية السامية؟ ان هذا إدعاء طائش، لأن الفرنسية القديمة كانت تستخدم استخداماً منتظماً مثل هذا التركيب: لاحظ le cor Roland «بوق رولان» les quatre fils Aymon «أولاد ايمون الأربعة» الى آخره. ان هذا التركيب ظهر في اللغات الرومانسية عن طريق المصادفة المحضة: المصادفة الصرفية والصوتية: فقد فرض التركيب على اللغة بسبب إلغاء كثير من الحالات الاعرابية. ومن الممكن ان مصادفة مماثلة حدثت في اللغات السامية الأولى وبالطريقة ذاتها. إذن فالحقيقة النحوية التي تبدو وكأنها إحدى الصفات الثابتة لهذه اللغة لا تقدم دليلاً صحيحاً على عقل الساميين.

وهذا مثال آخر ليس في اللغة الهندية الأوربية الأولى كلمات مركبة تبدأ بفعل. أما اللغات الجرمانية ففيها هذه الكلمات (كما في Bethaus، Springbrunnen وغيرهما)، ولكن هذا لا يدل على ان الأقوام الجرمانية غيرت في لحظة من اللحظات أسلوب تفكيرها الذي ورثته من أسلافها. لقد رأينا (الجزء الرابع، الفصل الثاني) ان هذه الحقيقة الجديدة جاءت بسبب المصادفة المادية السلبية، إلغاء الصوت a في betahús فقد حدث كل شيء خارج العقل وفي مجال التغييرات الصوتية، التي فرضت طوقاً شديداً على التفكير ووجهته اتجاهاً معيناً رسمته له الحالة المادية للإشارات. وهناك أمثلة أخرى كثيرة تعزز هذا الاستنتاج.

فالتطبيعية السايكولوجية للمجموعة اللغوية لا أهمية لها بالمقارنة مع حذف الحركة أو تغيير الركة، أو أمور كثيرة مشابهة يمكن في كل لحظة من اللحظات أن تحدث ثورة في العلاقة بين الإشارة والفكرة، في أية صيغة من صيغ اللغة.

من المهم دائماً أن نحدد الطبيعة النحوية للغات (سواء نصل اليها تأريخياً أو باعادة البناء) ونصنف اللغات طبقاً للأساليب التي تستخدمها للتعبير عن الفكر. ولكن حتى بعد أن نتعرف على تركيب اللغات ونصنفها، لا نستطيع ان نتوصل الى استنتاجات صحيحة خارج المجال اللغوي الدقيق.

## الفصل الخامس

### الأسر اللغوية والأنماط اللغوية^(٦٤)

لقد رأينا ان اللغة لا يتحكم فيها مباشرة عقل المتكلمين بها . وفي هذا الفصل الاخير اود أن أوكد احدى نتائج هذا المبدأ : ليس هناك اسرة لغوية تنتمي بصورة مطلقة ودقيقة الى نمط لغوي معين واحد .

ان السؤال عن النمط الذي تنتمي اليه اسرة لغوية يعني اغفال الحقيقة التي تقول ان اللغة تتطور : وهذا ينطوي على القول بوجود عنصر من الاستقرار في التطور . اذن كيف يمكن فرض قيود على فعالية ليس لها مثل هذه القيود ؟

مما لاشك فيه ان كثيرا من الناس يفكرون بصفات اللغة الأصلية عندما يتحدثون عن مميزات اسرة لغوية ، ومشكلتهم هذه لا يصعب حلها طالما يتناولون لغة واحدة . اما اذا زعمنا بوجود صفات ثابتة لا يغيرها الزمن ، او المكان بأي حال من الاحوال ، فأنا نصطدم كليا بالمبادئ الجوهرية لعلم اللغة التطوري . فلا توجد صفة لها حق في الوجود الثابت ، فهي لا تثبت الا بفضل المصادفة المحضة .

لنأخذ الأسرة الهندية الاوربية . فنحن نعرف الصفات المميزة للغة التي تشتق منها . ان نظام الاصوات في اللغة الهندية الاوربية الاولى بسيط جدا . فلا يوجد فيه تجمع معقد للاصوات الصحيحة ، كما لا تجتمع الاصوات الصحيحة المضاعفة : وهذا الاطراد في النظام يؤدي الى تأثير متبادل ، بين العناصر ، منتظم جدا والى بدائل عميقة في القواعد (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الثالث ، والجزء الخامس ، الفصل الثالث) ، ويمكن للركزة القوية tonic accent أن تقع على اي مقطع في الكلمة ، من حيث المبدأ . اذن فله دور في التأثير المتبادل بين تقابلات القواعد ، والايقاع الكمي فيها يستند كليا الى التقابل بين المقاطع الطويلة والقصيرة ، كما يسهل بناء الصيغ المركبة والاشتقاقات . وتكثر النهايات الاعرابية في الاسماء والافعال : وتستقل في الجملة الكلمة المعربة مع اداة التحديد^(٦٥) determiner التي تحتوي عليها ، فهي ، لهذا ، تتمتع بحرية كبيرة في صياغة التراكيب ، وتقلل الى حد كبير عدد الكلمات النحوية التي تحدد القيمة او العلاقة (كالبادئة التي تلحق بالفعل او حرف الجر وغير ذلك) .

من الواضح ان جميع الصفات المذكورة ، آنفاً لم تبق على حالتها الأصلية في

(٦٤) ان هذا الفعل لا يتناول علم اللغة الخاص بتأمل الماضي ومع ذلك فقد أدخل في الجزء الخاص لانه يعد خاتمه للمكتاب كله (بالي) .

(٦٥) ادوات التحديد determiner هي تلك التي تحدد الاسم : كأداة التعريف والاشارة وادوات التملك وغيرها . (المترجم) .



اللغات الهندية الاوربية المختلفة ، وان عددا من هذه الصفات (كدور الايقاع الكمي والركزة القوية) لم يعد لها وجود في بعض لغات المجموعة . بل ان بعض اللغات غير سمات اللغة الهندية الاوربية الاولى الى درجة انها توحى بنمط لغوي مختلف كليا (كاللغة الانكليزية والارمنية والارلندية وغيرها) .

ومن الانسب أن نقول ان ثمة تغييرات معينة تؤثر في اللغات المختلفة التي تنتمي الى أسرة لغوية واحدة . مثال ذلك ، ان الاختفاء التدريجي لاعراب الكلمات انما هو أحد مميزات اللغة الهندية الاوربية ، مع ان هذه اللغات تختلف فيما بينها اختلافا بارزا في بعض الصفات . فاللغات السلافية قاومت بشدة اختفاء الاعراب في حين اختفى الاعراب من الانكليزية حتى كاد يكون صفرا . وحل محله ترتيب ثابت لعناصر الجملة كما حلت الاساليب التحليلية للتعبير محل الاساليب التركيبية ، واصبحت حروف الجر تعبر عن الحالات النحوية . (لاحظ الجزء الثالث ، الفصل الثامن) ، وحلت الأفعال المساعدة محل صيغ الافعال المركبة وغير ذلك .

لقد رأينا ان إحدى صفات اللغة الأصلية قد لا تظهر في بعض اللغات المنحدرة عنها . وعكس ذلك صحيح أيضا فليس غريبا أن نجد ان الصفات المشتركة بين اللغات التي تمثل أسرة واحدة لا تظهر في اللغة الأصلية . وهو ما نلاحظه في تناسق الحركات (أي نوع من الشبه بين جرس حركة كل لاحقة والحركة الأخيرة للجذر) . فهذه الصفة البارزة موجودة في مجموعة اولارال - التياك (وهي مجموعة كبيرة من اللغات ، يتكلم بها الناس في أوربا وآسيا وتمتد من فنلندة حتى منشوريا) وربما جاءت نتيجة تطورات لغوية حدثت في تاريخ لاحق . فتناسق الحركات صفة مشتركة ولكنها ليست صفة أصلية ، اذن لا يمكن ان نستخدمها - كما اننا لا نستطيع ان نستخدم اللصق - للبرهنة على الأصل المشترك لهذه اللغات (وهو أمر مشكوك فيه كثيرا) . كما أننا نعلم ان الصينية لم تكن دائما لغة أحادية المقطع .

إن أول ما يجذب الانتباه عند مقارنة اللغات السامية باللغة الأصلية لها، التي اعيد بناؤها، هو احتفاظ هذه اللغات ببعض الصفات الأصلية. فاللغات السامية - على ما يبدو - تكون فيما بينها نمطا واحدا وهي تفوق في تماسكها بقية الأسر اللغوية. وهي مجموعة ثابتة مستقرة، كل لغة فيها تحتوي على صفات ورثتها عن الأسرة. وفيما يلي الصفات التي تميز اللغة السامية الاولى ، بعضها تتباين كثيرا عن صفات اللغة الهندية الاوربية الاولى. فالكلمات المركبة تكاد لا توجد في هذه المجموعة : والاشتقاقات لها دور ضئيل، كما ان نظام الاعراب لم يتطور كثيرا (وهو اكثر تطورا في اللغة السامية الاولى منه في اللغات المنحدرة منها)، وادى ذلك الى وجود قواعد صارمة تتحكم في ترتيب الكلمات في الجملة . ولكن ابرز صفة في هذه المجموعة هي تلك التي تخص تركيب الجذر (لاحظ

الملحق، الفقرة ٢)، الذي يتألف بانتظام من ثلاثة أصوات صحيحة (كما في ق - ت - ل) . وقد بقيت هذه الاصوات، على نحو ما، في كل لغة من لغات المجموعة (لاحظ في العبرية qitli, qtól, qállá, qátal الى آخره)، ولا تتغير من لغة الى أخرى (لاحظ في العربية قُتل، قُتل الى آخره). وبعبارة أخرى، تعبر الاصوات الصحيحة عن «الدلالة الملموسة» او القيمة المعجمية للكلمة، اما الحركات فتقوم - بمساعدة بعض البادئات واللاحقات، بالطبع - بوظيفة واحدة فقط وهي التعبير عن القيم النحوية عن طريق التأثير المتبادل بين البدائل (كما في qátal = قتل، qtól = قتل، وبإضافة اللاحقة -ú - qtal «قتلوا»، والبادئة qtl - jí «يقتل»، واللاحقة والبادئة -ú - qtl - jí «يقتلوا» الى آخره).

ولكننا ينبغي أن ندافع عن المبدأ الذي ذكرناه رغم الحقائق التي مر ذكرها والاستنتاجات المستمدة منها : المبدأ القائل بعدم وجود صفات لا تتغير. فالثبات يعود الى المصادفة حسب. فكل صفة يصونها الزمن قد تختفي مع الزمن. ولنعد الى اللغات السامية. نجد ان «قانون» الجذر الثلاثي ليس في الحقيقة من مميزات الاسرة السامية، طالما ان ظواهر مشابهة لها تظهر في أسر أخرى. ففي اللغة الهندية الاوربية الاولى قوانين صارمة تتحكم بتركيب الاصوات الصحيحة للجذر. مثال ذلك، صوتان من المجموعة n, m, l, r, u, i لا يقعان أبداً بعد الصوت e : فجذر مثل *serl لا وجود له في هذه الأسرة اما وظيفة الحركات في اللغات السامية فتلقي ضوءاً أكثر على المسألة . فاللغات الهندية الاوربية لها نظام صارم من الحركات ولكنه أقل غنى من نظام الحركات في المجموعة السامية. فأمثلة التقابل كما في الكلمات العبرية datar «كلمة» dbar - im «كلمات». dibré - hem «كلماتهم» الى آخره تذكرنا بالتقابل في الكلمات الالمانية floss : fliesen , Gäste : Gast . الى آخره. فتكون العملية النحوية في كلتا الحالتين شيئاً واحداً إذ إن التغييرات الصوتية الناتجة عن التطور الأعمى تؤدي الى ظهور البدائل . فيتمسك العقل بهذه البدائل ويضفي عليها قيمة نحوية، ثم يعممها عن طريق استخدام النماذج القياسية التي توفرها التطورات الصوتية الطارئة. ان ثبات الجذر الثلاثي في اللغات السامية ما هو الا قاعدة عامة، وليست قاعدة دقيقة تنطبق على كل حالة. فهذه مسألة نستطيع التأكد منها سلفاً، ويمكن دعم رأينا بالحقائق. ففي العبرية، مثلاً، نجد ان جذر الكلمة anás - im «رجال» ثلاثي كما هو متوقع، ولكن المفرد يتألف من صوتين (ثنائي) : is، لان هذه صيغة مختزلة من الصيغة الثلاثية القديمة. فحتى اذا اتفقنا ان الجذور السامية شبه ثابتة لا تتغير فأن هذا لا يعني أن هذه صفة موروثة في هذه الجذور. بل يعني ان اللغات السامية مرت بتغييرات صوتية أقل من لغات كثيرة أخرى، وان اللغات السامية احتفظت بالاصوات الصحيحة باسلوب أفضل من اللغات الاخرى. فهذه مسألة التطور والاصوات، وليست مسألة القواعد أو عدم التغيير. فالقول بأن الجذور

لا تتغير يعني انها لم تشهد أي تغيير صوتي ، ليس إلا. ولا يمكن أن تضمن انها لن تتغير ابدا. وعلى العموم فكل ما يفعله الزمن يمكن ان ينقضه الزمن او يغيره.

لقد ادركنا الآن أن شلايشر اخطأ حين نظر الى اللغة على انها شيء عضوي لها قوانينها الخاصة بالتطور، ولكننا نستمر في محاولتنا لكي نجعل من اللغة شيئا عضويا بمفهوم آخر، فنزعم ان «عبقرية» قوم او مجموعة عرقية كثيرا ما تقود اللغة الى سبل محددة ثابتة.

يبرز درس واحد من كل هذه الغزوات التي قمنا بها داخل منطقة الحدود لعلفنا. وهو درس سلبي في مجمله، ولكنه، مع ذلك، مهم لانه يتفق وفكرة هذا الكتاب : وهو أن الهدف الحقيقي الوحيد لعلم اللغة هو أن اللغة تدرس في حد ذاتها ومن أجل ذاتها.



## هوامش المراجع

. هامش ١٥ (لباسكن) راجع ص ٥٣

الصوت المجهور Voiced هو الصوت الذي يهتز ، في أثناء النطق به ، الوتران الصوتيان ، الموجودان في الحنجرة . ويكون الصوت المجهور ذا نغمة واضحة ، ومن أمثلته في العربية صوت الزاي . وفي التحليل الصوتي تقابل الأصوات المجهورة الأصوات المهموسة voiceless التي لا يصاحبها ، في أثناء النطق بها ، توتر أو اهتزاز في الوترين الصوتيين . وتكون نغمتها خافتة . ومن أمثلتها في العربية صوت السين .

. هامش ١٦ (للمؤلف) راجع ص ٥٣

تعني «الوحدة الصوتية» أو «الفونيم» صوتاً يفترق ، بخاصية أو أكثر ، عن غيره ، في النظام الصوتي ، للغة ما ، لتحويل المعنى . وإلا كانت الفروق نوعاً من التنوع الصوتي داخل فونيم واحد . ومثال ذلك «طاء» و«تاء» في النظام الصوتي العربي . فهما فونيمان متطابقان في جميع الصفات :

مهموسان / انفجاريان / ذوا مخرج واحد (أسناني - لثوي) غير أنهما يختلفان في صفة واحدة ، هي صفة التفضيم (الاطباق) لك «طاء» والترقيق (الانفتاح) لك «تاء» . ومن أجل هذا يتحول المعنى في كلمة «طاب» حين نستبدل «الطاء» ب«التاء» فنقول : «تاب» وهكذا . ولكن هذا ليس مبدءاً عاماً ، إذ أننا نلاحظ أن اللام المخففة والمرفقة في العربية ليستا إلا فونيماً واحداً ، إذ لا فرق في المعنى بين .

واه (لام مخففة)

باه (لام مرفقة) .

. هامش ٢٧ (للمترجم) راجع ص ٨٨

عرض «ابن جني» في الخصائص / ج ١ / للعلاقة بين (الدال والمدلول) في الكلمة وجعل مافية هذه العلاقة ، قائمة في جذورها على (اللا اعتبارية) قال : «ذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كصوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الصغار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي .. ثم ولدت اللغات ، عن ذلك ، فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ومذهب مقبل ، انتهى . ولعل إشارته «ثم ولدت اللغات من ذلك فما بعد» تنجح إلى التطبيق مع المبدأ الذي يقرره دي سوسور هاهنا : من أن الكلمات تقلد شيئاً من صفتها الأولى لكي تكسب الصفة العامة للإشارة اللغوية ، وهي صفة الاعتبارية ، أو انعدام الصلة الطبيعية .

. هامش ٢٩ (لباسكن) راجع ص ٩٣

لعل دي سوسور يشير هاهنا إلى أن التغييرات في الظواهر الاجتماعية بطيئة جداً مقارنة بالتبدلات الفردية . لأن التبدل في المجتمع يحتاج إلى توافق عام لكي يتحقق ، على العكس من الخصائص «الفردية» إذ يلاحظ التغير فيها بين ليلة وضحاها . وهذا المبدأ يمكن تطبيقه على اللغة تطبيقاً صارماً بوصف اللغة ظاهرة اجتماعية كاملة ، على العكس من الظواهر الاجتماعية الأخرى التي تكون أقل كموناً . كما أننا نلاحظ هاهنا أن ذلك الأمر أي (الضمول) و(النشاط) يجتمع في اللغة نفسها ، من حيث النظر إلى تراكيبها ومفرداتها . فالتركيب ، وهو «مجتمع» الكلمات ، خامل لا يتغير إلا في قرون تغيراً بسيطاً أما أفراد هذا المجتمع - الكلمات - فعرضة للتغير النشط .

. هامش ٣٢ (للمترجم) راجع ص ١٢٥

لعل من المفيد هنا أن نذكر أن اللغات تختلف من جهة نموها . فالعربية ، وهي من أسرة اللغات الجزرية أو السامية ، تنمو داخلياً . فأصول الكلمة العربية ك ، ت ، ب و ك ت ب و ك ا ت ب و ك ا ت ب واستكَّتَب ... إلى آخره ونلاحظ أن دورة التكاثر تتم داخل الأصول . ومن هنا يكون تمييز الأصل والاضافات أشد تعقيداً في العربية منه في اللغات التي تنتمي إلى أسرة اللغات الهندوأوروبية ، التي تتميز بنموها الخارجي ، باعتماد السوابق واللواحق .

. هامش ٣٩ (للمترجم) راجع ص ١٤٧

درس النحاة العرب هذه القضية تحت باب «التقدير» وقد ناقش الدكتور نهاد الموسى في كتابه : نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر الحديث لجوء النحويين العرب إلى التقدير ضبطاً للعلاقة بين «براني» الكلام ، والأصول التي تنتظم بنيته عندهم . ومن هنا لا تبدو هذه الوحدات مستقلة إلا على السطح ، في حين تكون في العمق على علاقات سنناتومية بالوحدات الأخرى المقدره .

يتبين الفرق بين جملتي «جاء علي» و «علي جاء» في العربية بالنظر الى المعنى الذي يترشح عن كل جملة ففي الجملة الاولى يكون المعنى متسلطاً على الحدث : أي جاء علي ولم يضطك أو لم يشرب ... الخ .  
أما في الجملة الثانية فالمعنى يكون متسلطاً على الذات : أي علي وليس زيداً أو عمراً ... الخ ويمكن أن تقترب من المعنى الذي يريده المؤلف بإيراد مثل آخر وهو قولنا «نجح من درس» و «من درس نجح» إذ تكون (من) الاولى موصولة والناجح شخص بعينه ، وتكون من الثانية «شرطية» والناجح الداخل من الجنس كله في هذه الصفة ، أي صفة الدراسة .

## فهرس المصطلحات

### واسماء الاعلام

- ١ -

International Phonetic Alphabet (IPA)	الابجدية الصوتية الدولية
International Phonetic Association	الاتحاد الدولي لعلم الصوت
Etruscan Language	الأتروسكانية (لغة) (اللغة التي تكلمها اقوام عاشوا في شمال وسط ايطاليا منذ القرن الثامن ق.م الى الرابع الميلادي)
etymology	اتمولوجيا (اصول الكلمة)
folk etymology	الانمولوجيا الشعبية
false etymology	الانمولوجيا الكاذبة
Attica	اتيكا (منطقة اثينا في اليونان القديم)
Attic dialect	الاتيكية (اللهجة)
ethnography	اثنوكرافيا (دراسة الاجناس البشرية)
ethnology	اثنولوجيا (علم السلالات البشرية)
fricative	احتكاكي
affricate	احتكاكي انفجاري
Achaemenian	الآخمينية (لغة فارسية قديمة يرجع تاريخها الى القرن السابع ق.م)
determiner	اداة التحديد
ablative case	الادارة (حالة)
	لادارة حالة المنشأ . حالة للاسم في اللغة السانسكريتية عندما يكون الاسم مستو
syncope	ادغام
idiosyncronic	ايدوسنكرونني
	اربين
theme	اساس
ablaut	استبدال الحركة
borrowing	استعارة
substitution	استعاضة
	استقراء (طريقة)
mythology	اسطورة
noun	اسم
sion	اشارة
semiology	اشارات (علم)
Linguistic Sign	اشارة لغوية
Indicative	اشاري
bond	آصرة

radical	اصل جذر
etymology	اصول الكلمة (اتمولوجيا)
	اطلس لغوي
reconstruction	اعادة بناء
inflection	اعراب (نهاية الكلمة)
Greek	اغريق
the Greek Language	الاغريقية (اللغة)
aphasia	افشيا (فقدان القدرة على الكلام والفهم)
	اقليلية (فردية)
agrepbia	اكريفيا (فقدان القدرة على الكتابة)
The Elbe	الب (نهر كبير في الجزء الشرقي من المانيا)
Albanian	البانية (اللغة)
alphabet	الفباء . الابجدية
German	المانية
	الالمانية السفلى
	الالمانية العليا
Old High German	الالمانية القديمة العليا
mother language	ام (اللغة الام)
Umlaut	امالة
geographical spreading	انتشار جغرافي
anthropology	انثروبولوجيا (علم المجتمعات البشرية)
humanities	انسانيات
humanist	الانسانيات (عالم)
Vocalic impression	انطباع حركي أو صائتي
closure	انغلاق
explosives	انفجارية خارجية (اصوات)
implosives	انفجارية داخلية (اصوات)
The Anglo-saxon (language)	انكلوساكسونية (اللغة)
	(اللغة الانكليزية قبل الغزو النورماني في ١٠٦٦ م)
Oral-Altáic	اورال - التياك (أسرة لغوية)
H. Osthoff	اوستوف
Oscan	اوسكان (لهجة) (احدى اللهجات الايطالية القديمة
	في منطقة كامبانيا)
Aufrecht	اوفرخت
August Schleicher	اوگست شلايشر
Ulfilas	ولفيلامس (٢١١م - ٢٨٢م . كاهن ورسول المسيحية الى اقوام
	القوط بفضل ترجمته للكتاب المقدس الى القوطية)
associative	ايحاثية . اقترانية

rhythm	إيقاع
quantitative rhythm	إيقاع كمي
Ile de France	أيل دي فرانس (منطقة فرنسية قديمة تحيط بها أنهار السين والمارن وبوفرون والواس ونونت)
Ionian	الأيونية (لهجة أيونا القديمة في القطاع الوسط من آسيا الصغرى)

## - ب -

pathology	باثولوجي ، علم الأمراض
prefix	بادئة
paraplasme	بارابلازم (كلمة جديدة تحل محل كلمة قديمة)
Basque	باسك (مقاطعة)
Bactriana	باكترينا
Balto	باليونتولوجي (علم الآثار اللغوي) بانتو
metre	بحر (شعري)
alternative	بديل (بدائل)
Brandenburg	براندنبيرك
Brest	برست
provençal	بروفانسي (منسوب إلى مقاطعة بروفانس في فرنسا أو إلى شعبها أو لغتها)
Broca	بروكا
Brugmann	بروكمان
W. Braune	برون
Breton	بريتونية (لغة)
A. pictet	بكتيه
Bulgarian	بلغارية
Plautus	بلوتوتس
construction	بناء
Benfy	بنفي
BBopp (Franz)	بوب
pott	بوت
(La Grammaire de port-Royal)	بورت رويال (نحو)
Paul (H)	بول
Poland	بولندا
Polish	بولونية (اللغة)
pompeii	بومباي
	هيميا
Berthelot	بيرتيلو
	بيكاردي



history	تاريخ
Literary History	تأريخ الادب
political history	التاريخ السياسي
Linguistic history	التاريخ اللغوي
retrospective	تأمل (يتأمل او يستعيد الماضي)
alternation	تبديل
Tatar	تتر
abstract	تجريدي
analysis	تحليل
subjective analysis	تحليل ذاتي
objective analysis	تحليل موضوعي
transformation	تحويل
alternation	تداول
structure	تركيب
Trombetti	ترومبيتي
declension	تصريف
diminutive	تصغيري (اداة ، صيغة او اسم تصغير)
identity	تماثل ، تطابق
mutability, change	تغيير
sound change	تغيير صوتي
Umlaut	تغير في الصائت
differential	تفاضلية
superlative	تفضيل من الدرجة الثالثة
comparative	تفضيل من الدرجة الثانية (مقارن)
opposition	تقابل
syllabification	تقسيم الى مقاطع
tradition	تقليد (عرف)
oral tradition	تقليد (عرف) شفهي
pantomime	تمثيل صامت
vocal harmony	تناسق الحركات أو الاصوات
aspirated	تنفسي
unaspirated	(غير تنفسي)
variation	تنويع
concordance	توافق

- ث -

static .....	ثابت
Static Linguistics .....	(علم اللغة الثابت)
immutability .....	ثبوت
culture .....	ثقافة
dualities .....	ثنائيات
inner duality .....	ثنائية داخلية
phonetic doublet .....	ثنائية صوتية

- ج -

Charles Morris .....	جارلس موريس
lateral (sound) .....	جانبي (صوت)
root .....	جذر
genitive .....	جراو اضافة (حالة)
timbre .....	جرس (صوتي)
proto-Germamic .....	الجرمامية الاولى (اللغات)
Chilperic .....	جلبريك
plural .....	جمع
pun .....	جناس
Geneva .....	جنيف
vocal apparatus .....	جهاز النطق
Gillieron .....	جيليرون

- ح -

case .....	حالة
ablative case .....	حالة المنشأ
genitive case .....	حالة الجراو الاضافة
nominative case .....	حالة الرفع
dative .....	حالة المفعول غير المباشر
vocal cords .....	الحيال الصوتية
discourse .....	حديث
particle .....	حرف . اداة
preposition .....	حرف الجر
phonological alphabet .....	(حروف الهجاء الصوتية (الفباء الصوتية)
vowel .....	حركة

vocalic system	(نظام الحركات)
diphthong	حركة ثنائية
ascending diphthong	حركة ثنائية صاعدة
weak vowel	حركة ضعيفة
long vowel	حركة طويلة
short vowel	حركة قصيرة
whispered vowel	حركة الهمس . صوت موشوش
guttural (velar)	حلقى
larynx	حنجرة
laryngeal	حنجري
velar	حنكى رخو

### - خ -

isothermes	خطوط الحرارة
isoglosses (isogloss lines)	خطوط اللهجات
linear	خطية

### - د -

signifier	دال
visual signifier	دال بصري
auditory signifier	دال سمعي
speaking — circuit	دائرة كلامية
Danube	دانوب
diachronic	دايكروني ، تاريخي
diachrony	دايكرونية ، تطور تاريخي
study	دراسة
Germanic studies	دراسات جرمانية
comparative studies	دراسات مقارنة
ethnography	دراسة السلالات البشرية . الانثربولوجيا الوصفية
beat	دقة ايقاعية
Semantics	دلالة (علم)
signification	دلالة
Dobruja	دوبروجا
Diaz	دياز

- ر -

Rhine	راين
Ritschl	رتشل
nominative	رفع (حالة)
accent	ركزة . لهجة
tonic accent	ركزة قوية . لهجة منورة
syllabic accent	ركزة مقطعية . لهجة مقطعية
symbol	رمز
graphicsymbol	رمز كتابي
vibration	رنة (اهتزاز .ذبذبة)
vibration of sound	رنة صوتية . ذبذبة صوتية
resonance	رنين
nasal resonance	رنين انفي
Co — ordinates	روابط
Roland	رولان
romance	رومانس
Rcmance Languages	الرومانسية (اللغات)
Rumanian	رومانية (اللغة)
Rig veda	ريك فيدا

- ز -

zend	زندية (اللغة)
------	---------------

- س -

liquid	سلسلة (اصوات)
con sonants	ساكنة (اصوات)
saleve	ساليف
semities	ساميون
sanskrit	سانسكريتية (اللغة)
psychophysical	سايكوفيزياوى (نفساني فيزياوى)
psychology	سايكولوجي (علم النفس)
slavonic	سلافونية
Old slavie	السلافية القديمة
chain	سلسلة
phonic chain	سلسلة صوتية
a chain of sounds	سلسلة اصوات

spoken chain	سلسلة منطوقة
collective behaviour	سلوك جماعي
auditory	سمعي
syntagm	سنتاغم
synohronic	سنكرونى (تزامنى)
synchroony	سنكرونية . تزامن
dental	سنى (صوت) السوابية (الاقوام)
suomi	سومى (لغة)
context	سياق
sievers, E	سيفرز

### - ش -

semi — vowel	شبه حركة
sonority	شدة الصوت
code	شفرة . رموز الاتصال
the language code	الشفرة اللغوية . الرمز اللغوي
labials	شفوية (اصوات)
labio — dentals	شفوية سنية
schmidt, J.	شميت

### - ص -

sonant	صائت (صوت)
serbian	صربية (اللغة)
morphology	صرف (علم) (مورفولوجيا)
class	صنف
sound	صوت
sound physiology	(فسلجة الاصوات)
trilled	صوت تكرارى . صوت مررد
vibrant	صوت متذبذب
consnant	صوت صحيح
occlusive	صوت الغلق
phonation	صوتية (عملية) . تصويت
acoustic	صوتية - سمعية (اكوسية)
sound image	صورة صوتية
word — formation	صياغة الكلمة
tense	صيغة زمنية

- ط -

rites .....	طقوس
symbolic rites .....	طقوس رمزية
Italic .....	الاطليانية (اللغة)
Topography .....	طوبوغرافيا (علم تضاريس الارض)

- ظ -

dorsal .....	ظهيرية (راء ظهيرية او معتمة)
--------------	------------------------------

- ع -

a family of languages .....	أسرة لغوية
locution .....	عبارة شائعة
Hebrew .....	العبرية (اللغة)
Arabic .....	العربية (اللغة)
convention .....	عرف
era .....	عصر
vocal organs .....	عضو (اعضاء) النطق
sociology .....	علم الاجتماع
semiology .....	علم الاشارات
The Science of Language — states .....	علم حالات اللغة
ethnology .....	علم السلالات البشرية
semiology .....	علم الاشارات
phonetics .....	علم الصوت
phonemics .....	علم الاصوات المتميزة
Linguistics .....	علم اللغة
Historical Linguistics .....	علم اللغة التاريخي
static Linguistics .....	علم اللغة الثابت
Geographical Linguistics .....	علم اللغة الجغرافي
External linguistics .....	علم اللغة الخارجي
internal Linguistics .....	علم اللغة الداخلي
Diachronic Linguistics .....	علم اللغة الدايكروني
Synchronic linguistics .....	علم اللغة السنكروني
Linguistics of Speaking .....	علم لغة الكلام
Evolutionary Linguistics .....	علم اللغة المتطور
Indo — European Linguistics .....	علم اللغات الهندية - الاوربية

علم اللهجات	
علم ما قبل التاريخ	prehistory
علم المجتمعات البشرية (انثروبولوجيا)	anthropology
علم النفس (سايكولوجي)	psychology
علم النفس الاجتماعي	social psychology
علم النفس العام	General psychology
العملية السمعية	audition
عموم الزمن	panchronic
عنصر	element
عناصر أصلية	original elements
عناصر خارجية	external elements
عناصر داخلية	intenal elements
عناصر مكونة	formatives

## - غ -

غوطية	gothic
غير المكتمل	imperfect

## - ف -

فاصلة . التقاء حرفين أو صوتين	hiatus
فتحة	aperature
فرانكونيا	Franconia
فرد	individual
فردريك (او كست ولف)	Friedrich August wolf
فردوسي	Firdausi
فرنر	Verner
الفرنسية (اللغة)	French
فستيولا	Vistula
فسلجة	Physiology
الفصيحة (اللغة)	standard language
فصيلة	species
فعل	verb
فعل الكلام (افعال الكلام)	act(s) of speaking
فعل النطق	articulatory act
فقه اللغة (فيلولوجيا)	philology
فقه اللغة الكلاسي	Classical Philology

Comparative philology	فقه اللغة التاريخي المقارن
Fliming (Flimish adj.)	فليمشك
wenker	فنكر
Finish	فنلندية (اللغة)
phonology	فونولوجي (النظام الصوتي)
phoneme	فونيم ، أصغر وحدة صوتية للتفريق بين المعاني
Finno — Ugric	فينوراوكرينك
Phoenician	فينيقية

## - ق -

rhyme	قافية
Carthage	قرطاجنة
vocalic peak	قمة صوتية
Grammar	قواعد
analogy	قياس
value	قيمة

## - ك -

Caston paris	كاستون باريس
Kaffirs	كافير (قبائل)
Calabria	كالابريا
Gaelic	الكالية (اللغة)
Campania	كامبانيا
latent	كامن
writing	كتابة
orthography, system of writing	(نظام الكتابة)
phonic writing	الكتابة (النظام الصوتي للكتابة)
phonological writing	الكتابة الصوتية
ideography	الكتابة الصورية
Jacob Grimm	كريم (باكوب)
	كلام
speaking circuit	كلامية (دائرة)
celts	كلت (اقوام في اوربا الغربية)
Celtic	الكتية (اللغة)
onomatopoeia	كلمة توحى بمعناها . تسمية محاكية
quantitative	كمي



Courland	كورلاند
Kuhn (Adalbert)	كون (ادلبرت)
entity	كيان
G. Curtius	كيرتيسي (جي)
Gillieron	كيليرون

## - ل -

latin	لاب (لغة)
Latin	اللاتينية
Vulgar Latin	اللاتينية العامية
Suffix	لاحقة
Lactantius	لاكتانتيوس
litre	لترية
Lithuania	لثوانيا
Lithuanian	اللثوانية (اللغة)
alveolar ridge	اللثة (جدار اللثة)
language (speech)	اللسان
oral speech	اللسان الشفوي
glottis	لسان المزمار
written speech	اللسان المكتوب
agglutination	لصلق
Language (Langue)	لغة
Javanese	لغة جاوا
Attic Greek	اللغة الاغريقية لاتيكا
prototype (language)	لغة الأصل
linguist	لغوي (عالم لغوي)
interrogation	لفظة استفهام أو استنطاق
uvula	اللهاة
dialect	لهجة
	(علم اللهجات)
regional dialect	اللهجة الاقليمية
local dialect	لهجة محلية
Lambrdy	لومبارديا
Lettish	ليتش (لغة)
Leskien	ليسكين
Ligurian	ليغوريان
Livonia	ليفونيا
Liege	لييج

max muller	ماكس مولر
prospective	متطلع الى المستقبل
combinatory	مترابطة
society (community)	مجتمع
linguistic society	مجتمع لغوي
voiced	مجهور
motivated	محفز
the axis of succession	محور التعاقب
the axis of simultaneities	محور التوافق
enviornment	محيط (بيئة)
brain	مخ
signified	مدلول
rounded (lips)	مدورة (شفة)
synonym	مرادف
synthesis	مركب في تكوينه
stressed	مشدد
infinitive	مصدر
double	مضاعف
lexicology	معجم (علم)
lexicological	معجمي
data	معطيات
normative	معياري
Normative Grammar	(النحو المعياري)
closed	مغلق (صوت)
open	مفتوح
singular	مفرد
vocabulary	مفردات اللغة
dative	مفعول غير مباشر (حالة)
concept	مفهوم
Macedonai	مقدونيا
syllable	مقطع
Ionic syllable	مقطع قوي
constituent	مكوّن
faculty	مادة
receptive faculty	ملكة الاستقبال
co — ordianation faculty	ملكة التنسيق
faculty of speech	ملكة الكلام

concrete	لملموس
characteristics	مميزات . سمات
Permanent characteristics	مميزات ثابتة
logic	منطق (علم)
voiceless	مهموس (صوت)
wave	موجة
innovating wave	موجة التجديد
sound wave	موجة صوتية
Mordivian	سورديفيا (لغة)
Metaplasma	ميتابلازم (تغيير الكلمة عن طريق حذف او اضافة حروف او تغيير موضع الحروف فيها)
Thuringian charter	ميثاق ثورنجيا
meillet	ميله

## - ن -

Nyrop	نايروب
1) Grammar 2) Syntax	نحو
Classical Grammar	النحو الكلاسي
neo grammarians (Junggrammatiker)	النحويون المتأخرون أو الجدد
old Norse	النرويجية القديمة
accusative	نحو المفعولية
articulation	نطق
(1) articulation (2) articulus	النطق في الفم
system	نظام
vocalic system	نظام الحركات
phonology	النظام الصوتي (فونولوجي)
idiosyncratic	نظام فردي . خصوصية فردية
criticism	نقد
philological criticism	نقد فيلولوجي (يخص التطور التاريخي للغة)
prototype	نمط اولي . النموذج الاصلي
Norman Conquest	نورمانى (الغزو النورمانى لانكلترا في عام ١٠٦٦م)
Numidian	النوميدي (اللغة)

- ه -

Hartz	هارتز
Hansentic League	هانسييتك (عصبة)
Indian (L.)	هندية (اللغة)
Indo — European	الهندية الاوربية
Homer	هومبروس
Hermann Hirt	هيرمان هيرت
Hellenic dialects	هيلينية (لهجات)

- و -

walloon	والون (مقاطعة في بلجيكا)
unit	وحدة
ethnic unity	الوحدة العرقية
middle consonants	وسطى (السواكن الوسطى)
sistant, hold	وقفة
william Jones	وليم جونز
Jutland	يوتلاند (جوتلاند)
Johannes Schmidt	يوهانس شميت



## الفهرست

٣	مقدمة المترجم
٥	مقدمة الطبعة الاولى
٨	مقدمة الطبعة الثانية والثالثة
٩	مقدمة المراجع
١٩	الفصل الاول نظرة سريعة الى تاريخ علم اللغة
٢٤	الفصل الثاني: موضوع علم اللغة ومجاله
٢٦	الفصل الثالث: هدف علم اللغة
٣٧	الفصل الرابع: علم اللغة وعلم لغة الكلام
٣٩	الفصل الخامس: العناصر الداخلية والخارجية للغة
٤٢	الفصل السادس: الصورة الكتابية للغة
٥١	الفصل السابع: النظام الصوتي (فونولوجي)
٥٦	الملحق: مبادئ النظام الصوتي (الفصل الاول)
٦٨	الفصل الثاني: الفونيمات في السلسلة الكلامية
٨٣	الجزء الاول (مبادئ عامة)
٨٤	الفصل الاول: طبيعة الاشارة اللغوية
٩٠	الفصل الثاني: صفة الثبوت والتغيير في الاشارة
٩٨	الفصل الثالث: علم اللغة الثابت والمتطور
١٠٨	الجزء الثاني (علم اللغة السنكروني)
١٢٠	الفصل الاول: مبادئ عامة
١٢٣	الفصل الثاني: الكيانات الملموسة للغة
١٢٧	الفصل الثالث: التطابق اللغوي والحقائق الواقعية والقيم
١٣١	الفصل الرابع: القيمة اللغوية
١٤٢	الفصل الخامس: العلاقات السنتاكتمية والايحائية
١٤٧	الفصل السادس: جهاز اللغة
١٥٤	الفصل السابع: القواعد واقسامها
١٥٧	الفصل الثامن: دور الكيانات المجردة في القواعد
١٦١	الجزء الثالث (علم اللغة الدايكروني)
١٦٣	الفصل الاول: مبادئ عامة
١٦٧	الفصل الثاني: التغييرات الصوتية
١٧٦	الفصل الثالث: التطور الصوتي واثره في القواعد

١٨٤	الفصل الرابع: القياس
١٩١	الفصل الخامس: القياس والتطور
١٩٦	الفصل السادس: الأصول الشعبية للكلمات
١٩٩	الفصل السابع: اللحن
٢٠٢	الفصل الثامن: الوحدات الزمنية والتطابق والحقائق الواقعية
٢٠٦	لحق بالجزء الثالث والرابع
٢١٢	جزء الرابع (علم اللغة الجغرافي)
٢١٤	الفصل الاول: في تنوع اللغات
٢١٦	الفصل الثاني: التعقيد في التنوع الجغرافي
٢١٩	الفصل الثالث: اسباب التنوع الجغرافي
٢٢٧	الفصل الرابع: انتشار الموجات اللغوية
٢٣٣	الجزء الخامس (في علم اللغة المختص يتامل الملفي)
٢٣٤	الفصل الاول
٢٣٧	الفصل الثاني: اللغة الاقدم واللغة الام
٢٤٠	الفصل الثالث: اعادة البناء
٢٤٤	الفصل الرابع: اسهام اللغة في علم المجتمعات البشرية
٢٥٠	الفصل الخامس: الاسر اللغوية والانماط اللغوية
٢٥٤	هوامش المراجع
٢٥٦	فهرس المصطلحات واسماء الاعلام

رقم الايداع ٧٣١ في المكتبة الوطنية ببغداد لسنة ١٩٨٥



### هذا الكتاب

يعد كتاب «علم اللغة العام» وهو في الاصل «محاضرات في علم اللغة العام» الانجاز الاول الذي تمثلت فيه انقلا بية البحث اللغوي من مسارها التاريخي الى اتجاهها الوصفي البنائي. وينأى مؤلفه - العالم اللغوي السويسري فردينان دي سوسور - عن المنحى التطبيقي ليقدم مبادئ في علم اللغة، وهو بهذا يجهز القارئ بمفاتيح تجعله يتغلغل في قلب اللغة، وتشير عناوين الكتاب الى سلسلة من الثنائيات اي التقابلات: اللغة والكلام، التاريخي والوظيفي، الأصوات، والأصوات اللغوية، علم اللغة الداخلي، وعلم اللغة الخارجي.. لقد فتح سوسور شهية معاصريه ولاحقيه.. فتأسست على صرحه اتجاهات علم اللغة المعاصر.

### الكتاب القادم

#### مبادئ الصحافة في عالم المتغيرات

تأليف: عزيز السيد جاسم